جورج كونتينو

الحياة اليومية في بلاد بابل و آشور



ترجمة

سليم طه التكريتي

دار الشؤون الثقافية العامة

وزارة الثقافة والإعلام

١٩٨٦

دار الشؤون الثقافية العامة

العنوان . العراق ـ بغداد ـ اعظمية

ص. ب ٤٠٣٢ تلكس ٢١٤١٣ هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

الطبعة الثانية
١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

الحياة اليومية
في بلاد بابل وآشور

تأليف

جورج كونتينو

ترجمة وتعليق

سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي

كلمة المترجمين

هذا الكتاب الذي نقدمه الى القارىء ، والذى تولت وزارة الثقافة والاعلام مشكورة ، طبعه ونشره ، من أهم الكتب التي صدرت حتى الان عن مختلف نواحي الحياة العامة في العراق في تاريخه القديم الذى يعود الى بضعة آلاف من السنين •

وعلى كثرة ما نشر من كتب ودراسات مسهبة تناولت بزوغ فجر الحضارة في بلاد الرافدين ، سواء في عهد السومريين والاكديين ام في عهود البابليين والاشوريين ، فان هذا الكتاب يتميز على تلك المؤلفات بشموليته ، لانه يصف الحياة اليومية التي كانت سائدة في بلاد الرافدين وصفاً دقيقاً ويعطي صورة واضحة المعالم لكل ما كان سكان الرافدين يمارسونه من اعمال ، ويبتدعونه من أفكار ، ويتحسسون به من مشاعر وأحاسيس •

اما مؤلف الكتاب « جورج كونتينو » فهو من مشاهير الاثاريين الفرنسيين والباحثين في تأريخ الشرق القديم والعراق بصفة خاصة ، ولا سيما النواحي النفسية منها ، وله مؤلفات في هذا المضمار •

اننا اذ نكرر الشكر الجزيل لوزارة الثقافة والاعلام نأمل أن لا نكون عند حسن ظن القارىء ، وان يحفزنا التشجيع الذي نلقاه الى تقديم نتاجات علمية وفكرية اخرى لا تقل قيمة واثرا عن هذا الكتاب •

المترجمان

سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي

١٩٧٨/٤/١

مقدمة المؤلف

استمرت مدنية بلاد الرافدين منذ اوائل بداياتها في حدود سنة ٢٩٠٠ قبل الميلاد حتى غزو الاسكندر الكبير سنة ٣٣٠ قبل الميلاد ، قرابة ستة وعشرين قرناً .

ان عبارة مثل « الحياة اليومية » التي تطلق على مثل هذا العصر الواسع تكون عديمة المعنى . ومع ان المعرفة الناقصة قد تقودنا الى بعض الاغلاط والاخطاء القسرية في تسلسل الحوادث ، الا اننا نجد انفسنا ملزمين بان نقتصر على عبارة محدودة نسبيا ضمن اطار واسع . ولكن اية عبارة سنختارها ؟

لابد من ان يتحكم عاملان باختيارنا هذا ، ليس لان هذا العصر يجب ان يكون ممثلا حقاً لمدنية بلاد الرافدين حسب ، بل ويجب ان يكون ضمن ذلك الصنف الذي نعرفه كثيرا .

يقودنا هذان الاعتباران الى السنين الواقعة بين السنة سبعمائة والسنة خمسمائة وثلاثين قبل الميلاد . ففي خلال هذه السنين تكشفت في غربي آسيا احداث لم تجرب في التأريخ قبلا . ففي الدرجة الاولى بلغت قوة بلاد آشور ذروتها ، وامتدت الى الشرق الادنى كله ، بما في ذلك بلاد مصر في وقت من الاوقات . واستطاعت بابل ، الخانعة لبلاد آشور ، وبمساعدة الماذيين من المرتفعات الايرانية ، ان تخلع عنها النير ، وان تدمر مدينة نينوى في سنة ٦١٢ قبل الميلاد .

كان هذا فاتحة عصر الرخاء البابلي الذي ما تزال اصداؤه تصل الينا

من صفحات المؤلفين القدامي ، والذى يرتبط باسم نبوخذ نصر بصفة عامة •

واخيرا سقطت مدينة بابل ذاتها فريسة لايران • لقد احنى الشرق الادنى رأسه لسيد جديد • وبقيت مصائره ، طيلة قرنين من الزمن ، في ايدى الملوك الاخمينيين •

فبالنسبة الى هذا العصر المليء بالاحداث التي غيرت وجه العالم القديم ، يتوفر لدينا المزيد من مصادر المعلومات •

ولابد ان تنسب فخامة العصر الى الرقم الطينية الاصلية من بلاد بابل واشور ، تلك الوثائق الخالدة التي عرفنا منها الشيء الكثير عن التفاصيل الطفيفة لحياة الاسرة اليومية في عهد سلالة سرجون الحاكمة في بلاد اشور*(١) ، اكثر مما تعرفه عن حياة الفلاح النورمندي مثلا** فلقد غطت

---

* وضعنا لشروحنا وتعليقاتنا هذه العلامة . اما بالنسبة الى شروح وتعليقات مترجم هذا الكتاب من اللغة الفرنسية الى الانكليزية فقد وضعنا لها ارقاما متسلسلة ــ المترجمان .

(١) استعملت عبارة » السرجونية » في هذا الكتاب لتشير على وجه التحديد الى اشور الحديثة ، والى العصر الذي يشمل حكم الملوك سرجون الثاني ٧٢٢ ــ ٧٠٥ ق.م. ، وسنحاريب ٧٠٥ ــ ٦٨١ ق.م. ، واسرحدون ٦٨٠ ــ ٦٦٩ ق.م. ، واشور بانيبال ٦٦٨ ــ ٦٢٦ ق.م. .

** النورمان : قبائل موطنها شمال اوربا وبحر البلطيق زحفت في اواسط القرن التاسع على اوربا فاستولت على فرنسا وقسم من بريطانيا وايطاليا وقد سميت فرنسا باسم نورماندي نسبة اليهم .

الاخبار التاريخية الملكية ، التاريخ السياسي للعصر ، وغطيت الحياة الدينية بالطقوس والترانيم ، واصبحنا نمتلك ليس الاتفاقات الخاصة حسب بل وكذلك مراسلات كبار الموظفين مع القصر ، والرسائل التي كانت تتبادل بين الافراد الخاصين • حيث تمثل المكتبة الرسمية في نينوى التي جمعها اشور بانيبال في القرن السابع قبل الميلاد ، علوم العصر • فالواقع اننا لا نستطيع ان نتوقع المزيد من الرقم الطينية •

ولدينا مصدر آخر مهم في شكل حسابات مدونة ، يرقى تاريخ القسم الاول منها ما بعد هذا العصر الذي نتحدث عنه بقليل ، ثم استخلاصها من اقدم الاتصالات الاحصائية التي نعرفها بين بلاد اليونان والشرق الادنى • بين اجداد خط الرحالة المؤرخين •

واخيرا فاننا نمتلك شواهد النصب التذكارية التي اكتشفت بالتتابع في خرسباد ونينوى ، وفي نمرود ومدينة اشور وفي مدينة بابل ذاتها ، وقد خضعت هذه الشواهد لتمحيص دقيق ومفصل •

ينتهي هذا الكتاب في النقطة التي اوشكت فيها السلالة الاخمينية ان تشيد قصورها الواسعة في سوسة وبرسيبوليس ، عاصميتها الامبراطوريتين•

الفصل الأول

معلومات عامة

البلاد

تؤلف بلاد اشور في الشمال وبلاد بابل في الجنوب سوية بلاد ما بين النهرين ، الارض التي تقع بين النهرين العظيمين دجلة والفرات ؛ والتي هي مصدر الخصب الذى اثار اعجاب الرحالين عبر التأريخ .

ولكن في الوقت الذي كانت فيه مصر ، وهي بلد مثل بلاد الرافدين ، تعتمد كلية على الري وتوصف بانها هبة النيل ، ذلك النهـر الـذي تفيض مياهه بالبركة كل سنة على البلاد في صفة وديعة من الغرين ، فعلى النقيض من ذلك نجد في بلاد الرافدين ان الفيضانات الواسعة لنهري دجلة والفـرات وبسبب طبيعة الارض التي يجرى فيها النهران ، تصبح من الكوارث بكـل يسر الا اذ تم الاحتفاظ بها تحت الرقابة الصارمة . فالنهران ينبعـــان من مرتفعات ارمينيا . وكلاهما يجريان بقوة مدمرة ، ويشقان قنواتهما عبـــر الجبال ، ويجرفان ويصقلان كتل الصخور التي تعترض مجراهمـا العنيف .

وما ان يذوب الجليد وتفيض الانهار حتى تطغى المياه على السهل مخلفة الدمار في كل شيء اثناء مسيرتها .

ولقد استطاع سكان بلاد الرافدين منذ اقدم العصور ان يسيطروا على هذا التهديد الذى يتعرضون له كل سنة ، وذلك بالطريقة الطبيعية لتنظيم فيضان الماء ، بواسطة شبكة من القنوات التي كانت في ذات الوقت تروي التربة ، وتؤلف ايضا مياها صالحة للملاحة تستطيع ان تنقل المزيد من الحمولة مثل طرق القوافل تماما .

بهذه الوسائل يتم خفض رأس الماء الهائل الذى يؤلفه النهران ، فلا يحدث سوى القليل من الاضرار ، بينما تستمر احواض النهر في تدفقها متعقبة ذات القنوات . فلولا بعض اجراءات من هذا النوع لتغيرت حدود البلاد بشكل غير متوقع كل سنة . ومثل هذا الامر مهم جدا لانه ما ان تتخلف الجبال وراء التربة التي تتألف جزئيا من الغرين الذي توفره الفيضانات ، فان هذه التربة تتفكك بصفة نسبية وتصبح عرضة للتحول تحت ضغط الماء. فعلى مقربة من الخليج العربي تكون التربة برمتها غرينية . فهناك اهوار واسعة حيث تبدأ الدلتا بالتجاوز على الخليج كل سنة .

ففي العصر الذي يتناوله هذا الكتاب ، كان الخليج العربي يمتد الى الشمال ابعد مما هو عليه الان[٢] ذلك ان نهر شط العرب لم يكن قد تكون بعد وان كلا من نهري دجلة والفرات كانا يصبان على انفراد في البحر .

ونظرا لسعتها العظمى ولحقيقة ان الجبال في الشمال عالية وان ارض الجنوب منبسطة ، فقد اصبح جزءا بلاد الرافدين يختلفان اختلافا كبيرا . فقد روضت الجبال حرارة الجو في الشمال ، وادت في القسم الاعلى من بلاد اشور الى ظهور نباتات تشبه بصفة عامة ما هو موجود منها في اوربا الغربية.

---

(٢) اصبح هذا الراي في الوقت الحاضر عرضة للتحدي في ضوء الابحاث الاخيرة (انظر فهرس المصادر) .

اما في السهول فمع ان الحرارة في الصيف خانقة ، ومع ان فصل الربيع قصير عمره . ومع ان انعدام الامطار وشدة حرارة الشمس تتلف كل انواع الخضار ، مع ذلك فان الصفة الغرينية للتربة تضمن خصوبتها ، وتغدو الحياة ميسرة عن طريق الري •

يتألف ادنى الجنوب على الاكثر من اهوار يغطيها القصب الباسق • وباتجاه الجنوب تختفي بالتدريج انواع الشجر التي تعيش في المنطقة المعتدلة، وبعد بغداد ، التي تقع شمالي بابل القديمة ، تغص ضفاف الانهار باشجار النخيل •

ولقد كان جنوب بلاد الرافدين اقدم موطن لحاصلات الحبوب التي كان منتوجها يؤلف مصدر دهشة ثابتة للقدامى • فهناك فقرات اخرى في تأريخ هيرودوت قد تكبح سرعة تصديقنا ، لكن بلاد الرافدين قد ظفرت على حق . بلقب انها واحد من اهراء الحبوب في العالم القديم •

كانت حياة الحيوان في العصور القديمة تشتمل على انواع غدت مميزة في العصر الذي يتناوله هذا الكتاب ، من أمثال الثور الوحشي والكبش ذي الذقن الطويل والقرون الممتدة ، غير ان الاغنام والماعز ما تزال تتكاثر باعداد كبيرة •

لقد كانت الماشية تنتمي الى انواعاصلية ، في حين تم تدجين البقر والثور الهندي ذي السنام في منطقة آسيا الصغرى • ولم تكن الخنازير تربى قط ، ولكن قطعان الخنازير البرية كانت تجوب غابات القصب في الاهوار •

وكانت الطيور الاعتيادية الداجنة تتألف من الاوز والبط والدجاج ، وكان طائر اللعب المألوف هو طائر الدراج[٣] •

---

(٣) نوع من الدراج يشبه الديك البري •

وتتوفر كميات كثيرة من الاسماك في القنوات وكان صيد الاسماك يتم في المياه الضحلة للخليج العربي .

وكانت الحيوانات الخطرة تشتمل على الاسود وهي اقل تأثيرا في مظهرها من الاسود التي تعيش في شمالي افريقيا ، والفهود ، والقرود ، والضباع ، والافاعي ، والحشرات السامة من امثال العقارب . وكانت مستنقعات الدلتا موبوءة بالبعوض .

وطبقة الارض في القسم الادنى من بلاد الرافدين فقيرة ، وهي بسبب صفتها الغرينية لا تحتوي على الحجر ، غير ان الحجر والمعادن تتوفر في جبال بلاد اشور . ويتوازن هذا الامر بمنابع النفط في اواسط بلاد اشور وعلى الاخص حول كركوك في حين تتركز مستودعات الغاز في الجنوب .

تلك هي المظاهر الرئيسية التي كنا نهتم بها بصفة رئيسية . غير ان الامبراطورية الاشورية نتيجة لفتوحاتها وللحروب المتواصلة التي كانت تشنها في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ، قد توسعت حتى بلغت حدود ايران الحديثة الى الجنوب الشرقي ، والى شواطيء البحر الابيض المتوسط في الغرب ، والى الحدود الحقيقية لمصر ايضا . وهكذا كانت اشور في وضع استطاعت فيه ان تسيطر بطريق التجارة او الهيمنة على كل موارد العالم القديم .

السكان

البابليون والاشوريون افراد طائفة سامية عرقية ، لكنهم يضمون فيما بينهم بعض العناصر الاجنبية الممثلة اصلا بالناس الذين نعرفهم الان باسم الاسيانيين Asianic والذين اذا لم يكونوا من اهل البلاد حقا ، فانهم كانوا على اقل تقدير من بين اقدم السكان المعترف بهم في آسيا

الصغرى ، ويؤلفون طائفة مميزة باللغة ، والممارسة الدينية والطراز الجسماني . والمظهر الفريد جدا للغاتهم التي توجد عدة انواع منها بين اللغات الاسيوية هو الجذر اللفظي الذي بقي من دون تغيير في تصريف الاسماء وتكوينها .

وكانت دياناتهم تستند الى قوى الطبيعة العظمى مع تأكيد خاص على الخصب والنماء . وكانت مقاسات مثل هذه الجماجم التي اكتشفت اثناء التنقيب متشابهة في الواقع مع المظاهر التي انتجها نحاتوهم ، ولكن اذا ما تقبلنا دليل نصبهم ، فان مظهرهم الجسماني كان متميزا بالانف الاقنى الضخم ، وبالجبهة الواطئة ، وبعظم القحف العميق المائل ومؤخرة الرأس المنبسطة . فهذه المظاهر تعتبر نموذجية للطائفة الارمنية الحديثة .

وعلى هذه الشاكلة يبدو جليا ان هؤلاء السكان الاسيانيين يختلفون عن الساميين والهندواوربيين معا ، ولو ان بعض علماء الآثار يميلون الى القول بان الطوائف التي سبقت الهندو اوربيين يمكن تشخيصها بين البعض من هؤلاء السكان .

تتمثل اقدم الامثلة لهذه الطائفة بالسومريين (الذين يعتبرون على اكثر احتمال عنصرا متمدنيا في بلاد الرافدين) ، والحيثيين الاصليين في آسيا الصغرى[٤] والحوريين الذين كانوا يقطنون شمالي بلاد آشور وشرقيها ، والاعراق التي كانت تمتد على امتداد جبال زاغروس من القفقاس الى عيلام .

ولقد كان البابليون والآشوريون يؤلفون في الاصل طائفة واحدة هي طائفة الاكديين . وهم ينتمون الى الفرع السامي الذى تتمثل خصائصه النموذجية بالانف الاقنى والجمجمة العالية المقببة . ففي اللغة السامية ،

---

(٤) لغرض بحث هذه الكلمة بشكل اوفى انظر كتاب او . غرني O. GURNEY « الحثيون » لندن منشورات بليكان ١٩٥٢ الفصل الاول .

كاللغة الفرنسية ، يمكن تكوين الجذور اللفظية بالتصاريف الداخلية •

اما عبادة آلهة الكواكب فهي مظهر مهم للديانة السامية • ففي بداية العصر التأريخي في بلاد الرافدين امتزج الساميون والسومريون امتزاجا كبيرا ، وقد استقرت اكثرية الساميين غربي القسم الاعلى من سوريا حيث شنوا من هناك غزواتهم على اواسط بلاد الرافدين وجنوبيها ، والتي كانت في ذلك العصر تؤلف بلاد سومر •

واخيرا ، وفي عصرنا والذى تتحدث عنه على وجه الدقة اتخذت موجات جديدة من الساميين ، الذين عرفوا باسم الآراميين والذين كانوا من البدو في وقت لا يمكن تذكره ، طريقها الى داخل بلاد الرافدين باعداد كبيرة الى درجة انها كانت تؤلف عنصرا مهما في سكان هذه البلاد •

لقد استعار الساميون اول الامر عناصر من مدنية بلاد الرافدين ومن ثم اختاروها لكى تطابق عبقريتهم • فلقد كان احترام احدى المراحل المتقدمة للمدنية ملموسا على الدوام بين الاكديين الذين لم يدخلوا في الغالب سوى تحسينات ضئيلة على ما استعاروه من بلاد سومر • وكانت الروحية التي مارسوها هي روحية الاعجاب والتقليد ، وقد تركت هذه الروحية اثرها في كل مظهر من مظاهر التفكير والمهارة المطبقة •

وكان العنصر الثالث المميز في غربي آسيا هو العنصر الهندي الاوربي• ويبدو ان هذا العنصر قد بسط تأثيره ليس عن طريق حجمه الحقيقي ، وانما عن طريق دوره كقائد للغزوات المتوالية التي كان الآسيويون يشنونها من ناحية الشرق طيلة عصر تاريخي •

لقد كان الهنود الاوربيون عنصرا موجها او قائدا في هذه الغزوات وقد تركوا سمتهم في البلدان التي افتتحوها من امثال الحثيين الهنود

الاوربيين بالنسبة الى الحثيين الاصليين الاسويين والحوريين في شمالي بلاد آشور والكشيين في بابل ، والفرس في ايران •

وليس من شك في ان الكثير من الفروق العميقة بين صفات الاشوريين وهم اقل تقدما ، والبابليين المتمدنين بصفة عالية ، انما تنبع عن طبيعة السكان المحليين التي يجابهونها في البلدان التي يحتلونها والتي ينصهرون بواسطتها ، أو من اختلاف نسب العناصر العرقية الرئيسة الثلاثة التي مر وصفها في الفقرات السابقة • لكن اطلاق مثل هذا القول يجعل من الخطأ ان نقلل من قيمة التأثير الذى مارسته الاجواء الواسعة الاختلاف في بلاد آشور وبلاد بابل في تكوين صفة سكانهما •

اللغة

الاكدية هو اسم اللغة التي كان يتحدث بها في بلاد آشور وبلاد بابل سوية • ويتميز شكلا اللغة بصفة عملية في القواعد والمفردات ، وربما يختلفان اختلافا ملحوظا اكثر في طريقة التلفظ ، حيث يبدو ـ بالنسبة الى البرهنة على اللغة في شكلها المكتوب ـ ان البابليين كانوا يميلون الى اضفاء الصلابة على بعض الاصوات • ويمكن ان نجد شبها لذلك في ايطاليا الحديثة ، حيث يتلفظ النيوبولتان الاعتياديون(*) كلمة « كرستو » CRISTO بشكل غرشنو ـ GRISTO ولكن في العصر الآشوري المتأخر والبابلي الحديث، اهملت اللغة الاكدية ذاتها ، واخذت اللغة الارامية ، التي كانت الشعوب المحيطة ببلاد الرافدين تتحدث بها ، تنتشر الى كل ارجاء البلاد

فقد كانت الآرامية تتميز بفائدتين عن اللغة الاكدية • فهي لم تكن

(*) نيو بوليتان . Neopolitan

اكثر مرونة حسب ، بل انها كانت تدون بكتابة الفبائية وليس بالحروف المسارية التي كانت تؤلف اداة جد صعبة في الاعراب عن الافكار ولا يمكن السيطرة فيها على اية حالة الا من قبل طائفة من الكتبة الذين لم يكونوا يؤلفون سوى جزء ضئيل جدا من السكان

ومن ذلك العهد وما بعده اخذت اللغتان تستخدمان بصفة مزدوجة . ولقد بقيت آثار قليلة من اللغة الآرامية وذلك بسبب بساطتها واستعمالها بشكل اكثر شيوعا ، لانه يمكن تدوينها بالحبر على مواد غير ثابتة تكون عرضة للتلف ، غير ان اللغة الاكدية بقيت تستعمل كلغة تقليدية ، ولاتستخدم الا للوثائق الرسمية ، وتدون على الرقم الطينية التي تصبح ـ عندما يتم صنعها تماما ـ غير قابلة للتلف .

ومنذ عصر سلالة سرجون وما بعده ، وعلى الاخص في عهد البابليين والفرس ، احتلت اللغة الاكدية التي كانت تدون بالحروف المسمارية منزلة مشابهة للمنزلة التي تبوأتها اللغة اللاتينية في اوربا الغربية خلال العصور الوسطى .

اما اللغة الآرامية فقد احتلت مكانة اللغة الاكدية ، كلغة للكلام الذي يجرى تناوله كل يوم مثلما احتلت الاكدية مكانة اللغة السومرية على وجه الدقة .

تاريخ بلاد الرافدين
في الفترة ٧٠٠ ــ ٥٠٠ قبل الميلاد

قبل التعرض لوصف الحياة اليومية في مدينة بابل في الفترة المارة بين سنة سبعمائة وستة خمسمائة وثلاثين قبل الميلاد على اوسع تقدير ، ينبغي لنا إن نلخص بايجاز حوادث العصر ضمن موقعها التأريخي •

كانت بلاد بابل وآشور خلال الالف الثاني قبل الميلاد ملتحمة في صراع جاد من اجل السيادة • غير ان الحظ كان منذ حوالى سنة الف قبل الميلاد لصالح بلاد آشور ، وفي سنة سبعمائة قبل الميلاد أصبح نفوذها امرا لا خلاف فيه • ذلك ان الملك سرجون الثاني (٧٢٢-٧٠٥ قبل • م) الذي كان قد توفى حديثا ، بذ اسلافه بان خلف وراءه على بعد عشرة اميال ونصف الميل شمالي شرقي نينوى[٥] قصرا تأكدت عظمته بواقع ان منحوتاته الناتئة التي يضمها اذا ما صفت الواحدة منها الى الاخرى فانها ستمتد الى اكثر من ميل •

كانت الامبراطورية الآشورية تقترب من الذروة ، وكـان سـنحاريب خليفة سرجون (٧٠٥-٦٨١ ق•م) قد وسع حدودها وان لم يكن مع ذلك قد اضطر الى القضاء على الثورات التي كانت تصحب تنصيب ملك جديد عادة في الشرق القديم •

وهكذا وبعد ان دحر دعيا بالعرش سـاندت ادعاءاته بـلاد عيـلام ، والآراميين المتمردين أولئك البدو الذين كانت ثروة الشعوب المستقرة بصفة أكثر تثير حسدهم ، قضى سنحاريب على الثـورات التي وقعت في فينقيـا الضفة الغربية التي كانت مصر تساندهما معا ، ونصب مرشحا من قبله على

---

(٥) في خرسـباد •

عرش بابل والذي صمم في احدى المرات ان يجرب حظه باغراء من ملكها المخلوع « مردوك ـ بلادان »(**) . ولقد تعقبه سنحاريب باسطوله حتى منطقة الخليج العربي التي فر اليها ، غير ان بلاد عيلام التي تقع في المنطقة الجنوبية الغربية من ايران الحديثة ، اقدمت على مساندة المتمردين وانتهت الحملة بصفة غير حاسمة . لذلك اضطر سنحاريب الى ان يؤجل اجراءاته التأديبية لانه كان يواجه الضرورة ليس في ضرب العرب الموجودين في الجزء الجنوبي الغربي من امبراطوريته حسب ،ل وليرسم خطواته التالية نحو فلسطين التي انفجرت الثورة فيها ثانية .

واخيرا وقد عاد ثانية الى بابل فنهبها في سنة ٦٨٩ قبل الميلاد وعين احد اولاده حاكما عليها ، لكن الثورة انفجرت في بلاد آشور ذاتها ومات سنحاريب نفسه اغتيالا .

لن يؤخرنا التحدث عن الملوك الذين اعقبوا سنحاريب ، وعلى الاقل ما يتعلق بالثورات ومكائد القصر . فقد كرس اسرحدون خليفة سنحاريب (٦٨٠-٦٦٩ قبل الميلاد) معظم قوته لمهاجمة مصر ، الخصم التقليدي لبلاد آشور في دورها كمساند لامم الغرب التي كانت تتطلع الى تحرير نفسها من النير الآشوري .

استطاع اسرحدون ان يفتتح دلتا نهر النيل في مصر ، ومن ثم وجه لطمة شديدة للثورة في فينقيا . فقد تم اسر ملك صيدا وضرب رأسه ، وهدمت المدينة ذاتها تهديما كاملا ، واستبدلت بمدينة جديدة شيدت على

(**) الصواب مردوك ابلا ادن (مردوخ بلدان الثاني) الملك الرابع من سلالة بابل التاسعة دام حكمه اثنتي عشرة سنة من ٧٢١ الى ٧١٠ قبل الميلاد وقد خلع مردوك بلدان عن العرش ثم اعيد اليه ثانية ولكن لفترة لم تزد على تسعة اشهر .

موقع قريب منها ، لم تشخص بقاياها ، ويبدو واضحا انها اما قد هجرت في الحال او انها لم تظفر باهمية كبيرة .

وفي الوقت ذاته كان الشرق يتعرض لخطر الماذيين الـذين اسـتقروا شمالي غربي ايران ، والسكثيين(*) ، وهم عرق بدوي من فرع هنـــدي أوربي ، كانوا يحاولون التغلغل الى بلاد آشور عن طريق ارمينيا .

وعلى الرغم من كل هذه القلاقل فقد توفر الوقت لـدى اسـرحدون لتخطيط قصر جديد في نينوى ، لكن لم يكن مقررا لـه ان يستمتع بايـة راحة ، لان مصر ثارت عليه مرة اخرى ، ولقي الملك مصرعه وهو في طريقه الى احدى الحملات ضدها .

خلف اسرحدون اخوه الاصغر آشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٦ قبل الميلاد) الذي ورث اخوه الاكبر عرش بابل .

لقد جعل آشوربانيبال اول مهمة له هي استعادة سلطة آشور في مصر ، ولذلك تحركت القوات الاشورية من ممفيس الى طيبة التي تم نهبها .

لقد كان امرا محتوما ان ينتهز اخ آشور بانيبال الاكبر الوارث الشرعي لعرش بلاد آشور هذه اللحظة للثورة عليه ، وهكذا اضطرت آشور مـرة اخرى ان تسلك الطريق الى مدينة بابل .

لقد تم احتلال المدينة ، ولقي الاخ المتمرد حتفـه في قصـره المحترق (هذا هو الحادث الذي أدى الى ظهور اسطورة ساردا نابالس)(**) وحـل

(*) السكيثيون هم مجموعة القبائل التي استوطنت البلاد الروسية (الاتحاد السوفياتي الان) واليهم ينتمى معظم الروس في الوقت الحاضر وقـد عرف الاسكيثيون في مدونات المؤرخين والجغرافيين العرب والمسلمين باسم (الاشقوذيين) .

(*) ساردانابالس Sardanapalus وهو الاسـم الذي اطلقه الرومان على الملك الاشوري اشور بانيبال .

ذات المصير بمدينة سوسة غاصمة عيلام التي تضاءل حجمها في عهد اخلاف آشوربانيبال .

عمد كي‌خسار ملك ماذي ، ونبوبلصر(*) حاكم بابل الى اقامة تحالف، واعدا حملة مشتركة ضد نينوى فاستوليا على المدينة سنة ٦١٢ قبل الميلاد . اخفقت جهود اخر ملك(٦) لتجميع قواته في شمالي سوريا ، واذ ذاك قسمت كل امبراطورية آشور بين الحاكمين المنتصرين . وعلى هذا فقد اصبح الشمال كله من ماذي في الشرق حتى آسيا الصغرى في الغرب يؤلف جزءا من الامبراطورية الماذية .

اما بلاد بابل وآشور والمنطقة الساحلية فقد توحدت تحت سلطة نبوبلصر ، وبرزت مدينة بابل كرئيسة للامبراطورية الجديدة التي عرفت باسم الامبراطورية البابلية الحديثة . اما نبوبلصر الذي حكم هذه الامبراطورية كأول ملك لها عدة سنوات ، فقد خلفه نبوخذنصر (٦٠٥-٥٦٣ ق.م) . وقد استطاع نبوخذنصر خلال حكمه الطويل ان يعيد لبابل جمالها ، بعد ان نهبها آشوربانيبال ، وان يزينها بالنصب التذكارية التي تشهد بها كتاباته ومؤلفات المؤرخين اليونانيين ، والتي ظهرت بقاياها الى النور بالتنقيبات التي أجرتها البعثة الالمانية تحت اشراف كولدوي(***) خلال السنوات ١٨٩٩-١٩١٧ .

---

(٦) هو الملك سن شاراشكون (٦٢١ - ٦١٢ ق. م) .

(*) كي اخسار Cay Xares ملك الماذيين الذي تحالف مع نبو بلاسر ملك بابل فجهزا جيشا مشتركا هاجما به مدينة نينوى سنة ٦١٢ ق. م. فاستوليا عليها ودمراها تدميرا تاما وبذلك قضيا على الامبراطورية الاشورية الى الابد .

(***) كولدوي Koldwey منقب الماني ركز عمله في مدينة بابل وكشف عن قصر نبوخذنصر واعاد تركيب بعض اجزائه وكان كولدوى اللذى ولد سنة ١٨٥٥ قد بدأ اولى تنقيباته سنة ١٨٨٢ في مدينة اسوس في اقليم مليسيا من اسيا الصغرى ومنها انتقل الى العراق حيث استمرت تنقيباته فيه من سنة ١٨٩٩ الى سنة ١٩١٧ في مدينة بابل وحدها . وقد توفى كولدوي سنة ١٩٢٥ .

ما لبث الخصوم السابقون لبلاد آشور ان اتحدوا مرة اخرى في مناهضة مملكة بابل . لقد اصبح نبوخذنصر نفسه سيد القدس اثر حملتين جردهما على فلسطين سنة ٥٨٧ قبل الميلاد . ففي المناسبة الثانية لم يظهر اية رحمة . فقد قتل الكثير من السكان ، بينما نقل «صدقيا»(*) مع امراء بيته وطبقة النبلاء والحرفيين الماهرين الى بلاد بابل .

تم الاستيلاء على مدينة صور بعد حصار طويل (لا يقل عن ثلاثين سنة حسبما ذكره المؤرخ منندر)(**) Manander كما خطط نبوخذنصر على الاقل حملة الى مصر (٥٦٨ ق.م) من قاعدة يوفرها له شاطيء البحر ، وان لم يكن يوجد سجل عما اذا كان قد قام بهذه الحملة أم لا ، واذا ماقام بها فما هي درجة نجاحه فيها .

هناك القليل مما دون خلال حكم المليوك الذين اعقبوا نبوخذنصر ، ما خلا الاضطرابات المعتادة . غير ان المرحلة كانت تتهيأ لاحداث ذات فترة اعظم .

ثار الفرس الذين استوطنوا القسم الجنوبي من ايران ضد الماذيين وحولوا اسيادهم السابقين الى دمار .

(*) صدقيا . Zedekia احد حكام فلسطين الذي تصدى لمقاومة بختنصر فهزم شر هزيمة واخذ اسيرا مع افراد اهل بيته وقادته إلى بابل .

(**) المؤرخ منندر Manander يقصد به المؤرخ الفارسي « ابن مهمندر » .

وصل كورش (٥٤٦–٥٢٩ ق٠م) الى العرش الفارسي أثناء حكم نبونيدوس (٥٥٥–٥٣٩ ق٠م٠) في بابل(*) والذي كان يهتم باستعادة النصب الدينية اكثر من اهتمامه بالحفاظ على مصالح امبراطوريته ٠ ومع ذلك فان خطته في ان يجمع في عاصمته تماثيل اعظم الالهة قدسية من المعابد النائية قد اثارت معارضة الكهنة ، ولذلك فلم يلاق كورش الذى وسع حدود مملكته في تلك الفترة حتى شاطىء بحر « الايون »(**) ، سوى مقاومة طفيفة عندما وجه هجومه المباشر على بابل سنة ٥٣٩ قبل الميلاد ٠ ولقد تميزت سياسته باعتدال لم يكن متوقعا ٠ فقد اعاد تماثيل الالهة الى المدن التي نقلت منها ٠

لقد برزت في الواقع روحية جديدة تماما عند وصول الفرس ٠ فالصلابة التي عرف بها البابليون ، والشدة التي تميز بها الآشوريون قد اوجدت مكاناً لتفهم واسع ، وعلى الرغم من انفجارات العنف العرضية ، ادت هذه الروحية الى نوع من الترويض كان الشرق غريبا عنه قبلا ٠

لقد رسمنا بايجاز خلاصة تأريخ قرنين من الزمن ، وقد حان الوقت الان ان نتساءل عن نوع الحياة الاعتيادية التي كان يحياها ابن الرافدين في العصر الذى عاش فيه ٠

(*) نبو نيدوس Nabonidus ويعرف باسم نبونيد بلشاصر هو آخر ملك من السلالة الكلدانية ، اي العهد البابلي الاخير ، وقد دام حكمه سبع عشرة سنة وقد سقطت مملكته على يد كورش الاول ملك الفرس الاخمينيين ٠

(**) بحر الايون Ion هو بحر ايجه احد خلجان البحر الابيض المتوسط وتعرف المنطقة الممتدة على ساحله باسم ايونيا ومنها اخذ اسم «اليونان»

لابد وان كانت هذه الحياة غير مستقرة ومفعمة بلحظات التأسي • بالنسبة لسكان العواصم سواء في ذلك نينوى ام بابل التي دمرت اثناء هذه السنين ، والتي كانت دون ريب اكثر اطمئنانا لمن كانوا يسكنون في الارياف• ولكن ما عدا الشك كانت تلك السنين ملىء بالعمل المتواصل • ولسنا بحاجة ان نبحث عن دليل على ذلك ابعد من الوثائق التي تدلل لنا على غنى وتجديد المدنية التي وجدت في عهد اخر الملوك الاشوريين ، والملكية البابلية الحديثة •

سجل الوقائع التاريخية

ينبغي لنا ، قبل المضي في بحثنا ، ان نتفهم الكيفية التي يمكن بها نسبة الحوادث التأريخية في القسم السابق الى تواريخ خاصة . فبالنظر الى العالم الحديث اصبح تأريخ الاحداث امرا بسيطا نسبيا . فاستخدامنا للعصر المسيحي يعني ان السنوات تمضي متعاقبة من نقطة بداية ثابتة ، وبعد اجراء علاوة مستحقة لمختلف التصويبات التي ادخلت في التقويم خلال القرون ، فأن نظام تدوين التأريخ الذي نستخدمه يشمل هذه الفترة الطويلة بثقة تامة . كذلك استعملنا اسس هذه الطريقة في وقت متأخر ، ولغرض احتساب مضي السنين قبل ميلاد المسيح فاننا نطبق ذات الاصطلاح ، حيث نبدأ مرة اخرى من بداية العصر المسيحي . غير ان العالم القديم لا يستطيع طبعا ان يدرك الحادث الذي ثبت نقطة البداية لنظام تسجيل الحوادث التأريخية الذي نستعمله ، ولهذا ينبغي لنا أن ننتهج طريقة مغايرة . ولقد كانت محاولات هذه الطريقة ، رغم ثباتها ، عرضة للفشل لانها كانت ، كما هو الواقع ، تعوزها اية نقطة ثابتة .

ولقد استعمل العراقيون ، مثل غيرهم من الشعوب ، اليوم كوحدة لديهم لقياس الزمن . ومع ذلك فطبقا لحسابهم كان اليوم يبدأ بغروب الشمس ، ولم يكن يقسم الى اربع وعشرين ساعة بل الى اثنتى عشرة فترة امد كل واحدة منها ساعتان ، اعطت اسمها الى المسافة التي يمكن تغطيتها في ذلك الفراغ من الوقت(*)(٧) .

وكانت الوحدة التالية لديهم هي الشهر . ولقد ادت التجديدات التي ادخلت على تقويم اوربا الغربية الى اختيار شهر واحد يتألف من ثمانية وعشرين يوما ، والبقية من ثلاثين او واحد وثلاثين يوما ، وبذلك غدت السنة

---

(٧) كانت تدعى بورو Boru باللغة الاكدية .

تتألف من ثلثمائة وخمسة وستين يوما . وكانت هذه السنة تتجاوب ضمن حوالى ست ساعات مع السنة الشمسية وقد احسن احتساب الفرق باضافة يوم واحد كل اربع سنوات الى شهر شباط الذي يتألف عادة من ثمانية وعشرين يوما .

وعلى النقيض من ذلك اختار العراقيون الشهر القمري الذي يتألف من ثلاثين يوما . وقد ادى هذا النظام الى حدوث نقص سنوي يزيد عن خمسة ايام قليلا ، ولذلك يصل الوقت المتأخر ، بعد ست سنوات ، الى شهر. في تلك النقطة ادخل العراقيون في تقويمهم ما سموه بالشهر الكبيس ذي الطول الاعتيادي ، وبذلك امسكوا مرة اخرى بالنسبة الحقيقية .

وما ان تملك البابليون ، كما فعلوا ذلك حقا ، هذه الوحدة القياسية حتى استخدموا طريقتين مختلفتين في تأريخ السنين ، والتي كانوا يعتبرونها، مثلما كانت عليه اوربا الغربية حتى عصر النهضة ، تبدأ بفصل الربيع . فطبقاً للطريقة الاولى سموا كل سنة بعد وقوع حادث مشهور فيها ، مثال ذلك السنة التي شيد فيها الملك فلان المعبد الفلاني ، او السنة التي دحر فيها الملك فلان عدوا محددا ، والتي وردت في قوائم تؤلف دليلا للحوادث . وبالتعاقب كانوا يحتسبون عدد السنين في كل فترة من فترات الحكم .

فهذه الطريقة يمكن الاعتماد عليها وحدها حقا في حفظ كل الوثائق في مكانها الصحيح ، غير انها لم تكن كذلك لسوء الحظ .

غير ان البابليين قد تركوا لنا ، مثلما نفعل نحن ذلك تماما ، قوائم لسلالاتهم الحاكمة المختلفة والتي يظهر فيها كل ملك في نظام شديد من التعاقب سوية مع عدد سنوات حكمه ، في حين ان الكاتب يعطي عادة في نهاية كل سلالة حاكمة ، مجموع عدد الملوك ومجموع السنوات المقاربة لحكمهم .

فمثل هذه الطريقة تكون هي الاخرى وافية كلية ولكـن بالنسبة الى الاخطاء والاختزالات التي يعمد اليها قسم من الكتبة • ومع ذلك فهناك نوع اخر من الوثائق التي قد تنقذنا من كل هذه الاخطاء • فالواضح ان الملـك عندما يسجل مظهراً مهما اثناء حكمه فانه يشير بذلك الى حادث ماض ، ويحدد فترة الزمن المتداخلة فيه •

وعلى هذا فان من المدهش ان تتحقق بان اعتماداً محدودا حسب يجب ان يوضع في هذه السجلات المكتوبة • فطالما كشف القليل نسبيا من هـذه النصوص ، فان في الامكان تقبل صحة نظام تسجيل الحوادث التأريخيـة الذى اعيد ترتيبه على هذا الاساس ، ولكن بنطاق متنام من التنقيب وبكشف اكثر صراحة للبرهنة على تسجيل الحوادث ، وان النتيجة التي لايمكن التهرب منها هي ان هناك سلسلتين من الوثائق آشورية وبابلية ، قد تعايشتا في بلاد الرافدين • وفضلا عن ذلك توجد ضمن كل من هذه المسلسلات فروق بين مختلف النصوص في العدد التام للملوك ولسني حكمهم •

ومع ذلك فان الطريقة التي استعملها الكتبة في رسم الواحهم التأريخية، تقدم اساسا آخر بالنسبة لعدم الصحة • ففي الوقت الذى يعمد فيه التطبيق الحديث لتجميع القوائم المماثلة ، الى حشد اسماء الملوك والامراء او الحوادث التي كانت معاصرة احداها للاخرى في اعمدة متوازيـة ، سـجلها البابليون احداها بعد الاخرى •

وليس هناك ادنى شك في ان هذه القوائم كانت تمثل تفسيرا صحيحـا وذلك بفضل التقليد اللفظى الذى كان يلعب دورا كبيرا في نظام التربية لديهم• ومن ناحية اخرى فاننا ما نزال نعيش في ظلمة الى ان يسـعفنا حادث

محظوظ يكشف لنا بان ذينك الحادثين اللذين كان يعتقد قبلا بانهما قد فصلا نتيجة فترة زمنية ، كانا متعاصرين في الواقع .

ففي السنوات الاخيرة كان الاعتقاد السائد ان حمورابي ، الملك الذى ينتمي الى السلالة الاولى الحاكمة في بابل ، كان معاصرا لشمس ادد ملك آشور . وكان يظن بان الاخر عاش اكثر من جيلين بعد حمورابي ، وان هذه الحقيقة لم تتأكد الا نتيجة العثور على مراسلات بين كلا الملكين ، وذلك دليل لا مجال للخلاف فيه ، ولا يمكن تفنيده بالقوائم الرسمية ، بغض النظر عن مدى العناية التي جمعت بها هذه القوائم .

ولقد تم التوسل بالتنجيم للمساعدة في ايجاد طريقة للتخلص من هذا الخطأ . فاصبح مستطاعا ليس احتساب التواريخ المقبلة للطوالع المتعاقبة لاحدى الظواهر كالخسوف ، او ظهور تابع للشمس ، او اختفاء كوكب ، او نجم حسب . بل وكذلك تواريخ مطالعها السابقة . والواقع ان العراقيين الذين كانوا يهتمون بعلم التنجيم والفلك ، غالبا ما كانوا يسجلون احداثا من هذا القبيل في التواريخ التي يكتبون بها سير ملوكهم . وبهذه الوسيلة اصبحنا نمتلك الان سجلا كاملا لملاحظات فلكية عن فترة معروفة من حكم احد الملوك وهو « امي صدوقا »(*) الذي ينتمى الى سلالة بابل الاولى ، وبذلك نستطيع - كما اوضحنا سلفا - ان نحسب التأريخ الذى وقعت فيه هذه الحوادث .

لقد استطاع المنجم الالماني « كوغلر » ، بعد حسابات مطولة ، ان يحدد التأريخ الدقيق الذى ينبغي ان يعزى حكم هذا الملك اليه ، وكذلك - بطريقة ضمنية - تواريخ ملوك اخرين ينتمون الى تلك السلالة .

(*) امي صدوقا Ammi Zaduga الملك العاشر من ملوك سلالة بابل الاولى دام حكمه احدى وعشرين سنة ١٥٨٤ - ١٥٦٤ ق.م .

ومع ذلك فقد توصل المنجم الانكليزي « فورذنغام » ، الذى كان يبحث ذات القضية بصفة مستقلة ، الى نتيجة مغايرة ، في حين كرر « كوغلر » في سنوات متأخرة حساباته السابقة فتوصل الى نتيجة مغايرة لتلك التي نشرها سابقا .

ان العناصر الواضحة للخطأ الموروث في هذه الطريقة ، تعزى في الدرجة الاولى الى حقيقة ان الخيار يقع بين عدد من التواريخ لا معدى عنها .

فالواقع ان الظاهرة التنجيمية الخاصة التي تمت دراستها يحدث ان تؤدي في بعض الاحيان وبمثل هذه الصراحة ، الى استعمال تأريخين او ثلاثة تواريخ محتملة . وهذا هو سبب الاختلافات في الرأي بين المعنيين بدراسة القضايا الاشورية الذين يقارنون هذه النتائج مع ما بقي من الوثائق العراقية.

وعلى الرغم من هذه المصاعب المتباينة فان من المصيب ان نقول بان كل التفاسير المختلفة للبرهان تشير بنطاق واسع الى نقص في التدوين العام للاحداث التأريخية .

ان اسبق تأريخ مقترح بالنسبة الى بداية العصر التأريخي ، والذى حدد قبلا بعد اربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، قد تم تقريبه الآن الى القرون الاولى للالف الثالث قبل الميلاد ليس الا .

وكلما اخذنا نقترب من العصر المسيحي اخذت الاخطاء تتناقص بصفة نسبية الى نقطة تختفي فيها ، ولذلك فقد تم اهمالها فعلا بالنظر الى العصر الذي يشمله هذا الكتاب .

فقبل هذا التأريخ بعدة قرون كان الآشوريون يصفون السنين المنفردة باسم قاض ملقب يدعى «ليمو»(٧) وتتوفر لدينا قوائم لهؤلاء الموظفين . وفضلا عن ذلك فان الكتبة في هذا العصر كانوا يدونون التأريخ المتواصل.

للاحداث التي كانت تحدث في بلاد آشور وبابل والبلدان المجاورة ، وقد سلمت هذه المدونات من التلف .

واخيرا وضع « بطليموس المصري »(*) للقرون الماضية قانونا للاحداث يمكن استعماله لغرض المقارنة .

وعلى هذا فحين يتحدث هذا الكتاب عن التواريخ الواقعة بين سنتي ٧٠٠ و ٥٠٠ قبل الميلاد ، فان هذه التواريخ قد احتسبت بدقة إلى حد اشهر قليلة .

---

(٧) الاسماء الاشورية والبابلية يكون الحرف U بمثابة (وو) كما ان الحرف E لا يكون ساكنا .

(*) بطليموس : عالم يوناني اشتهر بعلوم الجغرافية والرياضيات وتنسب اليه كثير من الآراء والنظريات الجغرافية ومن بينها قياس محيط الارض وماشاكلها . وقد ترجم العرب في زمن الرشيد والمامون كل مؤلفاته ونقدوا واصلحوا الكثير من آرائه ومقولاته .

تركيب المجتمع
العائلة ، البيت

مع ان الحياة اليومية لعضو من الطبقات العليا في بلاد الرافدين تختلف اختلافا بارزا عن الحياة اليومية للرجل الاعتيادي ، الا انها لا تحتفظ بالقليل من المظاهر بصفة عامة . ولكن عن طريق المفارقة لايوجد شبه مهما كان نوعه بين حياة ملك بابل او آشور ، او حياة اي من رعاياه . وعلى هذا فان اهتمامنا المباشر يتركز على الرجل الاعتيادي في الشارع . اما الملوك فسيحتلون قسما منفصلا من هذا الكتاب .

اعترف المجتمع العراقي في مراحله الاولى بتقسيم ثلاثي بين افراده . فقد وجدت بين الرجل والعبد طبقة تستحق ـ بالمعنى الحرفي للكلمة ـ ان تعتبر اقل من الاول واكثر من الثاني . ومع ذلك فلا يوجد سوى دليل مباشر ضئيل على وجود هذه الطبقة يمكن ان يستنتج منه ابتداء من عصر حمورابي وما بعده (اى في حدود القرن الثامن عشر قبل الميلاد) بانه لم تكن لهذه الطبقه سوى اهمية ضئيلة .

وبكلمة مختصرة كانت تلك الطبقة هي طبقة الـ « مشكينو » (التي تقابل كلمة مسكين في اللغة العربية) والتى اشتقت منها الكلمة الفرنسية « مسكان Mesquin » ، وهي طبقة من رجال لا يستحقون سوى الشيء الضئيل ، لكنهم يتميزون عن الارقاء الذين لا يساوون شيئا ما .

الرجل الحر والزواج

يقف الرجل الحر في قمة الميزان الاجتماعي ، اي الرجل بالمعنى التام للكلمة . فهو ليس ملكا لاحد . والواقع انه يخضع للقانون ولكن بالنسبة الى المحاكم وبالنظر الى العقوبات التى قد يتعرض لها كان يعتبر اكثر قيمة من العبد ، الذى كان وضعه القانوني مناقضا على وجه الدقة لوضع الرجل

الحـر ، مما سنأتي على وصفه فيما بعد .

كان الزواج اساس العائلة . ومع ان تعدد الزوجات نظريـا كـان هو القاعدة الا ان تثنية الزوجات اللواتي كن يسحبن من الرقيقات ، كان معمولا به ايضا . والى وقت زواجها تبقى الفتاة تحت حماية ابيها الذي كان مطلـق الحرية في ربطها بالزواج حسبما يعتقد ان ذلك مناسبا .

وحتى اذا حدث ان كانت الفتاة في خدمة طرف ثالث ، مثلا كضمان للدين الذي في ذمة ابيها ، فانها لن تكون اقل اعتمادا على والدها لان تتزوج او على اخوتها اذا ما مات ابوها .

وكان الدائن حر التصرف بها كما يشاء اذا لم يكن لها والد او اخوة .

يسبق الزواج حفل الخطوبة الذي يقوم خلاله الزوج المقبـل بصب العطور على رأسها ، ويجلب لها الهدايا والمأكولات . وبعد ذلـك تصبح الفتاة عضوا كاملا في اسرة زوجها المقبل ، اي انه اذا ما توفي سوف تتزوج واحدا من اخوته ، او اذا لم يكن له اخوة ، واحدا من اقاربه الاقربين .

ولعلـه من غير المعتاد ان لا تجد احدا في عائلة شرقية قد انجز هذه الشروط ، ولكن اذا ما وجدت مثل هذه الحالة ، فان والد الفتاة سوف يحتفظ بكـل حقوقه عليها : ويعيد كل الهدايـا التي تسـلمتها ما عـدا الاشـياء التي تم استهلاكهـا .

والمتفق عليه ان الفتاة اذا ما توفيت وان زوجها المقصود لم يرغب ان يتزوج احدى شقيقاتها ، فانه سوف يسترجع كل الهدايا التي اهداها اليهـا عدا تلك التي تتألف من الطعام .

ويأخذ الزواج الحقيقي ، كما نعرف ذلك من احد النصوص ، صفـة تسليم الزوجة الى زوجها ، اما اذا كانا كليهما ينتميان الى طبقـة المواطنين الاحرار ، فان الرجل يضع الحجاب على وجه عروسه بحضور شهود ، ويعلن

بكل خشوع « انها زوجتي » •

يحدد القانون الآشوري اهمية الحجاب الذى كان مثار مزيد من البحث ، ويفسره بانه العلامة المميزة للمرأة الحرة ، وان من واجب اي فرد يصادف رقيقة او عاهرة ترتدي الحجاب ان يفضحها •

ولم يكن الحجاب في الواقع ليغطي به الوجه دائما . ذلك لانه توجد كثير من النصب الحثية الجديدة تصور نسوة يرتدين الحجاب الذي يغطي شعورهن ويتدلى على جانبي الوجه • ففي مثل هذه الحالة من الضروري سحبه معا (وحتى هذا اليوم ما تزال كثير من النساء الشرقيات يوثقنه بان يمسكنه باسنانهن) او ، اذا ما تجمع فوق قمة الرأس . يدعنه يتدلى طليقا •

وطريقة ارتداء الحجاب هذه يمكن ان تشاهد في تماثيل من تدمر وفي رسوم من [دورا يوروبوس] وهي مدينة تقع على الفرات قرب ديرالزور(*) •

وهكذا ومع ان اهميته قد تغيرت فقد كان الحجاب الذى كانت النساء المسلمات يرتدينه يمتد الى احقاب بعيدة في التأريخ ومنذ ذلك الوقت جرت العادة باستعماله على نطاق واسع ، لكنه كان مقبولا قبلا في اجزاء من الشرق منذ اوائل النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد •

(*) دورا يوروبوس . من المدن القديمة شيدها سلوقس الاول خليفة الاسكندر في نهاية القرن الرابع للميلاد . وقد اشتهرت كثيرا في العهد الغربي واستولى عليها شابور الاول فخربها . نقبت فيها بعثة من جامعة ييل الامريكية سنة ١٩٢٨ وكشفت فيها عن معابد تعود الى القرن الاول للميلاد . يتالف اسمها من كلمتين : دورا ، اي الحصن • يوروبوس وهو اسم المدينة التى ولد فيها سلوقس الاول في مقدونيا . تعرف خرائبها الان في سوريا باسم « الصالحية » .

ومع ان الزوجات في العصر الآشوري المتأخر والعصر البابلي الحديث لم يكن يجري شراؤهن او بيعهن ، ولو بصفة نظرية على الاقل ، فانه توجد على الاقل نصوص معينة توضح بان الشراء في صفة تنكرية قد وقع فعلا .

فاحد مثل هذه النصوص مثلا يسجل ان سيدة تدعى نختشارو حصلت، بسعر ستة عشر شاقلا من الفضة ، على امرأة تدعى ننليلها تسبنا فتملكتها بصفة عملية كيما تزوجها من ابن نختشارا .

تبين الوثيقة بصفة محددة ان ثمن الشراء قد تم دفعه تماما ، وعوض الشارى عن كل مطالبه . وقد صحب الاحتفال عقد زواج صحيح ساعد على منح المرأة لقب زوجة .

فاذا كانت مثل هذه الصفة قد الغيت ، فان المضاجعة خلال فترة سنتين في حالة الارملة على الاقل ، تعتبر مساوية للعقد .

وكانت حياة المتزوجة تشتمل اما على بقاء الزوجة في بيت والدها او ذهابها مع زوجها الى بيته ، ففي الحالة السابقة يقدم الزوج او زوجته مبلغا يدعى (دوميكي Dumáki) لقاء صيانة البيت ، فاذا ما توفي الزوج بقيت هذه المساهمة ملكا للارملة في الحالة التي لا يخلف فيها المتوفى اولادا ولا اخوة . ويمكن اتفاق الدوميكى كله او جزء منه طبعا .

وفي القانون الآشوري يعتمد عبء اثبات دعواه على المدعي ، وعلى هذا يجبر الاولاد والاخوة على ان يثبتوا بان الدوميكي لم يتم اتفاقه كلية.

وكان مثل هذا الامر يقع صراحة عن طريق استدعاء الشهود . فاذا لم يتم التوصل الى اتفاق يقوم الاثبات بطرائق اليمين او التحكيم . ولكن في الدعاوى التي تخص الدوميكي كان المدعون يعفون من طريقتي الاثبات، ويكون دليل الشهود كافيا دون شك .

ومن ناحية اخرى اذا ما اراد الزوجان اليافعان العيش في بيت الزوج فان الزوجة تجلب معها « شركو = Shirku » (شركتو في عهد حمورابي) او صداق ، مع جهاز العرس ايضا في الغالب فالشركو مع الهدايا التي تتلقاها العروس تبقى ملكا خالصا لاولادها وليس لاخوة زوجها اي حق فيها .

وما عدا هذه الهدايا قد تتلقى العروس عقارا موهوبا لها (ندنو = Nudunnu) ؛ وبقبول هذا العقار تصبح الزوجة عرضة لديون زوجها بصفة مشتركة او منفردة ، بالاضافة الى هبة خاصة ترياتو Tribatu تقدم اليها بمناسبة خطوبتها ، وتظل ملكا خاصا بها حتى اذا ما طلقها زوجها ، واخيرا تتلقى هدية من ذهب او فضة او رصاص او طعام بسيط يدعى [زبلّو = Zubullo] يتم تناوله دون شك في وليمة الخطوبة .

يقوم الفرق بين هذه الانواع المختلفة من الهبات على اساس انه بينما يبقى الترياتو ملكا منقطعا للزوجة ، فان الدوميكي والتدنو يمكن استرجاعهما ، كما هو شأن الزبلو الذي يشترط فيه بانه ما يزال كاملا .

ومع ذلك يستطيع الزوج ان يحتفظ ليس بزوجته حسب وانما بـ (اشرتو = Esirtu)(*) او محظية ؛ يحق لها ان ترتدي الحجاب في المناسبات التي تصحب فيها الزوجة الشرعية خارج البيت . فمثل هذا الحق الذي منحته شريعة حمورابي للبابليين بقى سارياً في النصف الاول من الالف الاول قبل الميلاد . غير انه لم يكن يسمح للزوج ان تكون له زوجتان . فهذا العنوان يعود الى الزوجة الشرعية منذ اللحظة التي وضع فيها الحجاب

(*) هذه الكلمة البابلية مقاربة لكلمة « عشيرة » العربية التى تعنى الصديقة او المحظية ، اي من المعاشرة .

على رأسها ، وبالمقارنة مع الاخيرة تكون المحظية على الدوام تحتفظ بوضع لا يختلف الا قليلا • فهذه المحظية قد اختيرت في الاصل من بين الاماء ، وينبغي لها ان تنهض بواجبات وظيفتها باحترام خالص للزوجة الشرعية ، وان تحمل كرسيها عندما تذهب الى المعبد ، وان تساعدها في زينتها •

ويندر ان تكون هناك اية حدود لحقوق الوالد على اولاده • فهــو يستطيع مثلا ان يرهنهم لدى احد الدائنين كضمان لتسديد دينه • وفــي بعض الوثائق القانونية كان الاب يوصف بانه سيد او مالك ولده ، وذلك مفهوم مغاير تماما للفكرة العصرية عن الاب •

وكما شاهدنا قبلا كانت للاب سلطة كاملة تماما بالنسبة الى قضيــة زواج ابنته ، وان لم ترد اية اشارة الى اي من الحقوق التي تملكها الام •

ومما تجدر الاشارة اليــه ان القانون الآشــوري لم يشــر الى عــدد الحقوق الشرعية التي كانت ام العائلة تملكها في عصر سابق كثيرا لعصر حمورابي •

واذا ما مات الزوج قبل الزوجة ولم يترك وصية ، فان الارملة يتوقع لها ان تستمر في العيش في بيته ، وان تساند من قبل اولاده : اما اذا كان لها اولاد من زوج اقدم فان اولادها من زواجها الثاني قد يعيدونها اليهــم لان ذلك من مسؤوليتهم •

• ويبدو ان سوء الطالع الطبيعي الذي تتعرض له من لا اطفال لديهــا قد تضاعفت شدته بعدم المصادقة الضمنية الواردة في القانون الاشوري والقاضية بطرد الارملة التي لا اطفال لديها • فالقانون ينص باقتضاب قائلا « لها ان تذهب حيث تشاء » ويترك الامر عند هذ النقطة •

وسواء كانت العائلة تحتفظ ام لا تحتفظ باولاد من الزوجة الشرعية

ام من الاشرتو التي قد تصبح عضوا فيها ، فان للعائلة على الدوام حق تبني اولاد آخرين يحصلون على حق الارث مثل بقية الاولاد الذكور الاخرين شريطة ان لا يؤدي هذا الى الحاق الضرر بالاولاد الذين ولدوا بطريقة الزواج .

ويقع الاحتفال بالتبني في حضور شهود ، وينبغي للولد المتبنى بـه ، مقابل حقوقه التي حصل عليها حديثا ، ان يقدم هدية صغيرة الى والده الجديد .

وكانت عملية التبني هذه في بعض القرون السابقة تجري بوسائل حاذقة للتحايل على القانون الذي يحظر بيع مال تم الحصول عليه باقطاع ممنوح من الملك لكن يسمح بانتقاله عن طريق الارث .

ولقد عثرنا فعلا على تاجر غني من القرن الخامس عشر قبل الميلاد من منطقة قريبة من كركوك(*) كان يقوم بتبني افراد اغنياء وفقراء على حد سواء ومن دون تمييز تماما ، بينا اقدم هؤلاء ، مقابل ذلك ، على تقديم هدايا الى والدهم الذي تبناهم ، تتألف من مبالغ من النقود والمزارع مساوية في القيمة لما سيرثونه مؤخرا نتيجة تبنيهم (الاعمال التجارية في نوزا) .

وعن طريق التبنى يحصل الاب على حقوق واسعة جدا . وهكذا يستطيع ان ينهي التبني حسب رغبته ويعيد الولد المتبني بـه في حين ان

(*) يقصد المؤلف بذلك مملكة « نوزي » و « ارابخا » القريبة جدا من كركوك والتى كان اهلها يتحايلون على القانون الذي يمنع انتقال الملكية ، بطريقة تبنى الاشخاص الاغنياء والفقراء على حد سواء . انظر كتاب « العراق القديم » دراسة تحليلية في اوضاعه الاقتصادية والاجتماعية . الفصل السابع الذي نشرته وزارة الاعلام في ربيع سنة ١٩٧٦ .

ترجمة سليم طه التكريتي

الاخير اذا ما فصل عن العائلة التي تبنته ، يفصل بكل بساطة[8] ويعاد الى أهلـــه .

بعد هذه اللمحات عن عائلة الرجل الآشورى الحر (اميلو = Amélu) في عصر السلالة السرجونية ، آن لنا الآن ان نعود وتمحص الوضع القانوني للارقاء ، الذى جعل منهم عددهم عنصرا مهما في المجتمع .

(٨) طبقا للمادة ١٨٦ من شريعة حمورابي . ووفقا للمادة ١٩٢ من هـذه الشريعة يقطع لسـان ابن المراة المنذورة او المترهبة عندما يتبرأ من والديـه

الارقاء

قد يولد المرء عبدا ان كان ابن عبد ، او ان يصبح عبدا لعدد من الاسباب التي تكون متعددة بشكل واف لاحتساب الميل الدائم بالنسبة لازدياد عدد الارقاء .

واول هذه الاسباب هي الحرب . فمن الاهداف الرئيسة للحملات العسكرية المتلاحقة التي قام بها الملوك الآشوريون ، الحصول على قوة عمل كبيرة بصفة تكفي لتنفيذ مشروعاتهم المختلفة .

وتصور المنحوتات الآشورية الناتئة صفوفا من الاسرى الذين تقودهم الجيوش الظافرة الى العاصمة ، وقد اوثقت ايدي الرجال منهم واقتيدوا كالماشية تلهبهم اسواط الجند ، وتتعقبهم النسوة وهن يحملن اطفالهن وما ندر من امتعتهن - او ينقلن في بعض الاحيان ، في عربات محملة بالقمح الذي تم الاستيلاء عليه غصبا مع السكان .

وتقدم التواريخ الملكية حسابات مفصلة عن عدد المنهوبات والاسرى معا - وقد خصص البعض منهم للعمل كعمال بناء - وتطهير القنوات ، وفي خدمة المعابد - بينا كان الآخرون منهم يباعون في الاسواق .

وقد يضطر رب العائلة بفعل الفاقة الى ان يبيع ، كارقاء ، زوجته او اطفاله او حتى نفسه هو اذا لم يكن قادرا اطلاقا على تسديد دين تعاقد عليه.
واخيرا يشترط القانون انه اذا ما فضح ولد متبنى به نفسه بان تخلى مثلا عن العائلة التي تبنته - فانه قد يباع كرقيق .
ومع انه من الناحية النظرية المتشددة يكون من حق الشخص الذي يباع بمثابة رقيق ضمانا لدين ان يسترد حريته متى ما سدد الدين ، فانه غالبا ما يبقى في الرق بصفة غير معقولة - وان القانون الآشوري يتعهد في حالات معروفة بان لا يبقى احد في عبودية من دون سبب معقول بعد ان

استرد حريتـه •

ليست للرقيق شخصية انسانية • فهو مجرد اداة لمال حقيقي وكـان يشار اليه في الوثائق القانونية بانه مجرد وحدة رقيق ، او اذا ما ذكر اسمه يحذف اسم أبيه • واذا ما أصيب بأذى فان سيده وليس هو نفسه ، يستحق التعويض • وفي الوقت الذى يمثل فيه على وجه التحديد قيمة نقدية معينة لمالكه ، فان القانون لم يواجه احتمال اقدام المالك على قتل عبده عمدا •

والذي نعرفه ان الرقيق كان يوسم بذات الطريقة التي يوسم بهـا الحيوان ، ولكن رغم الاشارات الصريحة الى هذا الاجراء ، فاننا لا نعرف على وجه الدقة ما الذي يمثله هذا الاجراء • ذلـك ان التعبير المسـتعمل بصفة عامة قولهم « انه سيحلق » ، او « انه سيوسم » تعبير غامض ، ذلك لانه وان كان حلق رأس الرجل السجين او المحتجز في اوربـا الغربيـة ، يفضحه بين الرجال الاحرار ، فان مثل هذا الامر لم يكن يصدق تماما بالنسبة الى بلاد الرافدين ، ذلك لان الرأس غالبا ما يلحـق في الشرق لاسبـاب صحية • وعلى هذا فان الوسم على اكثر احتمال ينبغي ان يكون نوعا من رمز للملكية يتم ختمه بقطعة حديد محمية كالجمر على جلد الرقيق بصفـة مباشـرة •

والواقع ان شريعة حمورابى كانت قبل اكثر من الف سنة من العصر الذي نتحدث عنه ، تحتاط بشأن قطع او حرق وسم على عبد ، وهذا يقصد به الندبة التي يخلفها الوسم • فمثل هذا التصرف كان عرضة لعقاب شديد • فكل من يقترفه تقطع يداه ، واذا اقترفه جهالة بتحريض طرف ثالث فـان هذا الاخير يعاقب بالموت •

والشيء المؤكد بصفة معقولة ان علامة الوسم ذاتها اما ان تكـون رمزا للتشخيص ، او اسم المالك احيانا • فقد عرفنا من عقد بيع ان امرأة

تدعى بلت ـ سليم يبعث الى شخص يدعى نبو ـ شوم ـ ليشير الذي طبع اسمه على يدهـا •

وما خلا ذلك كان يوضع في عنق العبد لوح طيني صغير يحمل اسـمه واسم مالكه ايضا ، وبذلك يستخدم هذا اللوح بمثابة قرص هوية • وتوجد جملة من هذه الالواح في الوقتا لحاضر في مجاميع بمتحف اللوفر •

ويمثل هرب الرقيق هدف تعقب له ليس من قبل مالكه حسب وانما من قبل السلطات العامة ايضا • ذلك ان شريعة حمورابي تخصص ما لايقل عن ستة اقسام لهذا الموضوع الذى يبرهن على الكيفية التي ينبغي ان يحدث بها • فقد كان تقديم المساعدة للعبـد الآبق او اخفاؤه من الاعتداءات التي يعاقب عليها بشدة ، وعلى البائع في عقود البيع ان يتعهد بان العبـد ليس آبقا ، وان يدفع غرامة ثقيلة اذا ما ثبت بانه كان آبقا •

وعلى غرار ذلك ينبغي على المدين الذي يقدم عبدا رهنـا لدين ، ان يدفع للمالك الجديد غرامة اذا ما هربت « رهينته » هذه •

بيع الرقيق

كانت المظاهر القانونية لبيع احد الارقاء مطابقة لمظاهر بيع السلعة . فقد كان يعطي ضمان ، مثلما هو جار بالنسبة الى الحيوان ، بان الرقيق كان مالا مطلقا للبائع ، وانه لم يكن يعاني من اي مرض معد . وكانت معظم هذه الامراض واضحة بصفة مباشرة ، وعلى هذا فان الامراض الممثلة بالكلمتين « بينو Benu » و « سبتو Sibtu » اللتين توصف بهما ، غير موجودة . والترجمات المقترحة للصرع والجذام معقولة في الظاهر لكنها يجب ان تظل تخمينية .

وتتغير الفترة التي يكون فيها الضمان حسنا طبقا للاحوال الجارية وعلى هذا فهي مائة يوم بالنسبة للصرع او الجذام ولكن لا يوجد حد بالنظر الى الادعاءات التي تقع من لدن طرف ثالث .

ولقد سقطت العبارة التي كانت تتناول المرض والتي كانت شاملة في سلالة بابل الاولى ، من الاستعمال في العصر البابلي الحديث بحيث انصب التأكيد في هذا الوقت على حقيقة ان الرفيق ليس مالا ملكيا ، وانه لم يكن ابن احد الجدود [مار بنوتو Mar Banutu] او بعبارة اخرى ، حرا سواء بطريق الولادة او التبني .

يعطي عقد بيع من عهد حكم نبوخذنصر فكرة تامة عن نوع الوثيقة المستعملة .

«لقد باع أولاد ذكر بن كذا وبملء حريتهم الى ابن فلان امتهم نانا ـ ديرات والطفل الذي ترضعه بسعر متفق عليه هو تسعة عشر شاقلا من الفضة. وسيتعهد البائعون للمشتري ازاء هروبها ، او اي ادعاء معاكس ، او اذا ما ظهر بانها مال ملكي او انها حرة » .

وكانت الامة تلتزم بان لا تقدم لمن اشتراها ليس عملها حسب وانما نفسها ايضا . ومن دون اي التزام مقابل من جانبه . فهو في الواقع يستطيع ان يسلمها الى المبغي . وحتى عندما تصبح محظية لشاريها ، ويكون لها اطفال منه ، فانها تبقى مع ذلك امة ، اي انها تكون عرضة لان تباع كما حدث ذلك من قبل ، لكن بعد وفاة مالكها تسترد حريتها هي وابناؤها .

واذا ما تم شراء امة من قبل امرأة متزوجة كخادمة لها او محظية لزوجها (وذلك لغرض ان تحول الزوجة اذا لم تنجب الاطفال دون ان يتخذ زوجها محظية اخرى) فان هذه الامة تبقى ملكا خالصا للزوجة وعلى الاقل الى الوقت الذى يكون لها فيه اطفال .

ولما كان من مصلحة مالكي الارقاء ان يزيدوا عدد ارقائهم ، فانهم كانوا يشجعونهم على الزواج ، وبهذا القصد المذكور كانوا يشترون الرقيق من الذكور او الاناث طبقا لجنس اولئك الذين كانوا يملكونهم قبلا . ويصبح الاطفال الناتجون عن هذا الزواج ملكا لمالك الرقيق الذى يستطيع بكل حرية ان يبيعهم على انفراد ان هو اختار ذلك . ومع ذلك كانت العادة الشائعة ان لا يتم تفريق افراد العائلة الواحدة .

ويستطيع العبد برضا سيده ان يتزوج امرأة حرة ، واذا لم تجلب مهرا معها ، فانها هي نفسها واولادها يظلون احرارا . اما اذا ما جلبت بائنة معها واستثمرتها بالاشتراك مع زوجها في بعض الاعمال فعند ذلك تسترد الارملة اذا ما توفي زوجها او هرب ، مهرها لكنها لا تستلم سوى نصف ارباح ذلك العمل في حين يتسلم سيد زوجها النصف الثاني .

ارقاء المعبد

كان ارقاء العبد يؤلفون طبقة خاصة يتكون معظمهم من اسرى الحرب، حيث ينذر عدد معين منهم للآلهة من قبل الملك بعد الحملة الظافرة ، ولو ان الكثيرين منهم كانوا يهدون الى المعبد من قبل الكرماء من الاشخاص المنتفعين •

ان مجرد الحديث عن مختلف النشاطات التجارية التي كانت المعابد تمارسها ؛ يدلل على حاجة هذه المعابد الى عدد كبير من الموظفين • فهؤلاء الارقاء الذين عرفوا باسم (شركو Shirko) كانوا يخضعون لاوامر موظف تعينه سلطات المعبد لكي يضمن استخدامهم في افضل مصالح المعبد• ومع ذلك فلم يكن تشغيل هؤلاء الارقاء محدودا بالمعبد ذاته ، وانهم لم يكونوا يهيئون العمل الاجباري في المدن على حساب الجمهور حسب ، لكن كانوا يؤجرون ايضا للعمل لدى المستخدمين الخاصين •

وكان وضعهم القانون افظع من وضع الارقاء الاعتياديين لانه لم يكن امامهم اي امل في التبني ، في حين يصبح اولادهم ـ حتى اذا كانت امهم امرأة حرة ـ ملكا للاله بصفة ذاتية •

ومع ذلك ينبغي لنا ان نتحقق بان طائفة الـ « شركو » لم تكن تشتمل على الارقاء حسب ، وانما بعض البابلين الاحرار ايضا اذا نحن صححنا تفسيرنا لبعض الوثائق •

كان المظهر الفريد في الغالب للرق الذي مارسه البابليون والآشوريون هو ان الارقاء كانوا ـ على الرغم من عبوديتهم الكاملة لاسيادهم ـ قادرين ان يمتلكوا الاعمال التجارية ، وان يمتلكوا الارقاء على حسابهم الخاص ، وان يوفروا لهم النقود •

لقد كانت هذه الحالة بصفة خاصة خلال العصر الذي يتناوله هـــذا الكتاب ، وهو العصر الذي لم ينتقل فيه جزء مهم من تجـارة البلـد الى ايديهم حسب ، بل اننا نراهم يعملون كاصحاب حـرف الى جانب امتـلاك الماشية ، او ممارسة الاعمال الصيرفية ، في الوقت الذي كانوا فيه يتمتعون بالحرية في المتاجرة ليس مع بعضهـم البعض حسـب وانما مـع الرجـال الاحرار ايضا •

فنحن نجد مثلا عبدا يستأجر بيتا من امرأة حرة لمدة اربع سنوات يبدل ايجار سنوى مقداره اثنتا عشرة وجبة طعام كاملة في السنة مع شاقل مـن الفضــة •

وفي العهد الفارسي تقدم عبد يدعى « ربات Ribat » بعـرض لاستئجار برك لصيد الاسماك مـن اولاد « موراشـــو » Murasho (وهو أكبر صيرفي من أصل يهودي) مقابـل نصـف طالـين من الفضـة وتجهيز مائدته بالسمك • وفضلا عن ذلك فان السيد الذى يتحقق بان لدى عبده موهبة في التجارة ، لا يتردد عن ان يعهد اليه بالمعاملات المهمة ومبالغ كبيرة من النقود • فنحن نجد احد التجار يقرض ٨٨٩ شاقلا من الفضـــة بفائدة مقدارها عشرون في المائة سنويا •

ومع ذلك فان الوضع الغامض للعبد والذى يكون في وقت واحـد مالكا للمال وملكا لسيده ، ان هذا الوضع كان مصدر خلاف دائم •

عتق الرقيق

هنالك عامل واحد في الوضع القانوني للرقيق والذي يحي على الدوام امله في استعادة حريته ، وان علينا ان نذكر انفسنا بالظروف التي يصبح فيها هذا الامر ممكنا .

فاولا ان النسوة والاولاد الذين يودعون كرهينة لدى الدائن لايمكن ابقاؤهم لاكثر من اربع سنوات .

وثانيا ان الاولاد الناتجين عن زواج بين امرأة حرة وعبد يكونون احرارا ، في حين ان الامة المحظية واولادها يستردون حريتهم بعد وفاة سيدها .

واخيرا كان هنالك شرط قانوني يهب الحرية للعبد البابلي الذى ، بعد ان بيع في سوق اجنبية ، اعيد ثانية الى بابل ، فما عدا هذا فان قدرة العبد على ان يتملك وان يوفر النقود تمنحه فرصة استرداد حريته ، واذا ما فعل ذلك فانه يحصل عليها بصفة مطلقة بعد اقامة حفل رمزي للتطهير .

وبالموازنة كانت فرص التحول الى الرق اكثر عددا بشكل واضح من فرص التحرر منه ، وان الارقاء الذين كانوا يطالبون بحريتهم استنادا الى احد الاسس التي ذكرت الآن ، كانوا اقل من اولئك الذين يصبحون ارقاء، حيث تحققت الزيادة المطردة في اعدادهم بالقانون المتعلق بالولادة ، او بالحملات العسكرية .

والشيء الواضح تماما هو ان ثراء الامبراطوريات الآشورية والبابلية؛ ولا نريد ان نسمي اكثر من ذلك ، كان يعتمد اعتمادا كبيرا على وضع الرق. ففي هذا العصر الذي كان فيه الانتاج يعتمد ـ بسبب عدم وجود كل الآلات ـ اعتمادا كليا على العمل اليدوي ولايمكن زيادته الا بزيادة مطابقة

في القوة العاملة ، كان الوضع القانون للقن حاجزاً مطلقا يحول دون دعمه لمطالبه عن طريق العنف ، كأن يعمد الى الاضراب للابطاء في الانتاج ، او ان يكون دفع الاجور غير متناسب مع قيمة ما كان ينتجه .

تلك هي الوسائل التي استطاعت بها بلاد بابل وكثير من الاقطار الاخرى في العالم القديم ان تصبح رخية . فقد كانت اقتصادياتها الاساسية تعتمد على ما كانت تنتجه ، وعلى تجميع احتياطي الثروة ، وما عدا ذلك لم يكن سوى مجرد عملية انفاق احتياطي محددة من الزمن التي يحتاج اليها لاستنفاد موارد البلاد .

لقد ظهرت المشكلة التي طرحها الرق في بعض النظريات الخاصة مثال ذلك ان « المقدم لفبفر دي نويتس »(*) وهو ضابط خيالة فرنسي متقاعد ، تأكد نتيجة دراسة تأريخية لعدة الخيل ، ان الحصان الذى يعتبر من حيوانات الجر ، لا يمكن ان يستخدم بكفاية تامة الا بعد ان يزود ببنيقة صلبة تستقر على كتفيه . فقبل ذلك الوقت كما تدلل الرسوم الاولية عليه ما ان يطرح حمل الحصان حتى توثق رغبته ببنيقة محيطة بها . ولما كانت قصبة رئته قريبة من سطح بشرته ، فان اي جهد يبذله الحيوان يخنقه ويجعله عرضة للاختناق .

من هذا استخلص المقدم « لفبفر » ان الارقاء قد وجدوا بانهم افضل من غيرهم للتشغيل على اساس ضعف استخدام الحصان والتخلي عن استعماله نتيجة لذلك .

ان مثل هذا القول فيه غلو كبير وان كان ينطوي على عنصر من الصحة. فالسبب الرئيس للاصرار على استخدام الرقيق بصفة عامة ، يكمن دون

(*) Lefebvre de Noëttes

ريب في اليسر الذي يمكن به الاستحواذ على مثل هذا المصدر للعمل ، وفي تغاضي السلطات العامة في ذلك الوقت عن هذا الاجراء المهين الذي لم يكن بعيد المدى عندما كانت حقوق الفرد تخضع لحقوق الدولة .

وهذه الحاجة الملحة لتموين واسع من العمل في المجتمعات البدائية تجد تعبيرها في وجود عائلات كبيرة بشكل صريح . فهذه تبرز اهمية رب العائلة الذى كان حاكم المجتمع بالنسبة لكل الاغراض العملية . في حين كان مبدأ التبني بالمعنى الذي تم فهمه فيما بعد ، يشير الى ذات السبب . وكانت النتيجة الخالصة هي ان العائلة غدت قادرة على ان تزيد من حجمها بصفة اسرع مما كان في الامكان اجراؤه بالوسائل الطبيعية .

المنازل

على الرغم من عدم بقاء بيت سكن يرقى تأريخه الى عصر متقدم محافظ على جوهره ، فان مظهر المدن في الشرق المعاصر لابد وان يكون مشابها جداً لما كان عليه ، وان افقر احياء المدن الكبرى مثل مدينة بغداد ، كانت مشابهة بشكل قريب حقا لمدينة من بلاد الرافدين في الالف الاول قبل المسيح .

فقد اظهرت التنقيبات الاثرية اولا ان المخطط الارضي للبيت في الشرق ، ولاسباب متنوعة ، يكاد لم يتغير عبر التأريخ . فالفكرتان وتعبيرها العملي اكثر محافظة في الشرق منها في الغرب ، في حين ان الجو بالتغييرات الضئيلة في درجة الحرارة ، لا يهيء سوى باعث ضئيل للبحث والتعديل في تصميم البيت .

ولعل ابرز مظهر مثير للجو في بلاد الرافدين هو الحرارة ، وما ان ابتذعت صفوف الاعمدة فلم يعد هنالك سوى مجال ضيق بشكل واضح للاطراد في هذا الاتجاه .

اما في اوربا فعلى النقيض من ذلك تغير مجرى الحياة بحدة وبسرعة كبيرتين ، وقد اثر هذاا التغير بدوره في تصميم البيوت ومقاطعها .

والواقع ان جو اوربا الغربية حيث تتغير فيه درجة الحرارة خلال الصيف والشتاء بمقدار سبعين درجة فهرنهايت ، قد ادى الى حدوث تغيير في التجارب التي صممت في الاصل لمواجهة الحرارة والبرد .

ولقد اثرت هذه بصفة ملحوظة في تخطيط بيوت المدينة في حين ان تصاميم البيوت في الريف لم تتغير الا قليلا .

البيت

ان الطراز البدائي للسكن والذى ما يزال غير متبدل في الريف العراقي هو الكوخ المصنوع من الاغصان المتشابكة والذي يغطى بسقف من القش ويقوى بالطين الذي ما ان يجف حتى يمسك باطار الكوخ سوية . وماتزال الطبقة التي تمثل اقدم المساكن البشرية تحتفظ ببقايا شاخصة لهذه الاكواخ .

وهذا يشير الى انه كان يوجد عمود مركزي يشبه عمود الخيمة ينحني عليه اطار الجدار الخارجي ويثبت به ، وبذلك يؤلف نوعا من العقادة . وكانت الجدران تغطى بالحصر . وربما كانت للكوخ نوافذ وكانت الابواب تقوم على عمود محوري مربوط بالجدار ربطا وثيقا . [الشكل مزهرية في صورة كوخ دائري] .

غير ان تطور فن العمارة قد كرس هذا الطراز من البناء للريف ، حيث كان يستعمل في الدرجة الاولى للاصطبلات وحظائر الماشية . وما يزال هذا البناء يستعمل في المنطقة باسم « صريفة »(*) .

تتألف طريقة البناء من حزم اسواق القصب الطويلة وتثبيتها في الارض على مسافات منتظمة في خط مستقيم . ويقابل هذا الخط المركزي عند اي من جانبيه خطان آخران من القصب الذي يثبت بشكل قوي في الارض ثم تحنى رؤوسه لتشكل ما يشبه النفق ، ومن ثم تربط بالخط المركزي ويشد بامتداد عمود يؤلف سقف المبنى . وتكون نتيجة ذلك بناء مأوى ذي سقف معقود . ويمكن مد هذا المأوى الى اية مسافة مطلوبة لكن عرضه يحدد بارتفاع القصب الذي ينمو في تلك المنطقة .

(*) ذكرها المؤلف باسم زوريف Zorife وهو تحريف لكلمة صريفة الشائعة الاستعمال في جنوب العراق بصفة خاصة .

وقد تصنع الجدران من الاغصان ؛ ومن الطين المجفف ومن الحصر ، وربما حتى من القش (مثل اليورت التركماني)[*] ترتبط اول علامة للعمارة الصحيحة بمظهر المباني المربعة الزوايا او القائمة . وهذه لا تمثل تقدما اجتماعيا اصيلا حسب بل ورفاهية في الغالب بالمقارنة مع الابنية ذات التصاميم الدائرية التي تطبق على اصغر مساحة ممكنة من الارض بالنسبة الى العمل والمواد المستعملة فيه .

غير ان البيت مربع الزوايا كان يتطلب تقبل طرائق جديدة . ذلك ان اقدم البيوت من طراز ما زالت اثارة باقية ، كان قد شيد من كتل من الطين المخفف بالماء ، وثم تنظيمه في شكل نهج من عظام السمك اشبه بالاحجار غير المهندمة او المكسوة في الجدار .

(*) يورت Yurt التركمانية تعنى اللباد الذى كان شائع الاستعمال كرداء ايضا لدى التركمان والاكراد على حد سواء .

استعمال الطين

تم اقتباس هذا النهج كدليل من قبل مدرسة الفكر ، وهو يشير الى ان المدنية التي انبعثت في بلاد الرافدين ، لم تكن من صنع السكان الاصليين وانما من صنع شعب جاء من منطقة كان استعمال الحجر في البناء معروفا لديها تماما .

ومهما يكن ذلك فان سكان بلاد الرافدين في العصرين الآشوري المتأخر والبابلي الحديث كانوا يستخدمون من زمن طويل طريقة في البناء تستند الى استعمال الطين ، وتلك طريقة ظلت غير متغيرة بصفة جوهرية عبر القرون والحقيقة ان سكان بلاد الرافدين قد حذقوا استعمال هذه المادة الطبيعية الى درجة من الكمال التي يندر ايجاد افضل منها . وكما اوضحت تحرياتنا للمصادر الطبيعية في بلاد الرافدين ، فان السكان في الوقت الذي كانوا فيه يستعملون الطين بسبب عدم توفر احجار البناء فان هذا الطين كان في الواقع هو المادة التي تعطي افضل النتائج في الاوضاع المناخية للبلاد .

يمكن استعمال الطين بحالته الطبيعية لصنع الآجر ، غير ان قرونا من تجربة استعماله قد اظهرت طرق المعالجة التي يمكن بها اطالة حياته .

يصب البناؤون الحديثون السمنت حول محيط قضبان حديدية للتقوية لغرض ان يحولوا دون تشقق الخرسانة . اما العراقيون فكانوا يمزجون طينهم مع قطع لطيفة من القصب لغرض تعزيز قوته . وكل امة تبني بالطين تعرف هذه الطريقة .

وتذكرنا التوراة بما حدث في دلتا نهر النيل عندما قام الفراعنة ، بعد ان طردوا الهكسوس الفاتحين او الملوك الرعاة الذين ينحدرون من فرع سامي ، بارغام اليهود الذين استوطنوا البلاد المصرية ، على أن ينفذوا أعمالهم

الشاقة ، وكيف ان رعمسيس ـ كما نستطيع ان نقرأ ذلك في « سفر الخروج » ـ اجبرهم على صنع الآجر للمباني التي كان يقوم بتشييدها في منطقة الدلتا • ولقد كانت مهمتهم هذه أشد ثقلا لانهم أرغموا على ان يجمعوا القصب اللازم لذلك من الحقول دون ان تنقص حصصهم اليومية من الآجر باية طريقة كانت •

عندما يمزج الطين والقصب المهروس سوية ، يصب هذا الخليط في قوالب خشبية منبسطة • وبعد ان يتم نقل اللبن يترك كيما يجف في الهواء الطلق ، وكانوا يصنعونه بسرعة في الصيف الحار أكثر منه في فصل الشتاء ، ولهذا السبب كان الشهر الاول من اشهر الصيف الذى يدعى « سيوان » يعرف ايضا باسم « شهر الآجر » •

غير ان الطين المجفف وان كان يغدو صلبا بشدة ، الا ان حياته النافعة تكون اقصر من حياة اللبن المشوي • فهو يتغضن تحت حرارة شمس الشرق التي لا ترحم ، ويميل الى التفتت عندما يتعرض للفيضانات ، وذلك ضرر أشارت اليه النصوص السحرية التي تحدثت عن بعض العفاريت التي تشبه النهر الذي لا تصمد اسواره •

غير ان اللبن لا يمكن ان يشوى من دون وقود ، وان هذه المادة كانت نادرة الى درجة ان الآجر في الزي العصري لم يكن يستعمل الا في الابنية التي تتمتع برخاء خاص ، او تلك التي كانت تتطلب درجة خاصة من المقاومة•
ومع ان عملية صنع الآجر كانت بسيطة يقدر اي فرد ان ينهض بها ، الا انها في الواقع كانت حرفة خبير •

فقد كان الآجر باحجام مختلفة والمطلوب طبقا لنوعية البناء الخاصة التي كان يجري تخطيطها ، يتغير من الآجر الواسع الذي يشبه قاشي القصر او دكته الى الانواع الاخرى التي يصعب ان تكون اكبر من الآجر الذي

يستعمل اليوم في بناء المنازل الريفية .

وقد يظهر مخطط البيت بعض التغيير ، لكنه في جوهـرة بقـي دون تغيير في الشرق من اقدم العصور حتى الوقت الحاضر ، ما دام يفي بمطالب المناخ والحياة الاجتماعية معا .

يتألف المخطط النموذجي من ساحة رئيسة تضيء عددا من الغرف التي تؤدي اليها ، حيث يقع في واحدة منها تكون ضيقة وليست اوسع من الممر الا قليلا ، باب ينفتح على الشارع .

وقد تتصل بعض الغرف احداها بالاخرى ، في حين ان غيرها لا تتصل ببعضها البعض ، لكننا نقول بصفة عامة ان الباب توفر المدخل الوحيد للنور والهواء من العالم الخارجي والباب الرئيسة التي اشير اليها اعلاه هي المخرج الوحيد من البيت ، ولا يمكن لضوء النهار ان يدخل عبر الجدران الخارجية. وبعبارة موجزة تكون الباب بكل بساطة عبارة عن صندوق اقيـم بـدون اسس فوق ارض مداسة مستوية .

ويستعمل اللبن حينما تكون ثلاثة ارباعه قد جفت ، وهو يبنى بملاط من الطين المخفف بالماء والذي حين يجف يؤلف جدارا اذا قوة موحـدة . اما ارضيات الغرف ، فانها مثل ارضيات الساحة ، سوف تصنع من التراب المـداس ولو ان مالك الدار اذا كان حسن الحـال ، يقـوم بتعبيد بعض اقسامها بالبلاط او بقاشي من الآجر الذي يصف بشكل منحن قليلا نحـو المركز كيما تستطيع مياه الامطار او المياه القذرة ان تخرج بيسر، في حين ان نظام تصريف المياه الوسخة المصنوع من انابيب فخارية تمتد الى الخزانات داخل الارض .

وغالبا ان لا يتضمن البيت مطبخا منفصلا ، ويبنى موقـد الطبخ من

التراب قبالة جدار الساحة ، اما اذا ما خصصت احدى الغرف لهذا الغرض فانها لا تحتوي على مدخنة ويترك الدخان ليجد طريقه من الباب او من فتحة اضافية فتحت في الجدار .

وتتبع الغرف الداخلية المعدة للعمل النهج التركي ، اي انها تتألف من ارضيات مبلطة وفي وسطها حفرة وهي - وان لم تكن مجهولة في بعض اجزاء اوربا الغربية - لا تفرغ الا اذا انتفت الحاجة اليها .

ويحفظ الماء المعد للاستعمال الداخلي في حباب كبيرة تغرق الى حد النصف في ارض الساحة . ومع ذلك فان الآشوريين والبابليين معا ، وبالنظر الى خزن الطعام دون شك ، قد وجدوا ان الحاجة تتطلب المزيد من المنافذ في الجدران بقصد تحسين دورة الهواء . وتأخذ منافذ الهواء هذه صفة اقنية عبر الجدران تسد عند منتصف الطريق بقطع من الفخار يتخللها عدد من الثقوب واسعة الى درجة تسمح بالقليل من الهواء ووميض نور النهار ان يمر خلالها لكنها صغيرة جدا لا تسمح بمرور فئران او جرذان قد يجتذبها القمح اليه

السقف والطابق العلوي

يسقف هذا الطراز من البيوت اولا بوضع شرائح من خشب اشجار النخيل على قمة الجدران بهدف تغطية الغرف ، ومن ثم تغطية هذه الاخشاب بالقصب وسعف النخيل ، واخيرا تضاف اليه طبقة من التراب يداس بمدحلة حجرية ليست مغايرة لتلك المداحل التي تستخدم في ساحات لعبة التنس .

وفي سوريا الحديثة لكل بيت مدحلته الخاصة به موضوعة علـى الدكة ومعدة للقيام بالاصلاحات التي لا تنتهي في السقف الذي يحتاج اليها بالضرورة عند سقوط اخف زخة من المطر .

اما الدكة التي تستخدم للاستمتاع بالبرودة اثناء المساء ، او النـوم عليها ايام الصيف ، فيتم الوصول اليها من كل الجوانب بسلم من الخشب يمتد من الساحة ، واذا كان البيت واسعا نسبيا ، فبسلم داخلي في احدى الزوايـا .

والمعتاد في الحالة الاخيرة ان يصنع السلم من الطابوق وان يقطـع حسب سمك الجدار بمسالك عالية وضيقة .

ويأخذ السقف بصفة عامة شكل دكة لكن توجد بعض المنحوتات الاشورية الناتئة التي تصور نوع البيت القائم الزوايا الذي جئنا على وصفه الان ، ثم تشييده في ريف مكتظ بالشجر ، غير ان ايا منها كان يخضع لقبة او لسقف على شكل خلية النحل .

وهناك عدد محدد من بيوت واسعة نوعا ما كانت تسقف بمثل هذه الطريقة . وكانت القبة تغطي اما واحدة من الغرف ، او الساحة ذاتهـا اذا كان البيت يقوم في حديقة ويتخلله الهواء بكفاية ، شريطة ان تكون القبة كبيرة جدا . ففي هذه الحالة تؤلف الساحة غرفة مركزية تنفتح عليها الغرف الاخـرى .

ان هذا المخطط الخاص قد استلزمه استعمال الطابوق واستخدام الزخرف في البناء • ذلك ان التدابير في كل زاوية توفر اسسا دائريا للسقف الذي يبنى بطبقات متعاقبة من الآجر الذي يثبت اما بالكلس او القار ، وتمتد كل طبقة الى الداخل قليلا فوق الطبقة التي تحتها •

وعندما يكمل السقف يترك على حاله من الداخل والخارج ليخفي المقطع المشوش من طبقات الآجر المتداخلة • وتكون نتيجة ذلك الحصول على قبة [صورة بيت قائم الزوايا وسقف يشبه خلية النحل] غير ان هذه الطريقة لم تكن تستعمل الا على سطوح صغيرة نسبيا •

كان نهج خلية النحل مغايرا في السابق حيث كانت الطبقات المتعاقبة من الطابوق لا تتداخل الا جزئيا ، ولذلك كان السقف يرتفع الى نقطة معينة • وهذه الاشكال من السقوف لم تكن شائعة الاستعمال في بلاد الرافدين ، وانما كانت اكثر شيوعا في سوريا ، حيث ما تزال كل القرى الى اليوم تبنى حسب هذا النهج كما نرى ذلك في منطقة « حماة » • ولهذا النهج فائدة مزدوجة فهو ايسر بناء ويسمح باستعمال بعض المواد الغريبة من امثال كسر الآجر والذي يعتمد عليه في تثبيته بالملاط وتدعيم المبنى ، اكثر من الاندفاع التام للبناء ذاته ، كما هو الامر في سقوف القباب •

ومعظم البيوت في الشرق القديم تحتفظ بحديقة متصلة به وليس له سوى طابق واحد • وتضم القرى في الجزيرة العربية اليوم بصفة عامة بيوتا من عدة طوابق وكان مثل هذا النهج موجودا فعلا في مدينتي نينوى وبابل وفي المراكز الاقليمية •

وكان الطابق العلوى الذى يبنى بذات الطريقة التي يبنى بها الطابق الارضي ، يقوم على اساس جدار ذى سمك اضافي كيما يمنحه المزيد من القوة • ويمكن الوصول الى الغرف في الطابق العلوي عن طريق شرفة

خشبية تستند على قوائم وتمتد عبر الطريق كله حول الساحة الداخلية .
وتكون لهذا فائدة اضافية هي حماية مداخل الغرف التي تنفتح على الساحة
من الشمس والجو الرديء .

وكانت ابواب البيت تصنع من خشب اشجار النخيل ، ولكن لما كان
الخشب يصبح واهنا نتيجة تعمير الشجرة او سعة حجمها ، فان الابواب لن
تكون صلبة بالشكل الذي تعودناه . ولذلك كانت تصنع بصفة خاصة من
الواح من الخشب تصنف في اطار كما هي عليه في الشرق الحالي .

الزخرفة

الامر المحقق تماما هو ان احقر بيت في بابل لم يكن مزينا الا بطبقة من البياض ربما كان ذلك لاخفاء خشونة وجه الجدار ودكنة الطين • وكان يجري تبييض الجدران الخارجية هي الاخرى أيضا على غرار ماهي عليه اليوم، لان العراقيين لم يخفقوا في التأكد بان السطح الابيض يمتص اشعة الشمس اقل من السطح الاسود ، وان الجدران الغبراء كانت ترقط بقطع من القش بشكل سمج •

أما في بيوت وسعي الحال ، فاذا لم تكن هنالك ألواح رسمت عليها مختلف المواضيع ، يتم صبغ اسافل الجدران الى النصف بنوع من لون غامق ، هو اللون الاسود عادة ، يستخلص من القار المخفف بالماء ، ثم يخط شريط آخر فوقه من لون آخر •

ويحدث احيانا ان تصبغ اطر الابواب باللون الاحمر ، ولكن قد يكون من الخطأ ان نعتبر هذا بمثابة تمثيل لخيار جمالي متعمد لان اللون الاحمر ، كما نعرف ذلك من الطقوس والرقى ، كان يعتبر اللون الذي يخيف الارواح الشريرة ويبعدها ، وبذلك يحمي المدخل من كل التأثيرات الشريرة • وكان اللون الاحمر يستحصل من اوكسيد الحديد على شكل صباغ احمر اللون قابل للحل في الماء •

وليس من المدهش ان نجد كل نوع من المخلوقات يتطلع الى الهرب من ضربة الشمس التي لا تحتمل والتي تنصب رأسا على هذه البيوت قليلة التهوية كما هو الواقع ، وذلك لغرض الوقاية من الحر •

وكانت الجدران تغطى ليس ببقع مرطبة حسب وانما ايضا بانواع ذات الوان مختلفة من النمل والصراصر • ففي نظر البابليين كان كل شيء له اهمية خارقة للطبيعة ، وان لدينا عددا من نصوص التطير توضح الاهمية

التي كانت تعلق على عدد من الحيوانات التي يمكن مصادفتها داخل البيت او على جدرانه من امثال السلاحف وابى بريص ، والعقارب ، والصراصر ، والخنافس وغيرها من الحشرات الزائرة غير المرغوب فيها التي نواجهها في الاقطار الحارة •

اثاث البيت

كان الاثاث في هذه البيوت نادرا ، مثلما هو عليه اليوم في بعض المناطق . لقد كان عضو الطبقة المتوسطة من البابليين ينام على الحصـ والابسطة ، في حين كان حسن الحال ينام في الاحرى على اسرة عالية ، وهي تشب الطاولة نوعا ما ذات نهاية واحدة صنعت لتؤلف نوعا من وسادة .

وترى اسرة من هذا النوع منحوتة على الواح تصور تعاويذ المرض ، ر الاكواخ التي تعود ، دون ريب ، الى الضباط وان لم تكن الى طبقة من افراد الجيش المحارب .

ويجلس البابليون اما على كراسي عالية مصنوعة من خشب النخيل ، أو على نوع أكثر شيوعا من كراسي لها مساند ذات خلفية عميقة الحنيـة مصنوعة من القصب المضفور ، تشبه الكراسي التي تستعمل في الوقت الحاضر شبها كبيرا جدا . اما بقية الاثاث فانها تتألف من عدد قليل من الصناديق . وكانت الفخاريات تلعب دورا مهما جدا في تأثيث البيت به في ذلك الجرار ذوات الاحجام المختلفة للشرب او الطعام ، والقلل ذوات الاشـ ال القديمة جدا التي تحتوي على عرى صغيرة مثقوبة يمكن امرار خيط فيـ ـا لتعليقها كيلا تصل اليها الفئران والجرذان .

وكانت الاواني الفخارية المعدة للاستعمال اليومي تتألف من اقـ ـداح مختلفة الاعماق والاحجام ، ونحتفظ بعدد من الغطاسات الفخارية الطا يلـة ذات نهايات ملتوية لاغتراف السوائل منها . مماثلة تماما للمغارف المـ عملة في معامل صنع الحليب في الوقت الحاضر .

وكانت الموائد الواطئة اصغر من الطباق التي تستند على قدم و ـعدة ، ولكن كانت لدى البابليين موائد لتناول الطعام عليها من شكل مختلف تماما لانها تقف منتصبة وعالية عن الارض تماما مما سنتحدث عنه بصفة اكثر مؤخـرا .

الانارة والتدفئة

يمكن وصف نظام الانارة البابلي بايجاز ، بأنه استعمال المصابيح البدائية والتي تصنع اصلا على شكل صحن غير عميق ذي ميزاب مخروز يمر فيه الفتيل ، وهو في عصرنا ، اشبه بحذاء مدبب فيه ثقب للفتيل .

وهذا النوع من المصابيح هو الرمز الاعتيادي للاله [نسكو Nusku] اله النار . غير ان العراقيين قد اعتادوا تماما استعمال النفط الخام الذي كانوا يسمونه « زيت الحجر » كأداة اعتيادية للوقود ، ومع انهم لم يعرفوا على وجه التأكيد كيفية تصفيته الا انه مع ذلك لابد وان كان يوفر لهم ضياء افضل من الزيت الذي كانوا يستخرجونه من بذور السمسم بصفة اساسية .

وكانوا اذا ما ارادوا لهبا من نور عمدوا الى استعمال المشاعل ، وغالبا ما يشاهد الجنود وهم يحملون هذه المشاعل في المنحوتات الناتئة التي تصور الحملات العسكرية .

وعلى الرغم من الاعتدال المعتاد للمناخ الا انه تأتي ايام عرضية خلال الشتاء باردة تماما تتطلب شكلا ما من التدفئة . فموقد النحاس الذي يحتوي على جمرات متعددة من النار التي استعملت للطبخ ، والذي يوضع داخل قدح من الفخار ، يوفر المزيد من التدفئة عادة .

المدينة ومقطعها

تتراكم البيوت في وسط المدينة ، كما هو جار في الشرق اليوم ، بشكل متقارب سوية . ويكون مقطع الشوارع الضيقة مشوشا ، وسطح الارض وعرا وسبب ذلك يعود جزئيا الى ان البيوت كان يعاد بناؤها تكرارا من دون اية اسس جديدة ، فوق انقاض مسواة اعتباطا من اسس سابقة ، وبسبب القاء النفايات في الشوارع ، لان مالم تأكله الكلاب والحيوانات السائبة : كان يجف بفعل الشمس وتدوسه الاقدام .

هناك مخطط لمدينة بابل سنة ٦٠٠ قبل الميلاد . مأخوذ عن اونغر(*) يمثل الايساغلا اي المنطقة التي كانت تشمل برج مردوك ومعبده . وفضلا عن ذلك فبتعاقب البنايات المتكررة كان سطح الارض يرتفع تدريجيا .

وكانت البيوت تختلط سوية كما هو شائع الآن في المدن الشرقية ، وفي الضواحي وحدها حسب تقدم البيوت التي لها حدائق .

وهكذا فان المدينة وان كانت تمتد فوق مساحة واسعة فان كثافة البيوت في اية نقطة معينة لا تكون بالضرورة متناسبة مع كثافة السكان .

ولكن على الرغم من ان معظم الاحياء المأهولة بالسكان بشكل كثيف لم تكن تبنى وفق اي مخطط ، فان العراقيين لم يكونوا يراعون اية مبادىء معينة في تخطيط مدنهم الكبيرة وان المقطع الذي يشبه لوحة الشطرنج ويضم مجموعات من البيوت تقوم على زوايا صحيحة والتي كنا نلاحظها في المدن التي يعود تأريخها الى عصر الاسكندر : كل هذه كانت هي القاعدة العامة المتبعة في بلاد الرافدين منذ عدة قرون سابقة .

(*) انغر Unger من مشاهير علماء الالمان الذين تعرفوا على دراسة الكتابات المسمارية وقد وضع عدة مؤلفات في ذلك من اشهرها كتابه المعنون [بابل : المدينة القديمة] الذى صدر سنة ١٩٣١ .

مدينة بابل

لقد اعانتنا التنقيبات التي اجريت في مدينة بابل على ان نعيد تشكيل مظهر المدينة في اواسط عهد حكم نبوخذنصر ، والذى كان يشمل اواسط العصر الذي نتحدث عنه الان ٠

كانت المدينة مقسمة الى عدد من المستطيلات بممرات واسعة تفسح الطريق امام السابلة والمواكب والسلع سوية الى مركز المدينة والى مختلف القطاعات التي كانت البضائع تفرغ فيها وتخزن في المخازن ٠

وكانت هذه الشوارع التي كانت تشبه ابواب المدينة ، تسمى باسماء الالهة العظام لمجمع الالهة في بابل ٠ وهكذا على الجهة اليسرى من نهر الفرات كانت شوارع الالهين مردوك وزبابا تلتقى في زوايا صحيحة غالبا مع شوارع الاله سن ـ الاله القمر ، وانليل سيد الارض ، في حين يمر على الضفة اليمنى من النهر شارع « ادد » الذي يتقاطع مع شارع شمس ، اى الاله شمس ٠

وبين البيوت الاعتيادية التي تسكنها الطبقة الواطئة ، والتي جئنا على وصفها قبلا ، والقصر الملكي او الدوائر العامة الكبرى ، تقوم بيوت كثيرة ذات حجم متوسط ٠ ذلك ان من يملك مزرعة كبرى يسكن في بيت اكبر مشيد وفق ذات المخطط لكن يتم توسيعه بشكل بساطة عن طريق تكرار الوحدة الاصلية المؤلفة من ساحة ومن غرف تؤدي اليها ٠ ففي هذه الحالة تستبدل احدى الغرف بممر يؤدي الى ساحة اخرى توفر مدخلا الى الغرف الاخرى المطلوبة ٠

ولقد عثر على بقايا بناية كبيرة في مدينة بابل في حي عرف باسم « مركز »(*) والذي لابد وان كان يؤلف مركز المنطقة التجارية فيها ٠

(*) اوردها المؤلف بهذا الاسم ، "Merkes" » وهي تعنى نفس ما تعنيه الكلمة العربية « مركز » ذاتها ٠

وهذا يشير بكل قوة الى انه حتى وان كانت سياسة ادارة البلدية قد قررت اشادة المدينة حسب مخطط منتظم فان السكان لم يأبهوا له اكثر من الحاكمين . ان في الاستطاعة ان نصادق على ذلك في امثلة محددة .

فعندما قامت بعثة «بوتا»(**) بالتنقيب في قصر الملك بمدينة خرسباد على مقربة من نينوى ، تم الكشف عن مخطط القصر ، ولكن طبقا لما كان جاريا في أواسط القرن التاسع عشر ، افترض بأن الخطوط كانت تتقاطع في زوايا صحيحة ، بدلا من الشكل الذى رسمت به الخرائط الجغرافية ، اما في مجال مخطط موسع او مكثف .

وكانت نتيجة ذلك ان القصر كان يبدو متناسقاً كلية اشبه بالمباني التي وجدت في فرنسا في القرن السابع عشر .

على ان هذا لم يكن صحيحا في الواقع . فعندما واصلت البعثة الامريكية التنقيب في حدود سنة ١٩٢٧ ودققت مخططات « بوتا » اتضح لها تماما بان القصر كان شبه منحرف قليلا في شكله وانه لم يكن متناسقا كما افترض ذلك، في حين ان هذا يصدق ايضا على القصور الملحقة التي لم يكشفها بوتا ، وعلى قصر نبوخذنصر في مدينة بابل ، والذى اكتشفت البعثة الالمانية التي نقبت في المدينة مخططه .

والواقع ان سكان بلاد الرافدين لم تكن لديهم اية حماسة بالنسبة الى التناسق المتناخر وبالنظر الى المظاهر المتوازنة بعد ان ظلوا طيلة قرون متتالية يتطلعون الى ابداعاتهم المعمارية العظيمة .

(**) بوتا Boota واسمه الكامل باولو اميليو بوتا ولد في مدينة تورين سنة ١٨٠٢ وتوفي سنة ١٨٧٠ . عين وكيل قنصل لفرنسا في الموصل وقد شرع بالتنقيب في منطقة قوينجق (نينوى) سنة ١٨٤٢ ولما لم يعثر على =

المباني الكبرى ، المركز

يبين فحص البناية الكبيرة في بابل التي تدعى بالمركز بانها قد شيدت على مخطط شبه منحرف ، وان ثلاثا من جبهاتها ، طول كل جبهة منها حوالي اربعين او خمسين يردا ، كانت مضرسة مثل اسنان المنشار .

وليس من شك في ان هذا التصميم كان نتيجة الرغبة في كسر اطراد النسق للسطح الطويل المنبسط وذلك بايجاد مستويات بديلة للنور والظل تتغير كلما مضى النهار واضافة عنصر زخرفي .

فما عدا هذا المظهر كان المخطط مماثلا للمخطط الذي وصفناه قبلا ، والذي يحتوي على سلسلة من الباحات التي تربط احداها الاخرى غرف تنفتح عليها ، وان الفارق الوحيد هو اننا نجد بدلا من غرف البيت الاعتيادية، صالات أوسع وأقل عددا ، وذلك ترتيب أكثر ملاءمة دون ريب لبناية تستعمل لاغراض تجارية في الدرجة الاولى .

وكان للمدن في بلاد الرافدين مظهر آخر مميز ، ونقصد به الهياكل الصغيرة او المذابح المكرسة لمختلف انواع الالهة ، والتي كانت تقام في مخابىء الجدران ، والتي تذكرنا بقبور ، « ترب » السلاطين او علية القوم التي تقطع خط الشارع مباشرة في اسطنبول .

غير ان الفارق الرئيس بين مدينة من هذا الطراز كبابل ، ومدينة في اوربا الغربية ، هو ان الشوارع في المدينة الاولى تشبه الشوارع السكنية في الشرق الادنى في الوقت الحاضر والتي يكون لها جدار صوري على اي من جوانبها . فهي تستمد حياتها ونشاطها من المارة فيها ليس الا .

= اشياء مهمة ترك الموقع وانتقل الى خرسباد سنة ١٨٤٣ فاستمر ينقب فيها مدة ثلاث سنوات وقد نقل من هذا الموقع منحوتات حجرية واثارا اخرى كثيرة الى باريس عوضت في متحف اللوفر وما تزال فيه حتى اليوم .

نهر الفرات وجسره

يمتد احد الاسوار في بابل الى نهر الفرات • وفي العصر الذي تتحدث عنه كان النهر ينفتح على ارصفة وقنوات لتصريف المياه القــذرة لغــرض انقاذ المدينة من الفيضان ، وكان يقطع النهر جســر دائم يستقر على خمس قناطر •

وكان هذا الجسر مصدر دائم لدهشة المسافرين ذلك ان بغــداد مثلا . ومن دون سبب ، بقيت الى وقت متأخر جدا لا تملك ســوى جســر من القوارب كانت القناطر التي انشئت مخروطية الشكل كيما توفر اقل مقاومة ممكنة لضغط الماء على الجسر ، قد صنعت من الحجــر وغطيت بالــواح عريضة من الخشب •

ولقد تغير حوض النهر خــلال القرون ، وما تزال بقــايا الجسر حتى اليوم ترى في وسط الخرائب المحيطة بها •

ومن ثم كانت الحياة التجارية للمدينة ، كما هو الامر الآن ، تتركز في الارصفة ، في حين ادت اهمية النقل النهري في بلد كان نظام القنوات فيــه يؤلف الوسائل الرئيسة للمواصلات بين مختلف المدن ، الى اقامة الدوائــر على امتداد ضفاف النهر ، والتي كانت تسيطر على مسرى الاعمال التجارية •

وقد كانت هذه الدوائر في بعض الاحيان اشبه بالغرف التجاريـــة العصرية : فقد كانت اسعار التحويل تنظم هناك ، وفي الوقت الذي تتحدث فيه اوربا الحديثة عن التحويل ، كان العراقيون يطلقــون على المكان الذي انشئت فيــه هذه الدوائر اســم (كــروم Karum) اي رصيف الميناء •

والموقع الحقيقي لسوق مدينة بابل ما يزال مجهولا ، ولو انه كان يقع في المركز على وجه التحديد ، اي في حي الاعمال •

ولابد ان كان هذا السوق يشبه في مظاهر اخرى ، الاسواق الحديثة في مدن الشرق من امثال اسطنبول ، وحلب ، وطهران ، أو اصفهان ، اي في منطقة لها صفتها الخاصة بها ، تغلق ابوابها ليلا ، وتكون لها ممرات ضيقة تظللها مظلات تحتوي جدرانها على عدد لا يحصى من الاكشاك وتضم كل انواع التجارة ، لكنها تتجمع على غرار ما كانت عليه في اوربا خلال العصور الوسطى ، بتراث اسماء شوارعها من امثال شارع الشامبلية أو شارع الخبز . وتبين تفاهة الاسواق العصرية بكل جلاء مدى استحالة تعيين موقع هذه الاسواق في مدن الشرق القديمة .

ولم تكن المدينة مبلطة ولا مجاري فيها ، والواقع ان هذا لا يتوفر في العواصم والمدن المهمة في الشرق حتى اليوم .

غير ان الاشوريين الفوا فكرة تبليط الشوارع . فعندما شيد سرجون الثاني قصره في خرسباد خلال عشر سنوات من حكمه ، وضع مخططا لمدينة كان يعتزم انشاءها والمضي في ذلك وقد شيد السور المحيط بها فعلا .

ولقد عبدت البوابات التي يمر خلالها الى المدينة بقطع كبيرة من الحجر بكل عناية ، في حين ما يزال ممكنا ان نرى بان الطريق الذي يؤدي الى خارج المدينة قد عبد هو الاخر ايضا الى مسافة قصيرة . وسرعان ما انحط الى مسار ومن ثم اختفى تماما .

تجهيز الماء

يمكن رؤية الاهتمام الذي كان الحكام يتحسسونه لتأمين تجهيز ماء الشرب ، ببقايا مجرى ماء فوق قناطر بناه الملك سنحاريب من « جروان » ، وهي قرية تقع على بعد بضعة اميال عن نينـوى ، وذلك لتزويد عاصمتـه بالماء . فقد سبق هذا المجرى التصميم المتأخر بكل تفصيل . ذلك ان الماء كان يجري في انبوب مقوى ذي ارضية من الطين الصلب ، مغلف بالقـار ومحصن بالبلاط .

وكان المجرى يعبر الاودية على قناطر ، ويروى من عدد من الجداول الصغيرة لكي يضمن تأمين الماء الكافي للمدينة .

واذا لم نأخذ مدة لحظة بنظر الاعتبار ، الفراغات الهائـلة التي كانت المعابد تقام فيها فان « زقورة » المعبد الكبير[٩] والقصـور الملكيـة التي كانت جنائنها المعلقة الشهيرة ترى من بعيد ، والتي سيرد وصفها فيما بعد في قسم يتناول حياة الملك والبلاط ، فقد حان الوقت الآن للعودة الى اسـوار مدينة بابل التي يصنفها الاقدمون مع الجنائن المعلقة بانها واحدة من عجائب العـالم .

(٩) كانت الزقورة او برج المعبد التي تقام على مراحل او طبقات ذات احجام تتناقص باتجاه القمة ، قد جيء على وصفها في الفصل الرابع الذي يخص الحياة الدينية من هذا الكتاب . ولعل افضل ما عرف منها هي زقورة بابل التي وردت في التوراة باسم « برج بابل » .

الاسوار

كانت اسوار بابل التي عززها الملوك المتعاقبون ، وبصفة خاصة نبوخذ نصر ، تؤلف نظاما دفاعيا حيويا لا يمكن التعويض عنه ؛ وقد اتفق المؤرخون في اعتقادهم بان سقوط هذه الاسوار عند استيلاء الفرس على المدينة (سنة ٥٣٩ قبل الميلاد) كان مثار دهشة ، وانه كان يعود الى اشتراك « غوبارو » (غوبرياس باليونانية) محافظ بابل في جريمة الاحتلال ، اكثر من العمليات العسكرية(*) .

والواقع انه كان يوجد صف مزدوج من الاسوار ذو مسافة قليلة على حدة ، وان هذه الاسوار قد صممت بحيث اذا ما تم اختراق السور الخارجي منها في اية نقطة ، فان المهاجمين يجدون انفسهم وقد وقعوا في فخ بين سورين ويتم القضاء عليهم كلية من قبل المدافعين .

وكان كل سور محصن على مسافات منتظمة مزود بابراج تهيء موقعا متقدما يستطيع منه المدافعون ان يردوا اية قوات معادية قد تتقدم الى قاعدة السور في محاولة لتقويضه أو لتسلقه بالسلالم .

ويؤكد المؤرخون القدامى اهمية عرض هذا السور الذي كان يتسع لمرور عربتين فوقه الى الطريق الذي كان يصعد الى القمة ، والذي يحيط بالمدينة احاطة كاملة ، والذي يمكن على امتداده لعدد كبير من الرجال ان

(*) غوبارو Gubaru ورد في الاخبار القديمة ان غوبارو هذا كان على اتصال بالفرس وانه تآمر معهم ضد بابل . واتفق معهم على ان يهاجموا المدينة بعد منتصف ليلة عيد راس السنة البابلية حيث اباح لافراد حامية بابل ان تغرق الى اذانها في مشارب الخمر تلك الليلة حتى اذا طلع الفجر كان الفرس قد احتلوا المواقع الحصينة في بابل دون علم اهلها .

يندفعوا الى اية نقطة تكون مهددة بالخطر بصفة جدية •

وفيما وراء السور الخارجي يوجد خندق مملوء بالماء يستمد مياهه من قنوات مختلفة لزيادة صعوبة اقتحامه ، في حين كان الطين الخام الذي تشاد به الاسوار يقوى بأكسية من الآجر •

وتختلف التقديرات المدونة في تقدير احجام هذه الاسوار غير ان كلا منها يتجاوز الابعاد الحقيقية التي كشفت عنها التنقيبات •

لقد قدر هيرودتس ارتفاع الابراج بمقدار ثلثمائة قدم ، وعرضها ـ بما في ذلك سمك الاسوار ـ بمائة وخمسين قدما ، لكن التنقيبات قد برهنت على ان عرض الابراج كان حوالي سبعة وسبعين قدما ؛ وهذا يشير الى ان من الصعب ان يزيد ارتفاعها على اكثر من حوالي تسعين قدما •

وما عدا ذلك فلا يوجد شيء يشبه تماما ، المائة باب التي كانت المدينة تمتلكها •

ويقدر « ستسياس »(*) محيط المدينة بحوالي خمسة وخمسين ميلا ، وهذا غير صحيح بكل وضوح لان التنقيبات قد برهنت ان هذا الرقم يجب ان يكون في الواقع في حدود عشرة اميال • وهذا يبين ضرورة الحذر الشديد في تقبل اية ارقام لا يمكن ان تؤيدها نتائج التنقيبات •

(*) المؤرخ ستسياس ويعرف باسم ستيساس الكنيدي مؤرخ اغريقي عاش في القرن الاول بعد الميلاد وهو احد مؤرخي الاغريق الذين زاروا العراق وكتبوا عن اوضاعه وعلى الاخص مدينة بابل وجنائنها المعلقة . وكان المؤرخان هيرودوتس وديودورس الصقلي قد سبقاه الى ذلك .

الابواب

على ان المظهر الشاذ كثيرا للاسوار يتمثل في الابواب التي تؤدي الى داخل المدينة ، والتي شيدت على ذات المبدأ في كل من بلاد اشــور وبابل معــا .

لقد كانت ابواب جميع المدن والابنية في القديم تجري تقويتهــا على الدوام بشكل خاص ، لانها كانت تمثل النقطة الضعيفة في النظام الدفاعي .

وكانت الطريقة التي نفذ بها هذا الامــر في بلاد الرافــدين هي التي وفرت لها صفة مميزة ، والتي تم تصورها بكل وضوح وعلى نطاق واســع في صفات اللبن الذي شيدت به ، والذي كانت فائدته الدفاعية تعتمد على كتلتــه .

كان كل باب يعزز بقوة من الداخل والخارج معا بجدار واق من الآجر تتخلله احدى الفتحات . خلال ذلك كله يمتد ممر ينفتــح في فترات على السماء . ويمكن السيطرة على هذه الفتحات من قبل رماة السهــام الذين يوجدون في اعلى الاسوار ، في حالة اذا ما استطاع المهاجمون ــ بعد ان ينجحوا في اقتحام الباب الخارجي ــ ان يتغلغلوا عبر سمك الاسوار .

ومثل هذه الطريقة في الدفاع يمكن ان توجد في ابواب المدن والقصور في المغرب في الوقت الحاضر . ولقد اخذ « باب الشمس » في مدينة طليطلة باسبانيا عن ذات الاصل ولو انه كان على نطــاق اصغر لان الحجــر كان يستعمل هناك .

وعلى هذا فيما عدا مناطق المعبد والقصر ، فان هذا الاعتبــار يعطي لمحة عما كانت تشبهه المدينة العراقية الكبيرة فعلا اذا ما تم تمثيلها بمدينــة بابل . فلم تكن بابل من اهم المدن في كل اودية دجلة والفرات حسب ، بل ان في مقدورنا ان نقارن ايضا الاوصاف الرفيعة المتألقة التي وردت عنها مع بقايا المدينة بالصفة التي كانت عليها حقا .

الريف ، القنوات

ان المسافر الذي يمر عبر ابواب المدينة ويأخذ سبيله نحـو الريف ، سيرى ان البيوت قد انشئت وسط الجنـائن . ومثـل هـذا لا يستدعي الدهشة لاول وهلة ، لان مثل هذا كان مطبقا وتم تطبيقه على نطاق واسع في كل انحاء الشرق .

غير ان الجنائن تعتمد كلية على نظام حسن للري يستخـدم القنوات بدوره ، وهذا مظهر ضروري لحياة الريف يتطلب وصفا موجزا .

لقد كان سكان العراق منذ اقدم العصور التي عرفت يسعـون الى حماية انفسهم ضد كوارث فيضانات نهري دجلة والفرات التي كانت تؤلف خطرا واضحا ، لانها عندما تتدفق على السهل تصبح احواض النهر وشنـة نوعا ما وتجري في ارض طليقة ومتحولة .

ولقد وصل السير ليونارد وولي(*) خلال تنقيباته في مدينة اور الى طبقة من خزان للنهر ادى الى تدمير استمرار الحضارة في ذلك الموقع تماما. وقد توصل « واتلان »(**) الى ذات الاكتشاف في مدينة « كيش » ولكن على مستوى عمل مغاير .

(*) السر ليونارد وولي Sir Leonard Woolley من اشهر المنقبين البريطانيين عن الآثار في العراق . ركز تنقيباته في مدينة اور وهو الذي كشف فيها عن المقبرة الملكية وما كانت تضمه من كنـوز واستمـرت تنقيباته هناك من ١٩٢٢ الى ١٩٣٤ وضع عدة مؤلفات قيمة عن تنقيباته منها التنقيب عن الماضي ، واور ، ومملكة الحثيين .

(**) واتلان شارل CH. Watlin اثاري فرنسـي ولد سـنة ١٨٧٤ اشرف على ادارة البعثة التي نقبت في كبش في الفترة ١٩٢٦ — ١٩٣٣. وتوفى سنة ١٩٣٤ .

لقد كان هذا يشير الى فيضانين مختلفين ، وهما طوفانان متكرران من هذه الصفة التي ادت الى ظهور قصة طوفان بابل التي استنفدت قسما تاما من ملحمة غلغامش •

لقد كان الجواب لهذا الخطر يتمثل في حفر نظـام من قنـوات صمم البعض منها كيما يجري موازيا لمجاري النهر وليحول دون الفيضان ، في حين يربط البعض الاخر منها بين القنوات التي كانت قائمة قبـلا ، والقنـوات الاخرى أيضا ، للوصول الى مناطق لم تكن تروى من قبل • وتكون نتيجة ذلك ثلاثة اضعاف هي : حصول زيادة كبيرة في عدد من طرق الملاحة ، ونظام مواصلات يربط مختلف المدن ، وزيادة في مساحة الاراضي الزراعية •

كانت القنوات تبنى على اساس بسيط جدا • فحينما كانت تشـــاد اسوار المدن تكون الحفر التي يتم حفرها اولا ، هي التي توفر المادة الخام للآجر الذي تشاد به الاسوار • وبنفس الطريقة عندما يراد حفر قناة فان التراب الذي يتم حفره يلقى به على الجانبين كيمـا يؤلف بذلك سـدودا تؤمن الحماية من الفيضان في الحالة التي قد يرتفع بها مستوى النهر •

وكان الجريان الحقيقي للماء يتم تنظيمه وفق نظام لفتحات تصـريف المياه ، في حين كان توزيع الماء داخل القنوات الصغيرة التي تأخذ الماء من القنوات الكبيرة وتروي الحدائق ، تتم السيطرة عليه بشكل فعال عن طريق قنوات التصريف في السدود ، والتي يمكن غلقها أو فتحها بسرعة تماما •

والواقع ان المطر غير موجود بصفة عمليـة في بلاد الرافـدين وانـه يستحيل ايجاد زراعة بدون الري ، ولكن اذا ما ترطبت الارض بصفة كافية فان مساحات من الصحراء الحيوية تغطى بالخضار وتصبح خصبة بصـفة مذهـلة •

الخصب يعود الى الري

يمكن استخلاص اصدق انطباع عن مظهر بلاد الرافدين في القـديم من مصر وليس من المظهر الحالي للبلاد • ففي مصر كان الخضار على امتداد ضفاف النيل يتعاظم تبعا للري ، وذات الشيء يمكن رؤيته في واحة تدمـر منذ حرب سنة ١٩١٤ ــ ١٩١٨ •

ففي مجرى التأريخ تقلصت الارض الصالحة للزراعة الى نسبة تكاد لا تذكر ، لكنها ما لبثت ان تضاعفت بسرعة بعد ان تم استخدام ينابيعهـا بشكل غزير اثناء الانتداب الفرنسي •

وكان ما يوصف بالرخاء الاصطناعي يطغى دوما وبصفة طبيعيـة على تصوير الرحالين في القديم • فالبعض منهم مثال ذلك هيرودوتس كانـوا يفضلون في الواقع حسب ما دونوه ، ان لا يقتبسوا الاحصاءات التي كانت تعطى لهم • في حين ان البعض الآخر ، وهو اقل تشاؤما ، قد كرر ما دكر له عن حجم حاصلات الشعير •

فهذا « سترابو »(*) مثلا يكتب عن منتوج يبلغ ثلثمائة ضعف مـن الكمية التي بذرت • غير ان المشاهدة الحديثة تشير في الواقع ، الى ان هذا المنتوج وان كان اقل مما يستحق النظر ، فانه مع ذلك يتجاوز بكثـير اي شيء عرف في اوربا الغربية •

(*) سترابو ويسمى سترابون ايضا مؤرخ وجغرافي يوناني شهير ولد سنة ٦٣ ق. م • وتوفى سنة ٢١ ميلادية درس في اليونان وروما ومصر وقام بجولة واسعة في شمالي افريقيا واوربا وآسيا ودون مشاهداته في كتاب يقع في سبعة عشر مجلدا غنية بالمعلومات عن العالم القديم •

فالرحالة والعالم الطبيعي « اوليفييه »(*) الذي زار العراق في أوائل القرن التاسع عشر يقدر محصول الشعير بحوالي ثلاثين أو اربعين مرة من الكمية التي تم بذرها .

ومنذ اقدم العصور جدا كان حكام العراق يعتبرون ان من واجبهم ومن باب الرحمة معا ، ان يحسنوا نظام القنوات ، وفي العصر الذي شخصت فيه بعض السنين بصفة عامة ، بحوادث شهيرة للشهور السابقة . اشتهر عدد من الحكام عند الاشارة الى حفر احدى القنوات التي كان حفرها يعادل في اهميته الانتصار ، ودمج اقليم ما ، أو تشييد معبد .

اما بالنسبة الى نظام صيانة القنوات فقد كانت الاوامر تصدر من المجالس العدلية الملكية الى محافظي الولايات في الامبراطورية لانجاز هذا العمل .

ففي عهد سلالة بابل الاولى تعكس رسائل حمورابي الى هؤلاء الموظفين المحليين ذات الاهتمام الذي تكرر ظهوره في دعاوى مؤرخة في

(*) الرحالة اوليفيه G. A. Olivier رحالة فرنسي زار العراق في عهد المملوك سليمان باشا الكبير الذي حكم العراق في الفترة ما بين ١٧٧٧ و ١٨٠٢ . وكان اوليفيه قد وصل الى العراق قادما من ايران . وقد دون مشاهداته في رحلته تلك في مجلدين كبيرين صدرا له في باريس سنة ١٧٩١م .

شهر « سيوان » من السنة الثانية من حكم الملك قمبيز(*) تأمر بارسال عشرة رجال للعمل الاجباري في قناة . فاذا ما اخفق الموظف المسؤول عن حفر القناة في ذلك ، فانه سوف يعاقب من قبل (غوبارو) محافظ مدينة بابل ومنطقة عبر الفرات .

وعندما تفككت الامبراطورية الاشورية البابلية في عهد الغزو العربي والغزوات التي جاءت من الشرق في العصور الوسطى ، لم يعد السكان الذين تناقص عددهم يبدون اي اهتمام بالقنوات التي ردمت بالتدريج ، ولذلك فلا تشاهد اليوم سوى اثار باهتة منها ترى ظاهرة على وجه الارض .

ومع ذلك ففي غضون العشرين سنة الماضية(*) وبفضل الاب « بوادبار »(**) وضع المسح الجوي في متناول وسائل لا تبارى عن اعادة تشكيل مخطط هذه القنوات . ففي ضوء مائل ، يظهر التعرج الطفيف لسطح الارض الذي لا يحس به عند مستوى الارض ، عندما يلاحظ من طائرة تحلق على انخفاض ، في تضريس غير مشكوك فيه قبلا .

(*) قمبيز ويسميه الغربيون باسم « كمبوجة » هو ابن كورش الكبير مؤسس الدولة الاخمينية التي استولت على العراق وقد سار قمبيز على نهج والده في الفتوح فاستولى على بلاد مصر وضمها الى مملكته . وبتدبير منه تم اغتيال اخيه بردیا سنة ٥٢١ قبل الميلاد . ويقال ان احد المشعوذين من الفرس قد ادعى بعد زمن بانه هو برديا الذي بعث حيا من القبر ، فما ان سمع قمبيز بذلك حتى انتحر وتربع ذلك الدعي مكانه على عرش الامبراطورية الاخمينية مدة من الزمن .

(**) يقصد المؤلف بذلك العشرين سنة التي سبقت نشر كتابه هذا باللغة الانكليزية سنة ١٩٥٤ .

(***) الاب بوادبار : من الاثاريين الفرنسيين الذين نقبوا عن الاثار في سوريا في الفترة بين الحربين العالميتين .

ولكن مع ذلك تبقى مشكلة تشخيص بقـايا القنـوات التي وصلت اسماؤها الينا •

ان هذا يذكرنا بخطأ محير • فاحدى القنوات التي ذكرت في النصوص المسمارية ، والتي يبدو انها كانت ذات اهمية ملموسة ، لها اسم يقرأ على شكل « زلزلات » (Zallzallat) غير ان النصوص لا تورد اية معلومات لا عن مجراها ، ولا عن نقاط مبتداها • ولقد بذلت جهود كبيرة لتحديدها وقد طرحت بعض الفرضيات الاصلية عنها بل انها ثبتت حتى بعض الخرائط، الى ان استطاع في احد الايام شخص يدعى (ئي• دورمي)(*) : وبعـد اعادة حساب مختلف القيم البديلة الممكنة للعلامات المسمارية ، ان يقـراها بشكل مصيب باسم « ادغلات » وهو في الواقع اسم نهر دجلـة العظيم • وكانت تلك هي خاتمة القناة « زلزلات » •

وحتى في القديم كانت تهمل كثير من القنـوات الصغرى • ومع ان ماءها الذي يحمل الغرين بغزارة من الانهار الكبرى مفيد في الغالب كوسيلة لتسميد الحقول ، فان الغرين ذاته كان يؤلف مستودعا في احواض القنـاة وبصفة خاصة اكثر عندما كانت الفتحات تسـد ولا يستطيع الماء ان يجـرى ويصبح آسنا •

وكان القصب الذي ينبت في القنوات بسرعة ، في حاجـة لان يقطـع باستمرار ، وان يكرى الطمى ويكوم على الضفاف • ولكن على الرغم من الجهود المضنية كان حوض القناة يرتفع تدريجـا ، وان الطمى الذي كان

(*) دورمـي (ادورد) E. Dhorme عالـم فرنسـي متخصص بالاشوريات ولد في كانون الثاني ١٨٨١ - اختير عضوا في المعهد الفرنسي ، واستاذا فخريا في « الكوليج دي فرانس » .

يكرى ويكوم على الضفاف يزيد من ارتفاعها بالتدريج وبذلك تصبح القناة
ـ ان عاجلا ام آجلا ـ تجري اول الامر فوق مستوى الارض ومن ثم أعلى
من هذا المستوى ، وتنحصر بين سدين ترابيين • في هذه النقطة ترسم المحيطة
تحولها الى مجرى جديد يحفر على مقربة من المجرى القديم •

كانت الحقول التي في مستوى احدى الفروع الرئيسة للقناة ، تروى
عن طريق ايجاد فتحة مؤقتة في الضفاف القائمة للقنوات التي تتقاطعها وتسدها
ثانية بكميات كبيرة من التراب حين يتم ارواء الحقول خلالها •

ولكن عندما تجرى القناة اوطأ من مستوى الارض ، لابد وان يرتفع
المـاء •

ففي منطقة حماة بسوريا عندما تزداد سـرعة جريان الانهـار ، يتم
استخدام « الناعور »(*) الذي يتكون من عجلة تثبت الدلاء حول حافتها •
فعندما يدير ماء النهر عجلة الناعور تمتلىء تلك الدلاء بالماء بصفة متعاقبـة
وتفرغه في الارتفاع المطلوب •

وتشتغل هذه الالات ليل نهار ، ويعج الهواء باصوات حركتها الكئيبة •

ومع ذلك فقد كان الشائع كثيرا في العراق هو استخدام الشادوف •
وقد رسم هذا الشادوف على النصب ، ويبدو بانه قد شخص تشخيصا حيويا
بما يمكن ان يشاهد اليوم ليس في ذات المنطقة حسب بل وفي كل انحـاء
الشرق •

(*) اخطأ المؤلف او مترجم الكتاب عن الفرنسية في تهجئة « ناعور » العربية
فكتبها باسم (نعوريا Noria) وهو يقصد بها « ناعـورة » على
وجه اصح .

يتألف الشادوف من صارية متحركة على دعامة • ويربط الحبل الذي يشد به الدلو ، في النهاية الطويلة لهذه الصارية • يرفع العـامل النهايـــة القصيرة للصارية التي تشد بثقل مقابل ، ويدلي الدلو في داخل الماء • ومن ثم ينحني على الثقل المقابل • ويرتفع الدلو فيفرغ ماءه في بركة تمد القنوات بالماء الذي يجري خلالها ليصل الى الحقول ، وهكذا يستمر تكرار العملية •

هناك تغيير طفيف في هذا العمل يتمثل في استخدام احد حيوانات الجر كالحمار والثور • فالدلو يغطس في الماء نتيجة ثقله الخاص ، ومن ثم يسحب الحيوان الحبل الذي يمر افقيا حول بكرة تشبه بكرة الدولاب ، حيث يفرغ الدلو الماء كالسابق ، وعندما يعود الحيوان الى النقطة التي بدأ منها يسقط الدلو ثانية في الماء الذي يهب الحياة •

الملاحة

يعتبر الانتقال من الطرق المائية الى الملاحة امرا طبيعيا . ذلك ان التغيرات التي حدثت في مجاري نهري دجلة والفرات ، والتيارات التي كانت سبب تحول القعر المنطلق ، كانت تعيق ملاحة السفن العميقة الغور بالنسبة للقسم الاعظم من اطوال هذين النهرين .

غير ان السفن الموغلة في القدم لم تكن على هذه الشاكلة بصفة عامة . فقد كان معظمها يتألف من زوارق كبيرة تشبه الزوارق الخفيفة التي تستعمل الآن في سوريا لتفريغ السفن الكبرى .

وبالنسبة الى العدد القليل من المراسي الطبيعية ، والنقص التام في عدد الموانيء التي توفر الحماية ، فقد كان من المعتاد بالنظر الى السفن ان ترسو فيها اثناء الليل وان تحتمي تحت بعض الكهوف التي تحميها من الاتجاه الذي تهب الرياح منه ، في حين ان الزوارق التي تتحرك صراحة على وجه الماء بفعل ملاحيها ، كانت تكشف عن مدى احجامها في هذا العصر .

لقد كان هذا النوع من الزوارق هو المطبق استعماله في القنوات والذي كان يجر بالحبال ، حيث تصور بعض المنحوتات الناتئة ، وعلى الاخص الواح البرنز على ابواب القصر الذي تم اكتشافه في قرية « بلاوات » الحديثة(*) خطا من رجال على شاطيء النهر وهم يسحبون سفينة موسقة باحمال ثقيلة .

(*) بلاوات اسم قرية تبعد عن خرائب نمرود حوالي ١٢ كيلومترا نقبت فيها البعثة البريطانية سنة ١٩٥٦ فعثرت على صفائح من النحاس كانت تزين احد ابواب قصر الملك اشور ناصر بال الثاني وهذه الصفائح مزينة بمشاهد وصور منها صورة الملك نفسه .

وبذات الطريقة تشير شريعة حمورابي بصفة خاصة الى المعبر الـذي اصبح فيما بعد ، دون شك ، يتحرك مثلما هو عليه الآن ، بامتداد حبل من احد جوانب النهر الى الجانب الآخر منه .

وبالتعاقب كان الزورق في الماء الساكن الذي يشبه مياه القنـوات ، يسحب بالحبال غالبا ، وتلك طريقة توجد لها رسوم كثيرة . وقد يكون هذا حقا الاصل الاكدي لكلمة ملاح التي كانت تتألف من علامة للزورق ، وعلامة للرواح والغدو ، لكي تميز الحركة المتواصلـة من المجـداف الى الكوثل وترتد مرة أخرى الى الرجل الذي يطوي الصارية .

واخيرا كانت هذه الزوارق الكبيرة تزود احيانا بالاشرعة بصفة منتظمة وكانت تتألف على اكثر احتمال من الحصر مثلما كان يحدث ذلك في الشرق الاقصى .

وفي العصر الذي نتحدث عنه كان موقع السكان يحتله مجداف كبير في الكوثل ، أو أنه ، في الواقع ، قد يستغنى عنه تماما .

واذا ما حكمنا بالنصوص التي تتناول الحمولات التي كانت الزوارق تنقلها ، بدا لنا ان طاقتها كانت صغيرة . وبهذه الوسيلة نعرف من عهد سلالة اور الثالثة زوارق في قنوات كانت تنقل ما يتراوح بين خمسة وخمسين الى مائة وخمسة وخمسين بشلا من القمح .

من بين النصوص الكثيرة التي تتحدث عن موضوع نقل التجـارة في المياه ، بعض نصوص يرقى تأريخها الى العصر السومري (وهي اقـدم من النصوص التي يشملها هذا الكتاب بصفة ملحوظة) تتنـاول كيفيـة صنع القـارب .

وكانت هذه النصوص تستخدم عبارات واسعة جدا اصبح الكثير من

معانيها غير معروف في الوقت الحاضر • ومع ذلك فان محض وجودها دليل على مدى الاهمية التي كانت تتمتع بها الملاحة خلال الالف الثالث قبل الميلاد•

ينبغي لنا ان نتذكر بان ما نحذفه من امثال العبارات الفنية والتي تصبح مهملة لهذا السبب ، كانت تعتبر حقا شواهد على غنى اللغة وعلى مستوى مدنية الامة التي كانت تستخدمها •

فاذا ما قسنا مدنية السومريين بهذا المعيار مثل بقية المعايير الاخرى الكثيرة ، نجدها قد تطورت تطورا رفيعا مدهشا •

ولما كان بناء القارب من الاعمال الشهيرة ، فان اولئك الذين يحتاجون الى احد القوارب ، غالبا ما كانوا يلجأون الى استئجاره • ففي السنة السابعة عشرة من عهد حكم الملك نبو نيدوس مثلا ، استأجر شخص يدعى « مورانو » قاربا بطاقة قدرها مائة وخمسون « غور »[١٠] لغرض استعماله من لدن معبد « اينأنا » في الوركاء بمقدار خمسة شواقل ونصف من الفضة لمدة شهر واحد ، من اليوم السادس من (ايلول) [اب ـ ايلول] الى اليوم السادس من تسري [ايلول ـ تشرين اول] • ولقد دفعت سلطات المعبد بدل الايجار سلفا ونص عقد الاستئجار على انه اذا ما ثبت بان طاقة القارب اقل مما ذكر ، فان الدفع يتم تعديله وفقا لذلك •

---

(١٠) اما ستمائة او ثلثمائة بشل طبقا لقيمة الفور •

القفة الكلك

هناك نوعان من القوارب تختص ببلاد الرافـدين بقيت تستعمل حتى الوقت الحاضر . هذان النوعان هما القفة والكلك .

اما القفة فكانت نوعا من سلة مدورة تشبه السلة التي يستعملها العمال لحمل التراب والآجر على رؤوسهم وقد اطلق اسمها على قوارب من هـذه الشاكلة . وهي في الواقع سلة من اغصان مدببة وذات قعـر منبسط وغير عميق جدا . وكان القعر يغطى بالجلود ويغلف بنسالة الكتان وقطع مـن الصوف ، تضغط جميعها بشدة وتمزج بالطين الرقيق والقار الذي يضمـن عدم تسرب الماء خلاله .

كان القارب يحرك من قبل رجل ورجلين بمجاديف قصيرة وهكـذا يتحرك القارب متجها الى امام دون ان يدور حول نفسه .

وحين كانت هذه القوارب توسق بحمولات متنوعة لا ترتفع حافـة القارب عن سطح الماء الا بضع بوصات .

ولم يكن ملاحو القفف يترددون في عبور الانهار سريعة الجريان مـن امثال نهر دجلة ، لكن هذه القفف كانت تستعمل بصفة اعتيادية في نقـل السلع صعدا في النهر وانحدارا معه . وتشبه القفف التي رسمت في المنحوتات الاشورية الناتئة القفف التي تستعمل في الوقت الحاضر بصفة مطلقة .

اما الكلك فانه رمث يصنع اما من اقوى انواع القصب الذي ينمـو بكثافة في الاهوار والتي تبلغ من الطول درجـة تخفي الانسـان تماما او ـ وهذا هو المفضل ـ من احسن انواع الخشب الذي يستطيع بناة الارمات الحصول عليه محليا . ويزداد تعويمه بربط جلود الماعز المنفوخة تحت سطحه، والتي تجعله قادراً على حمل وزن كبير . وعندئذ يطوف الرمث الموسق في

النهر باتجاه التيار ويتم تحريكه وتوجيهه بالصارية معا الى ان يبلغ بعض النقاط في جنوبي بلاد الرافدين .

وهناك اماكن للتوقف فيها حيث يتم تفريغ الحمولة ، ويفكك الكلك ، ثم تباع اخشابه (وهي اكثر ندرة في جنوبي العراق منها في شماله) ، وتطوى جلود الماعز وتنقل على الحمير ، اما الملاح الذي تحول الى قائد للقافلة فانه يعود الى النقطة التي بدأ منها حيث يبدأ هناك بالعملية كلها مجددا .

ولم يكن كل واحد يملك قاربا ، ولكن كل فرد غالبا ما تحدث له مناسبة عبور شبكة القنوات التي تكون جد عريضة وجد عميقة بشكل ظاهر حين يراد خوضها ، شريطة ان لا يكون القارب ذا حمولة ثقيلة ، كما ان في مقدورهم استعمال « الاطواف » التي تتألف بكل بساطة من كتلة من القصب تشد سوية عند نهاية كل واحدة منها وتكون منبسطة في الوسط . وهذه الاطواف لا يمكنك ان تعبر بها دون ان تبتل اقدامك ، لكنها لا تغرق .

واخيرا فان غير الماهرين في السباحة يستطيعون الاعتماد على جلود الماعز . وهذه تشبه القرب التي يستعملها السقاة ورشاشو الماء في الشرق ، وهي من جلد حيوان يقطع رأسه واطرافه ، وبذلك يحتفظ بشكله الطبيعي . ويتم نفخ الجلد كلما وجد ذلك ضروريا ، وبالامساك به أو وضعه تحت الصدر ، يستطيع البابلي ان يعبر دون ان يتعرض لخطر الغرق . وتوجد منحوتة ناتئة تصور جيش اشوريا يعبر النهر بهذه الطريقة [لوح ٣ ب] .

وتستعمل الجلود لاغراض مختلفة يوميا ، من امثال حفظ الزيت أو الخمر . وهناك رقيم مؤرخ في السنة الثالثة من حكم الملك نبونيدس ملك بابل يمثل ايصالا باثنى عشر ظرفا منفوخا .

صيد السمك

كذلك كانت القنوات مفيدة ايضا كمصدر للسمك . وغالبا ما يشار الى صيد السمك على انه احدى الحرف ، ففي مصبات النهر على مقربة من الخليج العربي كان ما يتم صيده من الاسماك يبعث به للبيع في مدن المنطقة ، غير ان المدن التي تقع بعيدا جدا عن هذا كانت تصيد السمك من القنوات والبرك . [بركة اسماك] .

ويبين نحت ناتىء اشوري بركة صغيرة مدورة تسقى بماء احد الجداول وقد اعتنى النحات كثيرا بان يظهر بجلاء مظهر السمك الذي تحتويه تلك البركة ، وكأنه ظاهر على سطح الماء .

وكان صيد الاسماك يتم بصفة عامة بواسطة الخيط ، غير ان هناك انواع مختلفة من الشباك كانت تستخدم ، وكانت هذه تدعم التجارة بشكل حي ، مما سنتحدث عنه ثانية عندما نصل الى صانعي السلال .

ان البركة التي صورت على هذه المنحوتة الخاصة ، منتظمة الشكل الى درجة انها تبدو في صورة مقلاة خاصة تسقى بفرع جدول من احدى القنوات .

وهناك منحوتة اخرى اقدم في تأريخها بحوالي الفي سنة من العصر الاشوري ، مصورة على نصب في المقابر الملكية بمدينة اور ، عرفت باسم « الراية » ذات اشكال صغيرة من اللالىء الكبيرة على ارضية من حجر اللازورد . فهذا المشهد يصور موكبا من الحمالين ، اما من الذين فرضت عليهم الجزية أو من الارقاء ، وهم يحملون غنائم النصر الذي يخلده النصب ويبين هؤلاء احدهم وهو يحمل سمكة ضخمة .

البساتين

لا توجد بعد وصف القنوات التي يعتمد على مياهها خصب البلاد ، سوى خطوة قصيرة للوصول الى البساتين والمناطق المزروعة التي تزداد اهميتها بالنسبة الى بعدها عن المدن .

ولكي نحكم بالاستناد الى البساتين القائمة حوالي بغداد وفي واحات افريقيا الشمالية حيث تكون التربة واحوال المناخ مماثلة لما هو موجود منها في بلاد الرافدين ، لابد وان كانت هذه الحدائق مؤلفة من اراض مستطيلة في بلاد الرافدين ، لابد وان كانت هذه الحقائق مؤلفة من اراض مستطيلة التي كانت ذاتها تستظل بعدد قليل من اشجار النخيل .

ولقد سجل منتوج هذه البساتين في نصوص وعلى نصب حيث يتوفر لنا وصف معاصر لواحد منها دونه كتبة ملك بابل مردوك أبال ادينا والذي اشتهر بصفة عامة باسم ميروداش ـ بلدان(*) .

(*) مردوك ابال ادين : اسم اطلق على عدة ملوك الاول منهم حكم في الفترة ١١٨٧ ـ ١١٧٥ قبل الميلاد وهو من السلالة الكشية والثاني حكم في الفترة ٧٢٢ ـ ٧١١ قبل الميلاد وهو من السلالة العاشرة ذكر اسمه على حجر حدود وعلى سيف محفوظان في المتحف البريطاني وفي متحف اللوفر .

بستان ميروداش بلدان

يوضح النص ان هذا البستان لم يكن متنزها ملكيا بل نوعا من بستان خضار • ولا يوفر هذا النص معلومات نافعة عن انواع الخضار التي كانت تؤكل في ذلك التأريخ حسب بل انه يلقي الضوء ايضا على طريقة التصنيف النباتي التي كان البابليون يستعملونها •

لقد كانت النباتات تجمع حسب الانواع (والاحرى بما قرره الكاتب من ذات الانواع) ، وكانت تصنف اما بالاشارة الى بعض المميزات العامة المحددة ، أو بالاشارة الى استعمالها بكل بساطة • وهكذا كان الثوم والبصل والكراث تؤلف طائفة واحدة ، بينما تؤلف الاعشاب العطرية كالنعناع والريحان طائفة أخرى •

وهناك طائفة ثالثة تتألف من التوابل من امثال الزعفران والكزبرة والسذاب (وكذلك يحب الرومان هذه التوابل حبا عظيما) والزعتر ، والفستق • وقد ورد ذكر الصمغ أيضا ومثل ذلك القرع والبطيخ الذي كان ينمو على اشكال منوعة كثيرة في الشرق •

وهناك الخضراوات أيضا من امثال اللوتس والهندباء • كما يوجد عدد مدهش من اعشاب قوية الرائحة من امثال الحبة السوداء ونوع من انواع الجزر •

وكانت الخضراوات تحتوي على العدس ومن بينها انواع اقل مذاقا من امثال الشوندر واللفت •

وما عدا ذلك كانت قوائم الاشوريين تشتمل على بعض الخضراوات التي بقيت من دون تشخيص ، في حين تم تشخيص البعض الاخر منها بطريقة الحدس ليس الا •

وتشتمل اشجار الفاكهة على النخيل (وسنتحدث كثيرا فيما بعد عن تجارة التمور) والرمان الذي لم يكن يحصل منه على الشراب حسب بل كان يثمن بدرجة عالية كيما يهدى الى الملوك مثلما تستطيع ان تشاهد ذلك على منحوتة ناتئة من خرسباد تصور كل الاستعدادات المتخذة لاقامة وليمة في القصر .

وهناك اشجار المشمش ايضا ، واشجار الخوخ والكمثرى والاجاص (والاخير منسوب الى بلاد فارس ويسمى في اللغة اللاتينية باسم « التفاح الفارسي ») ، واخيرا اشجار التين . فهناك انواع كثيرة من التين التي تبدأ بالنضوج بصفة متعاقبة ابتداءا من شهر حزيران حتى فصل الخريف ، غير ان سكان الشرق يعترفون بان هذه الانواع مغايرة للتين الاثيني . فكل هذه الفواكه تنمو بصفة رئيسة في منطقة اواسط بلاد بابل واشور حيث يكون المناخ ملائما لها .

ويبدو ان هيرودوتس لابد وان جاب بلاد الرافدين في تأريخ ظهرت فيه اشجار التين والكروم والزيتون بصفة عملية لكنها ما تزال غير شائعة ، لانه وان كان قد لاحظ ان هذه الاشجار لم تكن موجودة هناك الا انها كانت مصورة على المنحوتات الاشورية مثال ذلك شجرة التين المرسومة على احدى المنحوتات من خرسباد .

وكان الزيت يستخلص من نبات السمسم ذلك لانه في العصر الذي يتناوله هذا الكتاب كانت قد جرت اقلمة شجرة الزيتون قبل قرون قليلة سابقة . وقد تم تحسين ما كان موجودا منها عن طريق الزراعة المكثفة وقد نجح ذلك بصفة خاصة في بلاد آشور والاقطار المجاورة لها . وهذه الشجرة مصورة في المنحوتات الناتئة ، وان الجنود الاشوريين قد قاموا ، وهم في

حملاتهم العسكرية ، باستئصال اشجار الزيتون في احدى النقاط بهـدف افقار بلاد العدو .

في هذا التأريخ كانت اشجار الكروم قد وصلت الى بلاد اشور حديثا. فهناك نصوص تشير الى بيع الخمر ، وان اشجار الكرم تشاهد مصورة على منحوتات في المتحف البريطاني يعود تأريخها الى عهد اشور بانيبال . وهي ملتفة حول جذوع اشجار في حديقة كان الملك يتناول طعامه فيها ، بل حتى في مشهد صيد حيث تم الاحتفاظ بالحيوانات الوحشية لغرض الصيد .

حوش المزرعة

كانت احواش المزارع تلحق بالحدائق ، وان النصب والنصوص تسجل الحيوانات التي تحتلها من امثال البط والاوز • [هنالك رقيم يرقى تأريخه الى سلالة اور الثالثة ، اي حوالي سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، يشير الى تهيئة الدجاج في مناسبة مولد ابنة الملك] •

ولقد صمم العراقيون احجار الوزن في شكل بطة التف رأسها ورقبتها كيما تستقر على ظهرها •

وفي خلال الالف الثاني قبل الميلاد كانت الدجاجة لم تدجن الا في سوريا وحدها ، غير انها غدت مألوفة في بلاد الرافدين في عصور الفرس والاشوريين •

هنالك كتابة لاحد الفراعنة تسجل الاشياء الثمينة ، أو الغريبة على الاقل ، التي جيء بها من الحملات العسكرية في سوريا ، تتحدث عن طائر يقبع على بيضة كل يوم •

وفي العصر البابلي الحديث وجد الديك بين الحيوانات المصورة على نقوش غائرة ، في حين ان الساسانيين ادخلوه في الصور الزخرفية على منسوجاتهم •

وكان الحمام يعشعش عادة في ثقوب تفتح مباشرة في جدران البيوت ، وقد عثر على هذا الترتيب في نموذج من الفخار ، محفوظ الآن في متحف اللوفر ، يعود الى معبد من قبرص في حين كان معبد الآلهة في « بافوس »(*) يأوي سربا كبيرا من الحمام •

(*) بافوس Paphos مدينة قديمة تقوم على الشاطىء الغربي من جزيرة قبرص اشتهرت بمعبدها . ويقال ان الذي اسس هذه المدينة هو اغابنور ملك اركاديا بعد عودته من حرب طروادة .

وكانت الطيور البرية التي يحتفظ بها احيانا كطيور اليفة ، تشتمل على ابي قردان والكركي ومالك الحزين (الذي عدت سبعة انواع منــه) التي تعيش في الاهوار ، وكذلك البجع الذي كان يدرب على صيد الاسماك ، في حين كانت الحقول موطنا لطائر السمان والشحارير والعصافير والقبرات.

وكان طائر السلوى نادرا ولو انه كان شائعا في سوريا ، غير ان الحجل والدراج كانت تربى في البلاد ، ونستطيع ان نرى الدراج يصطاد بالسهــام في منحوتة من خرسباد من عهد الملك سرجون الثاني محفوظة الآن في متحف اللوفر وكانت هذه الصورة هي فاتحة الكتاب) .

وعن طريق المفارقة هنالك طيور قنص كثيرة من بينها العقبان والنسور والبوم التي يتطلب حفظها وجود اقفــاص كبــيرة في حين ينبغي ان تحفظ حاصلات الحقول التي نضجت حبوبها من غارات الغربان والفئران .

الزراعة على نطاق واسع وحاصلات الحبوب

حان الوقت لان نقيم المقاطعات الزراعية الكبيرة التي كانت الزراعة فيها تطبق على نطاق واسع . كان قوام المنتوج الذي يعنيه سكان العراق حين يتحدثون عن القمح ، هو الشعير . وكان هذا المنتوج ينمو بريا . وقد سبق لنا ان وصفنا نطاق انتاجه ، وكان في بعض المواقع يوفر حصاداً لعدة مرات خلال سنة واحدة .

ولم يكن الشعير من اشهر المحصولات الطبيعية النافعة حسب وانما كان اعظمها وفرة ايضا ، وعند انعدام النقود وكاداة للتبادل كان محصول الشعير يستخدم مقياسا مقبولا للقيمة .

وكانت هذه الوظيفة الاساسية للحبوب في القضايا البشرية قد تم الاعتراف بها ثانية في احدى اللحظات الحرجة في التأريخ الفرنسي . فعندما اعيد تنظيم النقابة في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ، ثبتت العقوبات التي فرضت على اعضائها في صفة حدود « عشرة الاف غرام من الحنطة » .

ويعتقد معظم الطبيعيين ان القمح النشوي المعروف باسم الحنطة المكتسبة كانت اصيلة في بلاد الرافدين لكنها لم تكن شائعة أو مهمة كالشعير . وكذلك كان الدخن يؤكل ايضا .

الجاروف والمحراث

كانت القطع الصغيرة من الارض تحفر بمجاريف مصنوعة من حجـر صلب حافاتها مثلمة في شكل فج لاس واحد من مجاريف . ولقد تم اكتشاف مثل هذا النوع من الادوات في منطقة « قطنة »(*) في سوريا .

اما في الحقول الواسعة فقد كان البابليون يستعملون المحـراث الذي نشاهده مصورا صراحة على النصب القائمة حتى اليوم .

فالمحراث ذاته والقسم الجبهوي منه اذا ما نظر اليه من جانب واحد ، يبدو قائم الشكل ، لم يكن يصنع من الحديد وانما من الخشب الصلب يتم شحذه او ربما يربط به حجر مشحوذ .

ويحمل المحراث ساقا عمودية تنتهي عند القمة في شكل صندوق ، لابد ان يكون باذرة بذور ، ولذلك يمكن للبذر ان يهبط داخل الساق المجوفة ويسقط في قعر الاخدود الذي يحفره المحراث .

(*) قطنة منطقة زراعية معروفة في سوريا تقع الى الشمال الشرقي من مدينة حمص وقصبتها هي مدينة قطنة ذاتها . نقب فيها الكونت دي مليـل دي بويسون . حاصرها سبى لوليوما ملك الحثيين ودمرها تدميرا كاملا.

لقد كان دين بلاد الرافدين يمس الحياة في كل نقطة ، وان الرموز التي كانت تحمل اهمية دينية بالنسبة الى البابليين قد اصبحت تفسر الآن بانها مجرد صور زخرفية .

وهكذا فان الاشكال التي تبين احد الاسود ، او نسرا يحلق بجناحيه ، أو محراثا ، أو شجرة تين ؛ التي امكن تمييزها في بقايا الزخارف الجدارية التي اكتشفت في خرسباد ، كل هذه كانت في الواقع اربعة رموز دينية ؛ أو توابع للآلهة .

وغالبا ما يرسم المحراث على احجار الحدود التي تحمل اجراءات هبة ارض ويرقى تاريخها الى العصر الكشي (النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد) .

والحقيقة ان واحدا من هذه الاحجار قد دون عليه اسم الآله الذي يرمز اليه المحراث ، وهو الاله السومري ننغرسو الذي اصبح فيما بعد الها للمعارك لكنه في هذا التأريخ كان ما يزال الها للزراعة .

وعلى ذات الحجر سوية مع بقايا كتابة ، يوجد ما اعتبرته سنبلة قمح يحمل اسم الآلهة « شالا » وهي آلهة سومرية تم تشخيصها مؤخرا بانها الآلهة « بابو » (أو بابا) ولذلك اشتهرت باسم « سيدة سنبلة القمح » .

دراسة القمح

تبدأ دراسة الحاصل بعد الحصاد . وهناك طريقتان لا معدى عنهما . فالطريقة المصرية تكون باستعمال المدقة ، وغالباً ما يرى أوزريس اله الزراعة وهو يحمل مدقة وكأنها بمثابة بندقية . اما الطريقة الاخـرى والتي كانت مستعملة ايضا في مصر ويبدو ان البابليين كانوا يفضلونها على غيرها ، فهي دوس القمح الذي كان ينشر فوق ارضية للدراسة ومن ثم يداس بعدد من اقدام الثيران أو الحمير التي كانت تتحرك بشكل دائري الى ان ينفصل حب القمح عن القشور تماما .

هنالك فرق في هذه الطريقة الاخيرة تشتمل على ادوات بسيطة عرفها الرومان باسم « ماكنة الدرس » والتي يمكن ان ترى في بلاد الشرق الادنى في الوقت الحاضر .

وهذه الالة تتألف من لوح سميك من الخشب الصلب ذات سطـح محزز تستقر على الارض ، وتكون نهاية جبهتها مرتفعة قليلا وقد ادخلت في هذه الحزوز اعداد كبيرة جدا من اسنان حجرية .

وعلى اللوح مقعد للشخص الذي يسوق الحيوانات التي تجر هـذه الالة التي تتدحرج فوق ارضية الدراسة الى ان ينفصل الحب عن القشور .

والمعروف تماما ان هذه الالة التي ما تزال تستعمل في منطقة الشـرق الادنى في الوقت الحاضر ، قد استعملت من قبل العراقيين في العصر الاشوري الحديث لان هنالك دلائل تشير الى استعمالها محليـا في تأريخ موغل في القدم(*) .

(*) هذه الالة التي يصفها المؤلف هى ذات الالة المعروفة باسم « جرجر » التي كانت شائعة الاستعمال في العراق بعد الحرب العالمية الاولى وما زالت تستعمل في بعض المناطق الزراعية وعلى الاخص في المناطق الشماليـة والشمالية الغربية . وكذلك في مصر وسوريا ايضا .

من بين المقابر الملكية في اور واحد يدعى قبر الملكة اكتشفت فيه بقايا مركبة تجرها الحمر الوحشية . وهذه المركبة تؤلف جزءا من هـــدايا الدفن التي كانت تشمل الخدم والحيوانات التي يضحي بها احتفالا بمثل هـــده المناسبة ، في حين كان قبر الملك يضم دلائل شاخصة لهيكل عربة وعجلاتها .

ومع ذلك فان المركبة التي وجدت في قبر الملكة يبدو عليها بانها كانت خالية من العجلات لانه لم يعثر على أثر لها . وعندما اعاد مكتشفها الســر ليونارد وولي تشكيل بقاياها بدت وكأنها نوع من زلاقة او كرسي خشبي طويل فوق زحافات قصار ذات نقطة مرتفعة من امام .

فمثل هذه المركبة غير المألوفة قط والتي يمكن مقارنتها بصفة نسبيــة بالزلاقات التي وجدت في مقابر المصريين ، انما هي بحـــد ذاتها ذكرى ماض بعيد عندما كانت العجلة ما تزال غير معروفة .

ومع ذلك فان اعادة تركيبها من لدن السر ليونارد وولي ، وهي نتيجة لا مفر منها نجمت عن الملاحظة الدقيقة للبقايا الموجودة ، تصل الى درجــة مقعد مرتفع له زحافات قصيرة . وعلى هذا فانه لا يشبه الزلاقة قطعا . لان المظاهر الرئيسة فيه هي وجود بدن واطىء معلق وزحافات اكثر طولا .

فاعادة تركيب هذا الكرسي يبدو في ظاهره مشابهـــا تمـــاما للجرجر الروماني ، وان الشيء الملاحظ هو ان الكثير من الدلائل التي وجـــدت في القبر تشير الى مواد ذات اهمية سحرية وانها ترتبط بطقوس خصوبة الارض، من امثال الجواهر التي كانت تصنع على شاكلة سنابل القمح ، والرمـــان والثيران ففي مثل هذا المحيط لن يكون الجرجر ، اذا كان واحـــدا ، خارج هذا المكان .

بعد ان تتم عملية درس المحصول يتم خزن القمـــح في اهراء . ويبين دليل الانطباعات لاختام اسطوانية قديمة من مدينة سوسة ان المزارعين قـــد

توصلوا في وقت مبكر جدا الى افضل شكل لاقامـــة الاهراء ، ونعني به الاهراء الاسطوانية العالية ، وذلك شكل بقي في الواقع من دون ادنى تغيير حتى الوقت الحاضر .

وكانت ترى بعض الاهراء وقد نصبت سلالم كيما تعين حملة القمـح على التسلق وافراغ اكياسهم في القمة ، في حين لا يوجد ادنى شك عن وجود باب صغيرة في السقف تؤدي الى القعر بحيث يمكن اخراج الكميات المطلوبة من القمح بسرعة .

ولابد ان يلاحظ بان هذه الاهراء كانت تستقر على اســاس خشبي مشبك ، وذلك للوقاية ، دون ريب ، من رطوبة الارض وكذلك من هجمات القوارض ، كما كان يثبت نوع من الحواجز في اعالي الاهراء .

بيع القمح واعارته

ادت المتاجرة بالقمح الذي كان مع التمور سوية يؤلف المواد الاساسية للتجارة ، الى استعمال عدد من الوثائق بصفة طبيعية مثل الايصالات ، والقروض ، والضرائب المستحقة الدفع بالقمح ، والتبادلات ، وسجلات الانفاق على القمح المعد للاستهلاك من قبل الخدم أو الدواجن الحية . وفيما يلي بعض الامثلة القليلة على ذلك :

(أ) مكاييل القمح الذي كان يجهز في دفعة واحدة خلال شهر سيوان الى معبد اينانا في الوركاء وفي السنة الثانية والثلاثين من حكم الملك بوخذ نصر .

(ب) معلومات بسيطة عن دين شعير . ولما كانت الكمية تبلغ ١٣٦ (كورو)[11] فانه يوجد ضامنان .

(ج) وعد بمقايضة الشعير مقابل كمية مساوية من التمور في معبد اينأنا حيث تحفظ المستندات هناك ثم تعاد عندما تتم الصفقة .

(د) دين بشعير . فاذا لايمكن تسديده بالحنطة فيجب ان يسدد بالفضة حسب الاسعار البابلية وذلك في السنة العاشرة من حكم الملك دارا .

واخيرا هناك تقرير بسجل تسخير بعض العمال الذين ارسلوا الى مدينة بابل لحراسة كمية من الشعير ، وتحذير اليهم بانهم في حالة تمردهم سوف يستجوبون من قبل محافظ مدينة بابل .

تقدم النصوص العديدة التي تتناول القروض ، سواء كانت لاغراض الطعام أو البذار ، اعظم المساعدات في محاولاتها الرامية الى وضع سجل

---

(١١) حوالي ٥٤٠ او ٢٧٠ بوشل طبقا لقيمة الكورو .

زمني ثابت ، ذلك لانها كانت على الدوام تتضمن فقرة تنص على ان يسدد المقترض القمح بكمية محددة من التمور في موسم الحصاد .

ولما كان البابليون يستعملون الان التقويم القمري فقد كانت شهورهم تتعرض لاغلاط طفيفة وكانت تقع مصادفة في علاقة صحيحـــة بالنسبة الى الفصـــول .

ومن ناحية ثانية وكما قيل قبلا ففي الوقت الذي يمكن فيـــه احتساب تاريخ الخسوف فلكيا ، أو اختفاء الكواكب السيارة أو طلوعها اهليلجيا ، فان مثل هذه الظاهرة تحدث بصفة دورية ، وان الخيار يقع بين تأريخين أو ربما ثلاثة تواريخ لا معدى عنها .

مثال ذلك اننا اذا ما تصورنا باننا نستعمل تقويما قمريا بشهور اقصر من مدتها الحقيقية ، واننا لا نعرف ايا من التأريخين القطعيين اللذين نختارهما، فاذا ما وجدنا بان القمح ينبغي ان يسدد في شهر آب عند الحصاد ، فاننـــا نستطيع مباشرة ان ننبذ التأريخ عندما يقع شهر آب في فصل الشتاء ونفضل عليه شهر آب عندما يقع في فصله الصحيح . وهذا الحســاب الذي يســتند الى التواريخ المدونة في الرقم الطينية يساعدنا على اختيار تأريخ واحد من عدد من التواريخ البديلة الواضحة بدقة تامة .

الحيوانات الداجنة

الحمار

يمكن للمساعدة التي يقدمها الحيوان النافع في العمل ، ان تضاعف من منتوج الانسان . ولذلك فمن المهم ان نعرف ما هي الحيوانات التي كانت متوفرة لدى البابليين لهذا الغرض .

لقد كان الحمار في ذلك الوقت كما هو معروف الآن في كل انحاء الشرق ، والذي عرف منذ عصور قديمة جدا ، من اكثر الحيوانات التي تستعمل بصفة عامة في اعمال الجر او النقل . فهو لم يستبدل ابدا بالحصان الذي بقي على الدوام حيوانا نبيلا ، ولم يكن الواحد منه يربى مثلما اشتهر به الحصان الحديث الذي يجر العربات .

وحتى العصر الساساني لم تكن الدواب التي تربى بنجاح لحمل وزن جيد ، قادرة على ان تحمل الفارس بكامل عدته ، بالاضافة الى جلة الحصان التي تغطى بالواح معدنية . فعند ظهورها لاول مرة في عهد سلالة بابل الاولى ، تجد خيولا كانت تجر العربات الحربية . ولعل واحدا من الاسباب التي ادت الى نجاح الغزوات التي قام بها الحثيون في آسيا الصغرى ، والحوريون في القفقاس ، والكشيون في جبال زاغروس ، هو انهم جلبوا خيولهم معهم من انجاد مرتفعة ، وان عرباتهم سريعة الحركة التي كانت تمثل في ذلك الوقت سلاحا غير معروف ، كانت ذات اثر فعال في الاستعمال وفي تقويض العدو .

واخيرا ، ولكن خلال العصر الاشوري (وطبعا كنتيجة للغزوات التي كان يقوم بها ممتطو الخيول الذين افتتحوا اسيا الغربية في النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد) أصبح المشاة الذين يركبون الخيول عنصرا معترفا به في الجيش ، وقد تطور هذا في الحال الى الخيالة الحقيقية .

الحمار والحصان الوحشيان

كان الحمار الوحشي خلال الالف الثالث قبل الميلاد يستخدم للاغراض العسكرية التي لا يستطيع الحمار الاهلي ان ينهض بها اطلاقا .

وكانت قطعان من هذه الحيوانات ومن انواع عرفت باسم (الاخدري Onager) تجوب مناطق الريف طليقة .

ولقد كان الملوك الاشوريون يصطادون هذه الحمر ، وتبينها النحوت الناتئة المحفوظة في المتحف البريطاني وهي تولى الادبار هاربة امام زخة من النبال .

ولقد لاحظ المؤرخون الاغريق ، وعلى الاخص « زينفون »(*) في كتابه « مسيرة العشرة الاف » بان هذه الحمر كانت ما تزال ترى في الارياف .

ويكون الحمار الوحشي اعلى من الحمار الاعتيادي بقليل ، وان اذنيه اكبر بصفة مميزة من اذني الحصان . اما ذيله ، وهو يشبه ذيل الحمار ، فانه اطول واكثر طراوة في حين يكون ذيل الحصان اقصر لكنه يبدو اطول بسبب طول شعر الذيل .

(*) زينفون Xenophon مؤرخ واديب وقائد عسكري يوناني اشتهر بمغامراته التي قاد بها عشرة الاف رجل من المرتزقة من بلاد اليونان وسوريا الى العراق لمساعدة كورش الصغير ملك فارس ضد اخيه اردشير . وعندما تغلب اردشير على اخيه كورش عاد زينفون ومن بقي معه من افراد حملته الى اليونان مارا بشمالي العراق صاعدا مع نهر دجلة . وقد دون مشاهداته في هذه الحملة في كتابه الشهير « الصعود Anabasis ويعرف الكتاب ايضا باسم « تقهقر العشرة الاف جندي ».

والواضح انه عندما تكون الصورة صغيرة بحيث يتم حفرها على ختم اسطواني ، فان من الصعب جدا تمييز فروق من هذا النوع ، غير ان الذيل المميز في التماثيل الكبيرة يمكن تشخيصه دوما .

ولقد عثر في المقابر الملكية بمدينة اور والتي كانت تضم كنوزا كثيرة ، على لجام مزين بتمثال صغير من الالكتروم يمثل دون تساؤل صورة حمار وحشي ، في حين دللت الفحوص التي اجريت على بقايا الحيوانات التي كانت تسحب زلاقة الملكة أو جرجرها ، بانها كانت من الحمر الوحشية دون ادنى ريب .

وعندما اصبحت الخيول شائعة في بلاد الرافدين ، فانها وصلت الى هناك من الشمال ومن الشمال الشرقي وكان السكان يعرفون ذلك جيدا ، لانهم كانوا ـ حيث لم ترد اية كلمة سومرية عنها ـ يصفونها بعبارة يمكن ان تترجم الى « حمار الشمال الشرقي » أو « الحمار الجبلي » . وكانت تلك في الواقع هي المنطقة التي استمرت ترد منها وقد اشتهرت بان اصبحت من اجمل الانواع في اسيا الصغرى أو اراضي فارس المستوية .

ونستطيع ان نقرأ في تأريخ هيرودوتس عن القيمة التي اشتهرت بها الخيول « النيسائية » في ماذي(*) والتي كانت اضخم من الانواع الاخرى .

ففي العصر الفارسي كان الحصان قد تأقلم تماما ، وكان مرزبان مدينة بابل الذي كان يحكم اغنى منطقة في الامبراطورية يمتلك اصطبلا للخيول التي تربى محليا ، والذي كان يضم ، حسبما ذكره هيرودتس ، ثمانمائة جواد وستة عشر الف فرسا .

(*) نيسائية نسبة الى سهل نيسان الذي تقع فيه مدينة نيسابور الايرانية الشهيرة التي تخرج فيها عدد من كبار علماء المسلمين في الفقه والحديث والادب .

ولقد كان الهجين الذي حفظت مميزاته على النصب العراقيـة حيوانـا متوسط الحجم رقيق الجسم نحيف الاطراف تنتصب قوادمـه الامامية اعلى من اطرافه الخلفية قليلا وذلك مظهر نجـد الفنان قد سجله بكل عناية •

ويحتفظ متحف اللوفر بشكيمة جيدة من البرنز يعتقد بانها من اصل اشوري ، مركبة وذات قطع جانبية منحنية • وهذه الشكيمة ثقيلة وكبـيرة لابد وان كانت تتلف فم اي حصان ، وانه يصعب الاعتقـاد بانهـا كانت تستعمل للحيوانات المدجنة بصفة خالصة كالخيول الاشورية •

واذا لم تكن هذه الشكيمة نذرا ، فان من المحتمل ان يقال عنها بانها تعود الى اواخر العهد الساساني عندما كانت الخيول في ذلك الوقت مـن انواع اكثر ضخامة • ومن المحتمل ان اقـدم حصـان تمت اقلمته في بلاد الرافدين كان لا يختلف الا قليلا عن النوع الذي وجـد في أيـران جنوبي غربي عيلام •

وكان هذا النوع الاخير حصانا صغيرا من السهوب يشبه رأسه رأس جمل وناصيته قصيرة ومستقيمة يعرف باسم « حصان برزولسكي » •

هناك صورة من صدف لاحد هذه الخيول عثر عليها في مدينة سوسة • ولابد ان كانت هذه الصورة تخص احد الانواع التي اكتشفت زينتها فيما عرف بقبور لورستان فيما وراء المنطقة التي وجدت فيها في بلاد فارس فقد كانت كثير من القبور تحتوي على شكائم لخيول كانت فيها •

وكان هذا يحدث مصادفة بقصد الاحتفـــال غير انها كانت معـدة للاستعمال بصفة عامة • وكانت هذه الشكائم قد حفرت بدقة وهي تتألف من قضيب مستقيم يرتبط بقطعتين جانبيتين عريضتين جـــدا ثبتت بسيور من الجلد • ومما تجب ملاحظته ان المسافة بين القطعتين الجانبيتين اللتين يتحكم بهما عرض القضيب الافقي ، لا تتلاءم الا مع خيول صغيرة ذات افواه ضيقة ،

اي انها حيوانات تختلف تماما عن الحيوانات التي تشير اليها الشكيمة المحفوظة في متحف اللوفر .

وما خلا شمالي العراق لم تكن الخيول تحفظ اطلاقا في اصطبلات خلال الاجواء اللطيفة وانما كانت تترك في باحات واسعة تثبت فيها احجار على ابعاد في الارض وتربط بها حلقة يمكن ان تربط الخيول بها .

لقد اكتشفت بقايا اصطبل ، قيل انه يعود الى الملك سليمان ، في مدينة « مجدو » بفلسطين(*) والتي كانت في العهد الملكي نقطة مرور مكثفة لتجارة الخيول .

تبين شواهد المنحوتات ان الخيول الاشورية في الوقت الذي كانت تمتطى فيه أو تسحب احدى العربات الاحتفالية ، فانها كانت تزود باغطية دقيقة الصنع أو تسحب احدى العربات الاحتفالية ، فانها كانت تزود باغطية دقيقة الصنع مغطاة بالريش والاهداب والاجراس ولسوف نعود الى هذه عندما نصل الى وصف البلاط والجيش الاشوريين .

(*) مجدو : مدينة كنعانية تقع على السفح الشمالي لجبل الكرمل والى السهل المعروف باسم سهل اسدريلون .

الماشية

هناك عدد من اصناف مختلفة من الماشـية كانت معروفـة في بلاد الرافدين • واول هذه الانواع هو البقر الاصلي(*) • فهذا النوع الذي كان يجرى توزيعه على نطاق واسع له قرون كبيرة تنمو بشكل مستقيم من جبهته ثم تنحني الى وراء واخيرا تنحني مرة اخرى وتنتهي برؤوس مدببة موجهة الى امام • وكان هذا من اكثر الانواع شيوعا وهو جد الثور الحـديث في بلاد الرافدين •

اما النوع الثاني فهو بقر الحراثة(**) أو الجاموس ذو القرون المندفعة الى امام من الجبهة في انحناءة كبيرة •

وكانت اسيا الصغرى هي موطن هذا النوع وقد وصـل الى بلاد الرافدين في عهد السلالة الاكدية حيث كان يسكن النجاد بصفة رئيسـة • وهو شرس بطبيعته وتمكن مشاهدته حتى الآن باعداد كبيرة في احـواض نهري دجلة والفرات ومع ذلك فانه اقل انتشارا من البقر الاصلي • وهـو يحمي نفسه من الحرارة بان يغطس رأسه في اي ثقب يجد الماء فيه ولا يترك سوى خشمه ظاهرا للتنفس •

وهناك نوع ثالث ، انقرض الآن ، هو الثور الوحشي الهائل الجسـم الذي يختلف عن النوع السابق قليلا لكن له مشابهات مع الثور الوحشـي الامريكي •

والواقع ان هذا النوع ربما كان قد انقرض حتى في بداية العصـر التاريخي لان ذكراه كانت على الدوام ترتبط بالابطال الأسطوريين وهـو يصور الى جانبهم غالبا على النصب التي تسجل اعمالهم •

فالثيران المجنحة الكبرى ، والجن الحارسة التي كانت تحرس أبـواب

(*) Bos Primigenius — (**) Bos Busbalus

مدينة خرسباد ، كلها كانت تمثل ذكرى الثور الوحشي الذي يمكن تمييزه بالشعر الكثيف الذي يغطي الصدر والرقبة والجوانب ، كما ان القــوائم الامامية للثيران التي كانت ممثلة على تيجان الاعمدة خلال العصر الفارسي في مدينة سوسة أو مدينة برسيبوليس ، كانت قـــد استخلصت من ذات المصـدر .

ولقد اخذ الثور الوحشي الذي كان من اشرس الحيـوانات في بلاد الرافدين ، يختفي لاول مرة في الانحاء الجنوبية . وقد بقيت بعض اصناف منه في الحدائق الامبراطورية في روسيا حتى قيام الثورة(*) وما يزال عدد محدود منها يحتفظ به بكل عناية في بولندا .

وكان اخر نوع منها هو الثور ذو السنام الذي جاء في الاصـل مـن الهند . ومن المحتمل ان هذا النوع لم يعد شائعا الا في العصـر الاخير ، لكن هناك بعض النصب التي تبرهن بانه لم يكن غير معروف ، ولو بصفـة نادرة في تأريخ سابق جدا .

(*) لابد وان المؤلف يشير بذلك الى ثورة اكتوبر الاشتراكية التي قام بهـا الحزب البلشفي بزعامة لينين في السابع من تشرين الثـاني سنة ١٩١٧ والتي ادت الى اول تطبيق عملي للنظام الاشتراكي الذي يقضـي بنزع الملكية من كل الطبقات وحصرها بالدولة تحت شعار البروليتاريا .

الاغنام والماعز وصناعة الالبان

تمت تربية انواع كثيرة من الاغنام والماعز باعداد كبيرة جـدا في بلاد ابل ، كما نستطيع ان تتبين ذلك من اقدم النصب التذكارية فصاعدا .

وكان احد الانواع لا قرون له ، بينا كانت لنوع اخر اذان طويلـة معلقة . وهناك نوع ثالث له قرنان يبدو عليهما وكأنهما ينموان من نقطـة واحدة .

وهذا النوع الثالث الذي نجـده على الدوام مصـورا على النصب التذكارية القديمة ، قد انقرض في بداية العصر التأريخي .

تقودنا الاشارة الى الابقار والنعاج والماعز الى صناعة الحليب . هناك منحوتة من معبد العبيد يرقى تأريخها الى سلالة أور الاولى (النصف الاول من الالف الثالث قبل الميلاد) تبين المراحل المتباينة لصناعة الالبان .

فعلى مقربة من مظلة مصنوعة من القصب (انظـر ما سبق ذكره عن طريقة البناء) تجري عملية حلب الابقار ، وان الفلاح العراقي ، اي الحلاب ، يجلس ـ كما هو حاصل الآن ـ ليس بجانب البقرة أو المعزة بل خلفها .

وحينما يتم سحب الحليب كله يوضع في جرة كبيرة ضيقة العنق ، ثم يبدأ صاحب البقرة يخضه بحركة منتظمة . وهذه العملية تأخذ مكان عملية خض اللبن . فعندما تتجمع الزبدة يصب اللبن في وعاء آخر بواسطة مصفاة وذلك لغرض الامساك بالزبدة التي تعبأ بقوة في جرة واسعة الفم . وهذه العمليات المختلفة ما تزال تمارس حتى اليوم في هذه البلاد .

توصف كل الشحوم في اللغة الاشورية بالسمنة بكل بساطة . فحينما تكون العبارة غير موصوفة أو مقترنة بعبارة أخرى تعنى التفخيم ، فانها تعنى الزبدة .

وهناك اشكال أخرى من السمنة ، مثال ذلك السمن الذي يستخرج من نبات السمسم ، توصف بالسمن ضمنا •

وقد صورت بعض عمليات صنع الزبدة التي جئنا على وصفها الآن على شكل مختصر من بعض الاختام الاسطوانية • ويحدث في بعض الاحيان ان نجد صفا من دوائر صغيرة بجانب الراعي وقطيعه ، فهذه الدوائر تمثل اقراص الزبدة أو الجبنة في الاحرى •

وحين تكون القطعان ذات حجم واسع يوسم كل حيوان بوسم مالكه • فقد كانت القطعان التي تملكها المعابد ترسم برمز الآله الذي كان يملكها• وهكذا نجد ان القطعان التي كانت تعود الى الآله مردوك توسم بعلامة مجرفة، وتلك التي تعود الى الآلهة عشتار توسم بنجمة • وعند بدء اندلاع الحرب العالمية الاولى كانت كل القطعان التي تعود الى السلطان(*) ما تزال توسم بعلامة هلال •

هناك الشيء القليل الذي يمكن ذكره عن الخنزير • فهذا الحيوان لم يكن محرما لاسباب دينية كما حدث ذلك بالنسبة الى الدين الاسلامي ، وانما لانه لم تتم تربيته على نطاق واسع مثلما هو عليه الآن في اوربا الغربية •

(*) يقصد المؤلف بذلك السلطان العثماني وهو السلطان محمد رشاد الملقب محمد خان الخامس الذي تولى الحكم بعد خلع السلطان عبدالحميد الثاني سنة ١٩٠٨ على اثر الانقلاب الذي قامت به جمعية الاتحاد والترقي ، والتي كان للاستعمار ولليهودية العالمية اثر كبير في ايصالها الى الحكم في الامبراطورية التركية .

الجمـل

لا يمكن لاي تحر ان يكون تاما دون الاشارة الى الجمل الذي كان معروفا في البلاد منذ اقدم العصور . وقد ادخل الجمل في الاصل الى بلاد الرافدين من الجزيرة العربية ، لكنه لم يكن يستخدم على نطاق واسع حتى الالف الاول قبل الميلاد وعلى الاخص في العصر الذي يتناوله هذا الكتاب .

ومع ان الجمل ما يزال غير معروف بصفـــة نسبية ، الا ان العراقيين كانوا يستعملون مصطلحا لوصفه ، مثلما فعلوا ذلك بالنسبة الى الحصان ، اذ كانوا يدعونه باسم « حمار البحر » أو « حمار الجنوب » .

ويندر ان اشير اليه في اية نصوص ، ويبدو وكأن الحمار في هذا التأريخ كان ما يزال يعتبر اكثر ملاءمة للنقل بالقوافل الكبيرة .

ولقد استمر ارتباط الجمل بالبدو من العرب حيث تقبل احدى القبائل، عند الضرورة ، بكاملها مع ابلها .

وحينما اراد ملوك اشور اول الامر ، ومن بعدهم ملوك فارس غـزو مصر ، تلك العملية التي تنطوي على اجتياز الطريق بين ذلك القطر وفلسطين ، توصلوا الى اتفاق مع العرب الذين تعهدوا بما لديهم من الابل ، ان يجهزوا الجيش بالمؤن والمـاء .

ولقد نجم عن الحملات التأديبية التي شنها ملوك السلالة السرجونية ، والبابلية الحديثة ، الاستيلاء على اعـداد كبيرة من الابـل ، والتي هبطت اسعارها ، نتيجة لذلك ، هبوطا شنيعا في الاسواق البابلية .

لقد كانت كل هذه الحيوانات الداجنة تراقب من قبـل الرعـاة الذين تساعدهم كلابهم في ذلك فقد كان هؤلاء يسكنون في حظائر المواشي حيث يجدون المأوى من حر النهار ، بل اكثر من ذلك اهمية ، يجدون الحمايـــة من الوحوش المفترسة التي كانت على الدوام تتشوق الى مهاجمة القطعان .

الرعاة وكلاب الاغنام

غالبا ما يشاهد الرعاة الذين يقودون الحيوانات من قطعانها ويحملون سوطا ذا مقبض من الجلد السميك المضفور وهدب طويل ، مصورين على الاختام الاسطوانية • اما كلابهم التي تتميز ببنية قوية ورؤوس كبيرة والغاد ثقيلة والتي تذكرنا بكلاب « بوردو »(*) ، فانها ترى غالبا على الواح فخارية ، غير ان من افضلها نوعية والتي تبين مميزاتها بتفصيل اوسع ، يمكن ان تشاهد في تمثال محفوظ في المتحف البريطاني يبين الاستعدادات الجارية للصيد يرقى تأريخه الى عهد حكم الملك اشور بانيبال ، أو في تمثال نذري صغير مؤرخ من عهد حكم الملك سومو ايلو من سلالة بابل الاولى محفوظ الآن في متحف اللوفر •

ولم يكن الريف مأمونا في الغالب ، فنحن نعرف من ايصال مؤرخ في السنة الرابعة عشرة من حكم الملك نبو نيديس ، ان الرعاة وقطعانهم كانوا يتمتعون بالحراسة فهذه الوثيقة تسجل ان اربعة امنان وثلاثة ارباع المن من الفضة قد تم ارسالها ليتم دفعها لقاء تجهيزات لاربعين حارسا عينوا لحراسة الرعاة ابتداء من شهر ايلول حتى شهر اذار •

(*) بوردو Bordeaux احدى المقاطعات الشهيرة في فرنسا وتشتهر بانتاج انواع فاخرة من الخمور •

بيوع الدواجن

هنالك عدد من النصوص التي تلقي الضوء على كل تفاصيل المتاجرة بالدواجن • فنحن نعرف مثلا الدور الذي كان الاطباء البيطريون يلعبونـه وهم الذين وجدوا فعلا في اوائل عهد الملك حمورابي •

ولم تكن تدفع لهؤلاء البيطريين اجور ثابتة عن مختلف العمليات التي كانوا يجرونها حسب ، بل كان هنالك نطاق محدد ايضا للغرامات التي كانت تفرض عليهم اذا ما جرح الحيوان أو قتل نتيجة اهمالهم ، او بكل بساطة اذا لم تحقق معالجتهم العلاج الفعال •

ولقد كان لحيوانات المبارزة من كلا الجنسين في الطبقة التي تحظى بالجوائز ، والسلالات الاصيلة ، اسماؤها الفردية الخاصة بها •

فهناك احد الثيران مثلا كان يسمى « شرور ـ ابي » وهـذا يعني ان « الآله شرور هو ابي » أو بكل بساطة الوصف القائل « مجد حقل النصب » [انظر الفصل الثالث قسم الاحاجي من هذا الكتاب] •

وكانت الدواجن الصغيرة تصنف احيانا حسب الوان جلودها • وعلى هذا يتحدث احد النصوص عن ثماني عشرة نعجة ، وواحد وعشرين حملا ، وسبعين قطيمة وغيرها ، ويذكر مجموع ثلثمائة وخمسة وعشرين رأس ماشية بيضاء ، وعشرة جداء كبار ، وخمس وسبعين معزة ، ومجموع خمسة وثمانين رأس ماشية سوداء ، كل ذلك في السنة السادسة والثلاثين من عهد حكم الملك نبوخذ نصر •

ويوجد عدد كبير من الايصالات بالحيوانات الميتة ولابد ان تكون هذه الحيوانات غير صالحة للاكل لانه لم يرد سؤال عن تقديمها الى المعبد •

وتشير الاشارة الضمنية في النص التالي عن سبب الموت ، الى ان هذه قد تكون هي القضية ، « فما عدا بقية الدواجن التي تسلمها « ادينا » قتلت نعجة واحدة وذلك في السنة الثانية عشرة من حكم الملك نبوخذ نصر » .

وقد ينتهي هذا القسم ببعض الاقتباسات من المقاضاة بشأن الحيوانات الداجنة . فهناك « حكم يخص سرقة نعجة موسومة بنجمة ، من الدواجن التي تعود الى عشتار الوركاء ضمن القطيع العائد الى بستاني الآلهة . لقد سرقت من قبل فلان وفلان في السنة الاولى من حكم الملك قمبيز ، وشوهدت في حوزتهما . ويجب ان يعاد هذا الحيوان من قبلهما ولقد امر الضابط الذي يحكم الوركاء ومدير « اناأنا » وجمعية المواطنين الاحرار في مدينة بابل ، بانه في نهاية شهر تموز يجب ان يعيد فلان وفلان ثلاثين رأسا من الماشية الصغيرة ما عدا النعجة الموسومة بنجمة والتي شوهدت في حوزتهما ، الى الآلهة « بلت » وانهما مسؤولان عن تنفيذ ذلك . في السنة الاولى من حكم الملك قمبيز » .

او للمرة الثانية موضوع مقاضاة « ان النعجة التي ولدت والمعزة تؤلفان معا رأسي ماشية ، وسما بوسم مجرفة وقلم كتابة (رمز الآلهين مردوك ونبو) تعودان الى قطيع بستاني الاله نبو ، قد نقلا من مسكن فلان وقد استدعت المحكمة فلان الذي ادعى في اليوم السادس من شهر آب في السنة الرابعة من حكم الملك كورش ، ان الحيوانين قد بيعا لي بمقدار شاقلين وثلاثة ارباع الشاقل من قبل مزارع (الآله) نبو » .

وقد استدعت المحكمة مزارع (الاله) نبو الذي افاد « انني بعت

هذين الحيوانين الى فلان مقابل الفضة وان فلان وحده ولا احد سواه قد اشتراهما مني وقد ارسلت النقود الى قائدي[١٢] • في السنة الرابعة من حكم الملك كورش •

(١٢) يشير هذا الى تقسيم اعتيادي للسكان ، ولاغراض الضريبة ، الى طوائف من عشرة أو عشرين او مائة وذلك طبقا لوظائفهم او حرفهم .

الحيوانات الوحشية

القنص

تتألف الحيوانات الوحشية التي يجب الوقاية منها ، من الاســـود والفهود والذئاب والضباع والثعالب والخنازير البرية وبنات اوى .

وكما رأينا قبلا فان المزارع التي كانت تطبق على نطاق واسع كان لها حراس مسلحون ينهضون بتهيئة الدفاع ضد السراق والحيوانات المتوحشة وحماية الرعاة . فقد كانت هذه الحيوانات بصفة عامــة تهــاجم القطعان والاسراب في البساتين ، او كما تفعل الخنازير البرية ، في الحقول المزروعة ، واذا لم تصب بجراح فانها لا تقوى عادة على الصمود امام الرجال . وهذا يصدق على الاسود وهي من نوع اصغر من الانواع الافريقية ، وقد انقرضت الآن في بلاد الرافدين .

ولسوف نعمد في آخر هذا الكتاب الى وصف صيد الاسود في عهــد ملوك السلالة السرجونية . فهي تشاهد على بصمات الاختام الاسطوانيــة وقد تورطت ازاء الصيادين الذين يوجهون اليها زخات من السهام الثقيلــة المريشة أو يندفعون نحوها وهم يحملون رماح الصيد .

وفي الوقت ذاته كانت المحاولات تبدو بصفة عامة للقبض على الحيوانات المتوحشة وهي حية بهدف الاحتفاظ بها اليفة في المنازل وترويض اطفالهــا . ولابد ان ذلك كان يتم باستعمال سهام مدببة بشكل غريب كان ما يــزال يجرى استعمالها في عصر القبور الملكية في اور ، والتي اكتشف فيها عــدد من هذه السهام ذات شكل مثلث وقد استبدل اللسان بقاعدة لمثلث مقعرة قليــلا .

فهذا النوع من السهام يمكن ان يصيب الحيوانات الصغيرة بصدمة وبذلك يسهل امساكها ، في حين يتم توهين الحيوانات الكبيرة بما تفقده من الدم بصفة متكررة وبذلك يتم الامساك بها بيسر نسبيا .

وكانت المصائد تستعمل ايضا وهي تتألف من حفر خفية يتم حفرها في الطرق المؤدية الى فتحات تتطلع اليها كل انواع الحيوانات ، لتطفىء ظمأها ، حيث تكون عواقب ذلك مهلكة .

ومع ذلك فان بعض الحيوانات يمكن تدجينها كحيوانات اليفة ، ومن بين ذلك الغزلان ، والظباء التي كانت قطعانها الكبيرة تجوب البلاد ، وكذلك النعام الذي كان شائعا في العهد الاشوري .

من اشهر الموضوعات التقليدية في النحت في العصر الاشوري الحديث ، هو منازلة البطل للحيوانات المتوحشة والذي احتلت النعامة مكانه بكل صراحة .

طرق النقل

ادى بنا وصفنا للحياة في الريف الى تحويل اتباهنا نحو الملاحـه في القنوات ، كما انه يوجهنا الى موضوع النقل البري •

غير انه في الوقت الذي تكون فيه الزيادة في وزن الاثقال التي يجرى نقلها في العالم الحديث ، تعتمد في النقل على زيادة ثابتة في عدد الطرق ، فاننا وجدنا ان مثل هذا الامر كان يصدق تماما على مسلك التجارة في القـدم ، حين لم تكن هنالك ـ عدا بعض الطرق الكبيرة القليلة بين المراكز المهمـة والتي لا نعرف اشكالها على وجه الدقة ـ طرق بالمعنى الحديث وانما مجرد دروب مزقتها وسائط النقل التي اوجدتها واملتها طبيعة الارض بصفة حيوية

ففي المناطق الصحراوية كانت تتم الاستفادة من التربة الصلدة ، اما في الامكنة الاخرى فكانت الدروب تتلوى بقصد الاستدارة حول العقبـات التي تعترضها ولا سيما الاهوار وتقترب من الانهار في منطقة المخاضات •

وحين كان السطح الكلي للارض قد تفكك كلية نتيجة الاندثار كان الطريق الجديد يفتح ، ان امكن ، بجانب الطريق القديم ، فان اخفق في ذلك نشأ درب جديد تماما بصفة تدريجية •

كانت وسائط النقل في العصر الاشوري بصفة عامة قليلـة في عددها وصغيرة جدا فهي تتألف لكل الاغراض والمقاصد من محض عربات صغيرة قابلة لحمل بضعة اكياس •

وما خلا العربات العسكرية في الواقع (سيرد وصفها في قسم العربات الملكية في الفصل الثاني من هذا الكتاب) يبدو واضحا بانه حتى الوسائط التي كانت تنقل مخازن الجيش لم تكن جوهرية تماما ، وان قافلة الامتعة كانت تتألف في اعظم قسم منها ، من عربات خفيفة صورت على المنحوتات الاشورية .

وكانت تعقب الاسرى عربات صغيرة ذات عجلتين تسحبها الثيران والحمير ، وهي تحمل النساء والاطفال الذين تم اسرهم ، وكذلك القليل من الامتعة المنزلية .

القوافل

ومع ذلك بقيت القافلة تؤلف الوسائل الاساسية للنقل • فقد كانت الحيوانات تسير على انفراد فوق اراضي وعرة ، وكانت الجمير هي التي تقود نفسها وقد حملت حصتها من الاثقال •

لقد ادى ادخال الجمل الى بلاد الرافدين ، والذي يستطيع ان يحمل من الاثقال اكثر بكثير مما يحمله الحمار ، الى تأثير عظيم على حركة التجارة التي كانت تنقلها القوافل •

وفي مقدورنا ان نتأكد من مدى ما كان يعنيه هذا الامر في عصر متأخر (القرون الاولى بعد الميلاد) من الرخاء الذي كانت تنعم به مملكة تدمر ، وعن طريق تمحيص ميزان الرسوم الكمركية التي نشرتها المدينة • فهذا الميزان يحدد الضرائب الواجبة الدفع عن السلع التي تنقلها الحمير والجمال بالتتابع ، وان الضرائب على السلع التي تنقلها الجمال تبلغ خمسة اضعاف تلك التي تنقلها الحمير •

لقد تعاظم النمو السريع للتجارة في بلاد اشور تعاظما قويا بوجود الابل ، التي لم يكن الواحد منها قبل العهد الاشوري ، يساوي اكثر من من وثلثي المن من الفضة ، والتي غدت شائعة الاستعمال نتيجة الحملات والغارات العسكرية التي كانت تشنها السلالة السرجونية ، الى درجة ان البعير الواحد لم يعد يساوي فعلا سوى نصف شاقل من الفضة •

الحياة اليومية
تحية الصباح

اذا ما بحثنا الفروق الاساسية في المزاج بين البابليين والمصريين ، فان من العسير ان تدهشنا حقيقة ان من النادر بالنسبة الينا ان نمتلك ايا من الوثائق القليلة النادرة الغنية بالتفاصيل والتي تنبض احيانا بشعور مقبول من المرح ، نستخلص منها معلومات مفصلة عن الاخرين .

تحفل قبور المصريين بمناظر الحياة اليومية بالاضافة الى عبارات من تعليقات مرحة . فهم حتى في الموت ما يزالون يحتفظون باحساسهم بالمرح وبتلذذهم بالحياة .

وفي مفارقة ملموسة نجد ان الاحساس بالحياة العراقية الداخلية عندما يأخذ طريقه في الظهور على احدى المنحوتات ، فانه لا يكون الا بصفة عرضية بالنسبة الى الموضوع الرئيس الذي يتمثل دوما في تمجيد الآلهة او احد الملوك . فليس هنالك من اهتمام واضح بعامة ابناء الشعب على غرار ذلك . وان الضوء الضئيل الذي يلقى على بعض مظاهر الحياة العائلية قد وصل الينا مصادفة .

وهكذا فاننا نستطيع من نص طبي عجيب ان نستشف بان العوائل البابلية كانت تقبل احداها الاخرى عندما تلقى تحية الصباح .

وكانت تأثيرات الثمل بالخمور معروفة جيدا ، حيث كانت الفكرة الطبية تهتم بها اهتماما جديا ، وتعالج السكر كما لو كان قضية نسم حقيقي. فالقاعدة تعلن بكل اهمية (اذا ما تناول شخص ما كمية كبيرة من خمر قوية، واذ اما اضطرب رأسه ، واذا ما نسي كلماته ، واصبح حديثه هذرا ، واذا ما شذت افكاره ، وتزججت عيناه . فان علاج ذلك هو ان تأخذ (تعقب ذلك قائمة تضم احد عشر دواء) وأن تمزجها بالزيت والخمر عند اقتراب

الآلهة « غولا »(*) (في المساء) • اما في الصباح وقبل ان تشرق الشمس ، وقبل ان يقدم اي فرد على تقبيل المريض ، فدعه يتناول الدواء فانه سوف يشفى) •

الزينة وقص الشعر واللحية

ان القسم الاكبر من الاهتمام بالزينة (التواليت) سوف يرد عند وصف حسنى الحال نسبيا ، فكما سنرى فيما بعد كانت للقصور وبيوت الاغنياء حماماتها الخاصة بها ، غير ان عامة الشعب العامل كانت تمارس الاستحمام على ضفاف القنوات او في احواض في باحات المنازل ، ويحدث احيانا ان تغير هذا الاسلوب باستعمال حمامات بخارية مأخوذة عن الطراز السكيتي(*)، والذى يتألف من ماء يتدفق فوق احجار مسخنة تسخينا عاليا في غرفة مغلقة ، واستعمال التدليك والادوات الفخارية التي كانت تحل محل المحكات في العالم القديم •

ومع ذلك فقد كانت كل مستويات المجتمع ، ما عدا اوطأها جدا ، تعتبر ان المظهر الجوهرى لزينتها ، هو ان تمسح البدن والشعر بالزيت ، وهذا يستخدم لغرضين هما تنعيم البشرة التي كانت تتشقق وتتصلب بفعل الجو الجاف والعواصف الرملية الظاهرة جدا ، وقتل الدبيب في الشعر •

فالزيت يخنق الصئبان والطفليات التي كانت شديدة الوطأة في بلاد الرافدين مثلما هي عليه اليوم في الشرق وفي كثير من البلدان الغربية ايضا •

(*) الالهة كولا Gula هي الهة الصحة لدى السومريين وتصور دائما مع كلب يكون هو تابعها أو رمزها •

(*) السكيثيون هم الاقوام التي استوطنت أراضي الروسيا الحالية ، وكانت لها صلاتها مع بلاد الرافدين القديمة ، وقد ذكر السكيثيون في المراجع العربية القديمة باسم الاشقوديين •

ذلك لان من الملاحظ ، كما تبين المنحوتات ذلك ، ان كـل طبقات الشعب كانت تحتفظ باللحى الكثة والشعر الكثيف •

لقد كان السومريون حليقي اللحى تقافا . ولكن البابليين كانوا يحتفظون باللحى التي كان البعض منها قصيرا . في حين كانت لحى كبار الموظفين طويلة ومقصوصة بشكل مربع •

والواقع ان هذا كان هو الزي الشائع بين الرجال الكامـلي النضج ؛ وذلك في مفارقة ظاهرة للشفاه الرقيقة . والذقون الحليقة لعـدد كبير مـن الرجـال •

عندما اكتشفت المنحوتات الآشورية سرعان ما لوحظ ان اولئك الرجال حليقي اللحى ، ذوي الوجوه المكتنزة التي تكشف عن ميل طفيف نحـو السمنة ، كانوا من الخصايا الذين يشلون مظهرا مألوفا في البلاطات الشرقية •

ومن ناحية اخرى لاحظ الباحثون ايضا وجود عدد كبير منهم . وانهم كانوا في الغالب يؤلفون وحدات عسكرية كاملة ، واخيرا كان المتفق عليـه بصفة عامة ان الفرق كان مجرد طريقة مؤقتة لتمييز الغلمـان ، او الفتيـان (الذين يشتهرون بمظهرهم بين الخدم والجنود) عن الرجال الكبار الذين ينبغي ان يتألف منهم المحاربون في الجيش •

واذا ما تركنا جانبا اعضاء البلاط وكبار الموظفين الذين سنمحص طرائق حياتهم في القسم الثاني من هذا الكتاب فان المنحوتات الناتئة تبين لنا نـوع اساليب تصفيف الشعر التي كانت موجـودة في بلاد الرافـدين في العهـد الآشوري الفارسي •

ويبدو ان الاسلوب المفضل لدى السكان المحليين ، وان كـان عـلى نطاق اصغر واقل دقة ، هو اتباع الزي الذي اقره القصر ، في حين كـــان

الاسلوب الذي تبناه الاجانب الذين كانت تغص بهم البلاد نتيجة الرق وقوافل النقل ، كان اقل بساطة وتعقيداً .

الصابون

لا يمكن لوصف الزينة البابلية ان يكمل دون الاشارة الى منتوج الصابون الذي لايمكن الاستغناء عنه ، والذي ادى اختفاؤه الى تنشيط السوق السوداء في فرنسا قبل سنوات قلائل خلت .

لم يكن البابليون يعرفون الصابون النقي رفيع الجودة ، لكنهم كانوا يستعملون اما مزيجا يصنع محليا ، او نوعا كان يباع بصفة عامة ويعوض عن المنتوج المحلي .

ففي أوائل عهد سلالة أور الثالثة كانت الرقم الطينية تشير ما بين المخصصات المعينة لبعض الافراد ، الى زيت نبات شخص بانه نوع من الحلفاء كان رماده يحتوى على الصودا او البوتاس وان هذا الرماد ما يزال يستعمل حتى اليوم في اعمال غسل الثياب .

فبمزج هذا الرماد مع الزيت والطين ينتج منتوج لا يختلف عن الصابون في اوربا المحتلة . وكلنا نعلم ان هذا النوع من الصابون كان اقل تنظيفا من المدلكة .

الحلاق

يقودنا حديثنا عن الشعر واللحى الى مهنة الحلاق (غلاّبو Gallábu والذى كان اسمه في اللغة السومرية يعنى « اليد العليا » . فهو لم يكن يؤدي العمل الذي يؤديه الحلاق العصري حسب ، بل انه كان يقوم ايضا بحلق الكهنة والاتقياء معا بطريقة نصت عليها الطقوس ، وكذلك الارقاء اما لكي

يعتبر حلق قمة الرأس علامة تشخيص اضافية للعلامة الاعتيادية ، او لتهيئة البشرة حين يراد تطبيق الوسم •

تعطى اهمية رمزية للشخص الذي تتم حلاقته بهذه الصفة • ذلك ان القوانين تنبئنا بانه اذا ما انكر ولد ، او ولد متبنى ، ابويه بان قال لهما « لست ابى ، ولست امي ، فانه يحق لهما ان يحلقا رأسه ويبيعاه كرقيق •

لباس الرجل

عندما نأتى الى الاهتمام بالملابس التي كان الرجال البابليون يلبسونها، يتوفر لدينا وصف اورده هيرودوتس ليس لملبس البلاط ، وانما ـ وذلك اقرب الى غرضنا الحالي ـ للملابس التي كان يرتديها رجل الشارع •

ومع ان الرحالين في عصره كانوا اكثر ميزة من الرحالين في الوقت الحاضر . فان هيرودوتس ،لابد وان كان ، بوجهه نظرة الموضوعية ، يحاول ان يعبر عن نفسه بعبارات صريحة الى سامعيه من الاغريقيين • ففي كلماته الخاصة « كان البابليون يرتدون في الدرجة الاولى اردية الكتان التي كانت تهبطه الى اقدامهم ، ثم تأتي الاردية الصوفية في الدرجة الثانية ، وفوق ذلك تأتي العباءة » •

وكانوا ينتعلون الصنادل ، وهي خاصة ببلاد الرافدين ، والتي كانت تحمل شبها بالاحذية التي كانت تستعمل في « بويوتيا »(١٣) •

وكانوا يدعون شعورهم طويلة ، ويلفون العمائم حول رؤوسهم ، ويتعطرون بالطيوب •

وكان كل فرد يحمل في يده ختما وعصا دقيقة الصنع ، حفرت عليها بعض الادوات من امثال كبش او نعجة ، او وردة او زنبقة او نسر ، ولايوجد احد يحمل عصا دون اداتها الخاصة بها •

---

(١٣) Boeotia

وكانت عادة حمل العصي التي وصفها هيرودوتس قد اكدتها شـواهد المنحوتات • غير ان هذه لا تصور سوى الشخصيات المهمة كثيرا ليس الا ، وعلى الاخص الملك ، وان العصا التي تتحدث عنها هنا ليست عصاة للتوكـأ عليها بل هي صولجان طويل يعد رمزا للقوة •

ومع ذلك فان ايا من الرسوم التي نمتلكها لا تبين اي دليل على العمل المتقـن •

وليس هنالك من دليل مباشر يبين ما اذا كان الرجال الاحرار الـذين لم تكن توجد مناسبة لتصويرهم على المنحوتات ، على حدة من اولئك الذين يؤلفون الحاشية الملكية ، ان هؤلاء الاحرار قد اعتادوا ان يحملوا العصي، ولكن من المعتقد تماما انهم كانوا يفعلون ذلك ، لان مثل هذا الاجراء لم يكن غير معروف في مناطق معينة من العالم السامي ، وفي الحبشة على سبيل المثـال • Boeotia

ان مثل هذا الوصف ينطبق في الدرجة الاولى على حسنى الحال مـن السكان ، والذين قد يلتقى المرء بهم في الشوارع وهم ماضون الى اشغالهم•
اما الملابس التي كان الصناع والعمال يرتدونها ، فانها اقل هنداما ، وهي تتألف من جلباب يصل الى حد الركبة له نصف اردان ويشد بحزام عند الصـدر • ومثل هذا الجلباب لم يكن يرتديه الصناع وحدهم حسب وانما الاجانب بصفة عامة •

فالعاملون في مجالات النقل أو البناء غالبا ما يشاهدون في المنحوتات وهم يرتدون مثل هذه الملابس •

ولعل من المصادفات العجيبة ان نجد تمثالين هائلين في خرسباد ، يعتقد بانهما يمثلان البطل غلغامش ، يرتدى احدهما مثل هذا الجلباب البسيط ، بينا يرتدي الآخر بالاضافة الى ذلك جلباباً طويلا نصف مفتوح يصـل الى

الارض . ويكون الجلباب الاول الذي تحته ظاهرا .

على ان معظم الملابس المتقنة الصنع تطرز احذى حافاتها بحاشية مشرشبة .

وكانت الاحذية تتألف من شباشب منبسطة ذات كعب مطبق يشد على الكاحل بسير جلدي بين الاصبعين الاول والكبير .

ولسوف نتخلى هنا عن وصف المجوهرات التي كانت تلبس الى ان نأتي على تناول مجتمع القصر .

وكان الاسلوب الاعتيادي لشد الشعر لدى العامة عبارة عن شريط بسيط يلتف حول الجبهة ويبقى الشعر مشدودا . او أن يكون في بعض الاحيان ربطة معقدة يبدو عليها بانها تمثل نوعا من مشد مصنوع من قطع ذات اشكال منفصلة .

وتشير العناية التي اظهر بها النحات هذا المثل مطابقا للرأس . الى انه لم يكن يحاول ان يرسم عمامة تكون كبيرة بشكل مفارق . ذلك لان العمامة كانت في الواقع معروفة في هذا العصر . لكن الشكل الذي كان الصناع يرتدونه يتألف . ليس من قطعة طويلة من معدن جيد تلف حول الرأس . بل من شريط قصير وضيق يعقد في قمة الرأس .

الازيــاء النسوية

كان لباس النساء شديد البساطة . فهو طويل ويخفي الجسم . ولابد وان حدثت تطورات في الزي حتما : لكن لم تحدث تغييرات مثيرة بشكل ملموس طيلة عصور طويلة من الزمن ، ولم يكن هناك ما يشبه التبدلات السريعة التي تعودنا عليها الان .

ففي العصر البابلي المبكر كانت ملابس النساء البابليات ، التي تتألف

من اثواب مشابهة تماما لتلك التي يلبسها الرجال ، قد اشتهرت بانها كانت على الدوام اكثر تطورا ، ولو بشكل طفيف ، من ملابس الرجال •

ففي المرحلة المبكرة كان الرجال في رسوم الاحتفالات الدينية غالبـــا ما يصورون عراة ، في حين تغطى الاطراف السفلى من النساء بقطعة من مادة جمعت في شكل وزرة •

اما في المرحلة الثانية فكان الرجال يرتدون قطعة من مادة مختلفة الطول تغطى النصف الاسفل من ابدانهم ، في حين تغطى الكتف اليسرى لدى النساء بطية من ملبس • اما في المرحلة النهائية من التطور ، وعندمـا كـان الرجال يرتدون ملبسا يشبه الكساء الروماني الذي لا يترك سوى الذراع اليمنى عارية ، فقد غدت كتفا النساء معا تغطيان بنهايات من مادة تتجمع من الامام•

الختـــم

كان الختم من الممتلكات التي لايمكن الاستغناء عنها اطلاقا ، لانـــه كان الوسيلة التي يمكن بها تصديق احدى الوثائق التي يتم وضعها •

فلقد كان كل بابلي من خارج اوطأ الطبقات يمتلك ختمه الخاص بـه والذي قد يكون واحدا من شكلين مغايرين ولعل اقدم الامثلـة المعروفـة لهذه الاختام يرقى تأريخها حتى الى عصر قد سبق اختراع الكتابة ، ففي ذلك التأريخ كانت تستخدم كعلامة تشخيص شخصية ، وتستعمل بطرق مختلفة لا تختلف اطلاقا عن الاختام الرسمية في الوقت الحاضر التي تكون فعاليتهـا ادبية اكثر منها عملية •

عندما كان العراقي يغادر منزله كان يربط الباب الى صاريته بحبـــل يلصق عليه قطعة صغيرة من الطين ثم يختمها بختمه • فهذا الختم يبين لـــه عند عودته ما اذا كان احد قد زاره في غيابه •

وكانت الاختام تستعمل بذات الطريقة لختم الاوعية وعلى الاخص جرار الطعام . وقد تم اكتشاف عدد كبير من قطع الاختام المحطمة التي كانت تستعمل لحفظ محتويات الجرار ، اثناء التنقيبات .

فحين يتم ملء الجرة ، تغطى فتحة العنق بقطعة من الكتان تلف بشدة عدة مرات حول العنق . ثم يغطى ذلك كله فيما بعد بطبقة خفيفة من الطين يضع مالكها ختمه عليها في نقاط مختلفة .

ان من المهم بصفة خاصة ان نجد بان هذه الطريقة كانت تستعمل في عصر مبكر جدا ، ليس لانها دليل على درجة محدودة من التقدم حسب . بل اكثر من هذا انها كانت الدليل الذي يعرض الحالة النفسية للايمان والذي يمكن تفسيره بانه عقيدة مقبولة بصفة عامة لحفظ الثروة عن طريق القانون . فحينما نشرع بمحاولة لتحديد هذا القانون نجد انفسنا تجاه مشقة .

ان من المستحسن ان نظن بان وراء ذلك يكمن مفهوم . يمكن تقبله بيسر ، للحماية الالهية التي كانت على الدوام تبرز كخطوة اولى لدى السكان البدائيين . فطبقا لهذا المبدأ تكون المدينة ملكا للآلهة الذي اختير حاميا لها . ذلك ان حكام المدينة حتى وان كانوا يحملون لقب ملك ، فانهم ليسوا اكثر من نواب للاله الذي كانت سلطته المادية والادبية معا ، تظل رفيعة . فالمعبد هو مسكنه مثلما يكون القصر منزل الملك تماما ، وسلطاته هي سلطات بشر . او بالاحرى بشر سام .

لقد كان العراقي ــ وسوف نمحص مؤخرا في هذا الكتاب هذا المفهوم ذاته ونتائجه ــ يتقبل تمثيل عمل ينطوي على حقيقة تستمر طالما بقي التمثيل ذاته . فاذا كان الختم فيما بعد يحمل علامة هي شعار مقبول تماما كتمثيل للآله ، وكانت البصمة قد تغيرت ، فان الضحية الاولى للاذى سيكون هو الآله الذي وضعت تلك المادة تحت حمايته ويتبع ذلك سخط الآله وعقابه .

ان من المعتقد بما فيه الكفاية ان تكون هذه الفكرة قد لعبت دورها في عملية حفظ الملكية عن طريق الختم وحده ، وان كسر ذلك الختم سوف يحرك السلطات المدنية ، دون ريب ، وهي المسؤولة بصفة مباشرة عن حماية السكان .

اما الشكل الثاني الذى كان عليه الختم ، والذي يكون في الواقع اكثر ملاءمة للسواد اللينة التي يبصم الختم عليها ، فهو الختم الاسطواني الذى يتألف من اسطوانة صغيرة مصنوعة عادة من الحجر او الفخار عليها شعار او مشهد منمنم حفر على السطح المنحني . فاذا ما دحرج هذا الختم على طين طازج فان الشعار يعاد رسمه بصفة محددة في شكل منحوتة بغض النظر عن مساحة السطح الذي يشمله ، وبذلك يضمن الحماية الكاملة والمطلقة التي تكون مصورة بالنسبة للمادة التي تحمل بصمته .

لقد اظهر سكان بلاد الرافدين خلال تأريخها الطويل ، في هذا الاجراء وليس اقل منه في اجراءات اخرى كثيرة ، نظرتهم المحافظة بالنظر الى شكل الختم الذى اختاروه .

ففي اوائل عصر فجر التأريخ كان اول طراز ظهر الى الوجود هو ختم البصم[١٤] . ثم اعقب ذلك بصفة مباشرة ، الختم الاسطواني الذى بقي الطراز الوحيد المستعمل حتى نهاية العصر الآشورى الحديث ، عندما تم استبداله لدى البابليين بالعودة الى ختم البصم . ولقد استعمل الآشوريون والفرس كلا النوعين من هذه الاختام .

وفي خلال الفين وخمسمائة سنة من تأريخ بلاد الرافدين كانت مواضيع الشعارات على الاختام قد تغيرت لانها وان كانت مرتبطة بها لكنها لم تعد تمثل روحيتها التي بقيت في اكثرية الحالات دينية في الدرجة الاولى .

---

(١٤) ختم البصم أو الطبع يقصد به الختم المنبسط الذي يكون ذا اشكال مربعة او مستطيلة .

دليـــل اللوح

١ ، ٢ ـ ختم وبصمة داريوس الاول (بالحجم الحقيقي) •

٣ ـ الآلهة عشتار سيدة المعارك تقف على اسد وبيدها سهم مع اشجار نخيل ورعول [القرنان الثامن الى السابع ق•م•] •

٤ ـ ختم موشيش نورتا الملك والعفريت مع شجرة مقدسة ، وفي اعـــلى القرص المجنح (رمز الآله آشور سنة ٥٨٠ قبل الميلاد) •

٥ ـ صياد راكب ببدلة عسكرية مع قرص شمسي وكوكبة الثريا •

٦ ـ شكل مجنح وثيران مجنحة (من القرن الثامن حتى القرن السابع قبل الميلاد) •

٧ ـ ضابط يتناول وجبة طعام بسرعة وقد انتصب وامسك بسهم في يده • وامامه خادم يذب الذباب • من القرن التاسع الى الثامن قبل الميلاد •

٨ ـ رقيم يبدوكي يبين رسالة وبصمة ختم •

وجبات الطعـــام ، الخبز

سوف تعطى وجبات الطعام في العراق الحديث فكرة ما عن طعام الفرد العراقي في العصر الآشوري • فلم تكن تفرد هناك غرفة على حدة كغرفـة طعام ، وكانت وجبات الطعام يتم تناولها من صحن يوضع اما على الارض ، او على طاولة واطئة ، مثلما وحيثما يود الجائع ذلك ، وليس في ساعة محددة •

وكانت الوجبات ذاتها وفي اعظم جزء منها معتدلة جدا ، كما ان الطبقات الفقيرة لم تكن افضل حالا في هذا الشأن مما هي عليه الان •

كان قوام الطعام هو الخبز ، اذا كانت تلك هي الترجمـة الصحيحـة لاحدى القوائم التي تخص الطعام • وعلى كل حال كانت المواد الغذائية هي

التي تحتل مكان الخبز ولو اننا نستطيع ان نحدس ما كـانت هـذه المـواد تشبهه حقا . فكل ما نعرفه هو ان الخبز في بلاد الرافدين كان يبـاع ليس بالارغفة ولا بالوزن ، بل بالحجم ، وذلك سبب يدعو الى الاعتقاد بان الطعام موضوع البحث ربما كان نوعا من مادة دقيق خالية من النشأ ، تشبه العكك الايطـالي .

ومع ان ذلك قد يصدق على اقدم عصر تأريخي ، فان الخبز في العصر الآشوري كان يخبز بالشكل الذي ما يزال يوجد به في الشرق . ونعنى به على شكل فطيرة مطبوخة قليلا ينفصل طرفاها بحرارة الموقد .

يوجد عدد من اصناف مختلفة من الخبز في الوقت الحاضر متوفرة في أنحاء متباينةمن بلدان الشرقالاوسط . ويصنع أحد هذه الانواع بألصاقطع منبسطة من العجين على جدران فرن ساخن تظل معلقة بها الى ان تنضج .

وكانت القبائل البدوية من ناحية اخرى تتناول خبزا بخبز على شـكل فطيرة على سطح موقد معدني(*) .

فهذا الموقد يطبق على النار بسطحه المحدب الى اعلى ثم تلقى فوقه طبقة رقيقة جدا من العجين بسرعة .

ومع ذلك فهناك نوع اخر من الخبز يتم تناوله في ايران . ويتألف هذا النوع من شرائح مسطحه يتم صنعها بنشر طبقة من العجين على مفرشة مـن أحجار ساخنة جدا تصف فوق قطعة صلبة وناعمة من الارض . ذلـك ان كتلة العجين التي تسلق قليلا بدلا من ان تنضج ، يجري تحريكها في نقـاط تلامس بها الاحجار .

(*) يقصد بذلك الوعاء المعروف عندنا باسم «صـــاج» ويتكون من صحن معدني محدب الشكل يوضع فوق الاثافي على النار ويخبز الخبز عليه .

وعندما كنا ننقب في ايران كنا نجد ان عمالنا غالبا لا يعرفون غير هذين النوعين الاخيرين من الخبز القديم هما في الواقع اكثر خشونة من النوع الاول الذي جئنا على وصفه ولو ان الاوربيين يفضلون في الغالب ان يكون الخبز على شكل فطائر . ولغرض تنويع وحدة النسق يتناول العمال كلا النوعين سوية .

لدينا حسابات يرقى تأريخها الى سلالة أور الثالثة ، تتناول كميات من الطعام الذي كان يوزع في يوم واحد من الشهر على عدد مختلف من الذين يحصلون عليه . فقد كان هؤلاء يحصلون عادة على كمية من الخبز لا تزيد على « الغالون » الا قليلا ، بالاضافة الى شيء من البصل الذي كان في ذلك الوقت مثلما هو عليه الان في الشرق ، يعتبر التابل الاعتيادي بالنسبة الى الخبز . وقد كان البصل يباع على شكل شدات مثل الثوم في الوقت الحاضر ، ويتم تناوله فجا مثل الخيار .

الشراب ، الجعة وخمر شجر النخيل

كان الشراب يتم توزيعه ايضا بمعدل يزيد عن الغالون للفرد الواحد. ولم يكن هذا الشراب ليتألف من نوع من الجعة التي تستخلص من الشعير حسب ، وانما عصير شجرة النخيل الذي يتم الحصول عليه بشق اعلى جذع النخلة وجمع العصير المتساقط منها ، ففي هذه المرحلة يكون العصير غير ضار، لكنه يختمر فيصبح مسكرا جدا بعد فترة يومين او ثلاثة ايام . ولقد كان البابليون يفرقون بين الشراب المسكر وغير المسكر[١٥] .

الخمر

ينطوي الجواب على التساؤل عما اذا كان العراقيون والبابليون قد عرفوا الخمرة وشربوها ، على أن الكرم لم يكن قد تأقلم تماما في شمالي بلاد الرافدين حتى الالف الاولى قبل الميلاد .

ومع هذا فمن ذلك العصر فما بعد لم توجد اعداد كبيرة من الرقم الطينية نسجل المتاجرة بالخمر حسب ؛ بل وجدت كذلك غلال كروم منتظمة كانت شهرتها تتغير طبقا لمناطق اصولها تلك التي كانت تعسر من دون ان تتخمر ولا سيما الانواع المعتبرة بصفة رفيعة .

كانت شجرة الكرم تعتبر اصلا وكأنها قد نقلت من القطر الجبلي في الغرب ؛ وعلى الاخص من لبنان لان نموها هناك ما يزال يعد من بين اعلى الانواع التي يجرى تقييمها في الشرق .

ففي ملحمة غلغامش نجد البطل في تجواله حتى الساحل يصل البلد العجيب الذي تنمو فيه الكروم ، حيث يتحدث الشاعر بايجاز عن جمال شجيرة عناقيدها اللازوردية تستحق ان ينظر اليها .

والواقع ان غلغامش كان قد مر بكروم الاعناب السوداء اللون . ومما تجدر الاشارة اليه انه كان يجد سبيله . خلال أسفاره ، يقوده الى مكان شبه علوي الى ابواب حانة ينصحه بان يحيأ حياة مرحة .

ولقد نسبت ذات الحرفة الى امرأة افترض بانها كانت المؤسس لاحدى السلالات الحاكمة القديمة والغنية في مدينة كيش على مقربة من مدينة بابل.

---

(١٥) هناك عدد من عصير الفواكه التي تحتوي على مادة السكر من امثال عصير العنب ، وكذلك العصير الذي يستخلصه أهل المكسيك من نبات الصبر الامريكي ويسمونه باللغة المكسيكية باسم (بلكه) Pulque فعندما يوشك هذا النبات ان يزهر . تبدأ ساق كبرها كبر شجرة صغيرة بالنمو من وسط النبتة والتي اذا ما تركت تصل الى ارتفاع تام ، تشرع بقذف رشات متدفقة من أعلى . فاذا ما قطعت هذه الساق عندما تبدأ بالنمو فان العصير الذي كان سيغذي الزهرة ، يبدأ بالتدفق لعدة أيام حيث يتم جمعه في احواض . في هذه المرحلة يكون العصير حلو المذاق ناصع البياض ، لكن ما سرعان ما يسري التخمر اليه فيصبح مادة كحولية جد قوية .

ولما كانت شريعة حمورابي تبين ان الحرفة الحقيقية لبواب الحانة ليست محترمة اطلاقا ، فان هذه الاشارة دليل ثابت وصريح على وجود تجارة واسعة النطاق للخمر وجدت اصلا في الاقطار التي تتاخم شرقي البحر الابيض المتوسط .

لقد كان المعتاد خلال اقدم العصور في الشرق الادنى ان يرتبط التقدم الفنى الناجح او الاختراع باسم شخص ما يعتبر هو البادى ، وان كل الاحتمالات تبين ان بوابي الحانات هؤلاء كانوا يجسدون واحدا من اهم اشكال المتاجرة بين الساحل وداخلية البلاد .

كما ان هذا يقدم مثالا جيدا على غرام العراقيين ، بل الساميين بصفة عامة في الواقع ، بالتوريات .

لقد حفرت على واجهة القيثارة التي اكتشفت في المقابر الملكية في اور ، صور عدد من الحيوانات في مواقف بشرية ، وشاركت في وظائف بشرية . وقد صور الحمار بصفة موسيقار مثلما صور به تماما في تمثال من العصر الرومانسي .

واذا ما عدنا الى المؤخرة نجد غزالا صغيرا يمسك بابريق خمر وقدح، وان اهمية ذلكهي ان الكلمة الاكدية « سبيتو » Sábitu تستخدم لمعنيين هما« الغزال » و « بواب الحانة » .

اشجار النخيـــل

سبق ان رأينا بان الخمر المستحصل من أشجار النخيـــل كان يعتبر مظهرا مهما من مظاهر الاقتصاد العراقي ، وان علينا ان ننفق القليل من الوقت للاهتمام بشجرة النخيل وزراعتها لانها كانت واحدة من مصادر الثروة الطبيعية .

لقد عرف السكان منذ اقدم العصور كيف يحصلون من النخيل كل ما يمكن الحصول عليه ، وكيف يزرعونها .

هناك نص مؤرخ من عهد الملك شوسن(*) من سلالة اور الثالثة ، والذي نشأ دون ريب في مدينة « امّا » المدينة المنافسة لمدينة « لكش » ، يشير الى مزارع اشجار النخيل التي يحسن ارواؤها . فهذه المزارع كانت تقع بين المدينتين وقد قسمت الى ثمانية اقسام تعود الى الآله المحلي الذي كان يمثله ملاحظ لهذا الغرض .

كانت الاشجار في كل قسم تعد بالكبسات ، وكانت كل اشجار الفاكهة والزينة مؤشرة ، في حين ان عدم وجود اية اشارة الى فحول الشجر يشير الى ان اللقاح كان يجلب من مزارع نخيل اخرى .

ويشير النص الى المنتوج بالكمية وليس بالوزن وبالاستناد الى عدد الاشجار يبدو ان وزن المنتوج كان اكثر بقليل من نصف ما يمكن توقعه من ذات العدد من الاشجار حسب المعدل في الوقت الحاضر والذي يبلغ حوالي ثمانين « باوندا » للشجرة الواحدة .

ان هذا يشير الى ان اكثرية الاشجار في المزرعة اما كانت فتية ، او ان طرق الزراعة قد حققت تقدما ملموسا منذ ذلك الوقت .

كان كل جزء من شجرة النخيل يخصص لنوع من الاستعمال . فقد كان الخشب يستعمل لانشاء المباني الخفيفة من امثال السقوف التي لم تكن

(*) الملك شوسن ويعرف باسم « غمل سن » أيضا هو الملك الرابع من سلالة أور الثالثة ، دام حكمه تسع سنوات من ١٩٧٨ الى ١٩٧٠ قبل الميلاد .

تتطلب سوى مسافة قليلة ، وكانت الانسجة المضفورة تؤلف حبالا ذات قوة ملحوظة . في حين كان السعف يستخدم لتغطية الاكواخ المصنوعة من جذوع النخيل ، وكذلك عندما يقص ويحزم سوية ، تصنع منه المكانس النافعة للاستعمال جدا بالنسبة الى الغبار الذى يعم الشرق كله .

ولم يكن التمر ذاته مجرد طعام حلو ، كما هو عليه الامر في اوربا الغربية ، وانما كان غذاء ، بل في الواقع كان المادة الرئيسة للغذاء في تلك المناطق التي تنمو النخيل فيها بوفرة .

وكانت التمور التي تجفف قبل حفظها ، يتم كبسها في جرار تتفاعل في داخلها وتبدأ بالتخمر ، مما يزيد من قيمتها الغذائية .

وأخيرا يمكن ان تمزج التمور مع الزيت وبذلك يمكن حفظها لمدة اطول في حين تزداد قيمتها الغذائية بصفة اكثر .

هنالك انواع كثيرة متباينة من اشجار النخيل التي تقدم اسواق الشرق منها خيارا واسعا للتمور .

اما النوى فانه يستعمل ، حين يجفف ، وقودا ، ولا سيما بالنسبة لصهر المعادن ، او كغذاء للابل عندما يتم طحنه ، وتلك حقيقة لا يدهش احد منها عندما يرى الحيوانات وهي تأكل اوراق شجرة التين الغربية ، والاشواك وغيرها .

واخيرا فان فرخ النخلة الذي ينمو في قمة الشجرة ، اذا ما قطع واكل وهو ما يزال صغيرا ، يؤلف خضارا شهيرا .

والحقيقة انه لم يكن من المدهش ان نجد آداب العالم القديم ملىء بالاشارات والتعليقات الى اشجار النخيل . فالمؤرخ « سترابو » يشير الى اغنية فارسية تتحدث عن استعمال النخيل لثلثمائة وستين غرضا .

وقد اقتبس « القزويني »(*) من الحديث النبوي(**) « كرموا النخلة لانها عمتكم وقد اعطيت اسم شجرة مباركة لانها خلقت من بقايا الطين الذي خلق آدم منه » .

وقد ادت حقيقة تكوين النخلة من جنس واحد الى تحسين طرق الاخصاب ، حيث يقدم اهل البلاد على جمع الطلع من الازهار الذكور مخروطية الشكل ويشدونه في مكان يعين في ازهار الإناث وهذا يؤدي الى زيادة المحاصيل التي قد تترك ، بدون ذلك ، الى محض الصدفة .

تكون اوجه الجذوع خشنة . والطريقة الاعتيادية لتسلقها الى القمة ، والتي تشاهد غالبا على المنحوتات العراقية ، هي ان يربط المتسلق حبلا حول جذع النخلة وحول بدنه معا ، ومن ثم ينحني الى الوراء ويبدأ بالصعود بخفة الى القمة ، حيث يبدأ الحبل بالارتفاع في كل خطوة وذلك يتحرك ذاته الى اهداف اعلى من تلك مباشرة .

ويمكن مشاهدة هذه العملية على لوح من الجص من قصر « ماري » يعود تأريخه الى بداية الالف الثاني قبل الميلاد ، والذي توجد عليه ، عدا الرسم الطبيعي لاشجار النخيل ، نقوش اغصان طويلة تتدلى منها عذوق الازهار من على ارتفاع ما فوق الارض . فهذه الاغصان تشبه تماما اغصان شجرة عود النـد . (انظر ما سبق ذكره عن نبات الصبر او الند في الهامش).

(*) القزويني صاحب عجائب المخلوقات : جمال‌الدين ابو يحي زكريا ١٢٠٨–١٢٨٣م يتصل نسبه بالامام السابق انس بن مالك. ولد في قزوين ورحل الى دمشق فتى، ثم انتقل الى بغداد وتولى القضاء في مدينة واسط والحلة ثم عاد الى بغداد فبقي فيها حتى سقوط الخلافة العباسية على يد هولاكو ، وتوفي ببغداد ، وكان من اعلام العرب في الجغرافيا ، وهو أول من كتب في الجغرافية الطبيعية .

(**) اخطأ المؤلف اذ ذكر ان القزويني قد اقتبس من القرآن والصواب انه اقتبس أحد الاحاديث النبوية التي أوردها المؤلف مغلوطة أيضا . فالحديث النبوي يقول (اكرموا عمتكم النخلة فانها خلقت من فضلة طينة ابيكم آدم . وليس من الشجر ، شجرة أكرم على الله من شجرة ولدت تحتها مريم ابنة عمران . فاطعموا نساءكم الولد الرطب . فان لم يكن رطب فتمر) . من كتاب « كشف الخفاء » للعجلوني الجزء الاول ص ١٧١–١٧٢ .

عملية اخصاب النخيل المرسومة على المنحوتات

تصور بعض المنحوتات الآشورية بساتين النخيل في عملية تدمير يقوم بها الجنود (وذلك اول مثال على سياسة حرق الحرث او تسفيع الارض) .

وهناك منحوتات اخرى تبين مشهداً لايمكن ان تدرك اهميته الحقيقية لاول مـــرة . فهـذا المشـهد يصور بعض الجن وهم يحملون وعـاءا ذا مقبض صيغ على شاكلة جردل ، وقـــد امســكوا بالايــدي اليمنـى اداة مخروطية وهم يشيرون الى شبكة خطوط منقطة باشجار النخيل . ان هـذا المشهد تصوير اسلوبي وملائم بصفة خاصة للشجرة المقدسة ، والتي هي نوع من النخيل .

ان سبب هذا المشهد سيتم بحثه في الفصل الذي يتناول الديانة ، وان كل ما يحتاج الى قوله الآن هو ان شجرة النخل التي صورت هنـا كـانت تظلل كل مميزاتها الاعتيادية . فوريدات النخل لها مظهرها العام في صفـة مروحة من ريش او مرجان ، ولقد غدا الغصن فصا منبسطا محاطا بنوع من عريشة تثبت الوريدات الى جسم الشجرة وتربطها بتتابع منتظم .

ان حقيقة كون هذه الشجرة ، وان كانت منسقة الا انها شجرة نخـل دون شك . وان المادة التي كان الجن يحملونها تشبه في شكلها العنصر الذي يحمل طلع شجرة نخل ذكر ، قد ادت ببعض الباحثين الى ان يروا بان هذه المنحوتات كانت تشير الى عملية التلقيح التي كـانت ثروة البـلاد بالطعـام تستمد منهـا .

ومع ذلك توجد اسباب تبرر عدم قبول مثل هذا الرأي . وهكذا نجد ان الجن كانوا يشيرون الى المواد المخروطية التي كانوا يحملونها حسب ، في الاتجاه العام للشجرة ، في حين ان التلقيح يعتمد على ازهار النخيل الذكور التي تم ربطها على النخلة الانثى وليس على تماس واحد خفيف . ففي كـل

مكان تبين المنحوتات جنيا يقف خلف الملك الآشوري ويشير نحوه بالمادة التي يحملها(*) •

ومن ناحية ثانية ينبغي لنا ان نتذكر ان القس في بعض الكنائس في منطقة ماردين شمالي بلاد آشور ، يستعمل رشاشة ماء مقدس على شكل مخروط من شجر الارز عندما يروح يرش ماءه البهيج ، الامر الذي نستنتج منه الى ان العمليتين لهما ذات الاهمية ، وان المنحوتات انما تمثل رشاشات احتفالية (كانت احد مظاهر الدين الآشوري) من ماء يمنح الحياة تم سحبه من مصبات نهري دجلة والفرات ، في حين ان الوعاء ذي المقابض الذي كان الجني يحمله لم يكن سلة بل جردلا معدنيا يحوي ماء التطهير •

الخضراوات والاسماك واللحوم

هناك وجبة طعام افضل من تلك التي تتألف من البصل وحده ، هي التي قد تحتوي على الخضراوات من امثال العدس ، الذي ينمو مثل الفاصوليا في المنطقة دوما ، والدخن المسلوق ، والشعير الذي كان يعد مثلما نعد نحن الرز ، وربما الذرة ايضا ، هذا في الوقت الذي اعرب فيه بعض علماء النبات عن آرائهم في ان الذرة الصينية يمكن تشخصيها بين اكوام النباتات المتفرعة من عائلة القمح المصورة على بعض المنحوتات الآشورية•

ان دراسة مفصلة لافضل التماثيل السالمة تبين بان الصحون التي يتجمع الناس حولها لتناول الطعام كانت تتوج بما يبدو بانها اهرام من القمح ومن هذه الانواع على وجه الدقة •

وهناك خضروات شائعة اخرى تحتوي على اليقطين والخيار والبطيخ الذي كان عدده ونوعه يدهش المسافر الذي يزور الشرق لاول مرة

(*) ان هذه الصورة تمثل استخلاص المادة ، التي تذاب في الماء المقدس ، من النخيل •

كان السمك الذى يؤكل طريا ومجففا ، عنصرا مهما في الطعام الاشوري ، وهناك سلسلة واسعة من انواع صالحة للاكل يمكن العثور عليها في حدود سنة الفين قبل الميلاد في مدينة لارسا ، وهي قد تشتمل على قلة من اسماك البحر التي كانت تحفظ في الملح لنقلها ، كما ان البعض منها كان يصطاد في الاهوار التي لم تكن تؤلف سوى مشاكل نقل اقل ومع ذلك فان معظم السمك كان يصطاد محليا في القنوات .

كانت الاسماك الكبرى تجفف بطريقة تبينها احدى المنحوتات المصرية ، اي انها كانت تفرغ من مصارينها ثم تشد من الرأس وتعلق على خيط بنفس الطريقة المعمول بها حتى الان في بلاد النرويج .

اما الاسماك الصغيرة فكانت تترك تحت الشمس ومن ثم تضغط في كتلة صلبة يمكن اقتطاع الكمية المطلوبة منها [هناك صورة اسرى يتناولون وجبة طعام وصورة رجال يحملون الخضراوات لاحدى الولائم] .

من بين الاكتشافات الاخرى.التي عثر عليها في تللو بعض قطع من هذه الاسماك المجففة التي ما يزال يمكن تمييزها بيسر .

وحسبما نعرفه لم يكن اللحم يؤلف مادة مهمة في الطعام وان النصوص التي تسجل الرسوم الواجبة الدفع عن احدى الشياه او حتى احد الثيران ، تشير الى ان الحيوان موضوع البحث لم يكن يتم ذبحه في الغالب وانما كان يقتل مصادفة مثلا . وفضلا عن ذلك لا نجد في اكثر النصوص اشارة عن جثة تم تسليمها الى القصاب لغرض البيع .

وكانت الطيور من الناحية الاخرى تؤكل ، واننا خلال عصر سلالة اور الثالثة ، نعرف بأن الاوز والبط كان يجري تجهيز القصر بها .

الجـــراد

كان الجراد يعتبر ، مثلما هو عليه الان ، من المواد الصالحة للاكل في المناطق التي تقع في طريق غزواته ، وان منحوته من خرسباد تبين خدما يقدمون الجراد في سفافيد مثلما تقدم الضفادع الان في فرنسا تماما .

قد يكون هذا هو الموقع الذي تنبغي الاشارة فيه الى انواع عـديدة مختلفة من الجبنة واللبن الرائب • فقد كانت تقدم في القصر باشكال متنوعة كثيرا . وقد اكتشف الكثير من القوالب التي كانت تصنع فيها ، في معمـل الالبان بقصر ماري •

وكانت الحلويات سواء ما كان يحلى منها بالعسل ، او بالسكر المستخلص من اشجار النخيل والذي كان العراقيون يعتبرونه نوعا مـن العسـل(*) ، موضوع صناعة مزدهرة تشتمل على اللذائذ من امثال السمسم الذي يقلى بالزيت • كذلك كان صانعو الحلويات يستعملون بذور السمسم ايضا •

وما خلا التمور فان كل انواع الفاكهة كانت تؤكل بصفة عامة ، ومن بينها الرمان ، وثمر المشملة ، والتفـاح ، والاجاص والمشمش والكمثرى والفستق ؛ وبعبارة موجزة ، ذات الانواع التي تنمو في اوربا الغربية (والتي جاء البعض منها ، من امثال الخوخ والتوت ، من الشرق) ، والتي ازدهرت في شمالي بلاد الرافدين •

لسنا نعرف ما اذا كان الاشوريون قد عرفوا الموز الذي ينمو عـلى نطاق واسع في سوريا ، غير ان هذا كان محتملا على اقل تقدير ؛ ذلـك لان هنالك بعض المنحوتات الناتئة تبين ان من بين الطعام الذي كان يقدم عـلى الموائد : مادة يبدو عليها انها مؤلفة من عدد من الاقسام التي تشبه الاصابع مرتبطة بقاعدتها ، وذلك ما يشبه غدق موز (هنالك صورة وليمة الاشراف في الفصل القادم قسم المسرات والولائم) • فاذا ما صح ذلك فان هذا المـوز كان مستوردا على اكثر احتمال •

(*) يقصد بذلك « الدبس » الذي يصنع من التمور حيث يتم غلي التمور في وعاء كبير على النار ، ومن ثم عصره وتصفيته ووضعه في الشمس مدة محددة كيما يروق ويثخن •

الفخاريـــات

تشتمل الفخاريات المعدة للاستعمال اليومي ، والتى كانت تصنع من الطين . على اشكال كانت موجودة في كل عصر من امثال الصحون والاطباق العميقة والضحلة : والحلل والاباريق •

وكان الزجاج معروفا في العصر الآشورى لكنه ظل نادرا ولم يكـن يستعمل لصنع القناني أو اقداح الشراب •

وكانت الكؤوس الفخارية تستعمل بدلا من الاقداح الزجاجية في حين استعملت بدلا من القناني ، انواع من اباريـق واكـواب وزهريـات ذات مقابض وجرار ضيقة الاعناق يمكن ان تختم بقطعة من قماش الكتان وبسدادة من الطين اذا كانت محتوياتها تتطلب الحفظ •

وقد اكتشفت اثناء التنقيبات مصافي خمر من هذا العصر اقل من اقدم العصور التأريخية عندما كان الشراب المخمر الذي يحتوي عـــلى رواسب كثيفة ؛ شائع الاستعمال • فقد كانت هذه الرواسب تحرك بالمصافي والاقماع وهي من ادق الامثلة التي عثر عليها في القبور الملكية في مدينة اور ، في حين ان تناول الشراب بوساطة الانابيب غالبا ما يشاهد عـلى النصب التي وجدت في بلاد الرافدين •

هناك نوع غير اعتيادي من مصفاة خمر شخصت بين انواع عثر عليها في تبه سيالك قرب مدينة كاشان ، وفي تبه جيان قرب نهاوند(*) تتألف من نوع صنبور ثم تشكيله في صفة جزء من دائرة مقسم الى قسمين بحاجـــز

مخرم • وكانت هذه المصفاة تمسك من مقبض عمودي وعــائل الى الحــد المطلــوب •

وكان الخمر يصيب منها في احدى النهايات ثم يمزج ويروق في نهاية اخرى في حــين يسهل تجويف الوعــاء حسب زاويــة الميــلان ، ان ينظــم ما يتدفق منه •

وما تزال الفخاريات التي اكتشفت خلال التنقيبات من ذلك العصــر تشتمل على عدد كبير من الزهريات بعضها ذوات قعور مدببة • ولابد ان تكون هذه الزهريات قد صنعت لكي تقف منتصبة في ارض غير مستوية ، او أنها كانت توضع فوق حامل خشبي[١٦] او دائرة من قش مضفور • غير ان وجود عدد كبير من زهريات ذوات قعور منبسطة يجعل من العسير ان نرى لماذا ان مثل هذا الشـكل النافع كثيراً لم يتم اختياره بصفة شاملة •

اما بالنسبة الى ما اذا كان العراقيون يجلسون على المفارش او يضطجعون عليها ، فاننا نعرف ان الرومان الذين كانوا يقدسون المتكأ ، يزعمون بــان هذه العادة قد نقلت عن الشرق •

وتدلل الوثائق الباقية عن هذا الموضوع ان افراد الطبقات العليا مــن العراقيين كانوا يجلسون على مقاعد ، اما الطبقات الدنيا فكانوا اما يجلسـون القرفصاء أو يجلسـون وسيقانهم متقاطعة •

(*) كاشان من المدن الحديثة في ايران تشتهر بصناعة السجاد الفاخر ، تقع بالقرب منها خرائب سيالك التي نقب فيها الآثاري الالماني كرشمان في الفترة ١٩٣٣ـ١٩٣٧ فعثر فيها على مستوطنات ومقابر قديمة •

اما نهاوند فانها من المدن الشهيرة في ايران تخرج فيها عدد كبير من علماء المسلمين والعرب • تقع بالقرب منها خرائب (تبه جيان) التي نقب فيهـــا في الفترة ١٩٣١ـ١٩٣٢ •

(١٦) او من الفخار •

كان الادمن على تناول الشراب . كما سبق ان رأينا ذلك . يؤدي في بعض الاحيان الى السكر ، وان هناك اوصافا . بنيت بكل وضوح على اسس الملاحظات الدقيقة ، لكل مرحلة من مراحل الاعراض او العلامات المحذرة على اقـل تقـدير .

ففي قصيدة الخلق نجد الالهة اثناء وليمة وتحت تأثير المسكرات . غدت ثرثارة ومهتاجة . وفي ملحمة البطل غلغامش نجد ان الرجل المتوحش انكيدو الذي شاء ان يصبح رفيقا لغلغامش . يتم تقديمه الى الحضارة من لدن عاهرة معبد . وان احدى الافكار التي تعلمها هي تناول الشراب المخمر .

«لقد تناول الجعة ، وقد تناولها سبع مرات وقد تحررت روحه وراح يهتف بصوت عال وقد امتلأ جسمه بحسن التكوين واشرق وجهه » .

وبالنظر الى الواقع فان ما كان العراقيون يمتلكونه مـن مشروباتهـم المصنوعة من الشعير والخمر المستخلص من اشجار النخيل وكذلك الخمـر الحقيقي . يؤلف سلسلة من الشراب يصعب ان تكون في مفعولها اقل تأثيرا من الاشربة الموجودة في الوقت الحاضر وان لم تكن مساوية لها في الكمية .

العمل والتجارة

العلاقات بين المشتري والبائع

لقد شاهدنا الحياة اليومية للعراقي الذي يسكن في البيت مع عائلته . اما الان فينبغي لنا ان نراقبه في عالم اوسع هو عالم التجارة . ولهذا السبب فاننا سنتصوره وهو يأخذ سبيله عبر المدينة بحثا عن التجار او اصحاب الحرف .

ان وجهة نظر البابلي في العلاقة بين المشتري والبائع مطبقة بكل وضوح في عبارات وصف بها كل شيء . فالبائع هو الشخص الذي يعطي وهو الذي يسلم ، في حين ان المشتري هو الشخص الذي يثبت السعر .

فمثل هذا الوصف للدور الذي يؤديه المشتري يبدو ، ولا سيما بالنسبة للتفكير الاوربي ، تناقضا صريحا لفكرة التعامل التجاري الحديث برمتها . ومع ذلك فانها في الواقع صحيحة جدا بالنسبة الى قانون العرض والطلب الذي ينظم المعاملات في المجتمعات الحرة ، وان المشتري في الواقع هو الذي يحدد السعر في اخر الامر سواء كان يرضخ لالحاح البائع (وفي هذه الحالة يكون قبوله بالسعر قبولا بقيمة المادة التي اشتريت او الخدمة التي قدمت) او ما اذا كان يساوم في سبيله ثم يحصل عليه اخيرا بالسعر الذي يعرضه هو .

مبدا المسؤولية

كان من المظاهر المهمة جدا ، هو مفهوم المسؤولية في المادة المبيعة . فالبائع يحاول على وجه التحديد ، ان يحرر نفسه من مثل هذه المسؤولية ، وان الشيء الملاحظ بصفة عامة هو الميل في الوقت الحاضر بالنظر الى شركات النقل البحري او سكك الحديد ، سواء كانت مملوكة بصفة عامة او فردية،

هو ان تتنصل وفقا لانظمتها من المسؤولية بالنسبة لركابها ، في حين يندر ان تحدد الدولة ، ولو نسبيا ، مثل هذا التنصل •

ومن ناحية اخرى ففي بلاد الرافدين كانت حماية القانون تمتد في كل العصور الى مشتري المادة او المنتفع من الخدمة • فبالنسبة الى المعمار وصانع السفن والجراح وبائع احد الارقاء ، حددت المسؤولية التي تقع على هؤلاء جميعا في شريعة حمورابي ، وهناك امثلة في العصور البابلية الحديثة والفارسية ، على عقود كانت على الاقل تمثل تفكيرا قانونيا معاصرا ان لم تكن تمثل القانون الحقيقي ذاته •

فمنذ عهد حمورابي وما بعده كان المعمار الذي عهد اليه ببناء دار انهارت نتيجة خطأ في البناء وادت الى قتل مالكها ، نفسه عرضة لان يشنق ، في حين اذا ما قتل طفل رب البيت في ذلك الحادث يقتل طفل المعمار •

ومما يقابل ذلك تماما هو ان على صانع الزورق الذي تظهر فيه الخروق ان يصلحه على حسابه الخاص وان يدفع تعويضا عن الضرر الذي يصيب الحمولة نتيجة ذلك •

تنظيم العمل في بلاد الاناضول

كان بعض الافراد ينهمكون من وقت لاخر في احد الاعمال التجارية حيث ينجح المواطنون الاحرار ، والعبيد المعتقون وحتى الارقاء الحقيقيون الذين يعينون من قبل اسيادهم لاداء عمل محدد ، ينجح هؤلاء في بز كل منافسيهم • فهم يفتتحون فروعا او دوائر ثانوية ، وبعبارة موجزة شركات مسيطر عليها بالمعنى التام لهذه الكلمة ذات مصالح كانت تتشعب في انحاء البلاد بل وتمتد الى ما وراء البحار •

ونستطيع ان نشير هنا الى ثلاثة امثلة على الاقل من ثلاث مناطق مختلفة،

من هده الشركات التي كانت تنهمك في اصناف واسعة من المعاملات وتمارس اعمال الصيرفة في ذات الوقت .

ففي «قول نبه» في الاناضول وعلى مقربة من مدينة «قيصرية»[١٧] تم اكتشاف سجلات جملة من التجار المهمين ، حفظت في غرف باحدى الابنية الضخمة تقع خارج المدن الحقيقية قليلا ، ويعود تأريخها الى بداية الالف الثاني قبل الميلاد .

وبمساعدة من هذه الرقم التي وصفت عامة بانها كبدوكية او آشورية استطعنا ان نعيد ترتيب معاملات شخص يدعى « بوشوكين » يبدو عليه بانه كان يزاول كل انواع الاعمال التجارية .

فلو سألنا عن السبب الذى حدا به هو وزملاؤه في دوائر مجاورة وكلهم يحملون اسماء سامية ، الى السكن في منطقة قيصرية بين سكان لم يكونوا في ذلك التأريخ من فرع مسامي ، فمن المحتمل ان يكون الجواب هو ان النفوذ الآشوري قد امتد في ذلك العصر حتى بلاد الاناضول وان التجار الساميين تحت حماية ذلك النفوذ كان في مقدورهم ان يزاولوا الاعمال التجارية في منطقة غنية لم تكن التجارة منتظمة فيها ، والتي كانت توفر لهم مطمحا في الحصول على ارباح عالية .

أهـداف التجارة

وفضلا عن ذلك فلم يكن هذا هو اول تغلغل عراقي في بلاد الاناضول، وان علينا ان نتذكر عدا مدونات الفتوح والحملات التي في ايدينا ، بان هناك شيئا ما أكثر من نزوات الحكام المتطلعين الى توسيع ممالكهم واشباع طموحهم . فقد كانت البواعث التجارية الثابتة تشير الى حملاتهم العسكرية.

---

(١٧) هي مدينة نيساريا القديمة Caesarea

هناك دليل نصف اسطوري ونصف ديني يبين فتوحات الملك سرجون الاول(*) بقيت من العصر الاكدي الذي يسبق تأريخ الرقم الكبدوكية بعدة قرون ، توضح حدوث احدى الحملات العسكرية التي كانت اهدافها تجارية بشكل صريح • فطبقا لهذا البرهان كان البعض من التجار العراقيين يعودون الى وطنهم كيما يطلبوا الى سرجون ان يأتي ويحميهم في بلاد الاناضول النائية التي استوطنوا فيها •

وليس من شك في ان جنرالات الملك الذين اتخمتهم المعارك كانوا يلحون عليه بان لا يستجيب لمثل هذه المطالب ويحاججونه بان المسافات شاسعة جدا وان الطرق غير معروفة • وقد عرض التجار بان يقودوا هذه الحملات بانفسهم • وقد ثبت نجاح هذه الخطة فاصبحت بلاد الاناضول في مشاركة منتظمة وبذلك اضافت بلاد الرافدين منطقة اخرى الى نطاق نفوذها•

وكان السبب الذى يدفع بالاشوريين الى السيطرة على بلاد الاناضول يبرز بكل وضوح في اتساع الاعمال التجارية التي كان السادة «بوشوكين» وشركاؤه يمارسونها خلال بضعة قرون متأخرة • واننا سنكون مخطئين اذا ما افترضنا بان اندفاعات الذهب الى كاليفورنيا ، او كلونديك ، او التزاحم على المعادن الثمينة في وقتنا الحاضر ، كانت ظاهرة عصرية •

فكل عصر له مقاطعته المماثلة لولاية (الدورادو)(**) التي تفيض ، او يعتقد بانها تفيض ، بالثروة التي تفتقر اليها جاراتها •

(*) هو سرجون الاكدي مؤسس السلالة السرجونية الحاكمة في الفترة ٢٤٧٠–٢٤١٢ قبل الميلاد ، عثر في نينوى على راس تمثال له . ويعرف سرجون باسم شروكين ، وقد حكم ٥٦ سنة في الفترة ٢٣٣٤–٢٢٧٩ قبل الميلاد •

(**) ولاية الدورادو Eldorado احدى الولايات الامريكية التي اكتشف الذهب فيها لاول مرة ولذلك اندفع اليها كل المغامرين والمفلسين معا بحثا عن الذهب في أراضيها •

لقد كانت مصر تملك الذهب لكنها لم تكن تملك الخشب . فمنذ عهد المملكة القديمة كان المصريون يسيرون الحملات ، التي كانت في ذات الوقت تجارية وعسكرية معا ، الى الساحل السوري للحصول على اخشاب الارز من لبنان مقابل العطور والبخور وسلع الزينة . وهذا الحادث قد كرس في اسطورة ايزيس التي كانت تبحث عن بدن زوجها اوزيريس والذي يتحدث كيف انها علمت نسوة البلاد على استعمال الزيوت المعطرة وعن قص الشعر ، وكانت تتلقى مقابل ذلك شجرة كبيرة ضمت جسم اوزيريس عندما نمت .

وكانت بلاد الرافدين يعوزها الخشب ايضا ولذلك كانت تحصل على ما تريده منه من ذات المصدر . وتلك هي اهمية القصة التي وردت في ملحمة غلغامش عن الحملة التي قام بها غلغامش الى بلاد الارز (وهي امانوس دون شك (*)) التي كان يحرسها الجبار « همبابا »(**) .

وكانت بلاد الرافدين تفتقر الى المعادن ايضا ولذلك نجد ان تجارها يسافرون الى ما وراء جبال طوروس في بحثهم عن النحاس ، والرصاص والحديد والفضة والذهب الذى لا يتوفر في تربتها .

وما لبث مفهوم الاقطار التي تحولت بالتدريج الى عزلة ومن دون اتصال بالعالم الخارجي ، وهو المفهوم الذى كان يمثل الى درجة ما الرأي الذي كان يتمسك به اوائل المؤرخين من العالم القديم ، ما لبث هذا المفهوم ان ادى الى ادراك اكثر صدقا لقضية مواصلات تلك الاقطار . ذلك ان

(*) امانوس Amanus يقصد بها جبال لبنان .

(**) همبابا أو خمبابا Humbaba هو الآله الذي كان يحرس غابة اشجار الارز في جبال لبنان ، وقد استطاع كلكامش ان يقتله ويحصل بذلك على اخشاب الارز التي كان العراق يستوردها من هناك منذ القدم ، وذكر خمبابا باسم خواوا أيضا ، وقد صورت صورته على كثير من الالواح الصغرى .

القوافل التي كانت تتألف اول الامر من الحمير واخيرا من الابـل كـانت تتحرك بسرعة قبل ثلاثة آلاف سنة مثلما هي عليه في الوقت الحاضر ، وتمضي في سيرها ومن دون امان نادرا •

والزوارق الشراعية الكبيرة الخفيفة التي ما تزال تجرى بـين الموانىء التجارية في سوريا ، ولو انها اصبحت متخلفة بكل بساطة عن البواخر التي تستطيع ان تمخر البحر من بيروت الى الاسكندرية في ليلة واحدة ، من النادر ان تختلف عن المراكب التي وان كانت اقل سرعة الا انها ليست اقل اعتماداً عليها ، والتي كانت في القدم تمخر ذات الطريق ، فتحتضن الشاطيء وترسو في كل ليلة عند رأس جبل يحجب الريح •

لقد كانت الانحاء المختلفة من الشرق القديم في تماس احدها مع الاخر تماما مثلما هي عليه اليوم ، واذا ما كانت الرحلة اقل سرعة كـانت المخاطر اكبر قليلا •

لقد كان طريق الحرير الذي تعقبه ماركوبولو(*) يزود قبلا صناعاته الثمينة الى فارس الساسانية وبيزنطية • ولم يمض سوى قرن واحد منذ ان اخذت البواخر تقرب ارجاء البحار ، واخذت السلطات البحرية تمنحها الامـــان ، ومنذ حوالي ثلاثين سنة ليس الا شرعت السيارات تجوب لاول مرة طـرق الشرق • اما قبل ذلك فقد كانت التجارة تسيِّر مثلما كانت عليه قبل اربعة آلاف سنة خلت •

(*) ماركوبولو رحالة بندقي شهير ، رحل الى الصين وجاب انحاءها وأمضى فيها سنوات عديدة ثم عاد الى وطنه واصبح قائد سفينة خاصة بأهله . وقد اسره أهالي جنوا ، فمكث في السجن عندهم عدة اعوام ، قص على أحد رفاقه السجناء مشاهداته في الصين فكتبها ذلك السجين ونسبت الى ماركوبولو ، واصبحت تؤلف رحلته الشهيرة ، وكانت ولادة ماركو في البندقية سنة ١٢٥٥ • أما رفيقه في السجن الذي دون رحلته فيدعى « رستي تشيللو » •

وأخيرا كان يوجد وراء كل مظهر من مظاهر التوسع التجاري باعث قوي بشدة ؛ نستطيع ان نتجاوز اهميته بيسر . لقد كان هذا الباعث يمثل الحاجة الى التوابل التي ما تزال تتواصل في الواقع ، وفي سبيل البخورات التي كانت تستهلك بمعدل هائل في كل طقس ديني ؛ ولذلك كانت من المنتوجات ذات الاهمية القصوى .

لقد كان المصريون هم الذين سافروا الى بلاد (بنط) (ربما يقصد بها بلاد حضرموت وحمير في جنوب غربي الجزيرة العربية)(*) وعادوا معهم باشجار البخور المصورة في معابد « دير البحري »(**) .

وتجاوبا مع هذه الحاجة توطنت الشعوب البدوية كيما تحمي وتنظم القوافل التي كانت تتعرض للاغارة عليها مؤخرا . وكان هذا هو سر العظمة التي تمتع بها الانباط وتدمر ، والثروة التي اشتهرت بها حضرموت وحمير ، والتي بقيت لوحدها تمتلك الذهب في حين فقدته جاراتها في الجزيرة العربية.

يبدو لاول وهلة ان البواعث التأريخية ربما يظن بانها قد تغيرت تغيرا اساسيا منذ القدم . لكنها بقيت اساسا على حالتها ذاتها كما كانت هكذا دوما، كما نرى ذلك بكل يسر ، حين تكشف الصدفة عن الاسباب التي ادت الى قيام الحملات العسكرية العظمى في الماضي .

واذن ماذا كان نطاق العمليات التي كان بوشوكين يمارسها ؟ لقد كان يتعامل بالمقاطعات الزراعية ، وكان يقدم النقود كقروض ، وكان يتعامل في الرصاص والفضة والملابس و « الحمير السود » مهما كان نوعها . وربما كانت هذه الحمير اقوى تربية ، او لان الحمير في بلاد الرافدين كانت بيضاء

(*) بنط Punt والذي اعتقده ان المقصود بهذه الكلمة هو بلاد النبط وهي أقرب الى مصر واسهل وصولا اليها من بلاد حضرموت التي تقع على البحر العربي .

(**) دير البحري يقع في منطقة « الاقصر » التي يقوم فيها « وادي الملوك » في مصر

اللون بصفة عامة ، وان مجرد اللون يعطي دلالة على اصولها • او ربما كانت هذه الكلمة محض ترجمة سامية للاسم الاسيوى الذى كان يطلق على الحصان الذى ما يزال ، رغم عملية التأقلم ، غير معروف في اودية نهري دجلة والفرات •

تنظيم القافلة

تلقى الرقم الكبدوكية قدرا كبيرا من الاضواء على تنظيم القوافل وطرق تمويلها • فقد كان رجل التجارة يضع شروطه مع احد اصحاب القوافل المنتظمة ، او ربما مع تاجر موقت حيث يقوم هذا الاخير بجمع الحيوانات، وتنظيم امر طعامها ، وحزم السلع التي يراد نقلها • ثم يحدد يوم لحركة القافلة ، واذا تأخر التاجر عن اليوم المحدد فان مرتبه يتوقف من ذلك اليوم موضوع البحث •

وفي بعض الاحيان ينص العقد على ان مالك القافلة ينبغي له ان ينقل البضاعة الى وجهتها النهائية ، ولكن الترتيب الجاري في الغالب ، هو ان يسافر صاحب القافلة معها الى نقطة محددة من المسافة ومن ثم يسلم قافلته الى صاحب قافلة اخرى ، يمضي بها الى مسافة اخرى •

وقد يتلقى المالك الاول حمولة جديدة في مقابل ذلك ويعود ادراجه الى النقطة التي بدأ منها • ويحدث في بعض الاحيان ان يحول صاحب القافلة نفسه الى بائع متجول يشتري السلع من الاقطار التي يمر بها ويجري فيها بيوعه، كيما يبيعها ثانية في بلد آخر ومن ثم يكرر هذه العملية في طريق عودته •

وقد تتخذ الاجراءات المالية اشكالا متباينة • فاما ان يدفع المساعد كل النفقات ويأخذ كل الارباح ، ثم يدفع الى صاحب القافلة مرتبا محدودا ، او ان يحصل الاخير على نسبة من الارباح • وتطلب بعض الضمانات غالبا من صاحب القافلة الذي تكمن مصلحته في نجاح المغامرة •

وغالبا ما يجد سيد القافلة نفسه يحمل بعض المعادن من امثال الرصاص او الفضة ، التي كانت في ذلك العصر تمثل مجرد سلعة وليس نقدا • غير ان العلاقات بين مختلف فروع احدى الشركات تكون وثيقة مثال ذلك ان رسالة من احد رجال الاعمال في الاناضول قد يطلب فيها من مراسله في مكان بعيد ان يسلم كمية من القمح او المعادن الى حامل تلك الرسالة •

ان هذا يمثل في الطبع بكل بساطة نظام الصكوك او رسائل الائتمان• والواقع ان هناك احتمالا كبيرا في ان يكون « الفرسان تمبلارز »(*) الذين عهد اليهم بصفة عامة باختراع الصيرفة كانوا يتسلمون ويطبقون بكل بساطة على الفروع المتعددة لطائفتهم ، الطرق التي نسيت في اوربا لكنها ظلت سارية المفعول في الشرق منذ عهود قديمة •

الاعمال التجارية في نوزا(**)

والفترة الثانية التي نستطيع ان نحصل فيها على صورة جلية عن فعاليات احدى شركات الاعمال ، تقع اثناء سيادة شعوب اسيوية عرفت باسم الحوريين ـ الميتسانيين(***) في نوزا على مقربة من كركوك في بلاد آشور •

(*) تمبلارز Knights Templars هم طائفة من الرسل الذين كانوا يتولون نقل الحوالات او الصكوك النقدية من مكان الى اخر في أوربا •

(*) نوزا وتلفظ نوزي ونوزو أيضا وتعرف خرائبها باسم يورغان تبه ، وهي مدينة قديمة على بعد ثمانية أميال جنوبي غربي كركوك ، نقبت فيها المدرسة الامريكية في بغداد وبعثة جامعة هارفارد فعثرت على حضارة مزدهرة وكثير من الرقم الطينية التي تبين تصرفات أهالي هذه المملكة (انظر كتابنا : العراق القديم طبعة ١٩٧٦ ، ففيه فصل مهم عن نوزا) •

(**) الحوريون والميتسانيون : الحوريون استوطن اعالي بلاد الرافدين غير أن أهميته السياسية والحضارية ليست مؤكدة • أما الميتانيون فانهم شعب استوطن المنطقة المحصورة بين نهري دجلة والخابور ، وقد اشتهر بالقوة بصفة خاصة من الالف الثاني حتى القرن الرابع عشر قبل الميلاد •

فنحن في هذه القضية أيضا مدينون بمعلوماتنا الى سجلات احدى الاسر من اناس اصحاب اعمال امتدت حوالى اربعة او خمسة اجيال • وقد تعاظمت قيمة هذه السجلات في نظرنا لكونها ترقى الى عصر مختلف ومحيط مغاير عن الرقم الكبدوكية ، فهي تكشف عن بعض الفوارق في التطبيق التجاري •

ذلك ان التاجر الكبير « تخيب ـ تلا » كان يتعاطى كل شيء لكنه كان مع ذلك يدير جانبا منفصلا من التجارة خاصا به •

ففي العصر الذي نتحدث عنه كان نظام الاقطاع الذي بمقتضاه تمنح الارض من لدن الملك ، ما يزال ساري المفعول في بلاد آشور • وقد حمل هذا النظام معه الالتزام ببعض اشكال من الخدمة ، من اهمها العمل الاجباري والخدمة العسكرية ، غير ان هذا بقي معمولا به بصفة مطلقة ولايمكن تغير المالك الا بالوراثة •

وطبقا لذلك اقدم تخيب تللا على تطبيق عملية تبنى الاخرين بالجملة وعلى نطاق واسع • فقد كان اولاده الذين تبناهم يجلبون له الارض وهو يتفضل عليهم مقابل ذلك بهدية لا تساوي شيئا بالنسبة الى قيمة الارض في السوق السوداء •

موراشو النفري

اما العصر الثالث الذي نستطيع ان نراقب فيه اعمال بيت كبير للاعمال التجارية ، فيقع في بداية الفترة الفارسية (النصف الثاني من الالف الخامس قبل الميلاد) ، او في نهاية العصر الذي يشمله هذا الكتاب •

لقد كان هذا البيت التجاري ملكا لشخص يدعى موراشو واولاده ، والذي كان يضم مئات البيانات • كانت عائلة موراشو يهودية ، وعندما استولى نبوخذنصر على بيت المقدس سنة ٥٨٧ قبل الميلاد ، واسر اهم السكان (من بينهم النبي ارميا) كانت اسرة موراشو بين اولئك الاسرى •

لقد اعدت هذه الاسرة العدة للثراء في منفاها هذا ولذلك امضت ازهى ايامها في مدينة نفر في عهد الملكين « خشايارشا الاول » (٤٦٤ - ٤٢٤ قبل الميلاد) ودارا الثاني (٤٢٣-٤٠٥ قبل الميلاد)(*) .

كتبت الرقم التي تخص هذه الشركة التجارية بالحروف المسمارية غير ان عددا من الوثائق يحمل - على وجه واحد ، خلاصة محتويات مؤلفة من كلمات ارامية قليلة كتبت بالحبر . ففي هذا التأريخ وحده لم يكن سوى الافراد المثقفين ثقافة عالية يستطيعون الكتابة بالمسمارية والاكدية . وكانت عامة الشعب يتكلمون الارامية واذا استطاعوا ان يكتبوا اطلاقا فانهم يكتبون بالآرامية ايضا .

ومن المحتمل ان تكون الرقم موضوعة البحث تمثل اضابير الشركة ، وان خلاصة المحتويات المدونة بالآرامية قد تعين الكتبة على وجود الوثيقة التي يريدونها وتقديمها الى احد اعضاء الشركة ممن يستطيعون قراءة الكتابة المسمارية .

هناك عدة نقاط ترتبط بطرائق تنظيم العمل . ذلك ان ارباب العمل الكثيري العدد من امثال البيوتات الملكية او المعبد ، كانوا يمتلكون الارقاء الذين كانت توزع واجباتهم فيما بينهم .

وقد يحدث في مثل هذه الحالات ان لا تكون هنالك وثيقة تسجل

(*) احشويرش الاول او اردشير ، ويعرف لدى اليونان والرومان باسم ارتكسيركيس Artaxereçs هو ابن دارا الاول الكبير ، تولى العرش بعد وفاة ابيه ، وخاض عدة معارك مع اليونانيين لكن الفشل كان مصيره .

اما دارا الثاني ، ويعرف باسم داريوس وداريوش فهو ابن اردشير الذي تولى الحكم بعد اردشير الاول ، وقد واصل خطة الحرب ضد اليونان ، وبعث بابنه كورش على رأس جيش كبير الى بلاد اليونان حيث استطاع ان يتحالف مع الاسبارطيين وان يلحق ، نتيجة لذلك ، هزيمة شنيعة باليونانيين .

العمل الذي كان يتم انجازه فعلا ، ولكن اذا كان العمل ممثلا في اجر نوعي يستحقه الملك او العبد ، فقد يقدم بذلك طلب شكلي ، وبذلك نستطيع الاطلاع عليه من الرقم الطينية .

لم نبق اية اشارة للاعمال اليومية ، ولكن هنالك عقد ، ووعد ببيع ، ووعد بدفع مبلغ في تأريخ محدد ، وتأجير منزل او بستان ، واسقاط دين كله، او جزء منه . وتسليم بضاعة الى طرف ثالث عينه المشتري . فكل هذه القضايا قد ترسم لنا صورة وثيقة شكلية تساعدنا على زيادة معلوماتنا .

وعلى الرغم من وضع العمال المتسم بالخنوع فان من يستخدمونهم لم يكونوا في الواقع يمتلكون حقوقا غير محددة عليهم . فقد سبق لنا في فقرات سابقة ان رآينا اخطاراً موجها الى متهم يسترعي الانتباه الى نتائج الاهمال . ففي هذا العصر كانت القوانين في حاجة الى ان تضمن بان العمل كان يتم انجازه على وجه صحيح .

معدلات الاجور

لا توجد معدلات محددة للاجر ، وان من العسير ان نقرر قيمته بدقة وذلك لان كل المدفوعات ، بسبب عدم توفر النقود ، كانت تتم بكميات من الشعير . وكان يقصد بهذا الحفاظ على العامل ، وان اي فائض من الشعير لا يأكله كان يتم استبداله بضروريات اخرى .

وفي عهود السلالة السرجونية الاولى ، والبابلية الحديثة والفارسية ، كانت العقود توثق بالفضة التي وان لم تكن لتضرب في صفة نقود بالمعنى الحديث لذلك ، الا انها كانت دون ريب وعلى اقل تقدير على شكل الواح صغيرة او سبائك مختومة بشعار يضمن وزنها .

ومع ذلك فهذا الدليل يكفي لاكثر من مجرد التقدير الفج للقيم النسبية للسلع وللخدمات .

هنالك طراز واحد من الاجور لكنه كان اقل شيوعا ، اخذ يميل الى الاختفاء عند نهاية العصر الذي نتحدث عنه .

هذا الطراز ، كما كان يطبق مثلا بالنسبة الى العامل ، ينطوي على اعطائه المواد الخام التي يحتاج اليها في العمل الذي يمارسه ، والسماح له بان يحصل بمثابة اجر ، على أي فائض يتبقى من تلك المواد بعد انجاز عمله .

وهكذا نجد خلال الحكم الاكدي الملكي ان صانع الدروع كان يتسلم مقدارا معينا من معدن ليصنع منها الخوذ ، سوية مع جلود البقر للتغليف ، والصوف للبطانة الداخلية . ففي ذلك التأريخ كانت الخوذ تطبق على الرأس تماما ، وتؤذي من يرتديها الا اذا تم تبطينها .

فعندما كان الصانع يكمل الكمية المقررة من الخوذ ، يحتفظ ، كأجر خاص له ، بالفائض من المعدن والجلد ، والصوف .

ان النص الذي يسجل مثل هذه المعاملة يجعل في الامكان احتساب وزن الخوذة الواحدة في هذا التأريخ ، والحكم بانه كان نفس وزن الخوذة التي بقي الفرسان يرتدونها حتى عهد متأخر .

واخيرا لما كان كبار اصحاب الاراضي من امثال القصر او المعابد يملكون معظم انحاء القطر ، فقد كان المالك يعمد في الغالب الى تنويع الحوانيت التي يشتري منها اتباعه ما يطلبونه من حاجيات .

وكان في اغلب الاحيان يدفع الى عماله بصفة غير مباشرة توزيعات مختلفة من الاقوات وتلك طريقة كانت شائعة خلال حكم سلالة اور الثالثة. ولقد سبق لنا ان اشرنا الى رقم طينية تسجل الحصة التي يتسلمها كل متسلم مما نسميه بالخبز ، والشراب المخمر ، وفي بعض الاحيان كمية من التمور

ومقدار محدد من الزيت ، ورماد الصودا وذلك بدلا من الصابون دون ريب [انظر ما سبق ذكره عن الصابون والخمر] •

المراقبـــــون

كان العمل . بغض النظر عن الطرق التي ينظم بها . يتطلب وجود عدد كبير من المراقبين • ففي عصر اوروكاجينا الذي كان من المصلحين الشهيرين لم يعد هنالك . بامر خاص منه ، مراقبون للسفن او لقطعان الماشية في كـل المنطقة التي كانت تخضع لسلطة مدينة لكش •

ان لدينا فكرة طريفة عن اولئك المراقبين الذي وجدوا في عهد سلالة اور الثالثة والذين كان الواحد منهم يسمى « الرجل ذو العصا » وهو عنوان يعطي صورة مشرقة •

وفضلا عن ذلك كان ملوك العهد الآشوري يعتنون عناية جيدة بـان يدعوا سجلا تصويريا لنقل ثيران مجنحة هائلة تحرس ابواب القصور ، من بين المهام الجسيمة الاخرى التي كانوا يطلبون تنفيذها •

ففي المتحف البريطاني منحوتة تبين الموظف الذي عهد اليه بالعمـل المنصب على نقل تمثال هائل ربطت به صفوف طويلة من الرجال ، ويحمل هذا الموظف بوقه . مثل مراقب العمل العصري تماما الذي يحمل صفارته آثناء مد قضبان سكة الحديد أو الاسلاك الكهربائية •

ففي نهاية العصر الذي نتناوله الان ، كانت فرق العمال تحت اشراف مراقبين تعكس القابهم عدد الرجال الذين كانوا يعملون طبقا لاوامرهـم ، والذين يتألفون من عشرة رجال او مائة •

تفقـــات المعيشة

لا يمكن لاي بحث في هذا الموضوع ان يوفر بالطبع اكثر من مجرد

جملة من الارقام • فهو لايمكن ان يقدم قاعدة مفيدة للمقارنة مع الاحوال الحديثـة •

وينبغي لنا أن نبدأ بتوضيح نظام الاوزان والمقاييس الذي كان مطبقا بصفة عامة في بلاد بابل وآشور • فمثل هذا الوصف ضروري لانه ربمـا لا يوجد نظام شامل من هذا النوع في تأريخ كانت فيه مدن بلاد الرافدين تتمتع بدرجة من الاستقلال اوسع مما كانت تتمتع بها المـدن الاوربيـة في العصور الوسطى •

ففي القرون الوسطى عـلى سبيل المثال كـان « غـرام » (تورناي)(*) وغرام باريس ساري المفعول ، وكانت انظمة القياسات القديمة والجديدة موجودة جنبا الى جنب• وحتى في الوقت الحاضر مايزال البشل(*) والستيير(١٨) والبرتش والكوادرون ، مستعملة في فرنسا(**) الى جانب وحدات النظام المتري •

اما في بلاد الرافدين القديمة فالواقع انه وجدت ، الى جانب الوحدات المستعملة محليا ، سلسلة من الاوزان تدعى اوزان الملك » التي ربما كان البيت المالك يستعملها او لايستعملها طبقا لما اذا كانت للدفع او الاستلام • ففي العهد الفارسي كان للصيرفي الكبير موراشو ، الذي التقينا بـه قبلا ، نظام خاص به للاوزان والقياسات• فاذا ما اضفنا علاوة للعصر وللبلاد فاننا نجد ان الوحدات التالية للقياسات مجسدة في عقود تجارية [المعادلات الانكليزية كلها تخمينية] •

(*) تورناي Tournais هي مدينة تورين الايطالية على أكثر احتمال •
(*) البشل مكيال انكليزي للحبوب يبلغ ٣٦٫٣٥ لترا •
(١٧) الستيير مكيال للسوائل وللقمح يبلغ حوالي غالونين أو اثني عشر بشلا ، وهناك مرادفات مماثلة بالنسبة للقارىء الانكليزي • البرتش Perch مقياس أطوال انكليزي يعادل الياردة •
(**) الكوادرون Quadroon مكيال رباعي •

جدول الاوزان

١	شي (قمح)	$\frac{3}{4}$	الحبة	($\frac{1}{600}$ اونس)
١	شقلو (شاقل)	١٨٠	شي	$\frac{3}{10}$ اونس
١	مانو (مينا)	٦٠	شقلو	١٨ اونس(*)
١	بلتو (طالنت)	٦٠	مانو	٦٧ لبرة

اما في العصر البابلي الحديث فان الحبة (شي) لم تعد تستعمل كوحدة اساسية ، وان الكميات الصغرى كان يعبر عنها كاجزاء من الشاقل واصغر جزء هو واحد من اربعة وعشرين من الشاقل او (ابول Obol) واحد .

(*) هو « المن » الكيل المعروف عندنا .

جـدول المساحات

أ ـ سيلا ....

سلا أو « كـا » $1\frac{1}{4}$ بنت

١ ـ مسكتو Massikto او (بي Pi) = ٦٠ كا ١١ غالون او $\frac{1}{4}$ ١ بشل (وقد خفض المسكتو في العصر البابلي الحديث الى ٣٦ كا)

١ اميرو Imeru (حمل حمار) = ١٠٠ كا $\frac{1}{4}$ ١٨ غالون او $\frac{1}{4}$ ٢ بشل

وكان يستعمل في بلاد بابل مقياس يدعى « كورُو Kurru » او «غور Gur » الذي يساوى ١٨٠ سيلا (= ٣٣ غالون او $\frac{1}{10}$ ٤ بشل) . غير ان الـ (سيلا) غالبا ما كان يقدر بمقدار ثلاثة ارباع البنت والذي يجعل الغور حوالي ستة عشر غالونا او بشلين(*) .

(*) الـ « بنت Pint مكيال يعادل ٥٦٨و٠ من اللتر

مقاييس الاطوال

أ'بانو (اصبع)	¾ بوصـــة
ـ ا'مّاتو (ذراع) = ٢٤ أ'بانو ½ ١٥ بوصة	
ـ كانو (قصبة) = ٦ اماتو	٧ اقدام و ½ ١٠ بوصة
ـ غـــار = ١٢ اماتو	١٥ قدما و ٩ بوصات

اما في بلاد بابل فقد كانت المقاييس التالية مستعملة ايضا .

اشـلو = ١٠ غـار	½ ١٥٧ قدم (½ ٥٢ يارد)
بيرو = ١٨٠٠ غـار	½ ٥ ميـل

مقاييس المساحات

مسارو = اغار مربع	½ ٢٧ يارد مربع
ايكـو	٥/٦ من الفـدان
١ بورو	١٥ فدانـا

وكان يعبر عن مساحات الاراضي ايضا بمقادير كمية القمح المطلوبـة لزراعتها ، اي بواسطة « بى Pi » و « اميرو Iméru » . ويتضح من هذه الفروق التي لم نلاحظ سوى الاساسية منها في هـذه الجـداول ، ان المقارنات لايمكن ان تتم بمقادير واسعة جدا .

مقاييس وحدة التبادل أو التحويل

كان الشعير ، كما اوضحنا ذلك قبلا ، يمثل الاداة الرئيسة للتبادل ، وكان يعبر عن هذا في عصر متقدم مثلما يعبر عن سعر شراء الفضة او الرصاص ، غير ان الفضة ما لبثت ان أخذت تحتل بالتدريج مكانة الشعير ، ولم تكن لتقدر بالعملة لان هذه لم تكن قد اخترعت بعد ، وانما تقدر بالوزن بصفة خاصة .

ويعزى اختراع النقود الى بلاد « ليديا » بصفة عامة(*) غير ان اللحظة الحاسمة كانت اول مصادفة تم فيها التعامل في التجارة بمقادير سبائك الفضة الصغيرة المختومة ببعض الشعارات من امثال رأس عشتار او رأس شمش .

وكان سنحاريب (٦٠٧ ـ ٦٨١ قبل الميلاد) يقوم بضرب النقود فعلا ومن قطع صغيرة عندما سجل في مدوناته التأريخية قائلا « لقد أمرت بصنع قالب من الطين ، وان يصب البرنز فيه لصنع قطع من فئة نصف شاقل

(= $\frac{١}{٧}$ اونس) .

وكانت أولى النقود الواسعة الاستعمال في غربي آسيا هي (الداركات)(**) الفارسية (نسبة الى الملك دارا) ، غير ان هذه العملات كانت ، منذ اللحظة الاولى التي اخترعت فيها ، تؤدي ذات الوظيفة التي كانت السبيكة المعدنية

(*) ليديا Lydia مملكة في اسيا الصغرى ، عاصمتها مدينة سرديس اشتهر ملكها قارون الذي ذكر في القرآن الكريم ، واسمه لدى الاوربيين كرويسوس في عهد الاخمينيين ، وقد هزم قارون أمام كورش ملك الاخمينيين ، وسقطت عاصمته بايدي الفرس سنة ٥٤٦ قبل الميلاد .

(**) جمع دارك .

تؤديها في اقتصاديات اوربا الغربية خلال الثلاثين سنة الماضية ، ولم تتخل عنها خزينة الدولة الا عندما كانت تستعمل للتسويات بين بلدين ، أو لدفع اجور المرتزقة .

وكانت كل المعاملات الاخرى تتم بمقادير الفضة ، اما بالوزن او بالعملة المضروبة ابتداء من تأريخ الملوك السلوقيين وما بعده . وكانت الفضة ايضا مقاس وحدة القيمة ، فاذا ما سدد دين ما بالذهب جزئيا وبالفضة جزئيا فان نسبة مجموع ما دفع بالذهب يعبر عنها بمقادير الفضة .

يكشف تمحيص العقود في عهد الامبراطورية البابلية الحديثة عن المعدلات التالية للقيمة بين الفضة والذهب وبين الفضة والمعادن الاخرى .

الفضة	الذهب	التأريخ
١٥	١	السنة الرابعة من حكم الملك نبوخذنصر
١٢	١	السنة السابعة من حكم الملك نبونيدوس
٨	١	السنة السابعة من حكم الملك نبونيدوس
١٠	١	السنة الثامنة من حكم الملك نبونيدوس
١٣ و ٨ ⅓	١	السنة الثامنة من حكم الملك نبونيدوس
١٢	١	السنة الحادية عشرة من حكم الملك نيونيدوس

(ملاحظة : وقعت المعاملتان في ذات اليوم)

ان التوضيح الوحيد الممكن لهذه الفروق هو انها تعكس تقدير النسب التخمينية وتمثل نقاء الذهب والفضة بالتعاقب .

كانت القيمة المقارنة لوحدة من الفضة ، بالنسبة الى مقادير المعادن

الاخرى كما يلي : النحاس ١٨٠ ، الرصاص ٤٠ الحديد الايجيني (من قبرص) ١٤٠ ، الحديد (من لبنان) ٣٦١ .

ان هذا يشير الى ان الرصاص كان يأتي في الدرجة الثانية من القيمة بالنسبة الى الفضة . ويعكس فرق السعر بين الحديد الايجيني او القبرصي او اللبناني ، الفرق في النوعية ، وان ذات السبب يكمن وراء فروق من خمسة اضعاف في قيمة الرصاص .

ان هذه النقاط تحتاج الى تأييد ثابت . ولذلك ينبغي لنا ان نتذكر بان مجرد قراءة احد العقود لايمكن ان تعطينا معلومات دقيقة عن النسب ودرجات النقاء لمختلف المعادن المختصة في حين اننا لا نعرف في الغالب حتى الميزان الذي كان يستعمل لهذا الغرض .

ان واحدا من الامور القليلة التي نستطيع ان نقولها بشيء من التأكيد هو ان وزن الشاقل يعادل بصفة تقديرية وزن الربع الامريكي (٢٥ سنت) او اقل من « البني الواحد = ثلث اونس » بقليل .

قيمة السلع

نحن نعرف اسعار بعض السلع المحددة . ففي العصر البابلي الحديث كان « الغور » الواحد[١٩] من التمور يساوي شاقلا واحدا ، غير انه في العهد الفارسي اصبح يساوي شاقلين . وكان سعر الشعير في الاصل نفس سعر التمور . ولقد أصبح فيما بعد غاليا كثيرا لكن السعر كان يخضع

---

(١٩) في هذا القسم عد الغور معادلا لاربعة بشلات . ولكن على القارىء ان يتذكر (ما ورد قبلا في جدول الاوزان) بان قيمته في بعض المعاملات كانت تساوي بشلين ليس الا .

لتقلبات كبيرة خلال السنة ، ويهبط بمقدار كبير في موسم الحصاد .

وكان الثوم يباع بالشدات ويشير عقد مؤرخ من عهد الملك كورش الى ارسالية واحدة من الثوم تبلغ تسعة وثلاثين الف وخمسمائة شدة .

ولقد بقي السمسم غالي الثمن ، اذ كان يكلف ما بين ثمانية واثنى عشر شاقلا للغور الواحد او حوالى ثلاثة اضعاف الشعير ، في حين كان زيت السمسم يكلف اكثر من شاقل واحد لكمية تختلف من ستة وثلاثين (سلا) (٥٤ بنت او ٦ ٣/٤ غالون) الى ١٤٥ سلا (٢١٦ بنت او ٢٧ غالون) ، لكنه كان بصفة عامة اقرب الى الرقم الواطىء .

وكان الكرم ينمو في شمالي بلاد بابل في ذلك التأريخ ، وكان الخمر المستخلص منه ينافس الخمور التي كانت تستورد من منطقة « طور عابدين » (اسالو القديمة)(*) ومن سوريا . وكانت الخمرة الجيدة المصنوعة من العنب (كرانو Kuráno) تساوى اكثر من ثمانية شواقل للجرة الواحدة ، في حين كان افخر انواع الخمور المستخرجة من التمور (شكرو Shikaro (*) تباع بما لا يقل عن الشاقل الواحد .

وكان الصوف الصقيل (شباتو Shipatu) يباع بمعدل ٢ مينا (٢ ١/٤ لبرة) بشاقل واحد خلال العهد الفارسي في حين كان الصوف الارجواني المصبوغ لا يكلف اكثر من خمسة عشر شاقلا .

ولا يوجد دليل في العقود الموجودة الان عن سعر القنب والكتان

(*) طور عابدين هي منطقة الجبال التي تعرف الآن باسم جبال طوروس وتمتد من شمال سوريا الى داخل بلاد تركيا .

(*) هي نفس كلمة « سكر » العربية أو شكر بالعامية العراقية .

ولو ان المؤرخ سترابو (الكتاب السادس عشر ١ ، ٧) قد اشار مؤخـرا الى صنعهما في بورسيبا (*) على مقربة من مدينة بابل .

وكان ثمن ثور واحد يتراوح ما بين عشرين الى ثلاثين شاقلا ؛ وثمن كبش او معزة حوالى شاقلين . وكان الحمار غالي الثمن اذ ان معدل سعره يصل الى حوالي ثلاثين شاقلا .

وكان سعر ما يتراوح بين خمسين الى مائة اجرة يبلغ شاقلا واحـدا ، وكذلك سعر ستمائة مينا من الاسفلت (٦ هند رويت)(***) .

وكان الخشب مرتفع السعر كما هو متوقع . ففي عهد حكم نبوخذنصر كان ثمن اربع وعشرين قطعة من الخشب القبرصي يكلف سبعة وعشرين شاقلا ، وخمسة طالنات (٤ هندرويت) من خشب الارز ، نصـف مينـا .

وهناك مقدار جيد من الادلة عن سعر المعادن ، وان احدى المعاملات تشمل الكميات التالية :

١٠ طالنات (٦ هندرويت) من النحاس المجلوب من قبرص بسـعر ٣ مينا و ½ شاقل من الفضة .

٣٧ مينا (٤٠ لبرة) من الرصاص بسعر ½ ٥٥ شاقل .

١٦ ميناوه و ١٥ شاقل (½ ١٧ لبرة) من الصوف المصبوغ بسـعر ٢ مينا و ¾ شاقل .

(**) بورسيبا مدينة أثرية تقع جنوبي بابل وتبعد عن مدينة الحلة بحوالي عشرة أميال تعرف خرائبها باسم « برس نمرود » ورد ذكرها في شريعة حمورابي وفي كتب الفتح الاسلامي حيث وقعت عندها احدى المعارك مع الفرس ، وظلت القرية قائمة ، وقد اشتهرت في العصر العباسي بانتاج انواع فاخرة من الثياب عرفت بالبرسية ، نقبت فيها بعثة المانية سنة ١٩٠٢ .

(***) الهندرويت CWT قنطار انكليزي يعادل ١١٢ رطلا .

٥٥ مينا (٦٠ لبرة) من حجر اللازورد بسعر ½ مينا و ⅔ ٦ شاقل.

١٣٠ مينا (١ هندرويت ، ٣٠ لبرة) من الحديد القبرصي بسعر نصف مينا واثنين ونصف شاقل .

٢٥٧ مينا (½٢ هندرويت) من الحديد اللبناني بسعر ثلثي مينا وشاقلين وثلثي الشاقل .

ويبين الجدول التالي التغيرات في اسعار الارقاء ولو اننا لا نستطيع هنا ان نؤكد هذا بمقادير النقود العصرية .

معدل السعر	في حكم الملك
٤٠ شاقلا	نبوخذنصر
٥٠ شاقلا	نبونيدوس
٦٠ شاقلا	كورش
½ ١ مينا	قمبيز
⅔ ١ مينا	دارا
٢ مينا	اخشويرش (اردشير)

ولقد ارتفعت قيمة المزارع والعقارات بشكل ثابت فبينما كانت المائة غور (اكثر من نصف فدان بقليل) في اوائل العصر تساوي شاقلا واحدا ، لم يعد يشترى في عهد نبونيدوس بذلك المبلغ اكثر من عشرة الى عشرين غور (٢٦٠ او ٥٢٠ يارد مربع) .

وفي عهد كورش كان البستان الذي تبلغ مساحته مائتين وخمسين ياردا مربعا ، يكلف اكثر من شاقلين واقل من ثلاثة في عهد دارا .

وبيعت دار مع ارض صغيرة بخمسة عشر شاقلا للوحدة التي عرفت باسم « قصبة »(*) قبل العهد الفارسي . اما في عهد الملوك الفرس فقد ارتفع السعر الى اكثر من اربعين شاقلا .

واخيرا ندرج هنا اسعارا متنوعة للملابس وللادوات المنزلية .. فلباس النوم باثنين مينا ، وسعر خمسين اداة صغيرة شاقلان ، واحدى عشرة كأسا نحاسية بشاقل واحد ، وكومتان منفصلتان مؤلفتان بالتتابع من مجرفة حديدية وفأس واداتين غير محددتين ، واربعة كراسي وثلاثة اسرة ، بيعت كل كومة منهما بشاقلين في عهد حكم كل من نبونيدوس وكورش .

وكانت معدلات الاجور تختلف اختلافا واسعا . فقد كان حارسا معبد يتسلمان اربعة وثلاثين شاقلا عن مدة اثنى عشر يوما .

وفي عهد الحكم الفارسي كان يدفع الى العبد ثلاثة شواقل في السنة ، وهو ذات المبلغ الذي كان يدفع الى اربعة عمال لم يوصفوا بانهم من الارقاء .

ولما كان عدد الناس الذين يملكون رأس المال ليشتروا به ، قليلا فقد كان الاستئجار شائعا . ففي الامكان تأجير زورق بمبلغ نصف شاقل في اليوم ، وقد اصبح هذا الاجر شاقلا واحدا في عهد دارا .

وهذا السعر كان يوفر علاوة ، ذلك لان الزورق سوف يستعمل باستمرار في الواقع ، فاذا ما تم بيعه يبقى مهملا لفترات محدودة ولن يساوي حينذاك اكثر من مينا واحد او اثنين .

(*) القصبة مقياس طولي لتحديد مساحة الاراضي ولا يعلم مقداره ، وكان الشائع ولا يزال حتى اليوم ان تقاس مساحة الشواطيء التي تزرع صيفا بطول خشبة المسحاة ، وهذا الطول عرضة للتلاعب من قبل الملتزمين عادة .

وكان احد الثيران يؤجر بمقدار عشرة غور من الشعير سنويا او حوالى عشرة الى عشرين شاقلا ، ويؤجر الكوخ او الحانوت بمقدار غور من الشعير في السنة .

واخيرا كان يدفع عن ارواء بساتين النخيل ربع حاصل التمور ، على اساس ان مقدار الحاصل يكون متناسبا مع الارواء .

ان الانطباع العام الذي يمكن استخلاصه من آلاف العقود التي بقيت سالمة من العصر البابلي الحديث ، هو انه منذ ذلك العهد حتى العهد الفارسي ، حدث ارتفاع واضح في اسعار السلع والاراضي والبيوت .

وهكذا لم تكن بلاد الرافدين ، مثل عالم اليوم ، غريبة بالنسبة الى ارتفاعات السعر ، واننا لنسمع ذات الشكاوى عن الاسعار العالية في حين ان اصغر محاولة لمحاربة التضخم كانت تقاوم بشدة ، لان معدلات الاجور لم تكن تتمتع بذات حرية الحركة التي تتمتع بها في الوقت الحاضر. ـ المقصود بذلك زمن صدور هذا الكتاب بالانكليزية عام ١٩٥٤ ـ .

لقد قام المشرعون العراقيون بجملة محاولات لتثبيت الاسعار ، غير ان التمحيص الوثيق يوضح ان اي نجاح اصابوه في ذلك كان عرضيا ، وانهم لم يكونوا يعملون اكثر من ان يسجلوا برضاهم الاسعار الواطئة لبعض السلع ، في حين لم تكن حساباتهم بالنظر الى بقية السلع اكثر من اهتمامات طيبة مغايرة للواقع . ولابد للمرء ان يتذكر حلم هنري الرابع ملك فرنسا من ان على كل فرنسي ان يكون قادرا على ان يتناول فراخه في عشاء يوم الاحد !

لسنا بحاجة الى اكثر من ان نتذكر المصلح اوروكاجينا (النصف الاول من الالف الثالث قبل الميلاد) الذي حقق انخفاضا ملموسا في الاجور التي كان الكهنة يتقاضونها عن الجنائز ، والتي كانت تتألف من ثلاث كيلات من الشراب ، وثمانين رغيفا من الخبز ، وجدي واحد ، وسرير واحد ، بدلا

مما كانوا يتقاضونه قبلا وهو سبع كيلات تتألف من ثلاث كيلات من الشراب ؛ واربعمائة وعشرون رغيفا من الخبز ، ومائة وعشرون كيلة من القسح : وجلباب واحد ، وجدي واحد ، وسرير واحد •

واذا ما حصرنا انفسنا بعصر متأخر فاننا نجد (سن غاشد)(*) ملك الوركاء (الذي حكم في القسم الاول من الالف الثاني قبل الميلاد) كان يتطلع الى وضع سعر مقداره شاقل واحد لكل ثلاثة اغوار من القمح ، او اثني عشر مينا من الصوف ، او عشرة مينا من النحاس ، او ثلاثين سيلا من الزيت •

ويسجل شمس ادد الأول(**) الذى حكم خلال عصر حمورابى (بداية القرن الحادي عشر قبل الميلاد) ان في عهده كان السعر الاعتيادى في مدينة آشور ، شاقلا واحدا من الفضة لكل غورين من القمح ، او اثنى عشر مينا من الصوف او عشرين سلا من الزيت •

فاذا ما ترجمنا هذه الاوزان المتعاقبة في عهد الحكمين بعبارات عصرية واضفنا اليها العلاوات ، فاننا نجد هذه الارقام تعادل ما يلي :

عهد سن غاشد : ٢١ بشل من القمح ، او ١٣ لبرة من الصوف او ١١ لبرة من النحاس ، او خمسة غالونات ونصف من الزيت تعادل اثنين من سبعة من الاونس •

(*) الملك سن ـ غاشد أول ملك من ملوك سلالة الوركاء السادسة ، حكم في الفترة ما بين ١٨٦٥ و ١٨٣٣ قبل الميلاد •

(*) شمس ادد الاول (شمس أد واشور) من اعاظم ملوك بلاد الرافدين حكم في الفترة ١٨٢٣ـ١٧٩١ قبل الميلاد ، وكان معاصرا وخصما عنيدا لحمورابي ملك بابل • وردت معلومات كثيرة عنه في السجلات الملكية التي عثر عليها في مدينة ماري •

عهد شمس ادد الاول : ١٤ بشل من القمح ، او ١٣ لبرة من الصوف ، او ثلاثة غالونات وثلاثة ارباع الغالون من الزيت تعادل اثنين من سبعة من الاونس من الفضة •

ان هذا يشير الى وجود ارتفاع ملحوظ ، في عهد حكم شمس ادد الاول، في اسعار الحبوب والزيت ، في حين بقيت اسعار الصوف والفضة ثابتة •

وكانت اسعار المعادن طيلة قرون عديدة عرضة للتغير دوما • والواقع حتى في الوقت الحاضر عندما يكون سعر الذهب ثابتا بصفة نسبية في بعض الاحيان على الاقل ، فان هذا الاستقرار يعود الى اتفاق دولي • وعلى النقيض من ذلك فان اسعار المعادن من امثال النحاس الذي يتعرض لتأثيرات قانون العرض والطلب ، ويكون ذا حساسية بالنسبة الى العوامل التي يتضمنها الانتاج فان هذه الاسعار تكون عرضة لتقلبات صريحة وعنيفة •

النحاس والبرنز

من المهم ان تتذكر بصفة واضحة التواريخ التي ادخلت فيها مختلف المعادن لاول مرة • ففي بداية العصر التأريخي كان النحاس معروفا في بلاد الرافدين ، وكان مصدره ارمينيا والاناضول او كبادوكيا • ولكن لم يعرف البرنز الذى يتألف من سبيكة من القصدير والنحاس بصفة رئيسة •

ومع ان التحليل قد اظهر آثارا دقيقة من القصدير في بعض امثلة المعادن التي يعود تأريخها الى هذا العصر ، فان بحثا آخر يكشف عن آثار معادن اخرى ايضا • وكل هذه المعادن لم تكن نقية •

وحين ظهر البرنز لاول مرة في عصر الملك غوديا(*) وعهد سلالة اور

(*) غوديا من اشهر حكام مدينة ومملكة لكش ، عاش في العهد السومري الحديث (القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد) صورة في حوالي ثلاثين تمثالا معظمها محفوظة في متحف اللوفر •

الثالث[20] كان يصنع على شكل سبيكة مع حجر الكحل ، ومع القصدير احيانا.

وادى اكتشافه الى منح بلاد الرافدين معدنا ذا قيمة واسعة جدا ، وذلك لصلابته . ولامكانية اختياره لسلسلة واسعة من الاغراض ، وفي ذات الوقت الذي اصبح فيه الحديد مألوفاً في التجارة . وذلك في حدود القرن الحادي عشر قبل الميلاد . كان يستعمل لمجموعة من الاغراض اضيق من تلك التي يستعمل البرنز فيها .

الحديد والذهب والفضة

اول نوع من الحديد تم استعماله هو حديد النيازك الذي يتميز باحتوائه على النيكل . ومع ذلك فقد استبدل بحديد المناجم .

وكانت مصادر الذهب والفضة مثل بقية المعادن الاخرى، تقع في الشمال ، وقد بقيت مثلما عليه الامر في اوربا الحديثة ، معادن نادرة وترفية طيلة التأريخ البابلي .

ولقد بذلت جهود متواصلة لتنقية الفضة وزيادة مقاومتها للتغيرات التي كانت تحدث باستمرار . وكان سكان بلاد الرافدين بصفة عامة وكما تبين الاسماء التي اطلقوها على معادنهم يبوأون الذهب مكانة فاخرة لانه قوي ومشرق وصامد . وفي الدرجة التالية تأتي الفضة المعدن الابيض الوضاء .

وكانت الفضة اصلا ، وكما رأينا ذلك قبلا ، مجرد سلعة يعبر عن قيمتها بمقادير من الشعير . غير ان هذا المفهوم ما لبث ان قضى عليه بالتدريج مفهوم معادلة وزن محدد من الفضة بقيمة السلع التي يتم بيعها . واخيرا كان يعبر

---

(٢٠) عرف البرنز في زمن المقابر الملكية في أوراي في سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد ولو ان التحليل قد بين بان الادوات والاسلحة التي صنعت فيما بعد كانت تحتوي على كميات قليلة جدا من القصدير .

عن القيم غالبا في امبراطورية بابل الحديثة وامبراطورية فارس ، بمقادير من شواقل الفضة •

ولقد سبق ان عرفنا الصعوبة الموروثة في ان يتم في كل معاملة منفصلة وزن السلعة في كفة ميزان ووزن الفضة التي تمثل القيمة المعادلة في كفة اخرى ، وكيف ان ضرورة التأكد من نقاوة المعدن قد ادت بصفة حتمية الى استعمال الشواقل التي كانت تختم بعلامة تضمن جودتها • ففي اليوم الاول الذى تم فيه عمل ذلك ، تم اكتشاف مبدأ النقود • .

ونتيجة للتنقيبات التي اجريت توفرت لدينا معلومات واسعة عن محتويات مشاغل عمال المعدن ، وصانعي الدروع وسباكي البرنز وصانعي الزهريات وصاغة الذهب وعن تفاصيل صناعتها • وكان قسم كبير من فعاليات هذه المشاغل يختص بصنع الاسلحة ، واننا سنمحص هذه الامور بصفة اوثق عندما نبحث موضوع الجيش •

صب التماثيل وطلاؤهـا

ما تزال التماثيل وسطوح الالواح البرنزية التي صنعها سباكوا البرنز موجودة ، وقد تطلب صنعها حل مشاكل تقنية مختلفة اصبحت الان لا يؤبه بها •

ان قطعة ضيقة النطاق لا تشير الى اية صعوبات خاصة ، غير ان الامر يختلف تماما بالنسبة مثلا الى تمثال « نبير - اشو » ملكة عيلام ، المحفوظ الان في متحف اللوفر ، والذي ما يزال حتى في وضعه المشوه الحالي ، يزن حوالي طنين •

ان حجم الانابيق والافران المستعملة في السباكة العصرية يجعل من اليسير صنع تمثال اكثر وزنا من هذا التمثال في درجة ثابتة من الحرارة حين

يصب المعدن المذاب • ولكن في ذلك العصر الذي صنع فيه التمثال . وهو النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد ، لابد وان كانت بطارية الانابيق تتطلب ان تحمي بصفة مستمرة وان تبلغ ذات درجة الحرارة وان تنتظم بحيث يتم افراغها بالتعاقب في الغالب دون فقدان الحرارة اثناء العملية •

ولابد ان يكون النجاح حصيلة بدايات خائبة واخفاقات متعددة •

والواقع العملي ان تمثال نير ـ اشو كان على اكثر إحتمال اول عملية صب في قسمين يؤلفان الوجه والقفا بالتتابع ، ومن ثم جرى لحمهما معا وقد تم برد آثار العملية • وعلى الرغم من سمكه فلم يكن يظن بأنه صلب بشكل واف ؛ وقد عولج هذا الامر بصب المزيد من المعدن في داخل التمثال، الذي قلب عاليه سافله لهذا الغرض •

وكانت الخطوة الاولى لذلك هي صب معدن ذائب في الجزء الاعلى من التمثال ومن ثم القاء وزن ثقيل فوقه ، قصد به تقوية المعدن الذائب لكى ينشر ذاته بيسر • ومن ثم يصب المزيد من المعدن الذائب فوق الكتلة كيما يتم ملء الجزء الاسفل من التمثال •

ومع ذلك فلم تكن المحاولة ناجحة كلية ، ومع ان قدرا كافيا من المعدن المذاب قد صب فيه الا انه لم يملأ بشكل واضح الا قسما جزئيا من السطح الداخلي للتمثال •

وفي اثناء غارة على سوسه اقتلع الرأس والكتف والذراع الايسر من التمثال بضربة هراوة ، وتلك هي اجزاء التمثال التي لم يصل المعدن المصبوب اليها تماما •

تشير درجة المهارة التقنية الظاهرة في هذا التمثال ، وفي المنحوتات الناتئة ؛ الى ان علم التعدين قد بلغ مرحلة مشابهة لما بقي عليه بصفة عامة حتى نهاية القرن التاسع عشر في اوربا الغربية •

ولكن قبل ان يبلغ هذه المرحلة التي بلغها ، كانت هنـاك مرحلـة اسـبق استخدمت فيها المهارة اليدوية الواضحـة للتغلب على المصاعب واخطـاء الفنون الصناعية المتوفرة لدينا . وليست هنالـك من حاجـة لان نصف بالتفصيل الطريقة البدائية في نحت تمثال من خشب او في صنع حجر من القار يمكن صنعه بيسر ومن ثم تغطيته بالواح رقيقة من معدن قابل للطرف صقيل، لكي تصبح ملائمة تماما للتمثال ولتثبت في مكانها بسـامير صغيرة .

المزهريات والمجوهرات

كـانت الزهريات المعدنية الناتئـة تصنع بطـرق السطوح التي يـراد ابرازها بشكل ناتيء . فاذا ما احتاج الامر الى حنفيات فان هذه اما ان تلحم الى الابدان ، او ان تثبت بخلاف ذلك في الموقع المطلوب بسامير ذات رؤوس كبيرة . وتؤلف الرؤوس نفسها عنصرا في الزخرفة .

واعتمادا على سمكها كانت المنحوتات الناتئة او الواح السطح اما بشكل ناتيء او بحفر المعدن المسبوك بالازميل . وفي العصر الذي يتحـدث هذا الكتاب عنه كانت المواد التي يبيعها الجوهريون تشتمل على الحلقـات والاقراط والاساور ودبابيس الشعر . كذلك كانوا يبيعون ايضا القليـل من المشابك ، غير ان طبيعة اللباس الآشوري في تلك الايام الذي كان يميل الى ان يكون طويلا ومستقيما ، تجعل هذه المشابك من سلع الترف .

كانت الاقراط تصنع على شكل حلقات من عناقيد الاعنـاب ، ومن مخاريط مغطاة جزئيا برسم محبب ذي جنان متغير ، او من رؤوس حيوانية او بشرية .

وكانت هذه تصنع بصفة عامة من ورقة معدن جد رقيقة في احـــد الاشكال مع احجار ملونة وضاءة ، وبانواع مختلفة بصفة خاصة من العقيق التي عثر عليها في سلسلة من الظلال الجذابة .

وكانت الحلقات اما منبسطة او محفورة وهي ترصف غالبا مع احـد الاحجـار .

هنالك عقد غير اعتيادي بقي سالما من التلف مـؤرخ بالسـنة الخامسة والثلاثين من حكم الملك احشوبرش ، يجسد مبدأ المسؤولية التي اشـرنا اليها قبـلا .

لقد امرت شركة موراشو بصنع حلقة مرصعة بحجر ثمين (ربما كان من الزمرد لان اسمه لا يختلف عن الكلمة العبرية التي تطلق على ذلـــك الحجر ، والتي عرفنا منها ترجمتها الاغريقية) ، وقد اعطى الجوهري ضماناً بان الحجر اذا ما تحرك من موقعه طيلة خمس وعشرين سنة ، فانه سـيدفع غرامة مقدارها عشرة مينا من الفضة (حوالى احد عشر باونا) .

وكانت الاساور تصنع من كل نوع من الاشكال ، اما في شكل حلزوني مفتوح ، او دائرة بسيطة ذات نهايات مفتوحة او مغلقة . فاذا كانت النهايات مفتوحة فانها تحفر في صفة رسم يشبه رأس حيوان ، اما اذا كانت مغلقـة فانها تزين على الدوام برسم زخرفي آشورى مفضل يتمثل غالبا في شكل مسل ، هو الوريدة المفردة أو المزدوجة .

وكانت لهذا العمل اهمية رمزية ترتبط بالشمس دون شـك ، كمـا كانت شائعة جدا في المشدات المعدنية التي تشد عبر الجبهة لامساك الشعر في موضعه .

كانت السوق مشهد الكثير من الصناعات الاخرى عدا التي اشير اليها قبلا في هذا الكشف ، واحدى هذه الصناعات الشائعة جدا هي صناعة الفخار . لقد استعمل سكان بلاد الرافدين الطين ليس كمادة خام في بنـاء منازلهم ، وللمستندات المكتوبة حسب ، وانما في صنع فخارياتهم ايضـا . ويمكن العثور على مشابهات بين الصناعة العراقية لكل شكل تقريبا ما تزال مستعملة بصفة عامة ، ذلك لانه ما ان تثبت احـدى الادوات ذات مـرة فائدتها فلا يمكن التخلي عنها قط ، وان الاشكال الرئيسة لاوعية الشراب والصحون والاقداح باقية ما بقي الجنس البشري .

ومع ذلك فلم يكن هذا مقدار النشاطات التي يمارسها صانع الفخار. فهو يصنع الجرار الكبيرة ايضا مثل تلك التي كانت تستعمل للخزن فـي البلدان التي تنتج الزيت ، والتي كانت تخدم اغراضا متنوعـة من امثـال خزن الطعام والماء . كذلك كان يصنع حتى بعض التجهيزات المنزلية ايضا من امثال الافران .

وكان ينافس النجار كذلك وصانع السـلال في صنع التوابيت التي كانت احجامها ودقتها تقدم على الدوام دليلا على المهارة العظمى التي يتمتع بهـا صانعها .

وكانت هذه التوابيت تصنع في بعض الأحيان في شكل خوابي مربعة ذات اغطية ، وفي شكل صناديق احياناً اخرى مغلقة كلية ما عدا فتحة في الجزء الاعلى من العطاء مغطاة بغطاء مزجج زينت مختلف الواحه باشكال مختلفة ولا سيما الآلهة .

ولقد اصبح اول تابوت من هذا النوع ظهر في العصر البابلي الحديث،

اكثر شيوعا في عهد الفرس ، ثم بلغ ذروة انتشاره في عهد الملوك الفرثيين الارشاق(*) .

صانع السـلال

اوردنا عدة اشارات عن صنع السلال . وكانت هذه الحرفة مرتبطة ارتباطا وثيقا بحرفة النسيج لان عددا من المنتجات قد يصنع بهذه الحرفة .

فقد كانت اشرعة الزوارق مثلا تصنع اما من قماش سميك كما يتوقع المرء ذلك أو من نسيج نباتي محاك مثلما ما تزال عليه حتى الان في بلدان الشرق الاقصى . ويصدق ذات الشيء على صناعة الحصر التي كانت تستعمل كيما تعلق لغرض زخرفة الأقسام الواطئة من جدران المنازل وحمايتها باستعمال مسامير فخارية طويلة ذات رؤوس منحنية .

وهناك ادوات اخرى كان يصنعها صانع السلال من ضمنها الأسبات المدورة الشائعة في الشرق (والتي اعطت اسمها الى الزوارق المدورة ، القفف التي تحدثنا عنها فيما سبق) ، وكذلك الصناديق ، وحتى المقاعد . ذلك لان المادة الخام التي كان صانع السلال يستخدمها تتدرج من الانسجة التي تشبه الحبال الى اطول نوع من القصب ، ولذلك كانت هذه الاخيرة صلبة بشكل مفرط وتستعمل اما في حالتها الطبيعية او تقطع الى الواح .

وكانت ارخص التوابيت تصنع من الاغصان المضفورة ، وعلى هذه الشاكلة كانت تصنع القوارب الفجة أو الاطواف بعبارة ادق ، والتي كانت

(*) الفرثيون الارشاق (البرثيون) شعب قديم طرد من سكيثيا اي بلاد روسيا الحالية فانحدر الى الجنوب واستوطن حورانيا (بلاد الحوريين) جنوبي شرقي قزوين . وفي سنة ٢٥٠ قبل الميلاد اسس الفرثيون الارشاق سلالة حاكمة استمرت حتى سنة ٢٢٦ ميلادية حين اخلت السبيل امام السلالة الساسانية ، ويعرف الفرثيون باسم « الاشكانيين » نسبة الى مؤسس السلالة « اشك » ...

تتألف من مجرد حزم من القصب تشد سوية بالرأس من نهاية كل واحدة منها وتتعاشق وسط الاطواف باعمدة متقاطعة (اظر ما سبق في قسم وسائل النقل النهري) وبذلك توفر للراكب فيها بعض البلل لكنها لن تدعه يسقط في الماء تماما .

ويبدو ان سعر الحصر في عهد حكم سلالة اور الثالثة قد تم تحديده بالاشارة الى عدد الانسجة النباتية في مساحة معينة .

تجـــار الملابس

كانت تتوفر سلسلة واسعة من المواد في قسم الالبسة مـن السوق . وحتى الى سنةالفقبل الميلاد كاناللبسالعراقي يتألفمن ثوب داخـلي يشبه الفانيلة المصرية والتي كانت تدعى « ثوب الحشمة » والتي ترتدى فوقهـا قطع من مادة مستطيلة فصلت حسب الحجم المطلوب ، ويمكن تزيينها بطرق مختلفة ، ثم يتم ربط الملبس كله بدبوس كبير .

اما في العصر الآشورى فقد كان الجلباب ، او على وجه الدقة عــدة جلابيب قصيرة الاردان ، ترتدى احدها فوق الاخر .

ويبدو كما لو ان زي ارتداء الألبسة المخاطة والذى كان من الامور المعتادة في الاقطار التي تتاخم بلاد الرافدين ، لابد وان جيء بها من الخارج خلال الالف الثاني قبل الميلاد وقد اعقبتها السراويل في تاريخ متأخر .

كانت الملابس تزين بالتطريز . وكانت تلك خاصية محلية ، وقــد عرفت في العالم القديم بصفة عامة بانها « صنع بابلي » .

وكانت اثواب الملوك واعضاء البلاط مطرزة بشكل مفرط .

وكان احدث شكل للالبسة هو الذى يترك مجال لا صغيرا لزينة متدلية من زي اكثر قدما . غير ان ذكراه ترتد الى الوشـاح الذى كــان يرتدى محمولا عبر الصدر وفوق الكتف وقد ثبتت الخناجر في طياته .

صـــانع الحلويـــات

كان وجود صانع الحلويات في اسواق العالم القـديم لا يقبل عـن وجوده في اسواق العالم الحديث . صحيح ان المستندات التجارية الباقية يصعب ان تشير اليه ، الا اننا نستطيع ان ندلل على وجوده بشكل تام من المعلومات التي توفرت لدينا عن صانعي الحلويات التابعين للمعابـد ، والذين كـانوا يصنعون الكعك المقدس الذى كان يتم تناوله باعـداد كبيرة في اوقـــات المهرجانات ، وكذلك الكعك الذي كان المصلون للآلهة عشتار يجمعونـه ويتركونه لطير الحمام المخصص لها .

ولقد سبق لنا ان جئنا على وصف نموذج صغير لمعبد فخـــاري من قبرص ، كانت جبهته بشكلها الاعتيادي ذي التجاويف الصغيرة تشبه برج حمام حقيقي ، في حين تبين عملات نقدية من مدينة بافوس تحمل زينة المعبد ، طيورا سبق ان اشار اليها الكتاب الاقدمون ايضا .

كانت المواد الرئيسة التي يستخدمها صانع الحلويـات ذات انـواع متباينة من الدقيق المصنوع من الشـعير ، والحنطـة او الـــذرة ، والسكر المستخلص من التمور ، والعسل والزبدة المصنوعة من لبن النعاج او الماعز (ويندر صنعها من لبن الابقار) وبذور السمسم وزيت السمسم وماء الورده

بائـــع الاغـــاني

يصعب تعداد قائمة الصنائع ، غير ان هناك صناعة واحدة بين الصناعات الدقيقة يبدو عليها بانها كانت شهيرة والتي يوفر احد النصوص اساسا لهـا ونعنى بها حرفة صانع الاغاني سواء كانت مقدسة ام اعتيادية .

فهناك نص وان كان اقدم من العصر الذي نتحدث عنه ، يتألف من مجموعة من عناوين اغاني او الابيات الاولى منها على الاقل ونورد هنـــا قلة من هــذه

« لقد برز اله النار ، سيد المعارك • اواه يا سيدي ••

« ان حبك اشبه بشذا عود الارز •••• »

« تعال الى جنينة الملك في ملاى باشجار الارز •••• »

« اواه يا بستاني حديقة الاماني •••• »

« آه ما اوفر ثمارها وكم هي مشعة زاهية •••• »

« لقد شهدت في الشوارع عاهرتين •••• »

لقد آن لنا الان ان نأتي على وصف المهن الذهنية التي كانت سكان مدينة بابل يمارسونها • فقد كانت خدماتهم مطلوبة كل يوم لكنهم كانوا يعكفون بشكل عميق على العلم والدين • وعلى هذا فلسوف نمحص اولاً المبادىء الكبرى التي تبين المعتقدات التي كانت تتحكم بفعالياتهم ، ومن ثم نأتي على وصف عوائدهم •

الفصل الثاني

الملك والدولة

القصر الملكي

قبل ان نتناول وصف حياة احد ملوك بلاد بابل او آشور ، ينبغي لنا ان نحاول ـ حسبما تسمح به معلوماتنا عن القصور الملكية ـ اعادة تشكيل النمط المادي الذي كان الملك يعيش ويتحرك ضمنه •

لقد عرفنا المقاطع الرئيسة لهذه القصور قبلا ، وقد كشفت التنقيبات عن قسم منها ظل قائما وبشكل سالم نسبيا في الغالب •

كانت هذه القصور تبنى من اللبن مثل بقية البيوت الاعتيادية ، وقد اودى الزمن بها • وكانت الاجزاء العليا اول ما انهار منها في شكل خرائب داخل الاسوار وخارجها الى ان تهدمت قشرة الاجزاء السفلى منها تماما •

وكانت النتيجة المباشرة لذلك هي ان الانقاض المتداعية كانت تؤلف طبقة واقية تغطي بقايا القصر ، ومع اننا لا نعرف شكل الغرف العليا الا اننا نستطيع على الاقل ان نعرف المخطط الارضي ، ويتوفر لدينا الجزء الواطيء من الجدران •

لدينا امثلة عديدة على هذه القصور في نمرود (مدينة كالخ القديمة) وفي نينوى وفي مدينة بابل ، لكن الكثير منها قد تم التخلي عنها بعد ان دمرت تدميرا شديدا في حرب ، او نهبت ، او حتى دمرتها النيران تماما •

وقد حدث ان قصر خرسباد الذي كان اول قصر يتم اكتشافه ، كان واحدا من افضل القصور التي تم الحفاظ عليها ، ونظرا لان التنقيب فيه كان اكثر تنسيقا من البقية فاننا قد نعتبره نموذجا لاغراض الوصف الذي نبغيه •

قصر خرســـــباد

كان الملك سرجون الثاني الذي يظن فيه خطأ بانه كان مغتصبا للعرش في حين انه ينتمي في الواقع الى الاسرة الملكية ، يعتزم منذ زمن طويـل ان يشيد قصراً خارج نينوى تقع خرائبه الآن قبالة مدينة الموصل الحديثة، التي تشتد الحرارة فيها ايام الصيف .

كان الموقع الذي اختاره هو قرية خرسباد الحديثة . وقد دعاه دور شرّوكين ، او « حصن سرجون » . ولما كان الجو هنا اكثر برودة واقـل مضايقة مما عليه في نينوى ، فقد اصدر اوامره بان يتم بناء قصره والمدينـة باتفاق الآراء .

ولقد كمل العمل ضمن بضع سنوات غير ان سرجون الذي كان حكمه قد اوشك على الانتهاء غالبا ، نادرا ما كان يسكن هناك . ويمكن التدليل على المصير المحتمل الذي اصاب القصر باثـار النيران التي كـانت ظاهـرة في كل مكان منه . وليس من شك في ان قصوراً اخرى عانت ذات المصير ، وانه لم يستحصل منه في الواقع اية اشياء يمكن نقلها بيسر والتـي نقلت نتيجة اعمال النهب .

التنقيبـــات

من الجدير ان تذكر القصة عن الكيفية التي بدأت بهـا التنقيبـات ، وتم انجازها . كان وكيل القنصل الفرنسي في الموصل هـو المسيو « بوتـا » الذي ولد في مدينة «ميلان» خلال العهد الذي اتحدت فيـه هذه المدينـة مع فرنسا تحت حكم الامبراطورية .

لقد أعتاد « بوتا » في مشياته اليومية ان يعبر النهر ، ويصعد الروابي التي تناثرت على امتداد ضفة النهر الطويلة ، والتي كشفت فيه الريح وحوافر الخيل في الغالب ، عن قطع من الابنية القديمة .

لقد كانت هذه الاثار مهمة جدا لان تجتذب المزيد من الاهتمام . غير ان « بوتا » الذى كان رجلا مثقفا ، كان يماشي المناقشات ، ومن ثم انتقل

الى موقع نينوى حيث شجعه المسيو (موهل Mohl) سكرتير الجمعية الفرنسية الاسيوية على القيام بتحريات اخرى .

قرر بوتا ان يقوم باسبار تجريبية في الموقع ، وبدأ العمل فيه على حسابه الخاص ، لكن ما عثر عليه ، لاسباب سوف تظهر مؤخرا ، لم يكن مهما . واذ اصابته الخيبة واوشكت موارده على النفاد ، قرر التخلي عن العمل نهائيا ، عندما اكد له بعض سكان قرية خرسباد التي تبعد حوالى عشرة او احد عشر ميلا عن نينوى ، بانهم عثروا على تماثيل كبيرة اثناء قيامهم باعمال البناء .

اخذ بوتا سبيله نحو الموقع وبدأ بالتنقيب هناك في آذار ١٨٤٢ . ولقد كان محظوظا جدا في اختياره نقطة بدايته ، لانه في اليوم الاول من اعمال الحفر وصل الى السور الخارجي للقصر وبذلك ولد علم الآشوريات .

في ضوء هذه النتائج اخذت التنقيبات تحظى بالاهتمام الرسمي وتم تمويلها من قبل الحكومة الفرنسية . ولم تكن المبالغ التي خصصت لهذا الغرض كبيرا جدا ، غير ان قيمة الفرنك في تلك الايام لم تكن قد خفضت ولان نفقات المعيشة في الشرق كانت زهيدة جدا .

منح السلطان فرمانا يؤكد السماح باجراء التنقيبات غير ان هذه التنقيبات كانت تجابه بتشدد الاوساط الحكومية وغبائها في الموصل . ففي بعض الاحيان كانت خنادق التنقيبات تعتبر حصونا عسكريا . وفي بعض الحالات كان البيت البسيط جدا الذى تقيم بعثة التنقيب فيه ، يعتبر قلعة خطرة ، وكان ذلك يتطلب في الغالب تدخلات دبلوماسية .

كان موقع خرسباد في الواقع قد تم تنظيفه جزئيا ، وتم الكشف عن المخطط الارضي لكن هذا المخطط ، طبقا للفكرة المقبولة آنذاك ، قد تم رسمه في صفة مخطط غير متناسق لان فكرة القصر غير المتناسق بالنسبة الى العقل الاوربي لم تكن مقبولة (وذلك خطأ تماما) .

عهد الى فرنسي يدعى (فلاندان Flandin) بمهمة رسم كل شيء يكتشف في الارض ، وقد نتج عن ذلك انتاج مجموعة فاخرة من الرسوم تدعى « نصب نينوى » تقليداً لمجموعة اسبق خصصت لحملة نابوليون على مصر .

وفي الوقت الذي كان فيه بوتا يعتقد بانه قد عثر على موقع مدينة نينوى التأريخية فانه في الواقع كان يتعجل كثيرا في التخلي عنها .

في هذه المرحلة اعدت السلطات البريطانية التي كانت تتطلع لدخول هذا الميدان ، العدة لتسلم موقع نينوى الذي تخلى عنه . الفرنسيون ، حيث تم التوصل الى اتفاق تحتفظ فيه فرنسا ، رغم ذلك ، بجزء من المنطقة .

وحالما شرع البريطانيون بالتنقيب حتى كشفوا عن قصر نينوى الذي كان يقع على عمق بوصات قليلة تحت المستوى الذي توقف بوتا عنده وقد حدث ذلك عندما بدأت المصاعب . لانه في الوقت الذى كان فيه بوتا وورولنصون(*) مدير التنقيبات الانكليزية خارج المنطقة ، جاب

(*) هنري رولنصون Henry Rawlinson ١٨١٠ـ١٨٩٥م ، ولد في تشاولنتون في ١١ نيسان ١٨١٠م وفي ١٨٢٧ ذهب الى الهند كتلميذ عسكري للعمل في شركة الهند الشرقية ، ثم ارسل بعد ست سنوات الى ايران ، وهناك اهتم بالحروف المسمارية ونقل كثيرا من كتابات حجربستون . عين في ١٨٤٠ وكيلا سياسيا في قندهار ثم نقل الى بغداد فاكمل نسخ كتابات بستون واعد عنها تذكرة خاصة . مع مجموعة من الاثار البابلية والاشورية والساسانية والسبئية الى المتحف البريطاني . شارك في التنقيب في العراق ونشر اربعة مجلدات في الفترة ما بين ١٨٧٠ـ١٨٨٤ عن كتابات حجربستون . توفي في لندن ١٩ اذار ١٨٩٥ .

هرمز رسام(*) ، الذي كان يقوم باعمال الحفر الحقيقيـة ، في احـدى الليالي ، الجزء الذي خصص من المنطقة لفرنسا ، ووصل مباشرة الى اغنى قسم من الخرائب ونقصد به قصر آشور بانيبال ومكتبته التـي يعتبرهـا المتحف البريطاني بحق واحدة من كنوزه الرئيسة .

بذل رولنصون ، وهو رجل شريف تأثر كثيراً بما حـدث ، افضـل جهوده لتهدئة سخط الفرنسيين ، بان قدم الى فرنسا جملة من نسـاذج ثانية جميلة لقطع تم اكتشافها في التنقيبات البريطانية .

وفي الوقت ذاته اكمل بوتا تنقيباته الخاصة وبعد مصاعب مستعصية تم نقل الآثار التي اختارتها البعثة في كلك وزورق الى الخليج العربي ومـن هناك جرى شحنها بالبواخر الى فرنسا . وما ان وصلت حتى تم عرضهـا في متحف اللوفر في طاقم من الغرف مشغولة الان بسـفينة من اماثوس(**) ، ومن ثم في طاقم زينه كل من برسييه وفونتين(***) يواجه كنيسـة « سـان جرمان لكسروا » حيث ما تزال فيه حتى الان . وكان الملـك لويس فليب الذي نحن مدينين له باقامة اول متحف آشوري في اوربـا ، قـد افتتح هذه المجموعة في شهر ايار سنة ١٨٤٧(****) .

(**) هرمز رسام من عائلة رسام المسيحية المعروفة في الموصل كان ذا صلة مع القنصلية الانكليزية في الموصل . وعندما دخل الانكليز ميدان التنقيب في خرائب نينوى شارك هرمز رسام مشاركة واسعة معهم وادى لهم خدمات كبيرة في هـذا الشأن وعلى الأخص مع المنقب هنري لايارد . كما قام هرمز نفسه بعدة تنقيبات اخرى في تل أبو حبة والدير وامام ابراهيم وغيرها .

(*) اماثوس Amathus مدينة تقع على الساحل الجنوبي من جزيرة قبرص

(**) برسييه Percier وفونتين Fontaine ،رسامان فرنسيان عهد اليهما اعادة رسم المنحوتات الاشورية التي عثر عليها الفرنسيون في نينوى وخرسباد .

(***) الملك لويس فليب : تولى الحكم في فرنسا سنة ١٨٣٠ بعد أن طرد شارل العاشر ولويس هذا هو ابن فليب دوق اورليان الذي اعدم في عهد الارهاب . وقد ساندت بريطانيا عرشه على أساس أن فرنسا عادت الى الحكم الملكي . ودام حكم لويس فليب ثماني عشر سنة وسقط بثورة ١٨٤٨م في باريس .

الغت جمهورية سنة ١٨٤٨ منصب القنصل في الموصل وبذلك توقفت التنقيبات ، واستفادت من هذا التوقف فائدة تامة جملة من البعثات الاجنبية التي توافدت على بلاد آشور .

وما ان اعيد النظام في فرنسا على يد الامير الرئيس حتى بدأ التفكير ثانية بشكل جدي في استئناف التنقيبات التي راح عالم الاكاديميات المتطلع الى الافادة من الارض المفقودة ، يطالب باستئنافها باصرار .

تسلم فكتور بلاس العمل في الموقع الذي تركه بوتا وقد عثر على نصب جديدة تطلبت نقلها الى متحف اللوفر . غير ان الحظ كان معاكسا له في هذه المصادفة . ذلك لان الاكلاك والزوارق المحملة بالآثار كانت مهددة من قبل السلابين المحليين الذين كانوا يتعقبونها على ضفاف النهر . ولغرض الوقاية من هجمات هؤلاء السلابين كانت الاكلاك والزوارق تقف في وسط النهر وهي تحت رحمة التيارات الجارفة من مياه الفيضان المبتلعة ولقد غرقت هذه الآثار دون استثناء وبذلك ضاعت الى الابد كل ثمار هذه السلسلة من التنقيبات في اعماق اطيان نهر دجلة(*) .

عندما بدأت التنقيبات لاول مرة ، كان التل الذي يضم الخرائب تقوم عليه احدى القرى . وقد نقلت هذه القرية الى السهل عندما كانت التنقيبات ماضية ثم اعيدت الى موضعها الاصلي بعد اتمام التنقيبات .

(*) تذكر الاخبار ان هذه الاثار قد غرقت على مقربة من مدينة القرنة نقطة التقاء دجلة بالفرات . وقد قامت احدى الشركات اليابانية سنة ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ بمحاولة لتحديد الموقع الذي غرقت فيه تلك الآثار والعمل على انتشالها غير ان البعثة رغم مابذلته من جهود وما انفقته من اموال لم توفق الى ذلك لان مجرى النهر الحالي في هذه المنطقة قد تغير كثيرا عن مجراه في النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، وقد عادت البعثة الى اليابان لتعيد رسم خرائط جديدة لمجرى نهر دجلة ولتعاود البحث عن هذه الاثار المفقودة مرة اخرى .

كان اختيار بوتا لعدد كبير من المنحوتات التي كشفت البعثة عنها محدودا بسبب مصاعب النقل • ولذلك اضطر الى ان يخلف وراءه تلك المنحوتات التي دمرتها النيران في حين اختار اشهر تلك المنحوتات التي بقيت سالمة من العطب من امثال النيران المجنحة والتماثيل التذكارية • وبعد ان تم اكمال الرسوم الضرورية ملأ الحفريات بالانقاض ودفن بصفة عملية اكثر النصب التي كشف عنها •

ليس هناك ادنى شك في ان مغامرة هنرى رسام ، ولا نريد ان نستعمل كلمةاقوى من هذه ، قد سلبت فرنسا كنزا لايقدر بثمن ، ذلك لانه يوجد كل السبب في الاعتقاد بان الفرنسيين ـ بعد ان عرفوا النتائج التي حصل عليها الانكليز من الاذن الذى اعطي لهم ـ لابد وان يستأنفوا التنقيب في الموقع الذي خصص لهم •

غير ان فرنسا جاءت متأخرة مرة اخرى في خرسباد ، عندما ظفر الامريكيون بين الحربين على اذن بالتنقيب في موقع موجه من حكومة العراق •

اعادت البعثة الامريكية فتح الاماكن التي نقب فيها بوتا قبلا • وباستعمالها مخططاته اصبحت قادرة على تجنب البدايات العقيمة ، غير ان ضررا جديا اصاب المنحوتات التي اصابتها النيران ، وذلك نتيجة تعرضها الموجز للهواء سنة ١٨٤٢ ، وبذلك عثر على عدد منها غدا تالفا • ومن ناحية اخرى اظهر التنقيب في المناطق التي لم يتم الحفر فيها قبلا ، ان الموقع لم يكن يضم قصرا ملكيا في قلعة سرجون حسب بل قصر كبير الوزراء وبيوت كبار الموظفين ايضا •

كذلك استطاعت البعثة ان تؤكد الحقيقة التي كان يشك فيها قبلا نتيجة التحقيقات الاولية التي قام بها كل من بوتاوبلاس ، بان المدينة لم

تكن كلها مأهولة تماما لان القصر لم يدم طويلاً حتى اصبح يمثل مركز عدد كبير من السكان •

مخطط القصـــر

كانت الرحلة الاولى في بناء القصر هي اتخاذ كـــل الاحتياطات التي تطبقها العقيدة الدينية ، والتي سنعود اليها فيما بعد • ومن ثم اقيمت دكة لتؤلف نوعا من منصة صممت لغرض رفع هيكل البناء فوق مجرى المـــاء الذي ربما يقوض الجدران عندما يفيض النهر وروافـده بعـد ان تـذوب الثلوج •

ويقع نصف القصر الذى يشمل المدخل ، داخل اسوار تحيط المدينة ، في حين ان البقية التي تم تحصينها قد اقيمت وراء هـذه الاسوار وبذلـــك اصبحت تؤلف حصنا يمتد داخل السهل •

بنيت الدكة من اللبن ولغرض استقرارها تم بناؤها بجوانب منحدرة • وهي تحتوى على نظام جد متقدم للمجاري الداخليـة التي كـــانت تضمن انصباب كل المياه القذرة في مجارى • وقد تم الكشف عن هذا البناء الذي شيد كله من الآجر • وسقفت المجارى باقباء مستدقة الرؤوس قليلا ، وهي تتألف من مجموعة من المراتب التي تسـتقر كـل واحدة منها على المرتبة التي تحتها لغرض تجنب الحاجة الى نصب سقالة لان الخشب ما يزال نادرا في هذا الجزء من بلاد الرافدين في حين كانت المجاري ذاتها تصنع من انابيب فخارية متصلـة •

لقد تم الحفاظ على هذا المظهر الخاص من العمارة الآشورية وتم تصميمه بشكل فاخر وان اكثرية هذا النظام في الواقع يمكـن اسـتعماله في الوقت الحاضر مع اصلاح بسيط او بدونه •

كانت الباحات تبلط بالاجر المنبسـط وبطبقـة من القـار او التراب

المدكوك . وكانت الباحات تنحدر بشكل طفيف الى امام نحو الوسط كيما يمكن تسرب الماء بيسر .

وكانت تفتح انحناءات في جوانب الدكة كيما تهيء مدخلا لحيوانات الجر وللعربات ، في حين يصعد المسافرون على الاقدام والوافدون من المدينة سلما واسعا ومزخرفا بالنصب . ويؤدي السير حول الدكة بجانب القصر الى الاسواق المحيطة بالمدينة .

وكانت الابراج تقام على ابعاد في هذه الاسوار وتمتد كلها حول القمة في ضيق واسع يسيطر على الافق ويتسع بما فيه الكفاية كيما يسمح للقوات ان تهب على عجل للدفاع .

وكانت واجهة القصر تمثل مظهر كتلة صلبة خالية من النوافذ مزينة بتماثيل ضخمة صممت لاضفاء تأثير نافع ووقائي على البناء كلـه ، وتتألف من ازواج من الثيران المجنحة ، والجن الطيبين الذين يحرسـون الابواب ، والذين كانت نظراتهم بحد ذاتها تضمن اخافة كل فاعلي الشر وطردهم .

تبرز البوابة في المقدمة من بين بقية البناء . وهي تنفتح على ممر فـي الجدار (انظر وصف ابواب المدينة في الفصل الاول) تم تثخينه بصفة خاصة في هذه النقطة ، وهذا في الواقع يهيء مدخلا الى الباحة الداخلية . وكـانت هذه الباحة عبارة عن مربع مكشوف له غرف عديدة تنفتح عليه ويستغلها اي من المراسلين او اصحاب السلع او الجند الذين يتطلبهم القصر .

وهناك ممر ضيق آخر ينفتح خارج الباحة ويؤدي الى باحة اخـرى . وهذه الباحة . بعكس الساحة الخارجية ، ليست مربعة بل مسـتطيلة لهـا ثلاثة مداخل منفصلة مقسمة بعمودين ضخمين في الجهة الداخلية الطويلـة . وتؤدي هذه المداخل الى غرفة مستطيلة اصغر من الباحة وهي تحتوي عـلى المنصة او الجزء المرتفع من الارض الذي يقوم عرش الملك عليه . وهنـاك

انذار صحي للتأثير في الامراء الاجانب الذين يسمح لهم بالمثول بين يدي الملك ، عند قاعدة العرش التي زينت بمختلف الرسوم التي تمثل حروب الملك وانتصاراته ، من امثال هرم من رؤوس اعدائه المغلوبين ثم تكديسها عاليا امامه .

وهناك باحة ثالثة ايضا ذات مداخل منسقة لابد وان كانت تستعمل لاغراض رسمية .

علينا ان نتذكر ان البناء برمته كما ظهر في مخطط بوتا وكأنه في استقامة تامة ، انما كان في الواقع منحرفا قليلا في شكله ومائلا الى جهة واحدة .

وينبغي ان لا يثير هذا الامر دهشتنا لاننا نعرف الان ان نماذجنا الحديثة من التناسق والموازنة (ولو ان هذا لم يعد صحيحا تماما لان المصريين في بحثهم عن كل جديد لم يعودوا يترددون في العودة الى الماضي المنسي) لم تكن تعني شيئا بالنسبة الى الماضي السحيق .

وكانت غرف الخزن تنفتح على الباحة . وفي هذه الغرف عثر المنقبون على مخزن كبير من جرار الزيت والطعام التي ما تزال محفوظة فيه . وكذلك احتياطي الدهان المطلوب لصيانة القصر والحديد الذى كان على شكل قضبان صغيرة . وكانت هذه القضبان في حالة جيدة تماما عندما تم اكتشافها الى درجة ان بوتا استخدمها لصنع الادوات التي احتاج اليها اثناء التنقيبات ، من امثال المعاول والمجارف واطارات عجلات العربات التي كانت تنقل فيها الموجودات التي يعثر عليها الى النهر .

ومع ذلك يوجد ممر آخر يؤدى الى مجموعة من المباني تؤلف سلسلة من باحات مجاورة لثلاثة مبان محددة المعالم لكل واحد منها مدخل وغرفة مفردة وفي اقصى النهاية خلوة ذات دكة من الآجر .

وقد تم تشخيص هذه الخلوة على وجه الدقة بانها تمثل الحرم الذي

كان يضم شتق ثلاث ملكات بارزات ، في حين افترض بان دكة الآجر لابد وان كانت مغطاة بافرشة ناعمة ، وكانت تستخدم بمثابة سرير للنوم .

ويبدو ان هذا التشخيص كان اكثر صوابا لان شريعة الاسلام تنص على ان الرجل حين يتزوج اكثر من زوجة واحدة فلابد من ان يعاملن بعدالة تامة جدا ، وان المباني الثلاثة المشخصة تتطابق كلية مع هذا المبدأ (*) .

وفضلا عن ذلك كانت هذه الباحة مزينة تزيينا وفيرا بالآجر المزجج بالالوان الزرقاء والخضراء والصفراء وبصور نسر واسد وشجرة تين ومحراث . وكان المدخل مزينا باعمدة من اخشاب مقوسة غطيت بطبقة من البرنز الذي كسي بدوره باوراق من الذهب كيما تمثل جذع شجرة النخل.

وقد اوضحت المباني التي تم اكتشافها بان هذا المدخل كان يؤدي الى معابد احد القصور الخاصة وان الدكاك المرتفعة لم تكن اسرة وانما كانت هياكل . وكان وجود احدى الزقورات الى جوار هذه المجموعة من المباني امرا طبيعيا تماما في هذا المضمار .

القصور الثانوية

على مقربة من نهاية القصر وبعيدا عن المدينة عثر المنقبون على نوع من منصة مستطيلة يمكن الوصول اليها بدرجات قليلة .

(*) لا نعرف ما اذا ثبت حتى الان ان ملوك العراق في العهود السومرية والبابلية والاشورية وغيرها كانوا يتزوجون اكثر من امرأة أم لا . ولكن الشيء الثابت ان اباحة الدين الاسلامي للرجل بأن تكون له في آن واحد اربع زوجات بشرط المساواة التامة بينهن ، كان يقصد به منع التسري في الدرجة الاولى ، ورفع منزلة المرأة ومضاعفة الدور الذي تقوم به في خدمة المجتمع حين تصبح اما لاطفال تنهض بتربيتهم بالاضافة الى نهوضها بامور البيت وبمشاركتها الواسعة في مختلف ميادين العمل بما في ذلك مرافقة الجيوش السارية لنشر الاسلام في الاقطار التي لم يدخلها بعد .

ان هذه المنصة لم يتم تحديد صفتها بشكل قطعي لكنني اجتهدت ان ارى فيها بقايا بناء مقتبس من خارج البلاد حيث كـان الملوك يتباهـون غالبـا بهذه العبارات « لقد امرت ان يشاد [بت بلاني] (*) وفقـا للطرق الحثيـة » .

ولقد قيل ان بت بلاني هذه كانت مباني ذات شبابيك وجدت في سوريا في الوقت الذي كانت ما تزال فيه غير معروفة في بلاد آشور .

ولكن من البرهان الذي توفره بقايا هذه المباني في شمالي سوريا كان الـ (بلاني) يحتوي دوما على غرف مستطيلة ذات درجات ترتقي الى احـد الجوانب الطويلة . وخلف قبة الدرجات يوجد عمودان يدعمـان سقفا مضغوطا وبذلك يؤلفان حجرة لها جانب واحد مفتوح بينما تكون الحجرة الثانية التي تفتح خلف الاولى معدة للاغراض المعاشية على اكثر احتمال . وعلى هذا قد تكون الدكة او المنصة المستطيلة في خرسباد تمثل بقايـا مبنى من هذا النوع[21] .

وتجاور القصر على الجانب الذي يواجه المدينة مساكن اخرى واسعة وفخمة . من اهمها المسكن الذي كان يشغله شقيق الملك سرجون الذى كان يتخذه وزيرا اعظم له . وقد شيد هذا المسكن حسب المقطع العـام الـذى يتألف من عدة باحات احيط البعض منها بغرف للخزن ، والبعض الأخـر بمخابىء . كما احيطت غيرها ايضا بشقق للاستقبال .

وتقابل هذ المسكن مباني اخرى لم يعرف الغرض الحقيقي من وجودها

(*) بت ــ بلاني Bit-Bilâni طراز من البناء اشتهر في بلاد الاناضول او في شمالي سوريا استعمله الملوك الاشوريون في قصورهم تقليدا للابنية التى شاهدوها اثناء حملاتهم العسكرية خارج حدود بلاد اشور .

(21) انظر مقالة هنري فرنكفورت « اصل البت ــ بلاني » في مجلة (العراق السنة ١٤ الجزء الثاني ١٩٥٢) .

ولو انها كانت ذات صفة رسمية دون شك ، وكذلك المعبد المكرس للاله « نبو » الذى يدون مصائر البشر وهو اله الكتابة . فهذا المعبد باحرامه الخارجية والداخلية يمكن الوصول اليه عبر باحة كبيرة اقيمت فوق مستوى رابية اصطناعية مع دكة قصر الملك . وتنتصب البنايتان معا جنبا الى جنب ويجاورهما جسر حجري صغير ذي قنطرة غوطية الشكل .

الجنائن والجنائن المعلقة

كانت مجموعة المباني المشتملة على قصر الملك والمساكن الملكية المجاورة منه محاطة من جانب المدينة بسور متاخم فيه بوابتان من طراز اعتيادي وبذلك كانت منطقة القصر منعزلة فعلا من كل جانب .

في مدينة برسيبوليس التي كانت عاصمة السلالة الاخمينية الحاكمة ، تم فتح فتحات منظورة على ابعاد في صخرة رحبة القصر . وهذه الفتحات لأبد وان كانت ملىء بالتراب ، وزرعت فيها الاشجار كيما تؤلف جنينة .

ويمكن مشاهدة ذات الترتيب في مدينة آشور ببلاد آشور ، حيث امر سنحاريب بانشاء حديقة واسعة جدا .

لقد سبق ان وصفنا (في الفصل الاول) حديقة الملك « مروداك بلدان » عندما تحدثنا عن الخضراوات في بلاد الرافدين .

وليس هناك ادنى سبب للشك في ان متعا مماثلة تمت تهيئتها في خرسباد، غير ان تربة المدينة كانت خفيفة ليس فيها طبقة صخرية عميقة ولذلك لم يعد في الامكان بقاء اي اثر للخضار القديم .

عد القدامى دون ادنى تردد جنائن بابل المطلقة من بين العجائب السبع في العالم ، ولو ان التنقيبات التي كشفت عنها لا تعطى سوى اسس ضئيلة لمثل هذه المبالغة .. فلربما كانت هذه الجنائن المدرجة قد اقيمت فوق تل

بجانب القصر تقع على شارع الموكب قريبا من بوابة عشتار(*) .

فعلى هذا التل الصغير تم اكتشاف اثار آبار تشير الى ان سلسلة لا نهاية لهـا من الدلاء كانت تستعمل لرفع الماء الى اعلى نقطة من الدكاك .

فهذا البناء المدرج الذي ارتفع ذاته بموقع الجنائن على قمة التل الصغير، جعل قمم الاشجار تبدو ظاهرة فوق الاسوار من مسافات بعيدة ، وان هذا قد ساعد دون ريب على ادامة اسلوب الجنائن المعلقة .

ومع ذلك لا نستطيع ان نترك موضوع الجنائن دون ان نتحقق من ان ملوك آشور ، كانوا يستمتعون ـ ما عدا الحدائق المزروعة لمنافع خالصة ـ بجنائن نباتية مبتدعة تضم مجاميع من انواع غير اصلية ولا سيما النباتات والاشجار التي تنمو في جبال لبنان .

وبذات الطريقة تماما انفذ ملوك مصر حملاتهم لجمع وجلب الانواع النادرة من النباتات .

هناك كدورو[22] من مدينة سوسة محفوظ الان في متحف اللوفر وقد

(*) أورد عدد من المؤرخين القدامى منهم سترابو ، وديودورس الصقلي ، وكوينتوس كرتيوس واريان ويوسفس ، أوصافا مختلفة للجنائن المعلقة في بابل . ويفهم من هذه الاوصاف ان هذه الجنائن لم تكن بالشكل الذي ذكره مؤلف هـذا الكتاب هنا وانما على النقيض من ذلك كانت هذه الجنائن مقامة فوق اروقة مجوفة ولذلك سميت بالمعلقة . وجاء في احد كراريس مديرية الاثار العامة في العراق (١٩٥٨) انه وجدت في الزاوية الشمالية الشرقية من القصر الجنوبي في بابل بقايا بناء يتألف من اربع عشرة حجرة متشابهة في شكلها وحجمها ، كل سبع حجرات منها تقع على رواق واحد ويحيط بها جدار قوي سميك . وعثر المنقبون في احدى هذه الحجرات على بئر لها ثلاث حفر الواحدة بجنب الاخرى وقد اعتبر المنقبون هـذه الحجرات بانها هي مقر الجنائن المعلقة التي عدت من عجائب الدنيا السبع في التاريخ القـديم .

(٢٢) كدورو Kudurru حجر الحدود .

عرف باسم الكدورو غير الكامل لانه مزين لكنه غير مكتوب ، يصور موكبا من الاجانب يحفون بمنتجات من اوطانهم ، من اشهرها صندوق يضم شجيرة مغطاة بالازهار . كذلك كان الاشخاص ايضا يقودون حيوانات لان ملوك آشور كانوا جد مغرمين بحدائق الحيوانات التي كانوا يحفظون فيها انواعا نادرة تم جلب توابعها وكانت موضوع بحث نشط .

هناك منحوتة مؤرخة من عهد آشور بانيبال (القرن التاسع قبل الميلاد) تصور بعض الملزمين بدفع الجزية وهم يجلبون القردة ، في حين ان الهدايا التي كان السكان الخاضعون لبلاد آشور يشاهدون وهم يجلبونها الى شلمناصر ، على مسلة سوداء ، كانت تشتمل على نوع من حيوانات ذات قرون ربما كان الفيل من ابرزها . فعندما كان ملك اشور يتجه بحملاته العسكرية غربا ، ويتخذ طريقة بعيدا حتى شاطىء البحر الابيض المتوسط ، لم يكن يتوانى عن القيام برحلة بحرية قصيرة لغرض ان يرمز الى سيطرته على المحيط ، وان احد المتحدثين يضيف الى هذا ان الملك اصطاد حيوانا بحريا يدعى « الدلفين »(*) .

(*) الدولفين Dolphin نوع من السمك البحري يعرف في مصر باسم « ابي سلام » .

الزخرفة والمنحوتات الناتئة

كان القصر الملكي في جوهره اكثر بقليل من كومة هائلة من الطين ، وهي المادة الخام التي لاتطاوع التفصيل الفني ، لكنها كانت مع ذلك مستودع الكنوز الملكية في بلاد آشور .

لقد بحثنا في فصل سابق من هذا الكتاب عما انبأتنا به المنحوتات الناتئة عن عظمة الاثاث ، في حين كانت ارضيات الغرف مفروشة بالسجاد الذي نستطيع ان نكون فكرة عنه من العتبات المنحنية .

وكانت جدران الغرف التي تقل اهميتها مزخرفة بقواعد واشرطة من الوان متباينة ولوالب ، ونقوش من الرخام بصفة عرضية . غير ان فخامتها الرئيسة تتمثل في وفرة المنحوتات الناتئة التي صورت في القاعات المعدة للاحتفال والتي تؤلف العمود الفقري للمجموعات الآشورية المحفوظة في كل من لندن وبرلين وباريس . فهي تتألف من صفائح من المرمر والجبس هشة جدا لانها عندما تم اقتلاعها كان الحجر ما يزال يحتفظ برطوبته الطبيعية ويأخذ في التصلب كلما جف .

ولسوء الحظ كان يعمد الى تكوين الجص بعملية التكلس وبقي ابناء البلاد عبر التأريخ يستعملونه لهذا الغرض في ابنيتهم الخاصة .

بنيت الواح كبيرة من هذا الحجر في الاجزاء السفلى من جدران الغرف. ولم تكن تستعمل لصنع الافاريز التي كان الاغريقيون مغرمين بها . وفي المجال العملي فان مثل هذه القطع الثقيلة لايمكن ان تثبت بشكل مضمون في طين الجدران غير المفخور ، وانما كانت عرضة للسقوط واسقاط وجه الجدار معها .

كانت الالواح توضع دوما بصفة صفائح عند مستوى الارض وغالبا

ما كانت تغطس قليلا في الارض تحت ضغط ثقلها وهناك مظاهر مختلفة من امثال الربطات تشير الى انها قد نحتت بعد ان تم تثبيتها في الموضع .

ولابد ان يكون مجموع مساحة هذه المنحوتات كبيرا جدا (لقد تم احتسابها في خرسباد وحدها فظهر انها تغطي ما يقرب من فدان وثلاثة ارباع الفدان) الى درجة يبدو فيها لاول وهلة بان التصور يقف حائرا امام قوة احدى الامبراطوريات التي استطاعت ان تنجز مثل هذا الشيء الكثير في فترة قصيرة من الزمن ، ذلك لان بناء خرسباد لم يستغرق سوى خمس سنوات ليس الا .

غير انه ينبغي لنا ان نتحقق بان العمل قد تم تنظيمه بصفة خاصة تحت اشراف اعظم اقتصاد ممكن في الجهود . فقد صممت المشروعات الزخرفية لكل غرفة ، وكذلك الموضوعات العامة من قبل فنيين مبدعين . وبعد مرحلة التخطيط ، احيل العمل الى صناع ممن حذقوا صقل الحجر الخشن ، واعتمد كل واحد منهم على اختصاصه الشخصي . وهكذا نجد ان احد هؤلاء الصناع لا يعمل شيئا سوى التطريز ، في حين يقصر صانع آخر عمله على نحت تفاصيل الاشرطة او الاقدام .

والحقيقة ان المنحوتة برمتها كانت تنحت بصور خيالية بالنسبة لموجوداتنا ، كما يقع ذلك بالنظر الى الزهريات الاغريقية ، وان أيدي وأرجل بعض الشخوص كانت مقلوبة .

ولم تكن المنحوتات مصبوغة بالدهان كلها ، بل زوقت بلمسات عرضية من الالوان وعلى الاخص في بعض حلى الالبسة ، في حين كسي الجدار الذي فوقها اما بالكلس او تم تزينه في الغالب جدا باشكال هندسية مصبوغة من معينات ومثلثات وافاريز متتابعة من الوريدات وبازهار اللوتس او البراعم ، او اخيرا بقرص او مستطيل مقعر الجانب تقوم على جوانبه الجن او الثيران .

وكانت الموضوعات الاساسية للنحوت الناتئة محدودة جدا • فقد كان احدهما يمثل ممارسة الملك للصيد وهي الرياضة التي كانت تشغل على وجه التأكيد جزءا كبيرا من وقت الملك •

ففي خلاصة لرحلات الصيد التي كان يقوم بها يعدد آشوربانيبال عددا من الحيوانات التي قتلها والتى تتألف من ثلاثين فيلا ومائتين وسبعة وخمسين حيواناً قتلت بالعربة ، وثلثمائة وسبعين اسدا قتلت برماح الصيد •

اما الموضوعات الاخرى فكانت تمثل الولائم ، واستقبال المتسابقين الى اداء الجزية ، واخيرا الحرب والتي يمكن ان توصف بانها قوام الصناعة الآشورية • وعندما نصل الى هذا الموضوع لتقدير اهميته سنجد باننا اعتمدنا اعتمادا كبيرا في ذلك على وفرة الادلة الوثائقية التي وفرتها لنا المنحوتات الناتئة ، ومن ناحية اخرى اخذت الزخرفة في بلاد بابل ليس صفة المنحوتات الناتئة بل صفائح الآجر المزجج • فقد تم العثور على كسر في غرفة اجتماع واسعة في قصر نبوخذنصر على شكل اشرطة عمودية ذات الوان سوداء وزرقاء فوق خلفية خفيفة • تنتهي في شكل رأس له لولبان ملتفان من لون اصفر •

ويسجل المؤرخون القدامى ان الجدران كانت مزينة بمشاهد الصيد وان لم يعثر على بقايا منها ، فان مثل هذا الامر محتمل بصفة قاطعة تماما •

القصور الاقليمية

لقد حصرنا بحثنا كثيرا في نطاق الموقع الذي كان ملك بلاد آشور يقيم فيه عندما يكون موجودا في عاصمة مملكة ، لكنه كان يمتلك ايضا قصورا يستطيع ان يمكث فيها عندما يزور الإقاليم •

ولعل واحدا من افضل هذه القصور الباقية هو تل احمر مدينة تل

بارسيب الآشورية القديمة(*) في الشمال الغربي من الامبراطورية الاشورية والتي تقع في المكان الذي ينحنى فيه نهر الفرات بشكل حاد على مقربة من قرقميش(**) .

وهذا القصر غير شهير من الناحية المعمارية لانه يحتوي على الاعتيادي من الباحات ذات الغرف او الشقق التي تنفتح عليها ، ولكن ليس له مخطط ارضي متجانس بشكل واضح ، في حين تبدو الممرات وكانها قد صممت لتعقيد حركة المواصلات بدلا من تمهيدها .

غير ان المظهر غير المعتاد فيه يتمثل في عدم وجود النحوت الناتئة كلية في القسم الرئيس منه وان الزينة تتألف على انفراد من رسوم اعادت اظهار كل موضوعات النحوت الناتئة .

هناك شك ضئيل في ان كلفة بناء القصور وزخرفتها من امثال قصر خرسباد في نينوى ، كانت جوهرية جدا على الرغم من استخدام اسرى الحرب الذين لا يكلفون شيئا سوى الاحتفاظ بهم ، لنقل مواد البناء ولتشغيل اعداد كبيرة من الصناع الذين كانوا ينقلون قسرا من بلادهم الخاصة بهم ، اكثر من عدد الفنانين المبدعين .

كانت النقود المتوفرة يحتفظ بها لبناء القصور في العاصمة وهذا يعني

(*) تل ، بارسب : اسمها المحلي تل احمر ، مدينة قديمة تقع في الاراضي السورية على الضفة اليسرى من نهر الفرات وكانت عاصمة مملكة «بيت‌اديني» الارامية . غزاها شلمناصر الثالث ملك اشور في القرن التاسع قبل الميلاد وسماها « كار شلمناصر » اي مدينة شلمناصر . نقب فيها الاثاري الفرنسي الشهير تورو دانجان سنة ١٩٣٤ وما بعدها مع جملة من الاثاريين وعثروا على آثار قيمة فيها .

(**) قرقميش : هي عاصمة مملكة الحثيين التي ظهرت في بلاد الاناضول في الالف الاول قبل الميلاد . واطلالها الان تدعى « بوغازكوي » . نقب فيها السر ليونارد وولي في أواخر سني العشرينات واوائل الثلاثينات وعثر فيها على اثار قيمة ووضع كتابا خاصا عنها .

ان القصور الاقليمية يجب ان تبنى بزخارف ابسط واقل جهدا ، وانها لاتشتمل على المشاكل التي يثيرها نقل الحجر الى مسافات طويلة •

لقد تلفت رسوم قصر تل احمر لسوء الحظ ، وان النماذج التي وصلت منها الى المتاحف كانت قليلة وعلى شكل كسر •

ومع ذلك ففي اثناء التنقيب استطاع « كافرو » المهندس المعماري لبعثة تورو ـ دانجان(*) التي عثرت على الرسوم ،ان يستنسخها ويعيدها بعناية كبيرة وبهذه الصورة استطعنا ان نمتلك صورة صحيحة طبق الاصل لزخارف القصر • وحين وصلت هذه الرسوم الى باريس تم عرضها اولا لمدة قصيرة في متحف « الاورانجيري » ومن ثم نقلت الى « المتحف الاستعماري » وبذلك اعطت برهانا اوسع على ان متحف اللوفر لم يكن يتسع لاحتواء وعرض كل مجموعاته • وليس هناك ادنى ريب في ان المشروع القصير الاجل الذي اعد لاقامة متحف شرقي والذي كان يتطلع اليه في الامال المعقودة على الهدنة ، لابد وان يعاد بعثة مرة اخرى •

جعلت السطوح الداخلية للجدران ناعمة بقدر ما يسمح به مزيجها المؤلف من الطين المفخور والقش المثروم ، ومن ثم كسيت بطبقة من الجبس، في حين تم صبغ الصورة بايجاز ومن ثم قويت باللون ، ولو انها لم تصبغ كليـة •

وكان من سوء الطالع كثيرا ان تشققت طبقة الجبس وتلفت بمرور الزمن ؛ وكانت نتيجة ذلك ان الصورة لم تعد تظهر ازاء خلفيتها ؛ في حين كانت القطع التي اكتشفت عديمة الجدوى باستثناء الدليل المعماري •

(*) تورور دانجان Thureau-Dangin من العلماء الفرنسيين الكبار الذين تخصصوا بدراسة المسماريات • عكف على دراسة الكتابات المسمارية التي اكتشفت في تللو ووضع عنها مؤلفا قيما بعنوان كتابات سومر واكد صدر سنة ١٩٠٥م ولهذا الرجل فضله الواسع في اكتشاف قواعد اللغة السومرية •

لابد لنا ان تتذكر هذه الحقيقة عندما نأخذها بنظر الاعتبار وبمزيد من التفصيل . فهنا ، كما هو الامر في اي مكان آخر ، كان الفنانون يعملون بالآم معروفة كيما يبتدعوا الموضوعات الزخرفية للقصور الرئيسة ، وهكذا نرى الملك جالسا على عرشه وهو يرتدي كامل حلته يستقبل السفراء ودافعي الجزية . فأحد المشاهد يبين اسدا مدجنا يقبع عند قاعدة العرش . فهذه الحيوانات كان يحتفظ بها اليفة في القديم .

هناك نص عن موقعة « قادش »(*) الحاسمة في سوريا ، والتي جوبه فيها رعسيس الثاني ملك مصر بالحشيين ، يصف شجاعة الفرعون الذى كان يقاتل بيد واحدة فعلا مجموعة من أعدائه لكلنه تلقى العون بهجمة من أسده الاليف .

وهناك مناظر اخرى تصور رحلات القنص الملكية باشكالها الاعتيادية من الدراما ووثبات الاسود . ففي هذا العصر لم تكن مشاهد الحرب قد تحولت بعد الى موضوع للزخرفة ، لكن في اثناء الاستعادة اللاحقة لتل بارسب في عهد آشوربانيبال ، عندما اصبحت حروب الملوك موضوعا شائعا ، بدأت محاولة لتصوير هجمة انقضاض قام بها حملة الرماح الاشوريون بهذه الطريقة .

ولكن مما لا شك فيه ان هذا لم يكن مقبولا وانه قد صور بموضوع اكثر انسجاما مع الزخرفة القائمة للقصر .

ولقد اكتشف الامريكيون بقايا مهمة من رسوم في قصر الوزير الاعظم في خرسباد (سبق ان ذكرنا بان هذا الوزير كان اخ الملك) ، واحد هذه الرسوم يمثل الملك منتصبا فوق قنطرة على شكل مسلة ، وهو مشهد غالبا ما تم ابرازه في نحوت القصور الملكية .

(*) قادش : من اهم المدن الفينيقية على شاطيء البحر الابيض المتوسط وهي تقع على نهر العاصي .

ويمكن تلخيص الموضوع بالقول ان النحت كان مقتصرا بدرجة حيوية على اكبر القصور ذات الاهمية العظمى •

مفهوم الملكيـة

كان عامة الناس الذين راقبنا اعمالهم اليومية في كفة اجتماعية واحدة في حين كان في الكفة الاخرى ، الملك وبلاطه والطبقات الحاكمة وكانت الثغرة فيما بينهم جد واسعة بحيث لا تعترف باية مقارنة • ومن الواضح ان يوما ما في حياة الملك لايمكن ان يحمل ادنى مشابهة ليوم من حياة رجل اعتيادي •

ولسوء الحظ يعوزنا السند الذي نود كثيرا ان تمتلكه ونعنـي بـه اليوميات التي كان يحتفظ بها افراد البلاط من امثال يوميات « فني برني »(*) • ولكن وان كانت كل براهيننا غير مباشرة بالضرورة فاننا نعرف كيف ان كل ساعة في الغالب من ايام معينة كان الملك ينفقها واننا بالنسبة لبقية الايام نعرف وظائفه الرئيسة •

ففي العصر الذي نتحدث عنه كانت الملكية الاشورية والبابلية تستمد قوتها من تقليد صيغ بشكل ثابت ، فاولا وفي الغالب كانت الملكية لا تمثل سوى الشكل المستطاع للحكومة ، ومع ذلك فقد كان الملك كثيرا ما يخضع لنوع من قوة اعلى ، وبذلك قد يصبح غياب الحاكم امرا لايمكن تصوره •

وقد اتضح هذا الامر ببعض الملاحظات القصيرة التي اوردها احد الكتبة عن بعض اعداء الامبراطورية اولئك الغزاة الذين كانوا يتربصون في

(*) فني برني Fanny Burney شخص فرنسي عثر على لوح من الفخار يمثل الهة عارية مجنحة يحيط بها ابيود،ويوم وقد نسب هذا اللوح اليه فاصبح يعرف لدى الاثاريين باسم «لوح برني» .

الجبال الى الشمال والى الشرق . او يجوبون السهوب التي تتاخم حوض بلاد الرافدين .

يقول الكاتب بصفة قاطعة ان هؤلاء « لا مساكن لهم (بمعنى انهم يعيشون في الخيام) ولا ملك لهم » . ففي هذا التأريخ كانت مفاهيم الملكية - مهما كانت الصفات الشخصية للسلوك ومفاهيم الدولة - غير منفصلة .

القواعد التي تتحكم باعتلاء العرش

تنطبق معلوماتنا عن هذا الموضوع على وجود دولة وديانة متطورتين تطورا رفيعا . ومع ذلك نستطيع أن نستنتج وجود فترة ممعنة في القدم بفضل قصيدة جد قديمة تصف العوائد المستقاة من عصر اسبق .

تتحدث هذه القصيدة عن البطل غلغامش الملك الاسطوري للوركاء والذي كان نوعا من هراقلة البابليين والذي سجلت مغامراته بشكل عاطفي في قصيدة ملحمية .

ان غلغامش نفسه هذا الذي نتج من اتحاد انسان وآلهة - وهنا توجد اشارة الى تقليد اكثر قدما - قد صور في صفة رجل ذي قوة خارقة لكل ما تنطوي عليه شراسة الوحش .

فهو يضطهد رعاياه ولكنه في ذات الوقت هو حاميهم المولود الذي نشمر عن ذراعيه ضد اي تهديد بالأذى موجه الى شعبه .

وهو يشن حملة ضد حارس غابة الارز اي في لبنان او امانوس وتلك اشارة بالعبارات الاسطورية الى الحملات التي كان يقصد بها افتتاح طرق التجارة امام السلع من امثال الاخشاب التي لم تكن متاحة في بلاد الرافدين .

وهو يحرس قطعان رعاياه من الحيوانات المتوحشة . وهو الصياد الذي

لايهاب . وهو يجسد صفات الرئيس البدائي كالحارس اليقظ المتحمس لمصالح مجتمعة .

ان ذكرى هذا العصر البعيد يمكن التحسس بها من حقيقة ان حق الصيد لم يكن يتمتع به سوى النبلاء وحدهم . فعندما يقتنص ملك آشور اسودا بالقوس والنشاب فانه يمارس في هذه الرياضة امرا كان من واجباته فبلا كملك .

الترشيح السماوي

كان اعتلاء العرش خلال اواسط الالف الاول قبل الميلاد لا يعتمد على اللياقة الملكية حسب وانما على ترشيح من الآلهة أيضا .

وليس من شك في ان هذه العقيدة تعود اصلا الى ضغوط وضوابط صريحة ومفاجئة ولا سيما في الشرق لان مبدأ الوراثة هو المعمول به لكن جذوره تعود الى الماضي السحيق جدا .

وكان المعروف بصفة شاملة ان السلطة الملكية مودعة في ايدي الآلهة، وان هذه كان يرمز اليها بلباس الرأس والسلاح التي كانت تطرح ـ كشعارات للسلطة ـ امام عرش « انو » في السماء .

وقد وضحت هذه النقطة في قصيدة اخرى (سيرد ذكرها) في قسم الشعر الغنائي في الفصل الثالث من هذا الكتاب والتي يعد فيها « ايتانا »(*) العدة للقيام برحلة الى السموات كي يسرق هذه الشعارات بالقوة .

(*) الاله انو والاله ايتانا . انو هو رئيس مجمع الالهة لسكان بلاد الرافدين القديمة وكان مقره في معبد عرف باسمه في مدينة الوركاء . اما الاله « ايتانا » فهو الاله الراعي في الاوساط الدينية السومرية وقد علق في السماء .

فهو يبدأ الرحلة بمعونة نسر انقذه من عدوه الثعبان ، لكنه مثل ايكاروس آخر(*) قدر له ان لا يبلغ السماء ويتغلب عليه دوار الرأس فيسقط محطما على الارض .

وعندما لا يستطاع اشغال العرش ، اما لان السلالة الحاكمة تكون قد بلغت نهايتها او بسبب غزو بربري ، فان الملكية تعتبر آنذاك وكأنها قد صعدت الى السماء .

عند هذه النقطة كان ينبغي للالهة ان تشير الى رجل حسب اختيارها . ولذلك كان الملوك من اقدم العصور يعتمدون بالقابهم على الذين تم اختيارهم بهذه الطريقة . وقد يحرض مختلف الآلهة في مختلف الاوساط السياسية ولكن المفهوم بصفة عامة هو ان « انليل » حاكم الارض هو الذي يقدم الاستئناف النهائي اليه .

وفي عصر متأخر اخذت هذه السلطة تنتقل بصفة طبيعية الى الاله الذي كان يحكم المدينة ، وقد ادى هذا الى ان تقدم الاستئنافات الى عدد كبير من الالهة عن طريق الملوك المطالبين بان يكونوا موضوع هذا الاختيار السماوي

ولكن بحلول منتصف الالف الاول قبل الميلاد عندما تم ابتلاع المدن الفردية من قبل دولتين عظميين هما آشور وبابل اصبحت آلهتها المحترمة من امثال آشور ومردوك تعتبر وكأنها كانت تتطلع بعطف الى الملك الطفل حين مولده ، ولهذا يذكر حمورابي ان « شمس » آله العدل كان يتطلع اليه فيما بعد عطوفا بعينيه البراقتين ! » .

وباتساع هذه الفكرة اصبح في مقدور الملك ان يتم اختياره في لحظة

(*) ايكاروس : بطل اسطورة يونانية وهو ايكاروس بن ديد الوس ، هرب من السجن فحلق في السماء حتى اصبح على مقربة من الشمس واذ ذاك ذاب جناحاه المصنوعان من الشمع فسقط في البحر .

الاستقبال . فهذه كلمات سنحاريب تقول « ان الآلهة قد اختارتني عندما كنت ما ازال في رحم امي التي ولدتني ! » .

ويمكن اختيار الملك حتى بفترة طويلة قبل مولده فعندما اســتولى العيلاميون في الالف الثاني قبل الميلاد على العراق ونقلوا معهم تمثــال الالهة عشتار في حملة عسكرية ناجحة ، اختارت الالهة ان تعاد الى الاله إنانا وكان هذا الاله هو الذى اختار ـ بعد الف وخمسمائة ســنة مؤخــرا ـ آشوربانيبال ملك بلاد آشور . وكان يصحب الاختيار اسم ملائم للملكية. اسم حسن .

ولقد سبق لاناتم(*) الذي عاش في النصف الاول من الالف الثالث قبل الميلاد والذى نحن مدينون له بمسلة العقبان ان فاخر بمثل هذه التسمية.

يظهر من هذا ان التسمية وان كان من المهم ان تنسب الى خط ملكي وان كان بسبب الشرعية التي تيسر السبيل امام وراثة العرش ، الا ان هــذا بحد ذاته لم يكن كافيا ، لان الاهمية العليا في هذا الامر تتعلــق باختيــار الالهــة .

ولقد وضع المغتصبون للعروش من أمثال « نرغلصر » البابلي(**) أو « لوغال زغيسى »(***) الذي أنهى سيادة السلالة الاكدية الحاكمة ، مثــل هذا الادعاء على اساس الاعتبار المفضل للآلهة وعلى اسم مناسب له .

(*) اناتم ، ملك لكش خلف اكورغال في الحكم سنة ٢٧٠٠ قبل الميلاد .

(**) نرغلصر Neriglissar ويعرف باسم نرغال شر او نرغال صور هو الملك الرابع من ملوك العهد البابلي الاخير حكم مدة اربع سنوات في الفترة ٥٦٠ـ٥٥٦ قبل الميلاد .

(***) لوغال زغيسي قضى على اوروكاجينا ملك لكش وضم لكش الى مملكته الوركاء وذلك في حدود سنة ٢٣٢٥ قبل الميلاد .

وكانت التسمية الالهية تعني بالضرورة ان الفرد المختار كملك كـان الممثل الشخصي للاله الذي يحكم المدينة ، وهو عبارة عن نائبه حاكم عن لكي يحكم بمكان الآله ونيابة عنه وهكذا كان الملك يحتفظ على الدوام بمسؤولية مزدوجه تخص عبادة الالهة وتصريف تاجح للشؤون وان هـذه المسؤولية الاخيرة هي في الواقع مظهر واحد حسب للمسؤولية الاولى •

ولهذا السبب كان حكام المدن في العصر القديم يحتفظون بلقب نائب (في السومرية « باتسي » وهو يقرأ الان بمثابة انسى) وانهم لم يحصلوا الا بالتدريج على لقب ملك (لوغال الذي يعنى الرجل الكبير) ، في حين ان ادعاءهم بالقاب اضافية من امثال ملك « المناطق الاربع » [النقاط الاربعـة للملك] او « ملك العالم » التي كان يرمز اليها بالمناطق التي تقع الى الشمال من بلاد الرافدين والتي تسكنها قبائل لم يتم التغلب عليها ، فمثل هذه الالقاب كانت مجرد القاب تابعة للصفة الاساسية للشخص الذي اختاره الآله وجعله ممثلا له على الارض •

ملك اشور لم يكن آلهـــا

لم يعرض ملك آشور مثل هذه الادعاءات بالالوهية الشخصية مثلما كان يفعل ذلك فراعنة مصر او حتى الملك الحثي الذي امر نفسـه بان يلقب « صاحبة الجلالة الشمس ، شمسي » •

وليس من شك في ان جلساء الملك المتذللين لابد وان كـانوا ينبئون الملك بانه هو شمسهم ، واننا نجد امرأة تدعى حـورابي شـمسي » او « حمورابي هو شمسي » • لكن ينبغي لنا ان نتحقق بانه في الوقت الـذى قد يكون فيه الملك هو النور الذي يحركه فانه لم يكن هو الإله النبي كـان مصدر ذلك النور ، وان من النادر جدا ان نجد مثالا لملك يدعي الالوهية مع الآلهه شمس •

ففي عصور محدودة من تأريخ العراق من امثال عصر سلالة اور الثالثة ، ومن ثم أضاف بعض الملوك ربما تحت التأثير المصري ، الى أسمائهم علامة تدلل على الالوهية ، في حين اصبح مثل هذا الاجراء في نهاية العصر الاشورى واوائل العصر البابلي الحديث مهملا تماما ولم تبق منه سوى صفة ادعاء وقتي غريب بان يكون الملك ابن هذا الآله او تلك الآلهة ، وهو ادعاء يصعب الاعتراف به لان ام الملك كانت تشاهد في البلاد .

لم يتردد فراعنة مصر عن الادعاء بانحدارهم من الآلهة على الرغم من حقيقة ان كل فرد كان يعرف اسلافهم على العرش .

ولقد سبق لبعض ملوك بلاد الرافدين من امثال «اغوم ـ كاك ريمي»(*) و « ادين ـ داغان »(**) ان ادعوا بانهم من « عرق الآله » شقموقة «(***) او « ابن الاله داغان »(****) . غير ان هذا لابد وان يكون لقبا شكليا خالصا لان غوديا ملك لكش يصف نفسه على التعاقب بانه ابن « غتمدوغ » (نينا) ونن سن ، و « بابا » .

هذا في حين اننا نجد في العصر الآشورى الاخير ان آشوربانيبال يزعم في مناسبات مختلفة ان امه هي اقليل ، و « بلت نينوى » و « عشتار اربيل ».

(*) اغوم كاك ريمي Agum-Kak-Rime وهو اغوم الثاني ، تاسع ملوك الكشيين استولى على بابل في سنة ١٥٩٥ ق.م. دام حكمه ١٨ سنة من ١٦٠٢ـ١٥٨٥ ق.م.

(**) ادين داغان Idin Dagan هو اشمي داغان الاول من ملوك العهد القديم في آشور حكم مدة اربعين سنة في الفترة ١٧٢٠ـ١٦٨١ ق.م.

(***) الاله شقموقة : اله الكشيين وهو الذي يشرف على اخصاب قطعان الماشية .

(***) الاله داغان : اله سومري عبد في مدينتي ماري وطرقة في سورديا.

ينبغي لنا ان لا نرى في هذا سوى ذكرى بعيدة لاصل الملكية السماوية والاختيار السماوي ، والتأكيد بان السلطة السماوية قد اودعت الى ملك بكل كماله قبل مولده .

هناك صفتان اكثر شيوعا بين كل الصفات التي يفترض ان يحوزهـا الملك ، ونعنى بهما القوة والفهم ،و هذه الصفة الاخيرة مهمة بصفة خاصة .

ذلك لان مالك الحكمة والمعرفة يكون قد تلقى موهبة الاذان العظمى ، فقد كان من الطبيعي تماما للملك ان يوهب مثل هذه الصفات كأنه لم يكن مجرد سليل سماوي بل ان الالهة قد ارضعته .

ولقد امتلك آشوربانيبال هذه الصفة التي وهبها له الآله « نبو » الذى ظهر له في المنام عندما كان قلقا بشأن حصيلة احدى الحملات العسكرية .

فقد راح الاله يذكر الملك بانه ، اي نبو ، قد عهد الى الملك وهو طفل بان ترضعه الآلهة عشتار ، وانه اضاف الى ذلك قوله « من الحيوانات الاربعة ازاء فمه اثنان قد رضعا واثنان اخفيا وجهيهما » .

لقد اضافت هذه الحادثة اهمية لتبيان ان فكرة الالهـات المتعـددات الحيوانات كان منتشرة قبلا في بلاد الرافدين ، كما انتشرت مؤخرا في آسيا الصغرى وفي روما ، دون الحاجة الى التطلع الى تأثير مصري خاص ، ففـي القطر الاخير كانت « حاطور » ، آلهة الخصب ، ممثلة ايضا في صورة بقرة .

وكان وريث العرش الذي يفترض فيه بانه قد ولد من آلهة ورضع من ثديها يتم تهذيبه كأمير ملائم وينمو تحت أنظار معلميه . والذي اعتقده ان التهذيب الصحيح لطفل ذي مولد نبيل ، قد تم تلخيصه على منحوته ناتئة حثية جديدة محفوظة في متحف اللوفر . وتبين هذه المنحوتة صبيا صغيرا حسن الملبس يقف على ركبتي امرأة جالسة عليها عباءة طويلة تغطي قفا رأسها وتصل الى قدميها . وهذه العباءة تبرهن على انها من طبقة رفيعة لانه لم يكن يسمح للخدم بارتداء

عباءة من هذا النوع . وعند حافة القسم الاعلى من المنحوتة وبجانب صورة الامير الصغير ، نحت الفنان صقرا له حبل مربوط حول قدمه ، والى جانبه كتاب مغلق لابد وان كان يمثل رقما طينية ذات وجوه داخلية من الشمع كانت تستعمل لكتابة الحروف الآوامية .

فهذان الرمزان ، الصيد والتعليم ، التهذيب الجسمي والعقلي معاً ، يبدوان في نظري بانهما الخلاصة الكاملة لعملية التربية المثالية للامير .

تسمية احد الاخلاف

في الوقت المناسب يستدعي الملك الحاكم البارزين من المواطنين وحتى بعض العوام من ابناء الشعب ثم يعلن بصفة شكلية بان الامير هو وريثه .

ويقسم الجميع بانهم سيقبلون به ، ووسط مشاهد الحماسة يدخل الوريث المرتقب عندئذ الى الـ (بت ـ ردتيو) او البيت الذى خصص لاستعمال مطلق يمارسه الوارث الشرعي للعرش .

ولقد عين كل من اسرحدون وآشوربانيبال وريثين مرتقبين بهذه الطريقة واشار كلاهما بصفة خاصة الى الحشود التي حضرت الاحتفال التي ابتلعتها الوفود القادمة من كل انحاء الامبراطورية .

ولقد رسم مشهد مماثل على منحوتة حثية حديثة اخرى عثر عليها في قرقميش على نهر الفرات شمالي شرقي مدينة حلب . ويبين هذا المشهد الملك وهو يمسك ابنه من يده ويقدمه الى الجيش . ويقف اخوة الامير الصغار خلفه ويحاول اصغرهم ان يمشي في حين تحمل احدى المرضات أصغر طفل مولود جلب معه حيوانه الاليف ايضا .

ولم يكن الاحتفال الشكلي من هذه النوعية يترك الى خيار مطلق من جانب الملك وانما يمكن ان يمارس بعد خيار مطلق من جانب الملك وانما

يمكن ان يمارس بعد ان تتم استشارة الآلهة فعلا من قبل الكهنة وتمنح موافقتها وما ان يحدث ذلك حتى يبدأ وريث العرش ينوب عن والدم في بعض الوظائف وان يقود حملة عسكرية .

وهكذا ففي الوقت الذي كان فيه نبوخذنصر ما يزال وريثا مرتقبا ليس الا ، نراه يقود مفرزة من الجنود لمرافقة الماذيين الذين كان ابوه يأمل بمساعدتهم أن يجعل من نفسه سيدا لبلاد آشور . وتوجد في متحف اللوفر رسالة مشوهة يبدو فيها بانه يستدعي اتباعه .

من الطبيعي تماما في الحالة التي يقوم فيها احد المغتصبين ، ليس ولدا لرجل ، بالاستيلاء على العرش ، ان يجبر رفاقه على ان يحذقوا اية اشارة الى قضية الشرعية ، وان يحصروا انفسهم بدعوات من الآلهة الى العرش وبالتأييد الذي ينظرونه به .

ان مثالا سابقا من هذا النوع يمثله سرجون العظيم ملك اكد الذي جاء به احد البستانيين ، وتلك حقيقة يشير الملك اليها ، ويضيف عليها بانه في الوقت الذي كان يعمل فيه بستانيا ، كان محبوبا من قبل عشتار ، ويختم اشارته بقوله « لقد بقيت اتمتع بالسلطة الملكية لكذا عدد من السنين » .

التتـــويج

بعد وفاة احد الملوك يقام حفل من نوعين مدني وعسكري بالاضافة الى حفل اخر ذي صفة دينية ، وذلك لتتويج وريثه المعين حقا لهذا الغرض .
ويحدث الاحتفال الاخير في معبد الآله آشور في مدينة آشور ذاتها .
ويأخذ الملك الجديد مقعده على عرشه وفي الوقت الذي يتقدم فيه الخدم وهم يحملون العرش على اكتافهم ، ينقر كاهن آشور على دف ويهتف عاليا « آشور ملك » وذلك الغرض ان يشخص — دون شك — شخصية الملك الجديد باعلان من الآله .

واذ يدخل الملك المعبد يهبط من على عرشه ويتمدد بكامل طوله على الارض ثم يقدم الولاء للاله ويلقي عند قاعدة تمثاله بلباس وذهب وفضة تكون كلها ملكا للكاهن . وبعد ذلك تبدأ النذور .

اننا لن نغض النظر عن الدور الرئيس الذي يلعبه الملك في الاحتفال ، والذي يمارس فيه وظيفة احد الكهنة ، ولا سيما في تنظيم المائدة للنذور التي تكرس لاستعمال الآله آشور . ومع ذلك فحين يكمل الملك هذا الدور يبدأ الكهنة بحفل التتويج الحقيقي الذي يؤكد فيه الملك ، بطريق المفارقة ، صفته كمثل ارضي للاله . وخلال هذا الاحتفال يتسلم الملك التاج وشعارات الملوكية التي تكون حتى تلك اللحظة قد تم ترتيبها امام هيكل الاله تقليداً للسمات التي ترمز الى السلطة والتي يعتقد بان تطرح على مائدة امام عرش « انو » في السماء .

عندئذ يعود الملك الذي دهنه الاله الآن بالمروخ ، الى قصره وسط تهليل شامل يؤكد له بتوزيع الهدايا . حتى اذا ما جلس على عرشه راح يتسلم تبريكات كل النبلاء في حين يلقي كل واحد من أفراد الطبقة العليا باوسمته امامه من امثال شعار السلطة ، والكيس او القيثار لان الموسيقار الرئيس السلطة ، والكيس او القيثار لان الموسيقار الرئيس كان يعد دوما شخصا عظيم الاهمية في البلاطات الشرقية .. ويسجد هؤلاء امام الملك الذي يأمرهم بان يراقبوا واجبات دوائرهم .

في خلال بضع عشرات من السنين وصل الينا بشكل غريب هذا الاحتفال، بالاجراءات التي كانت تقام لتتويج سلطان تركيا ، والذي يقدم خلاله الرئيس الاعلى للدراويش الراقصين الى السلطان الجديد سيف عثمان كرمز لسلطته.

هناك فقرات موجزة تشير بقوة الى وجود مشابهات مقاربة اثناء الاحتفال بالتتويج في مدينة بابل . فمن المحتمل ان يكون نوعا السمات الملكية ، وهما

لباس الرأس والصولجان او السلاح اللذان يميزان في النصوص ، قد قصد بهما التذكير بالمظهرين المزدوجين للملك كحاكم في اوقات السلم وكقائد في الحرب ، وان هذه السمة المزدوجة قد ترمز الى مملكتي.سومر واكد اللتين اتحدتا في ظل حكم واحد في عصر سابق جدا •

وما ان يتم تقبل الملك بمثابة نائب عن الآله فان الاسلحة التي قـدمت اليه بصفة شكلية ترمز الى التزامه بالدفاع عن الآله ، وتلك مهمة من اليسير ممارستها ما دامت الاسلحة الالهية تمنحه الحصانة •

هناك كسرة من مسلة محفوظة في المتحف البريطاني يعود تاريخها الى عهد الملك « تغلات ـ بلسر »(*) تصور يدين خارجتين من قرص شمسـي يمثل الآله ، تمسك احداهما بسهم ، وتوميء الاخرى الى الملك •

فالفكرة الضمنية التي تشير الى ان الاله يدعو الملك كي يتسلم سلاحه كانت شائعة منذ زمن طويل في الشرق ، ففي مصر مثلا كان الفنانون فـي عصر متقدم مثل عهد حكم «توت عنخ امون»(**) يرسمون أشعة الشمس في صفة أذرع تحتضن الملك •

سوف نجد عندما نأتي الى بحث الديانـة الآشـــورية بالتفصيل ، ان المؤمنين الصادقين كانوا على الدوام منهمكين بالحاجة الى الظفر برضا الآله الذي يعتبرونه الصفة التي يعتمد عليها في الوقاية •

(*) تغلات بلسر :اسم لثلاثةمن الملوك الاشوريين اولهم تغلات بلد والاول حكم ٣٩ سنة في الفترة ١١١٢ـ١٠٧٤ ق٠م٠ وتغلات بلسر الثاني حكم ٣٢ سنة في الفترة ٩٦٤ـ٩٣٣ ق٠م٠ والاخير تغلات بلسر الثالث حكم ١٩ سنة في الفترة الواقعة بين ٧٤٥ـ٧٢٧ ق٠م٠ والمقصود هنا هو تغلات بلسر الثالث •

(**) توت عنخ امون :من مشاهير فراعنة مصر.استطاع المنقب الانكليزي «كارتر» ان يكتشف في سنة ١٩٢٣ مقبرته الشهيرة في تل الحجارة بوادي أسوان وان يعثر فيها على نفائس الاثار الفرعونية •

لقد كان مثل هذا الاعتقاد يصدق على الملك تماماً عندما يذكر في كتاباته بـان الالهـة تنظـر اليـه بعـين العطف ، او حتـى عندمـا يتبـاهى بحب الآلهات ، أو حين يعمـد في الغالب الى اعلان نفسـه بانه الـزوج المحبوب لاحداهن ، فان مثل هذا التأكيد اكثر من مجرد التدليل على رفعته، ذلك لان كلمات احد سكان العراق كـانت تخلـق الحقائـق وان الحقائق تصيب الواقع بفضل الكلام . وما خلا ذلك كان الدور الذى يلعبه الملك في بعض الاحتفالات يمنحه ، دون شك ، اسسا طيبة لمثل هذا الادعاء .

الواجبات الدنيوية في يوم ملكي . ملبس الملك

يطرح المشهد على الوجه التالي : كيف يمضي مثل هذا الشخص الذي نصفه دنيوي وبالاحرى اكثر من نصف ديني يومه ؟
في بلاد الشرق حتى الغنى يستيقظ من نومه مبكرا اكثر مما هو معتاد في اوربا الغربية وذلك لغرض اظهار عـدم الاكتراث النسـبي . ومـا ان يستيقظ الملك حتى يمضى الى المرافق الصحية في حمامات كان كل قصر في القدم يمتلكها كعادة جارية .

وقد يحاط الملك بطائفة من الخدم ومصففي الشعر والحلاقين ، كما قد تقدم ملابسه اليه . وكان ملبسه يخضع في الاصل الى موافقة دقيقـة لابن الطالع ، او علم الايام الملائمة وغير الملائمة ، ينص على انه ينبغي للملـك في بعض الايام المحددة ان لا يغير ملابسه ، وبالنظر الى البسة اخرى محددة مصنوعة من مادة او لون خاص .

والشيء المعتاد هو ان يرتدى الملك جلبابا طويلا مطرزا قصير الاردان مصنوعا من الصوف او القطن بل وحتى من الكتان او الحرير .
وقد يصبغ الصوف بصفة متساوية او يكون نصف ملون . اما القطن الذي كان الآشوريون يدعونه باسم « صوف الشجر » فكان مصدر المواد

رفيعة القيمة تتقبل الصبغ بشكل جيد وعلى الاخص اللون الارجواني الذي كان الفينيقيون يتاجرون به على نطاق واسع • وكـــان لدى الفينيقيين سر مماشاة الظل الحقيقي المطلوب حين يجف في الشمس وذلك ابتداء من اللون الليلاقي الى اللون الوردي الفاتح غالبا فاللون الارجواني العميق •

ويعتقد بعض الباحثين بان الكتان كان مستعملا • غير انه وان كانت المســـتندات التجاريـة الباقية تشير بشكل ثابت الى الصوف فاننا لم نصادف الكتان وهذا يشير الى انه كان يستورد وانه لم يكن شائع الاستعمال تماما• وكان الحرير ينتج في الصين في ذلك التأريخ • وكان معروفا بندرته حتـى في العصر البابلي الحديث ، وكان يتم نقله مرحلة فمرحلة عبر الطريق الذى عرف مؤخرا باسم « طريق الحرير » •

ينبغي لنا ان تتذكر ان العالم القديم على الرغـم مـن نقص الادوات العصرية والكاشفات الكيماوية لديه ، فانه كان قادرا تماما على تمييز المواد الخام النادرة بصفة طبيعية ، ولو انها لم تكن جذابة بصفة ظاهرية •

لقد عثر على كميات قليلة من الحديد في الاهرامات • ومع ان الحديد لم يكن شائع الاستعمال في منطقة حوض البحر الابيض المتوسط وفي بلاد الرافدين قبل الالف الاول قبل الميلاد ، الا انه كان يصدر قبلا من قبـــل الحثيين خلال النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد •

ولقد صنع احد رقم الاسس في قصر سرجون بمدينة خرسباد من مادة كاربونات المغنيسيوم • وهناك مزهرية نذرية من المقابر الملكيـة في اور ، والتي كان يظن بانها تستحق ان توضع بجانب الذهب والفضة ، كـــانت مصنوعة من مادة الكلس • فهذان الحجر ان كانا نادرين في بلاد الرافدين •

كان الملك يرتدى فوق ملابسه الداخلية جلبابا مفتوحا غنيا بالتطريز والاهداب ، وحزاما يكون اما عريضا او منبسطا يلبسه تحت حمالة الكتف

الجلدية التي تحمل سيفا قصيرا ، او على شكل وشاح مضفور يغرس خنجر فيه .

ويجب ان يكون التطريز الذي يصنع من خيوط معدنية وصوفية متباينة الالوان ، ذا منظر عجيب ذلك لان بلاد الرافدين كانت ـ كما سبق ان قلنا ـ مشهورة بهذه الصناعة .

لقد انقرضت صناعة التطريز البابلية تماما ما عدا قطعة منه اكتشفت يوما ما في بعض القبور القائمة في الجو الواقي في مصر . ومع ذلك نستطيع ان نحصل على فكرة دقيقة عنه من الاثار الآشورية التي نستطيع ان تتقبلها كبرهان يعتمد عليه .

لقد كان الفنانون يستخدمون الصبر والعناية الفائقة في اعادة تصوير ما كانوا يشاهدونه ، وكان تصورهم يخضع لرقابة شديدة .

وهناك دليل غير مباشر للبرهنة على هذه الحقيقة يتمثل في التماثيل الساسانية التي نحتت في مغارة (طاق وبستان) الكبيرة على مقربة من مدينة كرمنشاه العصرية .

ويعتقد بعض الباحثين ان الملك الذي كان مسؤولا عن انتاج هذا العمل الفني هو كسرى الثاني[٣٢][*] (٥٩٠ـ٦٢٨ م) بينما يعتقد اخرون انه هو بيروز (٤٥٧ـ٤٨٤م) فهذه التماثيل ترى وهي ترتدي جلابيب مغطاة بالمطرزات وان المظهر البارز في الصورة هو الطاووس التنين ، وهو عملاق خرافي له قوائم امامية لحيوان وحشي واطراف خلفية تنتهي بلمة من ريش منسق على شكل ذيل طاووس . وكان هذا يحدث بصفة صريحة بمثابة

---

(٣٢) الذي اشتهر باسم ابرويز .

(*) خسرو أو كسرى الثاني ابرويز الملك الثامن والعشرون من السلالة الساسانية حكم في الفترة ٥٧٩ـ٥٩٠ ميلادية .

صورة زخرفية في الفن الساساني وقد يفترض فيه تماما بان الفنان قد حوله الى نحت ناتىء يظن انه في حاجة الى الزخرفة .

وقد حدث ان غدت المتاحف والمجموعات الاوربية مليئة بنماذج من المواد الساسانية . فقد كان الجميع يتطلعون اليها بشوق اكثر لانها كانت مصنوعة من الحرير الذي لم يكن يصنع آنذاك في اوربا ، وانها قد وصلت الى هناك اثناء العصور الوسطى باعداد كبيرة وبجملة من الوسائل ، بعضها عن طريق التجارة والبعض الاخر بصفة هدايا ملكية ، والبعض منها بمثابة اردية غالية الثمن لمخلفات القديسين الاثرية .

هناك نوعان موجودان الان في متحف الفن الزخرفي بباريس يحملان زخرفة مميزة مماثلة للزخرفة المنقوشة على جلباب الملك في طاق وبستان ، نسج أحدهما في لونين أخضرين ، بينما نسج النوع الاخر من ألوان زرقاء قاتمة ، وخضراء وبنفسجية وحليبية .

وعلى هذا نستطيع ان نعتمد على دقة الفنانين عندما يرسمون ملك بلاد آشور وهو يرتدي البسة مطرزة تطريزا متقنا . ذلك لان منحوتة واحدة من كثير منها قد يستعمل بمثابة مثال لذلك .

فعلى هذه المنحوتة نشاهد ـ كعناصر في الشكل ـ جنيا مجنحا في وضع حركة سريعة وهو يمسك باحدى يديه كأسا وفي اليد الاخرى ضفيرة مؤلفة من حلية مضفورة حلزونية نستطيع ان نفترض ، بالاعتماد على منحوتات اخرى ، بانها تمثل مياه فجوة تحت الارض .

تقوم في اسفل هذه شجرة مقدسة ذات اغصان افقية يقف على جانبيها جنيان مجنحان يرشانها بماء مطهر .

وقد احيطت هذه الصور بمشاهد اخرى مصورة وبالاضافة الى الشجرة المقدسة والجن والثور المجنح هناك مجموعة تحتوي على جني مجنح رأسه وصدره الى امام وهو يركع بكل وضوح لكنه في الواقع العملي يرى موقف جريان عرضي ، وهو يمسك في كل من يديه بمخلب اسد امسك بثور وراح ينهش صدره . والرسم برمته منسق وقد حلي بحاشية من براعم زهر للوتس والشجيرات المزخرفة باشجار النخيل والتي تنهض منها الزهور .

كان شعر الملك يقص على هيئة طربوش تمتد فوقه قطعة معدنية ذات نهايات معقدة تتدلى الى الوراء . وكان ينتعل في قدميه صنادل مفتوحة تدع واجهة القدم عارية مع اشوطة للاصبع الكبير تشد الى الكاحل بسير من الجلد يمر بين الاصابع .

كانت لحية الملك ، وجزء منها كاذب ، متموجة ، وقد رتبت في شكل صفوف افقية من عكنات . ولقد تفرق شعره على قمة رأسه وتدلى بغزارة والتواء على كتفيه .

ومع ان لدينا وثائق قليلة نستطيع منها ان نتعقب التطورات الدقيقة لهذا الزي في عهد السلالة الاشورية الاخيرة ، فان المقاطع الواسعة واضحة تماما .

لقد كان الشعر يقص بصفة اقصر في كل عهد من عهود الحكم ، في حين كان لباس رأس الملك في عهد آشوربانيبال اكبر بقليل من الطربوش البسيط الذى كان في عهد اخر الملوك لآشوريين المتأخرين يشبه غالبا لباس الرأس الذى يرتديه الدراويش . فقد كانت قمته على الدوام مدببة .

تكشف صياغة المجوهرات عن اصالة ضئيلة . ذلك لان العقيق ، واليشم ، والجزع المعتادة ، كانت هي الاحجار الشائعة الاستعمال غالبا .

وكانت الاساور مفتوحة النهايات او المغلقة تلبس في الذراع وفي الرسغ ، بالاضافة الى حلقات كثيرة يلبسها الرجال ويتم تشكيلها بصفة علاقات وصلبان اوعناقيد من العنب مجوفة ومصنوعة بدقة .

وكانت الاساور المغلقة واشرطة الرأس التي يمكن لبسها مع التاج او بدونه ، تزين بصفة منوعة ، بصورة زر اقحوانة مفردة او مزدوجة ، في حين كانت نهايات الاساور المفتوحة تصنع بشكل جميل على هيئة رؤوس عجول او وعول او اسود . وكانت ذات الصور تستعمل بصفة عامة لمقابض المدي التي كانت تعلق في الحزام . وكانت للقلائد رؤوس ذهبية قد تكون مدورة او في شكل ساعة رملية ذات سطح اما صقيل او مخطط ويتم ربطها باحجار العقيق او احجار اخرى مختلفة او حتى بحبات من الزجاج .

فبمثل هذه السلسلة المحددة من المواد ، تعتمد اية مزية تمتلكها مثل هذه الحلي ، على تركيبها ، وهي تستند في تأثيرها الى البحث المتواصل عن كل ما هو جديد .

كان الدرع الاحتفالي للملك ، اذا ما ميز عن درعه القتالي ، فخما بصفة استثنائية . كان السيف عريضا وقصيرا ومغلفا في غمد مزين بصورة اسدين رابضين احدهما قبالة الاخر .

وكانت هذه الصورة تستعمل منذ العصر المبكر ، وهي تؤلف قبضة الخنجر النحاسي الذي عثر عليه في تلو وغدا الان مفقودا . فلقد كان هذا واحدا من اقدم الامثلة على المقابض التي كانت تصنع على شكل اسود تبرز موسى من افواهها .

وكانت مقابض المدي التي تحمل في الاحزمة منحوتة نحتاً جميلا جدا ، ويمكن التعرف على اثنتين منها مزينة بالوريدات والضمائر والشجيرات المزهرة على ذات النحت الناتيء مثل المطرز الذي تم وصفه في قسم سابق .

وكانت الملابس والاسلحة معا تزين بدقة وبذات النحوت الناتئة : ولذلك يعجب المرء ويتساءل ما اذا كانت المطرزات تتألف في الواقع من ذهب منسوج أو خيوط من الفضة ، ولكن الشيء المحتمل انها تتألف من صفائح رقيقة من المعدن حفرت وصنعت في شكل منحوتة مثل ورقة الذهب التي وجدت في (مسينا) لكنها أكثر منها دقة .

ولابد ان كان السهم يصنع من خشب نادر وكانت كل نهاية منه تغلف بالعاج الذي كان ينحت ، بصفة عامة ، في شكل رأس بطة ، وتلك صورة وجدت ايضا على اعالي الكراسي التي تشبه احيانا كراسي المخيم . وكانت هذه شائعة تماما في مصر . وفي عيلام مثلما هي عليه في وادي الرافدين : كانت احجار الوزن تصنع على شكل بطات تستدير رؤوسها الملتوية لتستقر على ظهر الطائر .

العربات الملكية

نعرف ثلاثة أصناف من العربات الملكية ، فالاولى هي عربة الحرب ، ذات هيكل ثقيل وواسع ، وعجلات مدعمة بصفة خاصة [هناك لوح يصور اشوربانيبال في عربته وهو يتلقى استسلام مدينة بابل] .

ففي متحف اللوفر منحوتة يرقى تأريخها الى عهد حكم سرجون تبين ان محور العربة الذى صمم لمجموعة من اربعة خيول ، له عمود دعم خاص بسبب الارتجاج الذى قد يتعرض له .

يتوفر لدينا بصفة ثانية المزيد من رسوم عربات الاحتفال ولعل واحدة من افضل الامثلة المعروفة هي عربة اشوربانيبال التي توجد نسخ منها في عدة متاحف من ضمنها متحف اللوفر .

لقد صنعت هذه العربة على ذات الاسس العامة للعربة الحربية ، غير ان عجلاتها التي غلفت بالحديد لتحول دون اندثارها المحتم ، قد وضعت ابعد الى الخلف تحت الهيكل في سبيل التقليل من الاهتزاز .

ومع ذلك فان الفرق الرئيس هو ان الهيكل وعمود الاسناد المنحني قليلا ، قد تم تزيينهما بشكل مفرط .

وكانت الخيول حتى في الحالة التي تربط فيها بالعربات الحربية ، تسرج بعدة مزينة عادة بالشرائب والاجراس والفلوس وكانت هذه الخيول تزركش بصفة أتم ، عندما تسحب عربات الاحتفال .

ولعل اعظم مظهر مثير للعربة الملكية هي المظلة التي تظللها . فلم تكن هذه الزينة عديمة المعنى . وانما كانت رمزا للصنف الفاخر كثيرا ، وكانت تجلل بالمطرزات حتما .

هناك زيان كانا يستعملان في البلاط الآشورى ما يزالان مستعملان حتى اليوم . اولهما المظلة التي ما تزال تستعمل لتظلل سلطان مراكش ، وقد وهبت الى بعض الكنائس بمثابة علامة شرف . والاخرى هي المروحة السقفية التي تشاهد في البلاط البابوي في شكل مروحة ، وتستعمل مروحة من ريش النعام ذات قبضة طويلة في الموكب البابوى اثناء الاحتفالات الكبرى .

وهناك طراز ثالث من العربات الملكية مصورة على منحوتة ناتئة من قصر سرجون في خرسباد ومحفوظة الان في متحف اللوفر ، يمكن وصفها بكرسي يقوم على عجلات فهي في شكلها تشير الى مسند مدعم عال ، ومشابهة لعرش يكون فيه المقعد مدعما بصف واحد أو اكثر من صور بشرية صغيرة في موقف العديد من الاطالسة التي تمثل مختلف دافعي الضريبة من شعوب الامبراطورية الذين يساندون الملك •

ففي عصر متأخر طور الملوك الاخمينيون الفكرة التي اخذوها بعد مرحلة مثل اية فكرة اخرى ، من الآشوريين ، فاصبح دافعو الضريبة لا يسندون العرش الحقيقي بل القاعدة التي يقوم عليها •

هناك نقطة اخرى جديرة بالملاحظة بالنسبة الى منحوتة عربة آشوربانيبال، وتلك النقطة هي وجود مرافق الملك الذي يقف بقربها ويده على احدى عتلات العجلات ، ويدفعها كدلالة على الاحترام والطاعة •

وحتى في وقت متأخر مثل عهد عبدالحميد آخر سلطان عظيم لتركيا(*) عندما كان يخرج من المسجد يوم الجمعة للسلام على العامة ، ويصعد المرتفع الذي يؤدي الى القصر ، يمسك المرافقون احدهم بالآخر على حدة • رغبة منهم في دفع عجلة العربة ولو ان مساعدتهم تلك ليست ضرورية •

وما عدا اسلحته التي يدعها غالبا الى مرافقيه لحملها ، كان الملك يحمل ايضا نوعا من قضيب في شكل صولجان احتفالي كرمز للسلطة • ويتألف هذا

(*) السلطان عبدالحميد الثاني ، هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين آل عثمان ولد سنة ١٨٢٩م وتولى الملك بعد اخيه مراد سنة ١٨٦٥ ، وقد خلع بعد الانقلاب الذي قام به رجال حزب الاتحاد والترقي سنة ١٩٠٨ • وكان لليهود والانكليز اثرهم البارز في ذلك الانقلاب لان السلطان عبدالحميد ابي ، بكل المغريات والضغوط ، ان يسمح بهجرة اليهود الى فلسطين او ان يمكنهم من شراء الاراضي فيها . وقد نفي عبدالحميد الى سلانيك وسجن في قصر الا لاتيني حتى اعيد عند حرب البلقان الى الاستانة وكانت مدة حكمه ٣٣ سنة وسبعة اشهر و ١٣ يوما •

القضيب من كرة من الحجر والمعدن مثبتة في قبضة طويلة وتنتهي بسير قصير للحمل او شرشبة شريط .

والشعار الثاني للملوكية يتمثل في قضيب ينتهي بهلال معدني ذي حافة خارجية مسننه . لقد كان القضيب نسخة محورة بشكل خالص من « الخطاف » وهو الاسم الذي اطلقه الاغريقيون عليه عندما واجهوه لاول مرة . ولقد كان هذا مستعملا على نطاق واسع من لدن السومريين ، ونحن نعرف كل مراحل تطوره . فقد بدأ اشبه بمنجل مفلطح وكان يتألف من قطعة من الخشب تثبت فيها قطع حادة من الصوان بالقار . واخيرا وبعد اكتشاف المعدن اصبحت الموسى تصنع من البرنز . وفي النهاية اصبح السلاح يصنع كله من المعدن على شكل حسام شرقي يدعى « يطقان »(*) . وكما هو الامر في اليطقان كانت الحافة القاطعة للخطاف هي الجانب الخارجي للموسى .

وكان السيف والخطاف في بعض المناسبات يستبدلان بعصا طويلة كانت هي الاخرى شعارا للسلطة الملكية .

الاثـــاث الملكي

تحمل النحوت الناتئة شواهد على غنى الاثاث الملكي الذى كان نادرا مثلما هو عليه الحال الان في الشرق ، والذى ينحصر فعلا في سرير ومائدة ومقاعد ، وادوات للاستعمال اليومي التي يجب ان تحفظ في صناديق او في صوان الجدران ، ثم تقدم الى الملك عندما تتم الحاجة اليها .

هناك منحوتة في المتحف البريطاني لوليمة اقيمت في حدائق نينوى بعد هزيمة « تيومان » ملك عيلام « اللوح ١١ » .

فالملك آشوربانيبال شبه متكىء على مقعد ، وعند قدمه جلست الملكة

(*) اليطقان Yataghan , Yatagan يقصد به السيف المحدب ذو الحدين .

على عرش اشبه بكرسي ذي مساند • ويمسك الملك والملكة معا بكؤوس وقد انتشيا باصوات الموسيقى ، في الوقت الذى كان فيه الخدم يهللون للملك والملكة ، او يقدمون لهما الحلوى •

ينتصب المقعد عاليا جدا عن الارض وله رأس مثبت اشبه بالرؤوس التي غدت مألوفة في عهد الامبراطورية الفرنسية [هناك صورة تمثل «وليمة آشور بانيبال وملكته في الحدائق الملكية • لاحظ رأس تيومان مدلى الى أسفل على شجرة»] •

فالملك الذى غطى اطرافه السفلى بسجادة ، والذي استند على المقعد، قد خلع تاجه الثقيل ، ولم يضع على رأسه سوى شريط مزين • وعلى النقيض من ذلك كانت الملكة تلبس تاجا واطئا ذا فتحات وقد سحب ببطء على رأسها اشبه بالعصابة • وقد تدلى شعرها ، مثل شعر الملك ، في خصلات فوق كتفيها، وضارعت ملابسها ملابسه ما عدا بالنسبة الى العباءة التي تدلت على ظهرها والتي يمكن سحبها فوق بدنها • ولم تكن تلبس نعالا بل شبشباً ، وقد جلست على عرش حقيقي له منصة عالية امامها •

اما المائدة القريبة من المقعد والتي تحمل الحلوى ،فقد كانت مرتفعة وصلبة لها قدم حفرت عليها مخالب اسد ، في حين ان الفنان ـ بالنظر الى الدقة الزائدة ـ قد صورها وكأنها تستقر على قاعدة منبسطة ، وتدعمها مخاريط من شجر الصنوبر متجهة الى اسفل •

والمتفق عليه بصفة عامة ان مخاريط شجر الصنوبر (او بالاحرى مخاريط شجر الارز التي كانت غالبا ما تستعمل في الاحتفالات الدينية) ، والتى كانت تستخدم عادة بصفة دعائم للاثاث ، كانت تؤلف مظهرا لقوة سحرية ارتبطت بهذه النقطة • ففى مثل هذه الحالة كان يقصد بها ان تحمي الملك من هجمات جن الارض ، وتبعد عنه آثار الشرور •

وتحمل محفات الكراسي العالية افاريز مزينة بشكل متوال من خطين

منحنيين يشبه الهلال اسند ظهرا لظهر ، ومرتبطين من الوسط بخط . فكل نصف من الشكل يمثل لوالب تاج عمود قبرصي يزين دعامة برنزية (للعرش والمائدة) عثر عليها في منطقة « وان »[٢٣] ومحفوظة الآن في المتحف البريطاني. وهذا مثال آخر على دقة المنحوتات .

ويرى سهم الملك وكنانته ملقيين على منضدة اوطأ بجانب رأس المقعد ، وقد زينت قمتها في كل زاوية بنقوش بارزة حفرت على شكل رؤوس عجول، وتلك صورة طالما وجدت على اذرع الكراسي .

يقودنا اثاث الملك الى ان نأخذ بنظر الاعتبار ترتيبات مأكله . فما خلا الطراز الغربي الذي تفوق على الازياء المحلية لا توجد في الشرق غرف طعام منفصلة ، وان الطعام يتم حمله في صحون الى اي مكان يحدث ان يكون الشخص الذي يتناول الطعام جالسا فيه ، وهذا ما نشاهده في منحوتات خرسباد ، فهناك موكب من الخدم يحملون المائدة والكرسي (كانت العادة الاشورية ان تأكل وانت جالس ، اما المقعد الذي سبق وصفه فهو المكان الذي يستريح فيه الملك) ، ويؤتى بأواني الماء للغسل قبل تناول الوجبة ، وبعض هذه الاواني من كؤوس على شكل رؤوس اسود .

وهناك موكب آخر من الخدم يحملون الرمان والتين والاعناب ، في حين يوجد آخرون غيرهم يحملون الجراد على سفود من الخشب ، مما كان الملك والفلاح يتناولانه سوية [انظر ما سبق ذكره عن الجراد في الفصل الاول من هذا الكتاب] .

يبقى بعد هذا ان نشير الى عتبات الابواب الحجرية التي كانت تنحت تقليدا للسجاد . فالنموذج الموجود منها في متحف اللوفر مزين بدوائر متشابكة ، في حين ان الحاشية التي تحمل الصورة التقليدية لزهرة اللوتس،

---

(٢٣) في شرقي تركيا . وتمعبر هذه المواد قد جاءت من نمرود .

يبدو عليها بانها قد احيطت بشراشب من النسيج اشبه بما هو موجود منهـا في السجاد العصري .

العـــاج

لا نعرف سوى الشيء الضئيل عن بعض انواع المصوغات الاشورية التي لم تكن تصنع على نطاق واسع . ولكن عندما اصبح كل شيء يقصد به استعماله من قبل الملك شخصيا ، مزينا بشكل متقن ، فقد اعتدنا تماما عـلى الصفائح العاجية التي كانت تستعمل لتزيين الصواوين والاثاث الملكي .

لقد كتب الكثير عن عاج الشرق الادنى والذي كان يرد في الواقع من مصادر متنوعة تنوعا واسعا ، سواء كان مستوردا بصفة جاهزة ، ام كان يتم نقشه من قبل حرفيين اجانب بعد استيراده .

فانواع العاج هذه تعرض سلسلة واسعة من الآثار ، لكنها تعد عـلى اية حالة من الطرف المنمنمة .

فنحن نستطيع ان نقرأ في التوراة ان حزئيل Hazae ملـــك دمشـــق اثناء كفاحه ضد بلاد آشور في النصف الثاني من القرن التاسع قبل الميلاد ، قد اضطر الى ان يتخلى عن محفة رسمية مزينة بالعاج ، وان هناك سببا يدعو الى الاعتقاد بان تلك المحفة هي البقايا الحقيقية التي عثر عليها في احد القصور الاشورية في ارسلان طاش ، مدينة « حداتو » القديمة في القسم الاعـــلى من سوريا(*) .

(*) حداتو مدينة قديمة تقع على بعد اربعين كيلومترا من الضفة الشرقية لنهر الفرات ، والى الشمال الشرقي من مدينة حلب بحوالي مائة وخمسين كيلومترا نقبت فيها بعثات مختلفة فعثر على منحوتات حثية ومنحوتات اشورية من عهد تغلات بلسر الاشوري ويعرف موقعها الان باسم « ارسلان طاش » .

لقد انجز بعض النقش بشكل ناتيء على ارضية صلبة وهو يشير الى تأثير مصري واضح ، في حين كان البعض منه عملا مكشوفا يلمح الى تأثير ايجي ، بينا تشير الاجزاء الاخرى الى تأثيرات محلية .

وحين نأخذ بنظر الاعتبار ايضا ، ما تم العثور عليه في « مجدو » و «الضفة الغربية» في فلسطين ، وفي نمرود مدينة كلخ القديمة في بلاد آشور(**) وحتى في معبد « ارتميس » في افسوس(***) ، يتضح لنا ان صناعة العاج كانت منتشرة انتشارا واسعا ، وانها كانت مطبقة بصفة عامة في مناطق متناثرة بشكل واسع من غربي آسيا .

ولقد اكتشف «دى مكينم»(****) كمية كبيرة من كسر من العاج في التنقيبات التي اجريت في سوسة نقشت عليها اشكال دوائر حلزونية بكل بساطة . فهذه كانت تزين في وقت ما ، قضيب عربة دون ريب .

اما بالنسبة لمصادر العاج ، فان لدينا من ناحية سجلات مهمة للملوك المصريين مؤرخة من الالف الثاني قبل الميلاد ، عن اصطيادهم الفيلة في شمالي سوريا ، في حين ان اولئك الصيادين الاقوياء آخر ملوك الامبراطورية

(**) كالخ او نمرود ثانية العواصم الاشورية عرفت باسم كالخ وكلحو في التوراة جعلها اشورنا صربال الثاني عاصمة له . تقع على الجانب الشرقي من دجلة كشفت التنقيبات فيها عن اثار عظيمة لقصور ومعابد وغيرها .

(***) معبد ارتميس في افسوس : افسوس من مدن ليديا القديمة اي اسيا الصغرى وقد عرفت باسم سلجوق وكانت من الثغور المهمة . وفيها اقيم معبد شهير للالهة ارتميس .

(*) دي مكينم (رولان) Demecqunem (١٨٧٧ـ١٩٥٨) مهندس فرنسي اشترك في البعثة الاثرية التي نقبت في سوسة بايران حيث خلف دي مورغان هناك في سنة ١٩١٢ وظل يواصل اعمال التنقيب في ذات الموقع حتى سنة ١٩٥٤ .

الاشورية ، لم يشيروا ـ من الناحية الاخرى ـ الى الحيوان اطلاقا(*) .

ولكن حتى وان كانت الفيلة قد انقرضت في نهاية العصر الذي تتحدث عنه ، فان التجارة مع الشرق الاقصى كانت ثابتة ، واننا دون شك يجب ان تتجه الى الشرق للبحث عن مصادر العاج ، وما خلا ذلك ، فانه كان يرد من اعالي بلاد مصر بكل بساطة .

المتع ، والولائم والموسيقى والرقص

سبق لمنحوتة آشوربانيبال في حدائقه ان اعطتنا فكرة عن التسليات . فالمنظر يؤلف حديقة في قصر نينوى عامرة باشجار النخيل والسرو والكروم التي ترتفع عاليا فوق السلم الملكي .

ليس لدينا اي شك في ان الملك والملكة كان يحتفلان بهزيمة تيومان ملك عيلام على ايدي القوات الاشورية ، وان منحوتة المعركة المحفوظة الان في المتحف البريطاني ، تبين في الواقع رسولا يغادر الى نينوى بمنتهى السرعة وهو يحمل رأس الملك المدحور ، في حين علق الرأس في منحوتة الاحتفالات على شجرة تقابل مباشرة آشوربانيبال الذي تعاظم سروره بهذا الحفل الريفي بشكل واضح .

وغالبا ما يصور الملك في الفن العراقي وهو يمسك بقدح ولكن هـذا لا يمثل عيدا على الدوام ، وانما هو على الاكثر يصب السائل المقدس عرفانا بالشكر للآلهة بمناسبة الصيد والانتصار في الحرب . واكثر من هـذا فـان

(*) اخطأ مؤلف الكتاب كثيرا في اعطاء هذا الرأي ، فالذي ثبت من المدونات الاشورية ان بعضا من ملوك اشور وعلى الاخص اشور بانيبال واشور ناصر بال ، كانوا يصطادون الفيلة في الاجزاء الشمالية من سوريا . وقد تأكد هذا في الفصل الثامن من كتاب العراق القديم ، الذي وضعه طائفة من علماء الآثار السوفيت ، وقام سليم طه التكريتي بترجمته واصداره ضمن منشورات وزارة الاعـــلام في اوائل سنة ١٩٧٦ .

المحتوى الآثاري في هذه الحالة الخاصة لا يحتمل اي شك •

كانت الموسيقى التي اغرم بها سكان الشرق على الدوام وما يزالون غراما شديدا ، مظهرا اساسيا للمتع على غرار تلك التي جرت في حديقة نينوى، وان المنحوتات تبين الالات الموسيقية التي كانت مستعملة في بلاد الرافدين خلال العصر الذي تتحدث عنه •

لقد كانت الاوتار والتطبيل والنفخ معروفة جيدا ، وان الاول منها يحتوي قيثارة رباعية • وكان يتم العزف بهذه الالة اثناء المشي ، كما كانت توجد قيثارة قابلة للحمل ذات سماعة مغطاة بالجلد • وقد عرفت الات مماثلة في مصر حيث كانت اوراق البردى تستعمل احيانا بدلا من الجلد كذلك وجد نوع من الرباب الصغير له سماعة صغيرة جدا ، واوتار مربوطة في نهاية مقبض طويل جدا ، وهناك آلات اخرى مماثلة ما تزال تستعمل في العراق وفي ايران •

كان التطبيل يتم بالضرب على انواع مختلفة من الطبول تتدرج من النقارات القابلة للحمل الى طبول اخرى ذات ابعاد واسعة •

لدينا الواح فخارية تصور بعض الموسيقيين وهم ينقرون النقارات بايديهم ، في حين يحمل الاخرون طبلات اصغر بشكل واضح من الطبول الحديثة ، والتي ينقرونها بايديهم وبعض هذه الآلات مصنوعة كلها من المعدن من امثال الصنج ، والصلصلة التي كانت مألوفة كثيرا في العراق ، وشائعة ايضا في مصر •

لقد نحتت جوقة موسيقى حيوانية على واجهة قيثارة عثر عليها في القبور الملكية بمدينة اور ، وكان العازف على الصلصلة يعتقد فيه بانه يربوع صغير• وكانت آلات النفخ تؤلف انواع من نايات مفردة او مزدوجة ، وكذلك من مزامير دون ريب •

ويظهر الموسيقيون الذين يعزفون على آلاتهم ، في عدد من النصب من امثال المنحوتة المحفوظة في متحف اللوفر والتي يعزف فيها اربعة موسيقيين في الوقت الذي توقف فيه الجيش للاستراحة . وكان الطبالون والعازفون على المعازف والقيثارات والضاربون على الصنوج يقابل احدهم الآخر في صفة مزدوجة وهم يتقدمون ويتراجعون بالتناوب .

ونرى على لوح يصور الاستيلاء على « مدكتو » في عيلام(*) سكان المدينة وهم يسيرون في موكب امام الفاتحين ، الموسيقيون في المقدمة والسكان صغارا وكبارا من ورائهم وراحوا يصفقون في ذات الوقت مع اصوات الموسيقى . [يوجد لوح فيه موسيقيون يصحبون الجيش في مسيرته] .

وكان الرقص يصاحب الغناء والموسيقى غالبا ، ويكون عادة في شكل ما يزال يشاهد حتى الان فيالشرق ولاسيما في سوريا ، حيث يواجه صفان من الراقصين احدهما الآخر ، ويتقدمان ويتراجعان بالتناوب في حين يصاحب المشاهدون الموسيقى بصيحاتهم وتصفيقهم .

وهناك رقصات تقلد اعمال الحرب مثلا ، حيث يتوفر لدينا لوح فخاري يبين رجلين يحمل كل واحد منهما عصا تذكرنا نوعا ما بمسطرة مطوية تنفتح على زاوية منفرجة .

ولم اتقبل الرأي القائل بان هذه كانت اسلحة خشبية لانه وان كانت هذه الآلهة تعزى في الغالب الى العراقيين ، الا انه لا يوجد برهان على انهم كانوا يمتلكونها .

والذى اعتقده ان هذه الادوات هي في الاحرى ما يعرف بعصي الرقص، والتي عثر على عدد كبير منها اثناء التنقيب في مصر . وقد ازدهرت هذه

(*) مدكتو Madaktu قيل عنها انها كانت بالقرب من سوسة

الادوات في مجاميع من حركات معقدة يمارسها الراقصون الذين يصادمونها سوية للتدليل على الايقاع .

واخيرا يبين لوح فخاري يرقى تأريخه الى عهد سلالة بابـل الاولى ، مشهدا عجيبا تمسك فيه امرأة عارية بنوع من قيثارة وتنتصب فوق كرسي عال ، في الوقت الذي يوجد فيه عند قدميها شخص ذكر يرتدي ثوبا قصيرا ويمارس ما قد يوصف بانه رقص روسي في الوقت الذى يقابل فيه نفسه مع صوت الطنبور .

ليست لدينا اية نواة لمعنى هـذا المشهد الذي قـد يمثـل اما رقصـة شعائرية ، او كاهنة تقوم بدور شريك راقص واننا نستطيع ان نستخلص من هذا ان بعض رقصات من هذه النوعية لابد وان كانت موجودة حقا .

يشير وجود الواح تظهر الشخوص في موقف ملاكمين الى ان الملاكمة كانت مثلما هي عليه الان ـ من المناظر الشائعة . ومع ذلك فلابد وان كان هنالك صراع مخجل يتكرر بحذر ، لان احد الالواح يبين رجلين يضربان طبلا كبيرا بجانب المتلاكمين في توقيت مع حركاتهما [متلاكمون وضاربـو الطبول والصنوج] .

واخيرا كان الاشوريون ، مثل المصريين والايجيين مغرمين جدا بالالعاب التي تشبه الالعاب العصرية التي قد يمارسها لاعب واحد او اكثر .

هناك طاقم جميل في متحف اللوفر وعدد من طواقم اخرى ، اكثر سبقا في تأريخها ، عثر عليها في القبور الملكية في اور . كانت محتويات احد القبور تتألف مما كان صاحب القبر يستعمله باستمرار على الارض ، في سبيل ان يوفر له راحاته المطلوبة في العالم الآخر ، وان التكرار الذى وجدت بـه هذه اللعب في اور ، دليل جلي على سعة انتشارها في بلاد الرافدين .

وقد نلخص اوقات فراغ احد ملوك آشور في الوقت الذى يصغى الى الموسيقى والرقص وألعاب الجلوس واقامة الولائم لنبلائه ٠

لدينا صورة عن واحدة من امثال هذه الولائم على منحوتة من خرسباد٠ فالنبلاء الذين اعدت لهم وجبة الطعام على موائد صغيرة تتسع الواحدة منها لاربعة اشخاص ، كانوا يلبسون الملابس الملائمة لطبقتهم ، ونعنى بذلك ثوبا ذا وشاح طويل مهدب يلتف حول ابدانهم ، وهم يجلسون على كراسي امام مائدة وضع عليها صحن غريب يشبه حزمة من عرانيس الذرة ، وهو يذكرنا بشكل طفيف بعذق من الموز لم يرسم جيدا ٠

لقد استقرت ايديهم اليسرى على ركبهم ، في حين رفعوا في وقت واحد بايديهم اليمنى كؤوسا على شكل رأس اسد وانهم يشربون ، على وجه الدقة ، نخب والي نعمتهم ، الملك ٠

والشيء الغريب في هذا المنظر ان كل الضيوف يجلسون على كراسي عالية ، واقدامهم على الارض اشبه بالناس في المشارب العصرية [ينبغي مقارنة هذا المشهد بالتطبيق الذي مر وصفه في الفصل الاول من هذا الكتاب] ٠

الصيد

كان كل ملك غيورا على الصيد ، وان ما كان في وقت من الاوقات واجبه كحام للقبيلة ، قد غدا لهوا غير مجرد من الخطر على الرغم من الاحتياطات التي كان يحاط بها والتي تكررت الى حد ممل على منحوتات عدد كبير من القصور ٠

ولم نجد الملك يصطاد الطيور وتلك رياضة لا تحتاج الى شيء ما سوى الدهاء ، ولذلك فان هذه جد تافهة بحيث تستحق الاهتمام ٠ غير ان اهالي آشور كانوا يحبونها ، فتراهم في بعض الاحيان يصوبون نحو الاهداف ، وفي

احيان اخرى يسددون سهامهم وقسيهم نحو الدراج .

ومع ذلك فهناك مشهد محير على منحوتة محفوظة في متحف اللوفر تبين اثنين من الصيادين يمارسان فنهما في احدى الغابات . ويقف أحدهما وهو حليق بشكل نظيف في مقدمة الصورة ، بينما يبدو على الثاني ، وهو ملتح ، بانه على بعدما ، لانه اصغر من الشخص الذي يقف في المقدمة ، والذى لا يمكن مع ذلك ان يكون هو الملك على الرغم من القياس الذى نحت به ، اذ ليست له لحية ولان ملبسه لايدل على الكبرياء.

والتفسير المحتمل للفرق في حجم الشخصين هو ان هذا الشخص لابد ان يكون احد الامراء ، وان لم يكن الاشوريون في هذه المنحوتة قد نجحوا في تحقيق المفهوم العصري للمنظور [انظر ما يرد في نهاية الفصل الثالث من هذا الكتاب] .

في الفترة بين عهد آشورناصربال وعهد آشوربانيبال ، اى من القرن التاسع الى القرن السابع قبل الميلاد ، لم يغير النحت الاشوري الا نادراً التمثيل المعتاد لصيد الحيوانات الوحشية ، وراح يتعقب النهج الثابت بانقياد.

ومع ان الملوك الآشوريين المتأخرين لم يمارسوا صيد الحيوانات الوحشية ، والذى اصبح فيما بعد الرياضة المفضلة لدى الساسانيين ، فقد بقيت السهول موطن الثيران الوحشية من الانواع الاصلية التي تعد اجداداً لقطعان الثيران المحلية وكذلك ثيران المصارعة الاسبانية (ثيران الغانديراس Ganderias) وكذلك القطعان الهائلة من الحمر الوحشية التي كانت تزود بلاد الرافدين بحيوانات الجر ، قبل ان يتم تدجين الخيل .

كان الملك يطارد الحمر الوحشية على ظهر جواد ، وبعد ان يطعنها بسهامه يقتلها بقوسه او رمح الصيد الذي يحمله ، او يرغم احد الصغار منها احياناً على الجري بجانب عربته ثم يمسك به حياً .

وكانت الماعز الوحشية ايضا تصاد وتمسك • فنحن نرى منظر الصيد امامنا • فالمطاردون يطلقون كلابهم الوحشية الضخمة ، الشرسة مثل طريدتها ، وقد حملوا عصيهم واوتدتهم على اكتافهم ، تعقبهم بغال تحمل مؤنا اخرى وذلك لاكمال الحلقة التي لن تستطيع الحيوانات ان تفر منها •

لقد صور هذا النوع من الصيد على اختام اسطوانية من سوسة مؤرخة من حوالى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد •

غير ان الصيد بالمعنى الحقيقي للكلمة هو صيد الاسود • فكما سبق لنا ان ذكرنا في الصفحات الاول من بداية كتابنا هذا ، كانت الاسود من نوع اصغر من تلك الموجودة في شمال افريقيا لكنها خطرة مع ذلك ، ما تزال موجودة باعداد كبيرة في بلاد الرافدين في عهد الملوك الآشوريين المتأخرين، وكانت توفر للملوك رياضتهم المحببة •

وفضلا عن ذلك كان ملك آشور يستورد اسودا غريبة حقا ، ذكوراً واناثا من افريقيا ، ويضعها في ساحات اللعب حيث تظل تعيش فيها بسلام الى اليوم الذي تموت فيه ، بين غابة ذات اشجار منوعة وكروم رخية والآن علينا ان نتصور يوم الصيد •

فالمطاردون الذين لم تتغير مهمتهم طيلة قرون ، يسوقون الطرائد نحو الصيادين ، في حين يمسك خدم آخرون بالاسود في ساحات اللعب ويضعونها في اقفاص وراء اعمدة خشبية سميكة ، ينتصب فوقها على ارتفاع مأمون ، خادم في قبه صغيرة مهمته رفع الباب واطلاق الطريدة فالاسود التي جننتها هجمات كلاب الصيد وضربات الضاربين تغدو متشوقة للقتال • ويتعقبها الملك في عربته وقد جلس سائقه الى جنبه ووقف حارس قريبا منه ، وقد نشبت فيها سهامه : على ان المنحوتة لم تبين بالتفصيل مدى مقتلها •

وكانت الاسود كثيرة الى درجة ان الارض سرعان ما تغطى باجسامها •

والكثير منها ميت حقا ، لكن لدينا بعض المنحوتات المحفوظة الان في المتحف البريطاني ، تصور الحيوانات في حشرجة الموت ، فنحن نرى أسدا ذا لبدة طويلة وقد نفذ السهم عبر رئتيه فاقعى وتدلى رأسه وهو ينفث الدم . وهناك محوتة اوسع شهرة تبين لبوة جريحة شل طرفاها الخلفيان بضربة سهم في الخاصرة . واذ راحت تتحرك دون جدوى فقد كورت نفسها على مقدميها في آخر محاولة لكي تسحب نفسها ولتنتقم من الصياد وتهدده حتى في لحظة مماتهـا .

غير ان الاسد في بعض الاحيان لا يصاب بجرح مميت ولذلك يهاجم مطارده هائجا . واذ ذاك تنطلق الخيول بالعربات ويتلقى الملك ، ورمحه في يده . هجمة الحيوان ، فينفذ رمحه فيه .

وفي بعض الاحيان يهرع زميله لمساعدته في الاجهاز نهائيا على الحيوان حيث تتطلب الحاجة حقا جهود رجلين لمقاومة مثل هذا العدو الهائل .

ومع ذلك ففي مناسبات اخرى يقاتل الملك راجلا ، وان الصور التي نحتفظ بها عن هذه العملية قد تجعلنا نشك في صحتها . فما ان يثب الاسد ليوجه ضربته الى رأس الصياد ، يمسك الملك بلبدته ثم يغرس سيفه في بدنه.

لقد وجد هذا الموضوع ملائما بشكل واضح ، وقد استعمل في عهد آشوربانيبال ، وكان ملك فارس في قصور الاخمينيين مثلا نفسه في الغالب في مثل هذا الموقف .

وهكذا نجد ان الحيوان في مشهد صراع مع جبار خرافي يرمز الى الصراع بين الخير والشر ، يثب امام الملك ، في حين يمسك الاخير . على الرغم من المخالب التي تمزق لحمه ، بالمهاجم عن قرنه ويعالجه بضربة من سيفه . وهكذا يستمر الصيد الى نهايته ويستطيع الملك ان يحصي حصيلة اليوم

بشكل مرض ، بينا تقوم فرق الخدم برفع وجمع الاسود الميتة من الارض التي طرحت عليها .

يصور المشهد كله مزيجا من الصدق والكذب في فن بلاد الرافدين . وهكذا وان كان الملك في مثل هذا التأريخ لم يصور على نطاق اكبر من رعايا، الا ان قوته الفائقة واهميته ظاهرة في كل مكان . فهو يقاتل الاسد في قتال متعادل ولا يجد مشقة في ذبحه ، في حين يستحيل الاسد نفسه الى مجرد حيوان للّعب يستطيع الملك ان يمسك به ، ويرفعه من لبدته لكي يتلقى الضربة القاتلة .

اننا لنتذكر كيف ان غلغامش ، ابن الآلهة ، قد امسك بثور وحشي من ساقه الخلفية ، ورفعه في الهواء ودق عنقه بضربة من كعبه .

ولكن ما ان انتهى الصراع حتى عدنا الى العالم الحقيقي مرة اخرى واحتجنا الى جملة من الرجال لحمل كل واحدة من ضحايا رياضة ذلك اليوم.

على ان هذا ليس هو نهاية الصيد . فبالنسبة الى التفكير الآشوري من الممكن ان يكون الاسد اكثر خطرا وهو ميت منه حيا ، لان روحه الحنقة قد تتعقب الصياد وتنتقم لميتة الضحية .

وعلى هذا فان العمل النهائي الذي ينبغي للملك ان يقوم به وهو محاط بحاشيته ، ان يقترب من الحيوانات الميتة ويصب عليها الماء المقدس تكفيرا واستغفارا عن الاذى الذي سببه لها .

ولقد دون الكاتب وكأنه يصدر عن فم الملك النص الكامل للشعائر الدينية ، بشكل معتنى به كيما يصف الحصيلة الظافرة للصيد ، للآلهة القيمة على الملك .

كان افراد البلاط . وفيهم كثير ممن يتقلدون مناصب كبيرة او صغيرة لخدمة الملك مباشرة او لخدمة عائلته ، هم ذوو الامتيازات الذين كــانوا يحضرون معه مختلف هذه المناسبات .

وقد يشتمل هؤلاء على حكام المحافظات وكبار الضباط في مثل هــذه المناسبات عندما لا يكونون في محافظتهم ، وكذلك الموظفون المسؤولون عن ادارة المزارع الملكية ، والمحاسبون ، ورؤساء سقاة المدام ، ورؤساء الحرس، ورئيس الاصطبلات ، ورئيس المطابخ ، ورئيس الخيل . ورئيس الموسيقى، وغيرهم من الضباط والكهنة ذوي الرتب العالية .

وكان اهم طبقات الموظفين رفعة هو الوزير الاكبر ، الذي يكون فــي الغالب اقرب قريب للملك ، والذي يمجده ويمكنه من مراقبة اعماله بيســر أكثر . حتى لو انه كان يدير ولاية شاسعة .

فهو سيد الخزينة . والمسؤول سوية عن تلبية حاجيات البلاط والقطر ، وكذلك المسؤول عن جمع الضرائب التي كانت تفرض من قبل جامعي الضريبة وتأخذ صفة مدفوعات عينية كالشعر والصوف والخشب والخيول والدواجن، ولو ان هذه الضرائب كان ينبغي دفعها بالفضة في بعض الاحيان .

وعلى هذا الاساس نجد مدنا مثل « ارباد » و « كوي » « ومجدو »(*) تفرض عليها ضريبة بمقدار ثلاثين وخمسة عشر طالين من الفضــة بالتعاقب ، في حين تقدر الضريبة المفروضة على قرقميش بمائة طالين من الذهب . ولو اننا لا نعرف مدى الوقت الذي تجري فيه هذه المدفوعات .

(*) مدينة ارباد Arpad عاصمة الاقليم القديم « بت اغوسي » الذي يقع جنوبي غربي مملكة الحثيين . اما كوى فهو اقليم صغير كان يقع على خليج الاسكندرونة ، والى الشمال الغربي من اقليم بت اغوسي .

وبالاضافة الى الضريبة المباشرة ، واهمال اولئك الذين كانوا ينتفعون وفقا لنظام الالتزام (الذى كان موجودا في اوائل الالف الثاني قبل الميلاد ، وبزمن طويل قبل ان يظهر النظام الاقطاعي) والذي يوفر اعفاءات معينة ، فان نظام العمل الاجباري لخدمة الملك كان مطبقا •

كانت امكانية شراء الاعفاء من هذه الضريبة تختلف نسبيا بالنظر الى نجاح الحملات العسكرية ووفرة او ندرة العمال الاجانب •

ولكن حين توسعت مناهج البناء الملكية ، ازداد الطلبات على العمل ، وكانت نتيجة ذلك ان نبوخذنصر الذي وضع خططا للبناء مثل فتوحاته التى كان يتصورها على نطاق واسع ، وجد نفسه مضطرا الى ان يصادر خدمات رعاياه الخاصين به لتنفيذ مخططاته •

كان على كل افراد البلاط ان يدفعوا الضرائب • وكان الدفع يأخذ عادة صفة طعام ولو ان الملابس والفضة كانت تدفع في بعض الاحيان ايضا •

تتوفر لدينا القائمة التالية عن المرتبات التي كان يتقاضاها بعض الموظفين اثناء حكم سلالة سرجون والتي تلقي ضوءا كاشفا على الاوضـاع النسبية لدوائرهم •

المنصب	مينا من الفضة	ملابس من نوع فاخر	ملابس من نوع عادي
رئيس اركان الجيش	١٠	٥	٥
الوزير الاول	٦	٣	٢
رئيس القضـاة	٣	٣	•
وزير اصغـر	٣	٣	•
رئيس السـقاة	٤	٣	٣
رئيس حجاب القصر	٥	٣	٢
مفتش القصر	١	١	•

نستطيع ان نرى من هذه القائمة ان رئيس اركان الجيش الذي يسمى « تورتان » يتمتع بمنصب فريد في اهميته ، وذلك هو الشيء الوحيد المتوقع في دولة تتطلع الى الحرب باعتبارها المصدر الرئيس للايرادات ، في حين نجد من الناحية الاخرى ان رئيس القضاة كان يتناول مرتبا اقل من مرتب رئيس سقاة المدام ، ورئيس حجاب القصر .

وعلى الرغم من حقيقة ان الملك كان يتحسب الخوف بان امثال تلك التمائم الخاصة التي اعدت لكي تضمن الاستقبال الملائم عندما يكرم حاملها باستقباله من لدن الحضور ولو انه كان ممثلا دينويا للاله ، فأننا سنرى بانه كان ابعد عن ممارسة السلطة المطلقة في كل الاحوال ، وان افراد حاشيته لن يترددوا في اخباره بالحقيقة (انظر ما سيرد عن العلوم في الفصل الثالث من هذا الكتاب)

ادارة الدولة ، الدبلوماسية

كان الملك من الوجهة النظرية على الاقل • هو الذي ، يشرع القوانين، ويثبت التقويم ، والضرائب ، ويتخذ القرارات بشأن الحرب والسلم ، وان العمل الاولي يتم من الوجهة التطبيقية من قبل موظفي البلاط بمساعدة جيش من الكتبة •

وكان في تصريفه الشؤون من يوم الى يوم ، يتلقى نصح اقربائه حين يتم عقد اجتماع عال ، ومن بعض افراد البلاط الذين كانوا يؤلفون معا نوعا من مجلس ، وذلك نظام تطور في البلاط الحثي تطورا أرفع بكثير من البلاط الآشوري •

ومن المحتمل ان يعزى اقتباس الآشوريين لهذا العرف الى تأثير الاتصالات الطويلة بين بلاد آشور والشعوب الاسيوية والاوربية الهندية• ويظهر ان مثل العرف لم يظهر بدرجة معادلة من الاهمية في بلاد بابل •

ومع ذلك فما عدا مظاهر حياة الملك التي فحصناها القيت على عاتقه تبعات اخرى ذات اهمية حيوية للامبراطورية ، ونعني بها الدبلوماسية والحرب •

لقد كان الملك يستقبل السفراء ، ودافعي الضرائب الذين تأتي اعداد كبيرة منهم من كل انحاء الامبراطورية الآشورية الحديثة • فالملك يجلس على عرشه المرتفع في غرفة استقبال كبرى في القصر وقد اقعى اسده المدجن عند قدميه واحاط به وزراؤه وافراد البلاط والحرس ، وهو يرتدي كامل اrديته الرسمية ، وهو يستقبل بكل مهابة سفراء الدول العظمى التي يستطيع مع حكامها ، الملوك العظام ان يعاملهم بحديث دبلوماسي بمثابة الاخوة •

وفي ذات الوقت عندما يقدم السفراء اوراق اعتمادهم ، فانهم يطرحون

عند اقدام الملك الهدايا الثمينة التي جلبوها له من الذهب والفضة والمعدات الثمينة ، او الاحجار الكريمة ، او يستعرضون امامه الخيول المختارة من بلدانهم وعلى الاخص العبيد المختارين او الحيوانات النادرة ، او النباتات .

وقد ينحنون كثيرا امام الملك لكنهم لا يركعون ولا ينكبون على وجوههم ، كما كان متوقعا القيام بذلك في البلاط المصري .

ولقد كان رسل البلدان الصغيرة حسب ، او العديد من دافعي الجزية الذين لا يعاملون مع بلاد آشور على قدم المساواة ، هم الذين يحظون من شأنهم . فلقد دونت في سجلات الوقائع الملكية حركات هذه السفارات بطريقة اسيء استعمالها بصفة متعمدة ، في حين كانت الحوافز الحقيقية ، كالتحالفات التجارية ، او نقل القوات بحثا عن التوازن في القوى ، تمر من دون اشارة ، او تتنكر في صفة ولاء .

هناك مثلا ملك تاء ، هو ملك ليديا راوده حلم ، في عهد حكم شوربانيبال ، بان يعرف عظمة الملك الآشوري ، وان يرسل اليه سفارة ، في حين كان الواقع البسيط يتطلب ايجاد جبهة مشتركة على عجل ضد « السميريين »(*) الذين كانوا يعيثون فسادا في شمالي بلاد آشور وفي جنوبي آسيا الصغرى .

ويحدث في احيان اخرى ايضا ، ان يطلب احد السفراء — بحثا عن السلامة — او يعرض يد ابنة ملكية للزواج .

ان معلوماتنا عن التقاليد التي استعملها الحثيون تضيء لنا الطريق عن الصيغ التي كانت تحكم الاتحادات بين بيتين ملكيين . فقد يكون كلا

(*) السميريون Cimmerian شعب قديم موطنه جزيرة القرم في البحر الاسود عبر جبال القوقاز في القرن الثامن قبل الميلاد وغزا القسم الشمالي من بلاد آشور والاجزاء الشمالية الغربية من بلاد ايران .

الملكين راغبين تماما في الزيجة لكن ايا منهما لم يظهر ادنى دلالة على نفاذ صبره • ولذلك يبدأ الصهر المنتظر بالرفض • ويتجدد الطلب بعد فترة مناسبة وتتناسب رفوض عديدة مع رفعة الغرض من التقارب واهميته • واخيرا تصل المفاوضات الى نهاية ، وتغادر العروس الى بلد زوجها تصحبها حاشية محتمة وتحمل معها الهدايا الثمينة •

تحتوى مجاميع النقود في كل انحاء اوربا على عدد من الاوسمة التي ضربت لتمجيد الزيجات الملكية وتخليدها ، حيث كان هذا الاجراء لايختلف الا قليلا عن البلاط المصري •

فمنذ اواسط الالف الثاني قبل الميلاد وما بعده ، وعندما كان فراعنة الاسرة الثامنة عشرة الحاكمة قد تزوجوا باميرات ميتينيات في سبيل ضمان الحصول على حلفاء لهم في سوريا العليا ، صنعوا لهم جعلان منحوته لتخليد هذا الحادث •

استقبال دافعي الضرائب

الموضوع الثاني الذي حوته المنحوتات الناتئة هو استقبال دافعي الضرائب والذي قصد به اخافة الزائرين الذين يكونون في حضرة الملك•

فالملك وهو يرتدي كامل ثيابه الرسمية يشاهد واقفا او جالسا ويمسك بعصا طويلة هي شعار رتبته • ومن خلفه يتجمع حملة سيفه واسلحته ومراوحه ، وأمامه كفلاء السفراء أو دافعو الضرائب الذين يحملون الهدايا او الجزية من امثال الاواني المصنوعة من المعادن الثمينة والمزينة بالنقوش الفاخرة ، والمصنوعات ، وقضبان من الابنوس او المجوهرات ، او في بعض الاحيان صناديق مجوهرات مصنوعة على شكل غابات صغيرة وبذلك يرمزون الى هدية مدينتهم الى ملك آشور • ويحدث في بعض الاحيان ان

يجلب الرسل معهم ، عربات وخيولا • وتتناثر هنا وهناك سطور موجزة النص وصفي •

جزية من ارز لبنــان

تسجل منحوتات خرسباد احدى الحملات المتوسطة في صفتها بين الهبات التي يجلبها دافعوا الجزية ، والعمليات العسكرية الكبرى التي سنأتي على وصفها فيما بعد •

وكانت هذه تمثل نقل حمولة من الخشب بطريق المـاء ، ومع اننـا لا نعرف اهميتها على وجه الدقة ، فاننا لسنا في شك من اهميتها ، ما دامت كل دقائق الزينة في خرسباد ، قد صممت للتأكيد على عظمة الملك ، فاننـا نستطيع ان نستخلص بصدق ان وصول هذه الحمولة لابد وان كانت حدثا مهما عادة • ولابد لنا ان تتذكر ان بناء القصر كان بحد ذاته حدثا ذا اهمية كبيرة •

من بين المواد المطلوبة كان الطين يتم توفيره في موقع البناء ، في حين كان الحجر ، الذي لم يستعمله المعماريون الا بصفة محددة ، بالقياس الى الوضع في الجنوب ، متوفرا تماماً •

اما الخشب فقد كان نادرا ومع ان انواع من الخشب التي تنمو في الشمال يمكن جلبها مثل الحجر الى موقع البناء ، الا انها لا توفـر السقوف الكافية لتغطية الغرف المصممة •

فقـد كانت اشجار الصنوبر او بصفـة خاصة اشـجار الارز التي كانت تؤلف الثروة الطبيعية لسوريا ، تؤلف المصدر الوحيد للاعمدة من الحجوم المطلوبة ، ولذلك كانت مطالب الاقدمين الشرهة في الواقع ، تنتهي بتجريد لبنان وجبال لبنان من احتياطيهـا من الاخشـاب ، بحيث اصبحت

اشجار الارز في هذه الايام يمكن تعدادها باحاد وازواج ، في حين ان الباقي منها مدين بنجاته الى انتقاله الى بعض البقع النادرة .

لقد كان المصريون يرسلون الحملات باستمرار الى سوريا للحصول على اشجار الارز ، التي كانوا يستعملونها معا في صنع الاشرعـة لسفنهم ، وصنع صناديق المومياء ، في حين كان العصير الذي يطلق عليه اسم « دم الارز » ذا شهرة عالية .

لقد كان امرا طبيعيا بالنسبة الى سرجون ان يتجه الى سوريا للحصول على الخشب الذي كان يحتاج اليه ، وسواء كان اراده كجزية ، او بسبب مشاكل النقل الجسيمة ، فان الشيء الواقع هو ان الحملة كانت تعتبر ذات اهمية كافية تستحق التدوين بشكل ثابت .

تبين المنحوتة الاولى فرق العمال المسخرين الذين يرتـدون جـلاليب قصيرة ويحملون حزما طويلة تتدلى على حبال من فوق اكتافهم ، وهـم يهبطون من جبل تشاهد منحدراته ظاهرة بصفة مباشرة الى جانبهم . فهذا المنظر يمثل نقل اخشاب الارز من الجبال الى الساحل .

اما المنحوتة الثانية فتبين اخشاباً محملة على زوارق ذات مقادم وكواثل قوية ورسوم رؤوس حيوانية .

والمنحوتة الثالثة في المجموعة اعظمها اهمية [اللوح ١٥] . فهي تبين عمارة بحرية في مسيرتها . فالزوارق التي جهزت بمجاديف طويلة تمخـر في خط الى امام ، وقد صورت حمولة الخشب بشكل ملائم وكأنها تستقر على المقادم والكواثل في الوقت الذى تم فيه ربط المزيد من الخشب بالحبال.
وفي وسط الامواج التي مثلت بشكل مكثف من خطوط متموجـة، نستطيع ان نرى تشكيله من اسماك وجمبرى واصداف ، سوية مع آلـه البحر الذي له بدن شيخ البحر، وجنى صالح يصحب الحملة في صفة ثور مجنح.

وفي حوالى النصف من المنحوتة توجد جزيرة منبسطة جدا عليها حصن، واعلى منها قليلا حيث نتوقع ان نجد الساحل ، ينتصب حصن ثان علـى ارتفاع ملموس .

انني اقرر ان هذه المنحوتة قد قصد بها ان تكون لمسة لون محلي ، وانها تمثل منظرا حقيقيا ، واذا ما كنت مصيبا في هذا ، فان علينا ان نتطلع الى بعض المواقع في فنيقيا التي توجد فيها جزيرة بمستوى الماء على مسافة من الساحل ، ويقوم فيها حصن فوق تل عند حافة الماء .

هناك موقع واحد ، وواحد حسب يفي بهذه الشروط ونعني به مدينة صيدا والتي كان بناء الاكروبولس فيها يقوم في الموقع الذى تقوم فيـه قلعة سان لويس المخربة ، في حين كانت الجزيرة الصخرية والمستوية والمنبسطة في ذات الوقت تؤلف موقع الحصن .

لقد كانت هذه الجزيرة هي التي كان ملك صيدا يلتجىء اليها في جهوده للخلاص من ملك آشور ، مثل سمكة في وسط البحر .

اما الصدفة التي رسمتها المنحوتة في وسط الامواج فان لها اهمية خاصة، لان فينيقيا كانت موطن الصبغ الارجواني الشهير ، وكانت صيدا احدى المدن المتخصصة كلية بهذه الصناعة . وكان الساحل على كلا جانبي المدينة يرتفع في شكل كهوف ظاهرة مؤلفة من الاصداف التي كانت ترمى بعد استعمالها .

اما المجموعة الرابعة فانها مناقضة للاولى وهي تبين اخشابا غير محملة ثم نقلها في طريق جبلي .

ويمكن تلخيص معنى المجموعة كلها بالقول ان الارز كان يقطع فوق الجبل وينقل في ارسالية عبر الطريق الساحلي لفينيقيا كلها حيث يتم تفريغه في الشمال ثم ينقل باقصر طريق ممكن ليصل الى الانهار وبذلك يتم نقلـه الى نينوى [هناك صورة تمثل نقل حمولة من الاخشاب من لبنان ارسالية من صيدا] .

وآخر مهام الملك ، وليس اقلها ،هي الحملات العسكرية . وقد صورت مظاهرها الرئيسة على منحوتات ناتئة ، في حين صورت المظاهر التي هي اكثر تفصيلا على نطاق اصغر ، مثال ذلك الصفائح البرنزية التي تشبه تلك التي يرقى تأريخها الى عهد الملك شلمانصر الثالث ، والتي عثر عليها في قرية بلاوات الصغيرة العديمة الاهمية ، والتي جلبت اليها لسبب غير واضح ، لانه لايمكن ان يوجد اي قصر هناك(٢٤) .

ولقد ثبتت الصفائح بمسامير لها رؤوس وريدات على الواح خشبية لباب كبيرة مزدوجة . ومعظم هذه الصفائح محفوظة في المتحف البريطاني ، في حين قسمت بقيتها بـين متحف اللوفـر ، ومجموعـــة دي كلرك ومتحف اسـطنبول .

تحت امرة الآلـــه

نستطيع ان نعيد تشكيل الحروب التي خاضها الملوك الآشوريون بدقة تامة وذلك بمساعدة هذه السلسلة المتغيرة من الوثائق وتسجيلات المعارك .

ولابد لنا ان ندهش من حقيقة ان الباعث الواقعي لاثارة الحرب غـير مقبول به صراحة . وعلى هذا فلا يوجد هناك ادنى شك ، مثلما هو الامر في الوقت الحاضر ، بان هذه البواعث كانت اقتصادية في الدرجة الاولى ، وان ما حرض عليها اما الحاجة الى التوسع ، او بسبب المداخل التي يبدو عليهـا بانها قد اغلقت فيما اعتبر بانه اتجاه حيوي .

---

(٢٤) غير ان البروفسور ملوان الذي زار المنطقة مؤخرا (ربيع ١٩٥٢) قد لاحظ ربوة كبيرة هناك ، ربما تخفي تحتها احد القصور . اما المحل الذي نقلت منه الابواب البرنزية فما يزال غير محدد .

غير ان مثل هذا لم يتم توضيحه صراحة . وعندما كان الملك يعلـــن الحرب على بلد مجاور فانه انما يفعل ذلك اطاعة لاوامر الآله آشور ، اما لان الآله يأمره بذلك ، او لان المعاهدات المودعة تحت حماية الآله لم تعد محترمة حقــا .

ويمثل الملك في الحملات العسكرية دور نائب للاله . فهو قائده وبطله المختــار .

وكمــا نعلم ذلك جيدا كــانت الاسباب ، من الاثارة وخــرق المعاهدات والتهديد بالتطويق ، لاعلان الحرب هي نفس ما عليــه اليوم حيث حلت العوامل الفكرية محل ارادة الآله آشور .

وغاالبا ما تحتوي ديباجة سجل احدى المعارك على بيان بان هذه الحرب قد شنت بامر من الآله . ولكن كان يحتاج الى المزيد من ذلــك لان اليــوم يجب ان يكون ملائما لشن الحرب ، وفي هذه المناسبة ينبغي لنا ان نلاحظ باهتمام ، ولو بدهشة ، ان الوقت الملائم يتجاوب بشــكل ملموس مع مايعتبره رجال التعبئة ، الفصل الملائم بصفة اكثر ، اي الملاءمة مع معظم الاحــوال الارضية الصالحة وافضل التطلعات الى الاحتفاظ بجيش مجهز عبر خطوط مواصلاته .

الجيش

كان الجيش الآشوري الملكي يعتمد على التجنيد الذي لم يكن يفرض على كل اصحاب التزام الاراضي حسب وانما كل الملائمين من رجال القتال الذين كانت تجبر القرى على تهيئتهم في صفة ضريبة .

كذلك كان الجيش يضم القوات المتطوعة التــي تتصف بالتشــوق الى اعمال النهب ، والاستعداد للهجوم بنفس الاستعداد للهرب تماما .

لقد كانت هذه القوات تسلح تسليحا خفيفا اذا ما قورنت مع القوات

الضاربة ، وكانت مهمتها الخاصة ، ان تتغلغل عبر صفوف العدو لتحول التردد الى هزيمة ، ومن ثم تنقض على معسكر العدو لنهبه ٠

وتتألف القوات الضاربة من وحدات مختلفة الاشكال فهناك اولا « الكردو Qurrdu » او الوحدات القوية التي يمكن ان توصف بانها الحرس الخاص المؤلف من محاربين وقتيين مسؤولين عن سلامة الملك الشخصية ، ويعدون من الناس الذين يعتمد عليهم تماما ٠

اما قوة الجيش المقاتلة ، ما عدا الاسلحة التي تحملها القوى المتطوعة المزودة باسلحة خفيفة ، والتي لا تتوفر فيها الدروع الدفاعية ، والتي تتكون اسلحتها الهجومية من مجرد الهراوات والمقاليع ، ان هذه القوة تعتمد على رماة النبال والرماحين الراكبين ، والمهندسين والمدفعية ٠

وكان المشاة الراكبون يستخدمون من كانوا يبلغون مناصبهم المعينة وكذلك حملة الرماح المزودين برماح طويلة خفيفة ، وفؤوسا كبيرة للقيام بعمليات التقويض او لمجابهة اضرابهم من قوات العدو ، وكذلك رجال المدفعية الذين يقومون بتشغيل الآلات المصممة لاحداث ثغرات في الاسوار المقابلة (هناك صورة تمثل كل هذه الاصناف) ٠

ونرى على المنحوتات التي تصور المعارك ، الجنود الملتحين وحليقي الوجوه الذين ينهضون بمهام مميزة بصفة حيوية ٠ وهذا دليل آخر على خطأ الرأي القديم القائل بان الاشخاص حليقي اللحى انما كانوا يمثلون الخصايا ، والواقع انهم كانوا يمثلون مجرد الشبان من الرجال (فتيان الاغريق) ، على خلاف المحاربين الملتحين وكان التمييز قائما بين القوات الاعتيادية والاحتياطية٠

وفي العصر الآشوري الحديث بلغت الملابس التي كان الجنود يرتدونها اعلى نقطة من التأثير ، وقد استبدلت الملابس الطويلة المغلقة التي عرفت في عصر آشوربانيبال بثوب قصير يصل الى ما تحت الفخذ ، والذي يدع

الذراعين نصف عاريتين •

ولم يعد الجنود حفاة ، وانما كانوا يلبسون احذية عالية في حين كانوا يلبسون الخوذ في رؤوسهم والتي ما يزال شكلها حيا الى اليوم في الدروع الهندية المحلية والتى تثبت تماما حول الرأس وترتفع في صفة مخروط الى نقطة حادة •

وكانت الاحذية المزررة تقي أقدام الجنود من الارض الوعرة ، وتمنع الكدمات ، في حين صمم شكل الخوذة بحيث تنحرف النبال عنها دون ان تحدث ضررا جديا • ففي بعض الاحيان تستبدل الخوذة بقبعة ملائمة لجمجمة الرأس تبرز منها قطع للوجنات ، او بالاحرى الخوذة التي يلبسها الطيارون •

وتتألف حماية الجسم الرئيسة من ترس طويل غير متقن الصنع بقدر حجم الانسان له موخرة منحنية كيما تؤلف نوعا من وقاء • والواضح انّ هذا الترس كان يصنع من حزم مضفورة ومبطنة من صفصاف السلال المشدودة شدا وثيقاً ، وان الغرض من هذا الوقاء هو حماية رامي السهام من النبال المطلقة التي قد تسقط بصفة عمودية غالبا •

ومما تجدر الاشارة اليه هو ان هذا الوقاء قد تقلص نتيجة عدم أمكانية سحبه ، لانه كان يحتاج الى من يحمله •

كان سلاح الهجوم المعتاد هو السهم • وكان هذا منحنيا ومن حجم متوسط • وغالبا ما تشير التمحيصات الوثيقة للمنحوتات الناتئة الى ان يد رامي السهام قد امتدت الى ما وراء رأسه حين يسحب قوسيه ، لإن وتر القوس المتوتر يمكن ان يشاهد بجلاء امام رأس رامي السهم ، لكنه يختفي في النقطة التي ينبغي ان يكون ظاهرا بها امام وجهه •

ان هذا من شأنه ان يمثل حركة بدنية مستحيلة تقريبا ، وان التفسير

الحقيقي لذلك هو ملاءمة فنية بسيطة لان الوتر لايمكن اظهاره لانه يبدو مصيبا في المكان الذي ينبغي ان يكون فيه حقا ، واذا ما نظر الى يدي رامي السهم فاننا نرى انهما تماما في الموضع الذي نتوقع ان نجدهما فيه .

كان رماة السهام يركبون الخيول احيانا ، وفي مثل هذه الاحوال كانوا يطلقون سهامهم عندما تكون خيولهم ما تزال واقفة ، او حين يترجلون منها

وكان الخيالة من الناحية الاخرى يسلحون برماح من اطوال معتدلة ، ويقاتلون وهم على ظهور الخيل فعلا وكان حملة السهام والرماح معا يزودون بخنجر قصير مسطح الحد ، يغرسونه في احزمتهم في حين تكون تروسهم محدبة باستمرار بحيث تنطلق النبال بعيدا عنهم دون أن يصابوا بضرر .

ويتدرع الخيالة ورماة السهام في بعض الاحيان فوق الاجزاء العليا من ابدانهم ، بدروع من الكتان او الجلد مخاطة بصفائح معدنية تسمح في بعض الاحيان بحرية الحركة وتوفر الوقاية . وهذا النوع من الدروع كان مستعملا بصفة عامة في اوربا في اواخر العصور الوسطى عندما كانت تسمى بالدروع المزردة . اما الخيالة فانهم ، وان لم تكن لديهم ركائب للسروج ، الا انهم لا يركبون الخيل عارية ، وانما كانوا يمتطونها فوق سروج مجللة لينة .

وفي منتصف الطريق فعلا بين الخيالة ورماة السهام ، تأتي العربات التي يسحب الواحدة منها حصانان او بالاحرى اكثر من ذلك ، اذا كان المسافرون ذوي اهمية كافية .

ومع ذلك فان قيمة العربة من وجهة النظر العسكرية تبدو محدودة ، لانها تتطلب ـ ما عدا الرجل الذي يطلق السهام منها ـ سائقا ، وشخصين آخرين يحملان تروسا مدورة لحماية الشخصين الفعالين . ولما كانت مقدمة العربة ذات هيكل صلب فانها لا تستطيع أن تغير الاتجاه بشكل حاد حين

تقترب من احدى العقبات ، وان المداورة المعاكسة الصحيحة هي مداورة المصارع عندما يواجهه ثور ، اي ان يخطو جانبا ويدعه يمضي من دون اذى •

وغالبا ما يتم تصوير العسكريين الخبراء بالالغام ، والذين كانوا يلعبون دورا مهما جدا في حروب الحصار ، وهم يلبسون خوذا من ذات الشكل الذي كان المحاربون الاغريق يلبسونها ، والتي تشبه تماما الخوذ التي يلبسها رجال الاطفاء الفرنسيون في الوقت الحاضر بل حتى الفرسان الفرنسيون المدرعون في الايام الاخيرة نسبيا ، والتي لها علاقتها بالماضي السحيق جدا •

لقد كانت مهمة هؤلاء اللغامين تقويض الحصون وفتح فجوات فيها للهجوم • وتتألف طريقتهم من فتح حفر كبيرة بشكل واق بفعل الاخشاب تحت سوراو برج ومن ثم تغليف الحفر باخشاب خفيفة لكيلا يتداعى السور في تلك الحفرة• وفي الوقت ذاته يبذل ساكنو المدينة المحاصرة ، جهودا مساوية لدرء الالغام المقابلة وذلك بحفر فجوة تحت فجوة خصومهم لكي يحولوا دون اي تقدم اخر في الالغام •

ففي مدينة دورا يوروبوس على نهر الفرات ، والتي كانت تخضع في عصرها لتدمر ، واحتلها الرومان مؤخرا ، كشفت التنقيبات عن آثار خفية لصراع كبير بين الرومان والفرس باسلحة المدافعين والمهاجمين التي تحطمت نتيجة انهيار الاسوار •

وكانت المدفعية المعاصرة تتألف من اسلحة الحصار التي لم تتغير صفتها تقريبا حتى اختراع الاسلحة النارية • فكانت احدى الآلات تتألف من منصة على عجلات تجعل المهاجمين في مستوى السور ومجابهته بذات الاساليب الاعتيادية للمعركة العادية فوق الارض •

وهناك آلة اخرى كانت تغطى بالجلد وترش بالماء باستمرار لتمنعها من

الاشتعال بفعل حبل متقد ومشاعل كانت تلقى عليها من قبل المدافعين ، وتحمى القوات التي كانت تحرك كبشا لهدم الاسوار يتألف من عمود طويل وثقيل يغوص تحت البناء العالي ويتقدم الى الخلف والى الامام .

لقد كانت القوة الضاربة تستطيع ان تحدث دمارا حقيقياً شديدا جدا في اسوار الحصون التي وجدت في ذلك العصر . وكان المدافعون يردون على هذه الهجمات بالطريقة التقليدية ، اي أن يحاولوا الاستيلاء على الكبش الخشبي بالحبال والسلاسل وبذلك يبطلون عمله .

لايتحرك الجيش الىالقتال الا فيالاشهر التي يقول قراء الطالع واصحاب الفأل بانها ملائمة للحملات العسكرية . لقد كان الملك هو رئيس اركان الجيش في واقع الامر . لكنه ادا اختار ان لا يمارس القيادة ، يتولاها في مكانه القائد العام او « التورتون » . وعندما يتحرك الجيش يسير الاقوياء من الرجال « كردو » الى جانب الملك .

وتشير شواهد المنحونات الناتئة الى انقوات الحرس كانت هي القوات الوحيدة المدربة تدريبا صحيحا ، والتى تسير بخطى متئدة وتحافظ على النظام الصالح للاصناف .

ففي مؤخرة ارتال العربات تأتي آلات الحصار الا اذا كانت قد رسمت في الواقع في مشهد حقيقي لعمليات حسبما تتطلب ذلك الاحوال الخاصة . فحين الوصول الى احد الانهار تعبر العربات وشاحنات الامتعة اما على جسر من الزوارق او على طوف خفيف ، بينا نسبح الخيول والرجال سوية ، ويستعمل الرجال جلود اغنام منفوخة يضعونها بين سيقانهم ويجدفون باذرعهم .

المعسكر

تستريح القوات خلال فترة توقف قصيرة ، اما اذا ما اضطرت الى اطالة

الاستراحة لسبب ما ، فعندئذ لابد من بناء معسكر محصن

ويكون هذا المعسكر عادة دائريا معززاً بالابراج • وتبنى الخيام في الوسط • وكانت الخيمة الملكية اكثرها اتقانا ، وهي تغطى ـ مثل عربة الاطفال الحديثة ـ بسرادق متنقل مواجه تجاه الريح او الشمس •

وكانت الخيام التي يستعملها بقية افراد الجيش او الضباط على الاقل، مشابهة كثيرا للخيام المستعملة في الوقت الحاضر ، فهي على شكل مدور • ولها ركيزة وسطية لوضع العمود فيها •

وكانت المطابخ تزود دوما ، وتبين بعض المنحوتات جنودا منهمكين في اداء انواع من المهام ، فاحدهم يسلخ شاة والاخر يوقد النار ويروح لها بما يشبه راية صغيرة ، وثالث يراقب طاوة واسعة •

وهناك جنود اخرون قد ينشغلون بحس الخيول التي كانت تترك في العراء اثناء الليل عادة ، وعلى الاقل عندما يكون الجو حارا • وقد كشفت التنقيبات عن حلقات لربط الخيول مثبتة في جدران ابنية خارجية في باحات قصر كبير ، او مثبتة في الارض احيانا •

لسنا بحاجة الى الافاضة في تفاصيل احدى عمليات الحصار • وذلك ان فعاليات اللغامين واكباش هدم الاسوار ، كان يتبعها ضرب حصار مغلق حسب الاستطاعة ، وذلك بهدف تجويع الحامية المدافعة اما الجواسيس او اي شخص قد يحاول ان يتخذ طريقه عبر الحصار ، فكانت تقطع اعناقهم ، ويستعرضون فوق الاسوار ، ولاثارة الخوف في نفوس المدافعين •

اعمال النهب

كان الاستيلاء على قلعة معادية ، او دخول الملك الآشوري عبر فتحة في الاسوار ، انذارا بنهب المدينة • فالشرفات التي يطلق منها الزيت المغلي ، والنفط الملتهب ، وصواريخ الاحجار ، سرعان ما يتم تقويضها ، وتجرد غرف

القصر وبيوته من محتوياتها وتشعل فيها النيران دون مقاومة .

وحين يرى السكان ان المقاومة توشك ان تنتهي غالبا ما يخبئون ممتلكاتهم الثمينة ، ولو ان الكثير منهم موقنون بانهم لن يستعيدوها ابداً .

وبمرور الزمن تظهر بعض هذه الكنوز للنور ، وما يزال هذا شأنها حتى اليوم ، حين تجد الاشياء سبيلها الى المتاحف . اما الكنوز الاخرى فانها تضيع الى الابد . ولا يدخر الجشع الآشوري لا ذهبا ولا فضة .

وينصب عرش الملك امام ابواب المدينة ، ويتم استعراض الاسرى امامه يقودهم ملك المدينة المستسلمة الذي يتحمل اعظم تعذيب مبرح ، كأن تقلع عيناه ، او ان يحصر في قفص ، الى ان يأمر ملك آشور بوضع نهاية لآلامه الطويلة . [هناك صورة تمثل سنحاريب على عرشه أمام أبواب مدينة لاكش].

لقد امر سرجون باحراق ملك دمشق المندحر حيا امامه . اما زوجات الملك المغلوب وبناته فيكون مصيرهن الى بيت الحريم الآشورى ، ومن لم يكن منهن من اصل نبيل يحول الى رقيق .

وفي الوقت ذاته يبدأ الجند بذبح السكان ، والاتيان برؤوس الضحايا في حضرة الملك ، حيث يتم احصاؤها من قبل الكتبة .

ولم يكن كل الاسرى من الرجال ليقتلون ، ذلك لان الصبيان والصناع يقادون الى الاسر ، حيث يعهد اليهم باشق الاعمال في مشاريع البناء الملكية، حيث تسبب المستنقعات التي تغطي مساحات شاسعة من ارض بلاد الرافدين، نسبة عالية جدا من الوفيات . اما بقية السكان فكانوا يستأصلون ، ويبعث بهم الى أقاصي الامبراطورية ، وهو عمل تم التخلي عنه بتقدم المدنية لكنه انتعش بشرف في القرن العشرين الميلادى . ولقد كان هدفه الظاهر هو تأهيل المناطق الخالية في البلاد لكن قصد به في ذات الوقت ان يؤكد بان القادمين

الجدد هم غرباء لا اصل لهم بين الشعوب التي تحيط بهم وانهم اذا ما تمردوا فلن ينالوا اية مساعدة .

لقد كان الامر الشائع تماما بالنسبة الى صغار اعضاء الاسرة المالكة ان يتم نقلهم الى بلاط الفاتح ، ويتربون هناك على الخوف على أقل شيء ان لم يكن الحب لبلاد آشور . فمن اوضاعهم الاصلية كرهائن في البلاط يمكن لهم ان يتقدموا الى نقطة اخيرة يدعون فيها الى التصرف باملاكهم الموروثة لهم كجزية لسيدهم شريطة ان يبرهنوا بانفسهم ، ولو بصفة ظاهرية على الاقل ، بانهم قد « تأشّروا »(*) الى درجة تكفي للظفر بثقة الفاتح .

كانت تعقب الظفر في الحرب احتفالات يشارك فيها الجيش والشعب سوية ، فتتقدم فيها التبريكات والنذور الى الآلهة ، في الوقت الذي يحتفظ فيه باحتياطي من اعشار المنتجات الطبيعية والمواد الثمينة ومن الاسرى ايضا لاستعماله من قبل المعابد .

وكانت عملية ذبح الاسرى ، وهي لم تكن عملية انتقام بقدر ما تكون عملية نذور للالهة ، مطبقة في الديانات الاصلية .

لقد كانت الشخصية الآشورية ذكية جدا وتدرك كيف تتخلى عن احتكار كل ذي قيمة ، لكنها كانت تتقبل الالتزام بصفة مطلقة ، بان تقدم على اتلاف جزء من رأس المال المدينة به الى الآلهة التي منحت النصر .

لدينا معلومات مفصلة تفصيلا واسعا عن الحملات العسكرية الناجحة غير ان الافراد الذين اعدوا هذه الوقائع التاريخية لم يذكروا كلمة واحدة عن الهزائم او النكسات ، في حين ينبغي لنا ان نتناول على الدوام تقديرهم للانتصارات باحتياط ملموس .

فلدينا على سبيل المثال ، ثلاثة مصادر رسمية منفصلة عن واحد من انتصارات شلمناصر الثالث ، وعن عدد من الاسرى يختلف مائة في المائة .

(*) هذه الكلمة ترجمة حرفية للكلمة الانكليزية Assyrianized التي تعني انه اصبح آشوريا ، مثلما نقول « تمصّر » اي أصبح مصريا ، وتعرّق اي أصبح عراقيا .

حملة سرجون الثامنة

لأجل دراسة حملة عسكرية نموذجية يمكننا ان نختار الحملة الثامنة من عهد حكم الملك ــ سرجون ــ والتي قادها الى الشرق والى الشمال الشرقي من املاكه ؛ وتظهر الدراسة الطوبوغرافية للحملة ان ــ اشور ــ كانت تعتبر الاقطار الواقعة على حدودها كمستودعات عديدة ، ولذلك اقتحمتها متذرعة بمختلف الاعذار ، لكي تجهز الامبراطورية بما كانت تحتاج اليه فكان المسرح الرئيسي لهذه الحملة الخاصة والتي وقعت عام ٧١٤ ق٠ م هو منطقة ــ أرارتو ــ المنيعة والتي تمثلها اليوم (ارمينيا المعاصرة) • ففي عام ٧٢٤ ق٠ م اعتلى الملك العَرش وهذا ما يظهر ان الحملات كادت ان تكون وقائع حولية •

علينا الا نخطىء الظن فنقول ان العاهل الاشوري اتخذ قرار المباشرة بالحملة معتمدا على الطوالع وعلى اختيار الفصل المناسب والتواريخ الخاصة بالمغامرات العسكرية حسب • لقد كان تحت تصرفه جهاز استخبارات كما انه اعد للحملة الارمينية اعدادا مفصلا تفصيلا شديدا ، وكرس لها كل اهتمامه • ولدينا عدد من الرسائل المرسلة من قبل موظف كبير في الجبهة ، والتي هي في الحقيقة تقارير عن نوايا ونشاط الخصم • وتضم هذه التقارير كل المعلومات المفيدة ، وهكذا وجوابا على استفسار العاهل الاشوري عما كان يفعله الملك الارميني ، قالت احدى الرسائل « ان وصوله (اي الملك الارميني) قد أعلن أثناء احتفال ديني » ولما كان سرجون قد أصدر أوامره القاضية بوجوب عدم اشتراك اي من انصاره في تلك الاحتفالات فان كاتب الرسالة يطمئن الملك قائلا بانه سيرضى في تأدية واجبه كما فعل في الماضي •

لقد حدثت سلسلة من الغارات على الحدود وكان نصيبها من النجاح والفشل متفاوتا • ولكن الشغل الشاغل للملك كان دائما ان يتعرف على ما

حدث لاشخاص معينين كانوا يعتبرون من العناصر الخطرة والذين لم تعرف اماكن وجودهم .

كانت المعلومات تجمع بطريقة بسيطة ، هي طريقة ارسال الجواسيس الذين يقومون بارسال التقارير التي كانت تذكر ان القوات الارمينية تتمركز متجمعة على وجه الدقة في اماكن مقابلة لاماكن تمركز القوات الاشورية . ويضيف هؤلاء قائلين ان الجيوش الآشورية متذمرة ، وان البلاد وعرة ولا يمكن عبورها الا بواسطة الاطواف والارماث . والحقيقة ، وكما سنرى من الوصف الرسمي للحملة ، فان من المحتمل ان تكون هذه الصعوبات ظاهرية اكثر منها حقيقية ، وان من الجائز وجود مبالغة متعمدة في الوصف لغرض التقليل من مسؤولية مقدمي المعلومات في حالة فشل الحملة . وقد امكن التغلب عمليا على كل هذه المشاكل دون صعوبة ، كما ان تذمر الجيوش تحول الى حماسة خالصة .

يضم متحف اللوفر في باريس وصف الحملة الذي عثِر عليه في مدينة اشور وقد ترجم ودُرس دراسة نقدية من قبل (تورو دانجان) . وخلافا لغيره من السجلات الملكية ، لم يكن ذلك الوصف وصفا تاريخيا ، بل كان ، وبصفة غير اعتيادية جدا ، يمثل رسالة ارسلها الملك من مقره في كالخ ، الى الإله ـ آشور ـ في معبده في مدينة ـ اشور ـ وقد تضمنت تلك الرسالة وصفا للحملة . وما هذه الرسالة في الحقيقة الا تقرير مرفوع الى الإله ، فعندما نفحص النص غير المألوف جدا سوف نشير الى النقاط المهمة فيه . يستعمل الملك صيغة المتكلم المفرد ، وهو يوجه رسالته مباشرة ، وبكل وقار ، الى الاله اشور ، أبي الآله الرب الجبار الذي يسكن في المعبد المعروف باسم ـ جبل البلدان العظيم ـ وهو بعد كل ذلك لا يرسل تحياته الى الإله اشور وحده حسب بل الى الآلهة الاخرى التي تختص بالمصير

والى الآلهات اللواتي لهن هياكل في المعبد ، ويطلب الملك بأن تبلغ تحياته الى المدينة ؛ واهلها والى بلاطه ، ويتمنى السلام التام لنفسه ، وهو الملك سرجون خادم الآلهة العظماء ، كما يتمنى السلام لجيشه . لقد تم تنفيذ الحملة ، لكنه يربط ذلك بالحماية الألهية التي مكنته من تحقيق هذا الامر في شهر ـ دوزو ـ وهو الشهر المكرس لـ ـ نينورتا ـ الابن الجبار الاكبر لـ ـ انليل ـ انه الشهر الذي جعله اله الحكمة ـ كما يضيف سرجون ذلك قائلا ، « موعدا اجمع فيه جيشي واعده للقتال ، ولقد انطلقت من ـ كالخ ـ مدينتي الملكية » .

ثم يمضي في وصف الصعاب التي واجهها لضمان عبور الانهار التي كانت في حالة فيضان شديد ، وكيف ان جيوشه عبرت تلك الانهار كما عبرت الزابين الكبير والصغير (الاعلى والاسفل) دون ان يعتري الجنود اي خوف ، بل ان تلك الانهار بدت لهم وكأنها اقنية ضيقة . ثم دخل منطقة الجبال وكانت شعارات الآلهة تحمل امامه ؛ ويمضي فيقول :ـ « بالرغم من ان تلك الجبال كانت عالية ومغطاة بنوع كثيف من الاشجار ، وبالرغم من وجود الوديان المرعبة بظلامها الذي يشبه ظلام غابة الأرز حيث لم ير اي ضوء هناك ، فقد تقدمت » .

أستدعي جنود الهندسة لتشييد الطريق وبسبب من وجود الملك على رأسهم ، انطلق الفرسان والمشاة وكذلك العربات الحربية فوق الجبال كالنسور ، وجاء بعدهم بناة المعسكر ، وجنود الانشاءات ، وفي الاخير جاءت الجمال والبغال حاملة الامتعة والتي كانت تقطع السفوح كالماعز المولودة على الجبال ، وبعد عملية الصعود هذه استمتع الجيش براحة استحقها وعسكر على قمة الجبل .

بعد العبور الناجح للعديد من المياه الفائرة الجارفة والواسعة ، وكثير

من الممرات الجبلية العالية ، وصلت الحملة ارض العدو ، أدرك ملك (المنئيين)(*) الخطر ، فوقف امام سرجون متضرعا ومعه النبلاء وكبار قومه ومستشاريه وعائلته وعرض تقديم جزية من الماشية وخيول العربات مع سائقيها ، وفي وصف اشوري منمق يستمر الكلام ليذكر ان هذا الملك قبل اقدام الفاتح . وأصاب نفس الذعر احد صغار الامراء المحليين ، فراح يتصرف وكأنه حاكم لمدينة آشورية ، فمضى يمد الجيش بالخمر والطحين ، ثم شرع يلتمس من سرجون ان يعيد الحدود السابقة لبلاده والتي كادت ان تسقط بايدي جاره القوي .

اعلن سرجون ، بفضل القوة السامية التي منحه اياها كل من آشور ومردوخ ، قبوله لهذا الطلب ، واشترك الآشوريون والمنئيون في وليمة اقيمت لهذا الغرض ، في حين ارسل مختلف الامراء الجزية الى سرجون الذي نصب عليهم حاكما آشوريا .

ورأى احد امراء (المنئيين) المنشقين تقدم الاشوريين من الجبال المجاورة ، فلاذ بالفرار مع اصحابه ، ولم يظهر بعد ذلك . ومن الواضح انه آثر ان ينجو بجلده ، على العيش في بلاطه ، والتمتع بثرواته فترك جيشه يذبح عن بكرة ابيه .

وتمدد الوثيقة ، وبلا استنكار ، سجايا سرجون لتبرر الطلبات التي يقدمها الى الاله ولكي تذكره بانه جدير بالحماية . فهي تقول بانه حريص على اطاعة قوانين (شمس) ، وانه يصغي باجلال الى كلمات الآلهة الكبار ، ولا يتجاوز وصاياها ، وانه مستقيم ورؤوف ويكره الباطل ولا ينطق بسوء أو بكلمة جارحة ، ثم تختتم العبارة بما يلي :

« ولما لم اكن لاقيت ـ روساس ـ الأرميني في معركة متوازنة لحد

(*) أي ملك بت منئى او منّاي وهي منطقة تقع الى الغرب والجنوب من بحيرة اورميا .

الآن ، فقد رفعت يدي الى السماء ضارعا اليها ان تمكنني من الحاق الهزيمة به لكي اجعله يتحمل نتائج كلماته المهينـــة ولكي اسحقـــه تحت وطأة آثامـه » .

وحدثت المعجزة اذ سمع الآله اشور هذا الدعاء فتجددت رجولـــة الجيوش الآشورية التي أنهكتها العمليات واليأس الناتج من عدم الثقـــة بخطوط التموين . هكذا كانت ثقة سرجون بنفسه . فهو قلما كان ينظـــر الى صفوف العدو المتراصة امامه . ولقد رمى بنفسه عليها كالسهم المارق من القوس ملحقا بها هزيمة شنعاء ، وحصل على الكثـير من الغنـائم ، وأسر ــ مائتين وستين ــ مـن اقارب ــ روساس ــ ملك ــ أورارتو ــ الذي قفز فوق فرس قريب منه وانطلق هاربا بجيشه ، وقد فعل ذلك بعـد ان فقد خيله وتخلى عن عربته الحربية طالبا السلامة .

وسقطت المعاقل واحدا اثر واحد ، ولف اللهيب المدن بعد ان احـرق الاشوريون المحاصيل ، ونهبوا مخازن الغلال وكأنهم جراد منتشر . ثـم يمضي سرجون ليقول :ــ « لقد قدت حيوانات معسكري نحـــو الريف القريب من المدينة فدمرت هذه الحيوانات المحاصيل التي كانت هناك كمـا دمرت السهول » . وبعد ان اكتسحت الارض اكتســاحا مناسبا شـــرع سرجون في مسيرة العودة الى آشور دون ان يجد حاجة الى محاربة احـد بل ودون ان يجد أية مقاومة .

ثار الملك ــ أورزانا ــ ملك مصاصير(*) ، على سرجون . وقد وصفت حياة هذا الملك بكونها حافلة بالاثم والظلم وقد نقض هذا الملك اليمـين الذي اداه بحضور الالهة اشور وشمس ونبو ومردوخ . كما انه لم يرسل

(*) مصاصير : Musasir كانت محصورة بين غربي بحر الخـــزر (قزوين) وجنوبي بحيرة (وان) .

اية هدايا ولم يأت ليقبل اقدام سرجون ، بل انه لم يرسل تحياتـه مع اي رسول • وهكذا فان مثل هذا التصرف قد استحق العقاب السريع الملائم •

كان الطريق الشرقي الذي سلكه سرجون في بداية الحملـة ، يدور حول بحيرتي ــ أورميا و ــ وان ــ وقد تضاعف طول طريق العودة بسبب تعقب سرجون في مسيرته نهر دجلة • هنا اتخذ سرجون ما كان يبدو قرارا مفاجئا ، أو أنه عانى الكثير لاخفائه• فلقد ارسل الجزء الاكبر من جيوشه الى ارض الوطن ، ولم يبق معه الا المشاة ، والفا من الفرسان ، وراح يضـرب شرقا وكأنه يريد الساحل الغربي من بحيرة أورميا • وكانت الخدعة موفقة تماما ، اذ لم يجد سكان ــ مصاصير ــ متسعا من الوقت لأخفاء كنوزهم في مكان أمين •

نهب مصاصير

وجب عبور الجبال ، مرة ثانية ، خلال طريق غير قابل بطبيعتــه لان تجتازه العربات الحربية • ولهذا اصبح من الضروري ربط عربـــة الملك بحبال ، في حين اضطر الفرسان الى ان يشقوا طريقهم خلال الخوانق بشكل صف منفرد • سقطت مدينة ـ مصاصير ـ فأمر سرجون بترحيل السكان كما امر بأن يضم الى الغنائم تمثال الاله ـ هالديا ـ وهو الاله الاسمي للمدينة • وبعد هروب الملك وقعت زوجته واطفاله وبقية العائلة في الأســر بالاضافة الى (٦١١٠) فردا من السكان • وغنم سرجون ، زيادة على ذلك ، اثنا عشر بغلا ، و (٣٨٠) حمارا ورأسا غير مصنف من الماشية ، وحل سرجون نفسه في القصر الملكي حيث فتح ابواب الخزينة واستولى على ما فيهـا من ذهب وفضة وبرونز ورصاص وعقيق ولازورد وعاج واخشـــاب نادرة ، واوسمة ملكية واسلحة خاصة بالاحتفالات • ولم ينج معبــد ـ هالديا ـ من النهب هو الاخر ، ذلك لان ـ سرجون ـ نهب كل كنوزه وكان مــن بينها ستة دروع ذهبية كانت معلقة حول الباب ، وكانت اواسط تلك الدروع منقوشة باشكال دائرية كبيرة بهيئة رؤوس كلاب ، ثم تمثال كبير لبقــرة ترضع عجلا ، بالاضافة الى بعض الاواني المعدنية التي كانت موضــوعة في المدخل المؤدي الى الابواب ••• الى غير ذلك من المواد الثمينة التي يصعب تعدادها بسبب قيام الجيوش هي الاخرى باعمال النهب •

يبدو هذا الفصل الخاص بوصف الحملة الثامنــة اكثر امتــاعا من المعتاد لان النصب التي كشف عنها في خرسباد قد أتت على ذكر هــــذه الحوادث الحقيقية وتظهر تلك النصب المعبد بسقفه المنحدر ، وهذا يذكرنا بان المشهد حدث في الجبال ، كما تظهر الجنود وهم منهمكون في نقــــل الدروع ، في حين تقف الصحون الكبيرة والبقرة عند الباب • وفي جهـــة

أخرى يظهر الجنود وهم يحطمون تمثالا بالفؤوس وينصرف اخــرون الى وزن الشظايا بميزان كبير ذي كفتين وقضيب • وعندما سمع الملك الهارب ـ روساس ـ بالنكبة حزن اشد الحزن ذلك لان سرجون انـزل بالمنطقــة الشقاء المهين •

يختتم سرجون رسالته الى الاله ــ آشور ــ بذكر عدد من الاشتباكات الصغيرة التي يوصف فيها الملك وهو يهاجم الاعداء ، وكأنه كلب غضوب كما تأتي الرسالة على ذكر قائمة باسماء المحاربين الذين سقطوا في المعركة والذين من اجلهم اصدر اوامره الى كبير ضباط القصر بتخليد ذكراهم في حضرة الاله •

لقد كتب اللوح من قبل كبير كتبة الملك والذي كان كاتبا ماهرا ووزيرا من وزراء سرجون ، بالاضافة الى كونه ابنا لاحد كتاب الملك السابقين •

وعند قراءة الوصف باكمله يحصل القارىء على انطباعين يتمثل الاول في الاسهاب الذي يستعمله سرجون في وصف انجازاته ، والذي لا يدانيه الا كلمات الخضوع الشديد الذي يبديه عند تقديمه الشكر الى الالــه آشور • ويدعي سرجون انه بتنفيذه المهام لم يكن الا معينا من قبل الالـه ويهمه ان ينفذ اوامره واليه يعزو كل شيء • اما الانطباع الثاني فيتمثل في الطريقة الواضحة جدا التي تنهجها قوائم تعداد الغنــائم لكي تظهر مدى نظرة الاشوريين الى الحرب باعتبارها ـ مسألة اعمال تجارية ـ • لقد كان النهب عندهم احد مصادر الدخل المنظورة • وعندما تكون الحرب مصدرا للايرادات فانها تعتبر من الفرص النادرة جدا •

الحرب ضد عيلام ونهب سوسة

هناك مثال آخر من نمط ثان عن الحملات التي تختلف عن الحملة السابقة الموجهة ضد ـ مصاصير ـ والتي كانت حملة تأديبية بصفة اساسية هي حملة ـ آشور بانيبال ـ عام ٦٤٠ ق٠م على عيلام(*) فكما هو مألوف فان احد عناصرها كانت الرغبة في الكسب على الرغم من كونه عنصرا قليل الشأن نسبيا ، وقد رافقته كراهية شديدة خالصة ، ورغبة تكاد تكون جنونية في الانتقام ٠ لقد جمع الملك المعلومات قبل نزوله الى الميدان ، وعندما اختتمت الحملة اخذ يتلقى التقارير عن عمليات قادته المساعدين والذين كانوا يهاجمون الاطراف في الوقت الذي كان هو نفسه يتقدم نحو المدينة العاصمة ٠ وقد حملت تلك التقارير انباء الانتصارات والغنائم وفك اسر الاشوريين الذين كانوا اسرى عند العيلاميين ٠

لدينا رسالة عن احد اتباع اشور بانيبال والذي يدعي بانه كتبها من ـ بلاد البحر ـ المتاخمة لعيلام ٠ وتضم هذه الرسالة معلومات عن وجود ـ نبو ـ بعل ـ شوماتي(**) ـ عدو الاشوريين ٠ وها نحن نقتبس بعض الفقرات منها :ـ

« لقد اعادني الملك ، سيدي ، الى الحياه بواسطة العديد من آيات حسن النية التي كشفها لي وهل انا الا ذلك الكلب الحقير ولست ابنا لأحد ٠٠٠ ماذا يمكنني ان افعل للملك غير ان اتضرع لآلهة السماء والارض العظماء كل يوم لتحفظ حياته ٠٠ لقد رفع الملك ، سيدي ، من قدري الى السماء » ٠

(*) هنالك لوح يصور نهب مدينة مصاصير من قبل سرجون الثاني سنة ٧١٤ ق ٠ م ٠

(**) نبو ـ بعل ـ شوماني : ملك البحر ويقصد بها المنطقة الواقعة على الخليج العربي ٠

ويستمر الكاتب في حديثه ذاكرا للملك بانه جعل ـ شعب بلاد البحر ـ يؤدي يمين الولاء للملك • ويختتم رسالته باعلام الملك بوجـود التمردات داخل بلاد عيلام مما سهل الطريق امام تقدم الجيش الاشوري وبالطبع فان الفضل في تحضيرات الحملة البالغة السرية ، يعود الى الذهب الاشـوري والى التمردات العديدة والخيانات الكثيرة التي سببت الانقسامات داخـل البلد والتي انتفع بها الفاتحون •

وعندما احتلت العاصمة اتخذ اشور بانيبال من القصـر الملكي مكانا لاقامته ، حيث اقام الاحتفالات بالنصر ، واستولى على كنوز ملوك عيـلام الموروثة ، كما احتجز الاثاث الى حد سرير النوم ، وافرغ الاصطبل ممـا فيه من خيل وبغال •

ولسنا بحاجة الى الاطالة في السرد الذي يقودنا الى ان نتذكر ما فعله سرجون بمصاصير ولكن يجدر بنا ان ننظر فيما حـل من خراب • تقـول الرسالة :ـ

« لقد دمرت زقورات معبد سوسة الذي كان مبنيا بالطابوق المزجج ، كما احرقت قبابه المستطيلة التي كانت من البرونز اللمـاع ونقلت الى بلاد اشور ـ شوشيناك ـ آله الكهانة في عيلام والذي كان يقيـم وحـده فـي مكان منعزل ، ولا يستطيع احد من البشر ان يرى اعماله ؛ هذا بالاضافة الى الآلهة والالهات الصغار والثروات • لقد نقلت أثنين وثلاثين تمثـالا للملوك من ذهب وفضة وبرونز ورخام مع التماثيل الكبيرة التي كانت تحرس المعبد ، وكذلك الثيران التي كانت عند الباب • لقد دمرت معابد ـ عيلام ـ

تدميرا تاما ، وذرت آلهتها مع الرياح الهابة من الجهات الاربع ؛ ودخل جنودي بساتينها المقدسة والتي لم يسمح لاحد بالمرور فيها ، كما لم يسبق أن دخلها غريب ، وهتك الجنود ستار تلك البساتين وأحرقوها ، أما أنا فقد نبشت قبور ملوكهم الغابرين واللاحقين لأنهم لم يحترموا آشور وعشتار ، تدميرا وجعلتها خاوية خالية مفتوحة للشمس ، أما عظامهم فقد حملتها الى بلاد آشور بعد أن تركت أشباحها دون راحة والى الابد ، وبذلك حرمتها مما يقدم لها من ماء وطعام » •

وخلال تدمير عيلام هذا أقتيدت العائلة المالكة أسيرة مع عوائل النبلاء • وأمر ــ آشور بانيبال ــ بنثر الملح ، وزرع الاعشاب الضارة فوق آلهتي ، كما أنهم سخروا من أجدادي الملوك ، ولأجل ذلك دمرت تلك القبور خرائب المدينة • وسكتت والى الابد اصوات الشعب السعيد ، وصيحات الفرح ، ووقع حوافر الحيوانات التي كانت تنقل اليها الناس • وصار موقع المدينة موطنا للحمر الوحشية والغزلان ووحوش الفلاة • وفي غضون ذلك استعاد آشور بانيبال تمثال الآلهة ــ نانا ــ والذي كانت عيلام تحتفظ بـه منذ (١٦٣٥) سنة وعيلام ، في نظر آشور بانيبال مكان غير مناسب لهـذه الالهة التي كانت تتطلع الى مجيء الملك الاشوري الذي اعلنت عنـه قائلـة بانه هو الذي سيخرجها من ــ عيلام ــ البائسة ليأخذها الى معبد ــ إي ــ انا •

وعانى كبير آلهة ــ سوسة ــ الأسر بدوره ، وعلى الرغم من الاحترام الشديد الذي اظهره له الملك الا انه اذله حين اخذه بيـده داعيـا اياه الى الرحيل ثم اودعه في مدينة الوركاء •

اعطي المكان الافضل للالهة المختلفة . اما الجنود فقد امتصهم الجيش الاشوري ، ووزع بقية الاسرى كما توزع الاغنام على المعابد والموظفين والنبلاء .

الى هنا يجوز لنا ان نترك الحديث عن الحملة على عيلام التي تعرضت الى عنف لم يشهد التاريخ مثيلا له الا في القليل النادر . لقد كان من المألوف ان يدنس المنتصرون معابد العدو ، ولكن ليس مألوفا ان يقوم هذا المنتصر بنبش ونهب المقابر الملكية . ولقد ارتاح آشور بانيبال حين اعتقد بانه قد ازال عدوه الكريه من الوجود تماما .

السفن الحربية

يتوفر لدينا العديد من صور السفن الحربية . وكانت المجاذيف تستعمل في تحريك القسم الاكبر من الزوارق بالرغم من امكانية استعمال الاشرعة . والشكل الغالب لهذه الزوارق هو الزورق مستدق الرأس ذو القاعدة قوية البناء . وكان من الممكن رؤيتها ممتدة الى امام مع مستوى الماء تقريبـــا ليسهل استعمالها في مهاجمة سفن العدو اما الجدافون فانهم يظلون بعيدين عن الانظار ومحصنين . وزيادة على ذلك وتحسبا لاستعمالات المستقبل ، كانت السفينة تزداد تحصينا . بالدروع الدائرية التي يلبسها الجنود الذين تحملهم السفينة .

يتوفر لدينا وصف جميل لحملة بحرية سيّرها ـ سنحاريب ـ لضرب سكان الشواطىء من اهل عيلام ، الذين كانوا يظنون بانهم في منأى مـــن الهجوم . وبناءً على ذلك ولتوفير الوقت فانه أمر رعاياه الفينيقيين ببنـــاء اسطول له على نهري دجلة والفرات في وقت واحد . وتجمعت الزوارق فـــي النهرين ولما كان هذان النهران غير صالحين لملاحة نوع معـــين من الزوارق فقد سحبت الى البر ،ونقلت فوق العربات المدولبـــة . ومن الواضـــح ان الزوارق كانت صغيرة الحجم على الرغم من الاعداد البشرية التي استخدمت في هذه العملية . وعلى ما يظهر فان الحملة لاقت نجاحا محدودا على الرغم من اللغة الرنانة التي استخدمت في وصفها .

الفصل الثالث

الفكر في بلاد ما بين النهرين

مفاهيم عامة

يمكن اعتبار هذا الفصل بانه صلب الكتاب . لقد تفحصنا حتى الان تصرفات وعادات سكان بلاد ما بين النهرين ، ولاحظنا اين تشابهت واين اختلفت ، عن تصرفات وعادات الشعوب الاخرى . وعلينا الآن ان نحاول قراءة افكارهم وان نفهم وندرك نظرتهم الى الكون ، والى مكانهم فيه ، وذلك لكي نفهم ليس موقفهم من القوى التي اعتقدوا بانها تتحكم فيهم حسب ، بل ولنفهم ايضا بعد نظرتهم الى انفسهم على اساس اعتمادهم على تلك القوى ؛ ثم نفهم ماذا كانوا يتوقعون منها .

ولقد كانت هذه بالتأكيد هي النقطة الرئيسة في بحثنا هذا جميعه . ان الجواب على تساؤلنا هذا سيؤلف ، بالطبع ، قناعتنا عن طبيعة الاشوريين في ظل سلالة سرجون وعن البابليين من زمن نبوخذ نصر . فنحن لا نستطيع ان نقرأ الجواب في وثيقة منفردة ، ولكن الكتابات الكثيرة سوف توضح كثيرا جدا ، الجانب الفكري للانسان البابلي . وسنحاول اولا ان نرسم الخطوط العريضة للصورة ثم نكمل التفصيلات في بقية الفصل .

علينا اولا ان نتعرف على الفرق العميق بين اساليب الفكر البابلي والغربي . يرتكز الفكر الغربي على اسس استقرائية واستنتاجية . ويلعب التعليل القياسي دورا ثانويا في هذا الفكر . ومن جهة أخرى فان التعليل البابلي يستند الى القياس وهذا ما يفسر لنا السبب الرئيسي للممارسة الواسعة النطاق للكهانة والسحر اللذين كانا يعتبران فرعين من العلم ، كما

فسر لنا المظهر الكهنوتي للطب الذي كان ، والى حد كبير ، تعبيرا آخر عن نفس الفكرة .

وبقدر ما نعلم كانت طريقتهم في التصنيف العلمي ، سواء في ميدان علم النبات أو الكتابة المسمارية ، مشتقة من الاسلوب القياسي . وهذا يعني في الحقيقة وجود خطر اخذ القشور دون اللباب .

يكمن هذا القول في جذور الايمان البابلي الاساسي بالتماثل في تركيب الارض والسماء ، وفي اعتماد احداهما على الاخرى . فمن الطبيعي ان تقول ان هذا قد ادى الى الاعتقاد بان اي تصرف في احد الوسطين ينتج بالضرورة نظيره في الوسط الاخر . لقد كانت السماء والارض متحدتين اتحادا لا انفصام له . ولكن اذا كانت الالتزامات المنفذة من قبل الاولى قد رفضت كليا او جزئيا من قبل الثانية فلن يكون باستطاعة السماء ان تهمل أو تزيل - النظير - المتولد على الارض . ولسنا نبالغ هنا حين نتعمد استعمال عبارة « الالتزامات » . ذلك لان اية مدرسة دينية لم تفشل في اثبات حقيقة ان غرض الالهة من خلق الانسان هو لكي يبني المعابد ، وليمارس عبادتها فيها . وهذا هو الذي نريد ان نقوله عن خضوع الانسان الشديد لآلهته ، كما يجدر بنا ان نقول بان المواطن البابلي لم يكن يتوقع الكارثة النهائية . ان العالم يجب ان يستمر ما دامت الالهة لا تستطيع ان تستغني عن الكائنات البشرية .

لقد اعتقد البابليون ان العصر الاقدم جاء بعد خلق العالم . وقد وصف هذا العصر في ملحمة كلكامش . وكان مقام الالهة اثناء هذا العصر في السماء كما سكنت ايضا في معبدها على الارض . وكان لبطانة الالهة من الكهنة ما يقابلها في بطانة القصر الملكي . وحين عاودت الالهة الصعود الى السماء ثانية ظلت الصلاة تعتبر حلقة الوصل التي توحد كلا العالمين في حين

كانت الكهانة ، أو لغة العلامات ، يوحى بها الى البشر كوسيلة للاتصال يعرفون بواسطتها مشيئة الالهة التي اصبح ظهورها على الارض نادرا . ولكي يسهل على الانسان معرفة نصيبه ، اوحت السماء بطريقة أخرى تساعد على ذلك . وهذه الطريقة هي ـ السحر ـ اما البرهان النهائي على ان الكهانة والسحر كانا عنصرين مقبولين في الديانة الرسمية ، فيمكن أن نراه في الحقيقة القائلة بان السابقة كانت تجري تحت رعاية شمس وادد ، وان اللاحق كان يجري تحت رعاية ـ ايا ـ ومردوخ وهما قد تم قبولهما كالهة عظام في مجمع الالهة في بلاد الرافدين .

لقد افضت هذه الظروف الى توازن دقيق لا شك فيه بين الارض والسماء . فكان عند البابليين نوع من التصور ، على الرغم من كونه غير دقيق ، عن تقسيم الكائنات الى ممالكها الطبيعية المختلفة . فقد وزعوا في شكل حصص كل كائن حي أو غير حي ، وكذلك كل شيء مصنوع ، فوضعوه في مجال عمل الهه الخاص به ثم أقر نظام دقيق من العلاقات بين السماء والارض . واعتمد الدين في طوره البدائي جدا على تضاعف عدد هذه العلاقات بسبب الاعتقاد القائل ان الانسان يستطيع ان يتوقع ما يشاء عن طريق ادائه لعمل معين ، لان هذا العمل سيتسبب في وجود نظيره في السماء . مثال ذلك الماء المقدس الذي كان يستسقى به المطر أو حدوث الفيضان أو الزواج بين الالهة والمتمثل في الزواج بين الكهان وهو تكرار للعملية بين الالهة مما ينتج عنه ولادة الاطفال .

وزيادة على ذلك فان اية مدرسة دينية بابلية لم تعترف بامكانية معاكسة خلق العالم لما نسميه (مبدأ الاسم) .

مبدأ الاسم

يمكن تلخيص هذا المبدأ بالقاعدة الاساسية التي تقول بانه لا يمكن ان يوجد شيء دون ان يكون له اسم • تبدأ ملحمة الخلق بالتأكيد على انه في البداية لم يكن توجد سوى الهيولى ولم يكن هناك شيء له اسم •

« عندما كانت السموات من فوقنا بلا اسماء
ولم يكن تحتها من مسكن يدعى بالاسم
ولم يكن لاي شيء اسم ما » •

وما دام لم يكن ثمة شيء له اسم فانه لم يكن موجودا • ومما لا شك فيه ان هذا هو السبب الذي يفسر لنا ما نقرأه في سفر التكوين من التوراة (الاصحاح الثاني) من ان الله تعالى استدعى الحيوانات بعد خلقها امام آدم لكي يعطيها اسماءها وبذلك يضفي عليها وجودها الفردي •

فالعبارة الاكدية التي تقول (كل شيء يحمل اسما) تشير الى الشمول العام ، كما انها تعبير عن هذا الايمان بحد ذاته • واذا ما اعتبرنا هذه العبارة نوعا من الاسلوب الفكري فانها تتماثل تماثلا شديدا مع نظرية ـ شوبنهاور ـ(*) القائلة انه لا يمكن ان توجد العلة دون المعلول • ويصور شوبنهاور نظريته هذه بافتراضه وجود بحيرة اكبر من اية بحيرة عرفت حتى الان وذلك في قارة لم يرتادها احد • ثم يمضي ليقول انه لما لم يكن احد تغلغل الى داخل هذه القارة فان البحيرة تعتبر غير موجودة من وجهة النظر الفلسفية •

وشارك المصريون البابليين في نظرتهم اذ اعتقدوا ان اسم اي شيء

(*) شوبنهاور (١٧٨٨ـ١٨٦٠) فيلسوف الماني صاحب مذهب التشاؤم •

يشاركه في طبيعته الاساسية • واما في كتاب ـ الموتى ـ فان العبارتين التاليتين لم تستعملا جزافا وبلا مبالاة • فهاتان العبارتان تقولان :

« لم أمت ولم يمت اسمي » •

ونجد ان افلاطون يركن الى نفس الخط من التعليل ويرى في المعلولات انعكاسا لاسمها الصحيح • والواضح انه اصبح من المبادىء المسلم بها ان الاسماء هي من نتائج الاشياء ويمكننا تلخيص التكوين كما يلي :ـ

ان اسم الشخص او الشيء تمثيل حقيقي له • وهكذا فان الاسم يصبح المعلول نفسه ، ولكن بصورة اقل حقيقة واكثر قابلية على التكييف وهذا موضع شك كثير امام المعالجة الفكرية • واختصارا فان هذا الاسم سيشكل البديل العقلي •

وبناءً على ذلك فان الاسم الذي تناقش موضوعه والذي نعتبره صورة المعلول ، يبدو انه هو العنصر الجوهري لهذا المعلول ، وله نفس العلاقة الطبيعية معه والتي تشبه ظل الجسم أو انعكاسه •

ما يزال المجتمع الحديث يشارك في هذه النظرية عند ممارسة السلطة العامة ، ذلك لان الشخص الذي لا اسم له انما هو « فرد لا يكتسب وجوده الشرعي الا بعد ان يتسلح بالبطاقة الشخصية ، وهذا يبين لنا ان النتيجة الرئيسة لاي اسم هي ان حامل هذا الاسم يصبح معروفا ، وهنا يغدو عرضة للتجريح أو النقد » •

الصوت ، الاسماء الشخصية

تثبت التجربة انك إذا صحت مناديا باسم معين مثل ـ جـون ـ أو ـ بطرس ـ ووسط جمع من الناس ، فسيدفع صياحك هذا الكثير من حملة هذا الاسم الى ان يلتفتوا يمنة ويسرى ، ليروا من المنادي . وهكذا فـان الاسم هو اداة تستطيع ان تستثير القدرة الدائمة تقريبا والتي تمنحها معرفة الاسم . ولكن هذه القدرة محدودة عمليا بسبب استحالة التكرار الدائم . واذا ما دون الاسم ، اكتسبت معرفة المعلول صفة الثبات . وكذلك القول بالنسبة للتأثير الذي تستطيع ان تحدثه تلك المعرفة . ان الصوت يستدعي الى حيز العمل القدرة المكتسبة بواسطة المعرفة ، في حين نجـد ان تدوين الاسم يظهر خصائصه ويبرزه بصورة غير محدودة اي انه في الحقيقة وسيلة لقدرة دائمة .

وما دمنا نقبل القول ان اسم الشخص أو الشيء يتضمن الصفات التي يعبر عنها ، فانه من الطبيعي ان تنسب الصفة الجيدة الى اي شيء يكتسب اسما . وهذا ما دعاه العراقيون القدماء « بالاسـم الحسن » ، وكان في الاصل مساويا للمصير الحسن الذي يلقاه صاحبه ، والذي اضفى عليـه اسمه نفوذا حسنا مدى حياته . وتنطبق نفس العملية ، وبدرجة متساوية ، على الفلاح أو الامير الذي يعطي اسماءا لاطفاله .

لقد استعد الملوك العراقيون القدماء للادعاء بانهـم ابنـاء الآلهـات . وكانوا يشددون على اهمية الاسم الحسن الذي تلقوه من امهاتهم . وكانت الالهة تتبادل كلمات مديح هؤلاء الملوك . لقد تحدث الاله ـ ننكيرسو ـ في معبد ـ الوركاء ـ مع الالهة ـ بابا ـ حول موضوع ـ أوروكاجينا ـ وتتمثل كل هذه العبارة الطويلة في اسم علم مفيد اعطاء ـ اوروكاجينـا ـ

الى حجر مقدس ونقشه عليه . ويشبه هذا الحجر الزيتونة وهو موجود في المعبد . وكل من يردد هذا الاسم سيزيد من قدرة هذا العمل وبذلك ينتفع واهب الاسم بهذا الترديد . وكان أوروكاجينا ـ هو الذي اصلح مدينة لكش .

وهذا هو السبب الذي دفع ـ گوديا ـ حاكم مدينة لگش ـ الى ان يسمي احد الاعمدة المنقوشة المقامة في المعبد الذي بني لـ ـ تينكيرسو ـ باسم ملك الاعصار .

أما الشوارع فانها هي الاخرى كانت تحمل أسماءً ، هدف من ورائها الى كسب النفوذ الحسن للمدينة . وكان من بين تلك الاسماء اسماء مثل :ـ (لا وطأته اقدام العدو) ، وهذا هو اسم طريق الموكب في بابل . ثم اسماء القنوات مثل (حمورابي مصدر الخير للانسان) واسماء الابواب والاسوار مثل (بعل بناه ، بعل ينعم عليه) وانتقلت هذه الممارسة الى الشعب ، اذ اتخذ أفراده أسماءً تدل على البركة أو الرغبة أو الانعام الالهي وما شاكله . ويظهر هذا واضحا في اسماء ملوك الاشوريين أو البابليين . فمثلا يعني اسم سرجون (الملك الشرعي الراسخ) ويعني اسم سنحاريب)الاله سن يزيد عدد الاخوان(واسرحدون (اعطى اشور اخا) وآشور بانيبال (اشور خالق الابن) . ويعني اسم نبوخذ نصر (يا نبو : احم الذرية) . ونجد ان لبعض الاسماء ما يعادلها في الاسماء الحديثة ، مثل ـ عشتار ـ ابني و (إلو ـ ياني) يكادان يشبهان في المعنى الاسمين :ـ (تيودور) و (تيوذوسييوس) .

طريقة النطق بالتعاويذ

حين نريد ان نستدعي شخصا ما لا نكتفي بلفظ اسمه حسب ، بل نستعمل نغمة خاصة تضمن لنا الطاعة . والحقيقة ان الصوت يجدي في بعض الظروف . ولقد ادرك المصريون هذه الحقيقة فكانوا يقولون انه يجب ، من اجل لفظ الصيغ المقدسة عندهم ، ان نستعمل صوتا حقيقيا لا يشبه الصوت الذي يستعمله المغني ، بل الصوت المستعمل وقت الصلاة أو الدعاء . وهذا هو ما يريد سكان بين النهرين ان يعبروا عنه باشارتهم الى الطريقة الصحيحة للنطق بالتعاويذ والحقيقة انهم ما كانوا يستعملون الفعل (قل) بل الفعل (لبشو) والذي يعني (انطق أو اهمس) ، ويمكن ان يعني (غن أو دمدم) اما في الصلاة فقد استعملت طريقة كلام تختلف عن غيرها وهذه صورة واضحة في جميع الاديان تقريبا . وتضفي الشعائر البابلية اهمية خاصة على هذه الطريقة عند قراءة الرقى والتعاويذ . فمثلا يستعمل الهمس عند قراءة التعويذة التالية : « ليريحك الحكماء ، اهل التعاويذ » .

القدرة على الكتابة والرسم والنحت والغناء والرقص

استعملت الكتابة ، كما اسلفنا القول ، لتثبيت ما تمثله الاصوات المختلفة من قوة وقدرة ، والتي تنطق باسم معين . وقد صورت هذه الوسيلة المراحل البدائية لأضفاء الحياة على التماثيل التي توضع في المعابد . ويوجد تمثال — گوديا — في متحف — اللوفر — بباريس كما تنتشر تماثيل مختلفة الصفات في الكثير من متاحف العالم . اما الغرض الذي يؤديه تمثال گوديا في المعبد فهو لكي ينوب عنه امام الآلهة بصورة ابدية . ويوضع هذا التمثال في المعبد ليحل محل — گوديا — في الصلاة بين يدي الآله في كل الاوقات. وكلمات الصلاة أو الدعاء منقوشة بحروف بارزة في مقدمة رداء التمثال .

لقد كانت قدرة الكلمة المكتوبة عظيمة جدا . وكذلك كانت معرفة الآلهة الشاملة . ولذلك فلم يكن ثمة داعي لكتابة الصلوات في المكان الذي يمكن ان يراه الناس افرادا أو جماعات .

توجد في خرسباد مجموعة من المنحوتات الناتئة تحمل كتابات على ظهرها وكانت هذه المنحوتات تدفن في الحائط دائما ، وعندما قام الملك - بودعشتارت - ملك صيدا بتقوية اساسات معبد - اشمون - باقامة جدار ساند نقش اسمه على كل قطعة من الحجارة . وقد ارتأى ان تكون الكتابة في الوجه المخفي وبذلك لا ترى بالعين . وكانت الحروف المحفورة ما تزال محتفظة بحداثتها البدائية عندما ازيل الحائط بعد عشرين قرنا من بنائه الاصلي ، فاذا كان الدافع الرئيس لاخفاء الكتابة المنقوشة هو الخوف عليها من عبث الاشرار فانها كانت تخفى احيانا عن قصد لجعل المارة يتشوقون لقراءتها وسنبحث هذه النقطة في الصفحات القادمة عندما نعالج موضوع الخطوط السرية للكتابة المنقوشة على الالواح الحجرية المصرية والتي فك اسرارها درايتون E. Dryton

أهمية اخفاء الاسم الحقيقي

ما دامت معرفة اسم الشخص تضفي قـوة على حامل الاسـم فمن الطبيعي ان يحترس حامل الاسم من جعل اسمه معروفا . فمثلا نجـد ان المصريين يسمون الطفل باسم معين ثم ينادونه باسم اخر طوال حياته . وقد عثر على لوح يعود لاحد كبار الكهنة وزوجته من عهد البطالسة . وقد ذكـر في هذا اللوح ان طفلهما سمي ـ امحوتب ـ ولكنه كان ينادى باسـم ـ بيتوباسته ـ .

قد يبدو ان هذا الخوف لا مبرر له . ولكن المصريين يأتون بالبراهين القاطعة بحقيقة هذا الخوف . فهم يقولون انـه عندمـا شاخ الاله ـ رع ـ وضعف تعلمت ـ إيزيس ـ التي كانت ساحرة كيف تمزج لعاب بعض الالهة بالتراب . لتصنع منهما ـ افعوانا ـ تضعه في الطريق الذي يجب ان يمشي فيه ـ رع ـ . وقد لدغ ذلـك الإفعوان الالـيه ـ رع ـ في عقبـه ، وفي سورة غضبه استدعى اليه ـ ايزيس ـ التي ادعت بانهـا لا تستطيـع ان تعالجه ما لم تعرف اسمه الحقيقي . وبفضل هذه المعرفة ارتفعت ـ ايزيس ـ الى مصاف الالهة .

لم يكن حمل اسم ثان في ظروف معينة ناجما عن الرغبة في التخفي وقد جرت العادة في العصر السلوقي على اقتباس الاسماء اليونانية ، وتظاهـر بعض الاشخاص بحمل الاسماء المأونة وغالبا ما كان بعض الاشخاص يدعي بان هذه الاسماء هبة من الملك ، وبالطبع فان الهدف هو خلق شخصيـة جديدة مفخمة .

وبالرغم من الاشمئزار الذي يظهره الادب الاشوري ـ البابلي مـن افشاء اي سر من اسراره ، الا ان بعض التدوينات كانت ضرورية ، وقـد

بذلت جهود كثيرة لجعل هذه التدوينات غامضة بقدر المستطاع . لقد كان الخوف شديدا من الافشاء غير المتعمد للاسرار ، حتى ولو كانت التدوينات معدة لاستعمال الكهان وحدهم . وغالبا ما كانت تلك التدوينات تختتم بهذه الصيغ المقدسة :ـ

قد يرى حديث النعمة هذه الشعائر التي تؤديها ولن يراها الغـريب الذي لا يختلط بسادة الكهانة ، فاذا ما تجاوز احد هذه القاعدة فلتقصر ايام هذه الارض . على المبتدىء ان يوضح هذه الشعائر للمبتدئين . وامـا من كان غير مبتدىء فعليه ان لا يعرفها فان ذلك مكروه عند الالهة ـ آنـو ـ و ـ انليل ـ و ـ أيا ـ .

سلطان الاعـداد

يعتبر سلطان الاعداد نتيجة طبيعية لسلطان الاسم • وكانت الاعـدد تعتبر وسيلة من وسائل التعبير فتضفي صفاتها الخاصة بها على الشيء الذي ترتبط به • وبسبب من خاصية الاعداد الملازمة لها ، والتي تؤلف مجموعة متنوعة غير منتهية ، وبسبب من امكانية الوصول الى نتيجة عددية واحـدة بطرائق حسابية مختلفة ، نقول بسبب ذلك كله كادت الاعداد ان تكتسب الصفة المقدسة التي ادت الى اعتبارها احد انواع اللغة القادرة على التعبير عن كل فكرة •

يتجلى احد مظاهر سلطان الاعداد في الترتيب العددي للسلطة البيئية للالهة • فمن بين هذه الالهـة يعتبر الالـه ــ آنو ــ الرب الاعلى • او ــ رب الارباب ــ وهذا بحد ذاته علامة من علامات القدم • وكان ــ آنو ــ يمتلك العدد الكامل ــ ٦٠ ــ اما العدد الذي كان ينسب لكل اله فانـه يلائم المكانة التي يحتلها في النظام العام الذي اعدته الآلهة والذي تنتمي هي اليـه •

ادرك سكان بلاد بين النهرين ، بعد ذلك ، فكرة اعطاء القيمة العددية لكل علامة في لوائحهم الترتيبية التي تحمل هذه العلامات • وكان هدفهـم من ذلك ان يكون كل اسم قابلا للتعبير عنه بالاعداد • وهكذا فانه ، اثناء بناء قصر خرسباد ، اوجد سرجون آصرة بينـه وبـين السـور الذي يمكـن بواسطته الدفاع عن القصر وذلك حين قال :ــ

لقد بنيت السور وجعلت محيطه ١٦٢٨٣ ذراعا وهـو العـدد الدال على اسمي •

وكان هذا النظام شائع الاستعمال تقريبا • ووجد نص يعطي شرحا لتعظيم عشتار وهو يرجع في تاريخه الى العهد السلوقي ويحمل هذا النص نقوشا باصطلاحات عددية لاسم صاحب اللوح واسم والده • وهذه الاصطلاحات العددية هي :ـ (٢ ـ ٣٥ ـ ٥٣ ـ ٢٤ ـ ٤٤ أبن ٢٥ ـ ١١ ـ ٢٠ ـ ٤٢) • .

ولسوء الحظ عثر على هذا اللوح الذي يضم هذه الاعداد الالغاز تالفا في مدينة ـ سوسة ـ • وقد قام بنشره ، رغم التلف الشديد ، الأب ـ فان دير مير ـ وقد نبهني عليه ج• دوسان ـ ووضعت مقابل الاعداد المقاطع الابجدية المطابقة مثل :ـ مي • با ـ ال• ل أ ••• الخ •

تشير نهاية الوثيقة الى مزيد من الادلة على حب البابليين للجناس اللفظي ذلك لاننا نجد الكلمة ـ شارا ـ مقابل العلامة العددية الخاصة بالعدد ـ ٣٦٠٠ ـ والتي تحمل الاسم ـ شار ـ والذي يعني ـ الملك ـ •

ونعود فنقول ان هناك لوحا آخر يعرف باسم ـ لوح إيساگيلا ـ وقد ترجم هذا اللوح بعدة طرق ويعطي هذا اللوح ابعاد المعبد والزقورات • وفي نهاية قائمة الاعداد تكرر النقوش الحظر المفروض على تفسير مدلولها لغير المجربين • فنحن مضطرون الى ان نستنتج بان الابعاد المسجلة رمزية ليس الا وتضم معنى غامضا •

يعود الفضل في اختراع هذه الطريقة الغامضة الى العراقيين القدماء • وقد شاع استعمال هذه الطريقة بين الرومانيين واليونانيين الذين اسموها ايسوبسفيا وقد كان هؤلاء قادرين على ايصال هذه الطريقة الى درجة الكمال بما كان عندهم من كتابة ابجدية استعملت بعض احرفها كأعداد وساعد هذا بالتالي على اضفاء قيمة لكل حرف • ثم استعمل هؤلاء نفس عملية

التحليل هذه على الاعداد تماما كما فعلوا مع الاسماء ، فادركوا بعدئذ فكرة جمع القيمة العددية للحروف التي تشكل الكلمة ، وقارنوا النتيجة مع قيمة الكلمات الاخرى وبهذه الطريقة اقاموا علاقات عددية بل وحتى معادلات متطابقة بين الكلمات .. وبهذه المحاججة سبق الحكم على — نيرون — لكي يقتل امه . وسبب ذلك ان الحروف التي تكون اسمه اضيفت الى كلمة — قاتل امه — وقد اكثر من استعمال طريقة التحليل هذه وآمن بها عن قناعة الادريون(*) وآباء الكنيسة . وبناءً على ذلك ظهر الروح المقدس عند تعميد المسيح بصورة حمامة وعددها هو — ٨٠١ — .

ولما كان حاصل جمع القيمة العددية للحرفين اليونانيين (أوساثت) اي « الفا » و « اوميكا » هو ٨٠١ ايضا ، فان الادعاء بالقول انا الفا واوميكا يجب ان يكون تأكيدا للثالوث أو التثليث فقد تم التدليل على احسان الله ، طبقا لما ذكره تيوفنيس كرميوس في موعظته ٤٤ ، بالتلازم عن طريق القيمة العددية لـ (ثيوس) ، الآله ، و « اكاثوس » اي الصالح ، في حين انه يذكر ايضا في موعظته ٣٦ ، انه لما كانت الشباك تسحب كل الـ ١٥٣ نوعا مختلفا من السمك في كرفة معجزة للاسماك ، ولما كانت هذه الاسماك تمثل الكنيسة العالمية فان « ريبكا » يجب ان يرمز الى تلك الكنيسة ما دامت القيمة العددية لها هي ١٥٣ ايضا .

لقد كانت الطريقة سائرة الى ان تثبت في نقطتها النهائية من قبل الاحبار في القبلة والذين كانوا يعرفونها باسم (جماتريا Gematria) وهو على اكثر احتمال تحريف جيومتريا Geometria الى علم الهندسة .

(*) الادريون او العارفون جماعة من الفلاسفة تقول بان المادة شر وان الخير يأتي من المعرفة الروحية للاشياء .

التورية المنطوقة والمكتوبة

لتجنيس الحروف في بدء الكلمات المتتابعة فضل كبير على تذوق مبدأ أو نظرية الاسم والاعداد التي وجدت في الماضي البعيد . ويطلق على هذا التجنيس اليوم اسم — التورية — سواء المكتوبة منها ام المنطوقة ، وبعبارة ادق ما يسمى بجمود الاسم والاعداد . ويواجهنا الان تمييز حاد . فنحن قد نفسر عبارة — التلاعب بالالفاظ — على اساس ما تعنيه من قضاء الوقت بالتسلية دون الاهتمام بالاعمق من الدلالة . لقد نظر البابليون واسلافهم الروحيون اي السومريون الى الامر نظرة جادة تماما . فنحن نعتبرها حجارة حين يذكرنا شكلها او لونها بشيء اخر ، وانها مجرد فلتة من فلتات الطبيعة ولكن البابليين كانوا يعتبرونها علامة وانذارا بوجود علاقــــة ايجابية بين المادتين وتشتد قوة هذه العلاقة اذا ما اصبحت لها اسماء مماثلة .

لقد استمرت في هذه الفترة قدرة الطبقات المثقفة على التلاعب بالكلمات المنطوقة والمكتوبة .

الاحاجي

كانت نفس النظرة هي السبب في نشوء تذوق الاحجيات التي اعتـاد مختلف الامراء ان يسألوا بعضهم بعضا عن معانيها وذلك رغبة منهم لاثبات تفوقهم الذهني الذي كان في ذلك التاريخ يعادل في قيمته القوة البدنيـة المتفوقة . غير ان ذلك يحتمل ان يكون رفضا لدفع الغرامة التي كان ثمـن الهزيمة يمثل في الغالب الدليل لخصومات مكشوفة مباشرة تقريبا .

فحين نريد ان نبحث قضية الطوفان (التي سترد الاشارة اليها في هذا الفصل) سوف تتهيأ لنا فرصة لاقتباس الجواب الذي اعطاه اوتا نبشتم(*) عندما سئل عن السبب الذي جعله يهيء إبتمداداته للرحيل .

لقد اكد للناس في ذات الوقت بالوعد بان الدنيـا ستمطر عليهم الـ (كبتـو Kibtu) والـ (ككوKikku) اي القمح والحجـر .

غير ان الجواب كان يحتوي على التورية والاحجية معا لان الكلمات تعنى « الحزن » و « سـوء الطالع » وكانت القضـية قضية اختيار المعـاني الصحيحة .

فنحن نجد ثورا من سلالة اصيلة كان يعد تفاحة في نظر صاحبه ويدعى « شرور ـ ابي » وهذا ما يقصد به « الآله شرور هو ابي » أو بصفة اقل ادعاء « مجد حقل القصب » (انظر ما سبق في الفصل الاول) .

وفي مصر في عهد سيادة الهكسـوس(**) وطبقا لاوراق البردي التي عرفت باسم مجموعة ساليير الاولى ، بعث الملـك ابيبي بالرسالة التاليـة

(*) اوتانبشتم ، هو الاسم السومري للنبي نوح الذي فصل ذكره في القرآن الكريم باعتباره المنقذ من الطوفان العظيم . وقد ورد اسمه في ملحمة كلكامش .

(**) الهكسوس او الرعاة جماعة من الشعوب السامية خرجت من اطراف الجزيرة العربية الى مصر فاسقطت حكم الفراعنة واستولت على البلاد برمتها وانشأت سلالة حاكمة خاصة بها لمدة عدة قرون .

الى « سكنيري » الذي تفصله عنه بلاد مصر كلها ، يقول لــه فيها « غادر مستنقع الجاموس الذي يقع على مقربة من طيبة لان الضوضاء هناك تصل الى «افاريز» وتمنعنـــــي من النـــوم ! » ولم يكن سكنيري ليــدرك الجواب الصحيح وادى الحادث الى نشوب الحرب .

وطرح شمشون الاحجية التاليــة على ثلاثين من الشـــبان الفلسطينيين « خرج اللحم من الآكل وخرجت الحلاوة من القوي » . فاذا ما خسر فان الغرامة ستكون جلبابا وثوبا لكل واحد منهم وبتحريض من الفتيان افضى شمشون الى زوجته بجواب الاحجية . فقد مر على اسد ميت استقر سرب من النحل الى جانبه (وذلك امر غريب لان النحل لا يحط على لحم متعفن). وقد سارعت زوجته فافضت بالســر الى الشبان الذين اجابــوا متسائلين « اي شيء هو احلى من العسل ، أو من هو اقوى من الاسد ؟ » .

وقد قال لهم شمشون : انكم اذا لم تحرثوا بعجلتي ، اي ابنة البقرة ، فلن تعثروا على جواب لاحجيتي » .

ومن ثم اخذته روح الرب فهبط الى « اسكلون »(*) وهنــاك ذبح ثلاثين رجلا واخذ ملابسـهم وبذلك وفر الملابس لاولئك الذين اجابــوا على الاحجية .

وتتحدث التقاليد عن ان ملكــة ســبأ التي سمعت بحكمــة سليمان الشهيرة ، قد وفدت عليه من بلد بعيد ، لتجرب حكمتــه ولتسألــه بعض الاحاجي(**) .

(*) هي مدينة عسقلان الشهيرة في فلسطين ، وقد ظهر منها عدد كبير من علماء المسلمين في التاريخ والفقه والادب .

(**) فصل القرآن الكريم قصة ملكة سبأ هذه تفصيلا دقيقا لا يدع مجالا للشك والتلاعب فيها . فقد بعث سليمان الى ملكة سبأ يدعوها ان تخضع لسلطانه فلما ابت بعث اليها بطائر الهدهد فاحضرها في طرفه عين ومعها عرشها الذي كانت تتربع عليه في عاصمتها واذ ذاك آمنت بسليمان نبيا من انبياء الله .

والتقاليد الاكدية والسومرية مليئة بمثل هذا النوع من الاحاجي وهي مدينة بوجودها الى صفة متشابهة من اللغة المكتوبة والمنطوقة . فقد كانت الكتابة السومرية في اقدم صيغة لها ، والتي اختارها الساميون فيما بعد ، لغة تصويرية ورمزية ، اي ان العلامات كانت تمثل اما مادة حقيقية أو فكرة ولسوف نبين في هذا الفصل كيف اصبحت تمثل المواد أو الافكار المتعددة .

غير ان العلامة السومرية كانت في طبيعتها الاصلية نوعا من احجية ، وان الكتبة كانوا يتعمدون غالبا في ان يكتبوها بالصيغة التي تكلف براعة القارىء الكثير من العناء .

وهكذا وعلى سبيل المثال ففي الوقت الذي يمكن ان يكتب فيـــه اسم صحيح مثل مردوخ شوم اودين والذي يعنى « منح الى مردوخ اسم » ، اي نسب ، بشكل متقطع فان الكلمتين معا « اسم » و « يعطي » قد تـم تمثيلهما بالعلامة «مو» وان الكاتب ربما فضل أن يكتب »مردوخ مو مو« .

وعلى غرار ذلك الاسم « سن ــ ابي ــ اوسور » اي « ياسن احـم الأخ » فانه يحتوي على عنصرين « احم » و « اخ » كلاهمـا قابـلان لان يكتبا بالعلامة « باب Pap » ، ولذلك فقد يكتب الكاتب « سن ــ باب ــ باب » .

وقد تم اقتباس مثال من هذا النوع في القسم الذي يتناول قراءة الفأل في الفصل الرابع .

ففي الامثلة التالية نستطيع ان نرى الكتبة يستعملون هذين المظهرين

من اللغة المكتوبة والمنطوقة ، وينهمكون في بحث غامض عن علم الاشتقاق ، وذلك لغرض ان يخفوا معنى كتاباتهم والتي لابد وان كانت على اية حالة غير مفهومة بالنسبة لغير المبتدئين .

ويصبح مثل هذا الامر اقل دهشة في ضوء ما كان يطبقه جيرانهم ، اي المصريون الذين كانوا يستعملون في بعض الاحيان نوعا من القانون الهيروغليفي في الوقت الذي نعتبر فيه الحروف الهيروغليفية وحدها صيانة وافية .

لباس مردوخ

لقد اجرى السيد ج. دوسان بحثا حول هذا الموضوع الذي يكشف عن عبقرية الطريقة التي استخدمها الكتبة وان كانت هذه الطريقة ما تزال في مرحلتها المبكرة ؛ وسنكرس جهودنا لدراسة مثال من احدى الطريقتين اللتين كانتا ، على ما يبدو ، اكثر الطرق شيوعا في الاستعمال (انظر الفهرس) . يظهر المثال الاول الكاتب وهو يفكر على ما يبدو ، تفكيرا اعتباطيا ثم يهتدي الى استنتاج غير متوقع تماما حين يدرك صدفة الامكانيات الكامنة في عباراته . وهكذا نجد في ــ قصيدة الخليقة ــ ان مجمع الالهة يقرر ان يفوض الى مردوخ السلطات العليا وتدفع الريبة مردوخ الى ان يبحث من تأكيد ملموس من الالهة ومن ثم تضع الالهة عباءة وسط مجلسهم وتقول للاله مردوخ مولودها الاول : تأمرك بالهدم واعادة البناء[٢٥] وسيحدث ذلك . قل الكلمة وحدها وستختفي العباءة وقل الكلمة للمرة الثانية وستظهر العباءة من جديد » .

وما ان نطق مردوخ بالكلمة حتى اختفت العباءة وما ان نطق بها للمرة الثانية حتى عادت العباءة الى الظهور .

ان اختيار العباءة لمثل هذا الامتحان يمثل ، بلا شك ، ثمرة بحث معقد للاشتقاق ويؤيد ذلك وجود فقرة متأخرة في نفس القصيدة . وتملأ اسماء مردوخ الخمسون اللوح السابع ونتيجة للمهارة الرفيعة فقد طورت العملية الى الدرجة التي ادت الى الاسلوب الخاص بالاشتقاق .

لم يكن المقطع الثاني من اسم مردوخ مخالفا للكلمة السومرية توك Tug والتي تعني ــ العباءة ــ في حين يمكن ان تعني كلمة مار MAR

(٢٥) اي بناء خلق جديد يحل محل الخلق القديم .

(المكان) وهذه هي الغاية التي قصدتها الالهة من وضع اللباس فيما بينها .
وليس هـذا كل ما في الامر ذلك لان كلمـة ـ دوك ـ Duk تعني ايضا
ـ يتكلم ـ في حين تعني كلمة ـ مار ـ معنى معاكسا علي خط مستقيم
للكلمات اي ينتج ويخلق ويوحي ، وهذا ما يفسر لنا معنى الجزء الثاني من
الاقتباس . هنالك سبب يدعونا الى الايمان بان هذه كانت هي الطريقة
التي تمثل تفكير الكاتب . ذلك لان هذا الكاتب كان يترك الاسم الحقيقي
للاله في القائمة التي تضم كنى والقاب مردوخ ، والتي تعظمه وتسميه
بالخالق . وتليها كنى اخرى تمدحه وتسميه بالمدمر . ويظهر في القائمة
كلها تأثير المهارة الاشتقاقية . ويقتبس ـ دوسان ـ اثناء دراسته للموضوع
فقرتين من اللوح السادس الذي يوصف فيه مردوخ وصفا موجزا بكونه
الخالق والمدمر والمملوء رأفة وشفقة الذي يظهر النية الحسنة للالهة . لقد
احسن صوغ هذه الاوصاف لكي تعبر عن المعاني التي يضمها المقطعان
ـ مار ـ و ـ دوك ـ .

تعطينا هـذه المعاني المختلفة ـ المادة ـ التي يمكن ان تكون
ـ العبارة ـ قد ركبت منها ، وعند مواجهة اية كلمة مفترضة فان الكاتب
يستعمل اجزاءها الممكنة لها كالموسيقي الذي يستكشف عناصر العبارة
الموسيقية في مجموعة من العناصر المتباينة ، وهو ، في سبيل ذلك : يتابع
كل نقطة حتى نهايتها المنطقية دون ان يحجب رؤيته عن الموضوع الاصلي .
لقد بيّن ـ دوسان ـ التصنع الجوهري في العملية والذي لا يترك مجالا
لاية مهارة ادبية خالصة او اي الهام شعري . واذ يبدو لنا هذا حقيقيا فقد
كان هدف البابليين تفكيك المعنى الواحد للحصول على معاني اخرى عديدة،

ولخلق اسم جديد بواسطة عملية اشتقاقية . وهكذا وبفضل مبدأ الاســم فانهم يتسببون في ايجاد حقيقة جديدة . قد نعتبر مثل هذه التأملات عملا غير مجدي ولكنه بالنسبة للبابليين يعــادل اكتشاف عنصر جديد بواســطة المجهر ، بل ان هذا العمل عندهم حقيقي كحقيقة الكائن البشري وانه يظهر لحظة اكتشافه ، وان دنيا الانسان اتسعت نتيجة ذلك اتساعا مناسبا .

وللكاتب وسائل اخرى تحت تصرفــه . فقد رأينــاه يضغط المعنى الاصلي للكلمة لكي يستخلص منها المعاني الخفية . فبدلا من مراقبته وهو يتابع هذه المعاني الخفية متابعة سهلة علينا ان نراقبه وهو يعمل على خطوط اخرى ، وان لا نسمي ذلك كلمة أو فكرة بل كتابة .

برغيب ، ملك كتك

— Braygyb, King of Ktk —

حافظت المسلة الآراميـــة التي اكتشفت في (سفري) القريبـة من حلب(*) على نص معاهـــدة عقـدت بين ـ ماتي ـ إلو Mati - Ilu ملك (انجاد) ، وبين ـ برغيب ملك ـ كتك ـ وتثبت مقارنة هـــذه المعاهدة مع المعاهـدة التي فرضهـا الملك اشـــور ـ نيراري الخامس (٧٥٣ ـ ٧٤٦ ق٠م) على الملـك (متي ـ إلو) ان الملكيين قـد شـملتهما المعاهدة ٠ ولكن من الصعب ان نفهم لماذا اتخذ ملك اشور اسما شـديد الغرابة ٠ ومن المعقول ان نفترض بانه اراد ان يستعمل اسـما مستعارا في تعامله مع الملك ـ متي ـ إلو ـ الذي كان يشك فيه كثيرا ٠ ولكن كيف امكن تحويل ـ اشـور ـ نيراري ـ ملـك اشـور ـ الى برغيب ـ ملـــك كتك ؟

يقدم السيد (ج٠ دوسان) حلا للمشكلة بواسطة البلاد الذي كتب بالعلامات ـ كور ـ والتي تعني ـ البلاد و ـ اش ـ ل ـ آشـور ـ و ـ كي ـ وهي لاحقة تنتهي بها اسماء البلدان ٠ وغالبا ما تحتوي اسماء البلدان على اكثر من قيمة لاشاراتها ٠ ويصدق هذا القول على العلامـــة الثانية من السلسلة المذكورة آنفا الا وهي ـ اش ـ التي تصبح ـ دل أو تل ٠ وينقش الكتاب هذه العلامات الثلاث محولين اياها الى الآراميـــة بواسطة عملية تعتمد ليس الا على اخذ الحروف الابتدائية ، وعلى الاخص الحـروف K, t. K اما شرح اسم الملك فانه يسير على نفس النهج ٠ اذ ان العلامة المسمارية لـ ـ نيراري ـ معقدة وتتألف من علامتين منفردتين متتابعتين وهما : بير (Bir) و ـ گاب (Gab) او ـ گا ـ - Ga -

---

(*) سفيري Sefire

وقد ادت التقاليد الآرامية الى حذف حرف العلة فكانت (برگ (Brg)
ومما لا شك فيه ان اللفظ المهموس يمثل الحرف - a - الذي تدعو اليه
الحاجة لغرض التلفظ ، واخيرا فان المقطع ــ إب ــ - yb - يمثل الترجمة
الحرفية الآرامية للعنصر الالهي الذي يقوم مقام ــ اشور ــ وهكذا فقد
اخفي بطريقة متشابهة الاسم الخاص بالعاهل واسم بلاده واصبح الاسمان
في منأى عن اي تدنيس قد يهدد من يحملهما . وهذا مثال اخر من ابتداع
الكتاب الذين ازدهرت تقاليدهم في مدارسهم ليس في بلاد اشور وحدها
ولكن فيما وراء حدودها ، وذلك في الوقت الذي بدأ فيه هوى البلاد يبتعد
عن الاشوريين وبخاصة عن الكتابة المسمارية ولصالح الكتابة الآرامية .

وهنالك طريقة ثالثة للتلاعب بالكلمات التي يراد لها ان تبقى سرا .
وتتمثل هذه الطريقة في القراءة العكسية للكلمات ، اي من الخلف الى الامام،
وتجري القراءة اما حرفا فحرفا ، واما مقطعا فمقطعا . ونتيجة لهذه الطريقة
ابدى (ف. شايل ((V. Scheil)) اقتراحا قال فيه ان الاسم الحقيقي للملك
المجوسي ــ غاسبار - Gaspar ــ هو ــ راسباغ ــ وهو اسم مكتب كبير
الساقين في البلاط الفارسي .

يمكن قراءة العناصر السومرية للاسم ــ سين ــ ابتداءا من الخلف ،
وهذا يعني ان الاسم ــ إزو ــ يقلب اولا الى ــ زوإن ــ ثم الى
ــ سين ــ وبنفس الطريقة نقول عن گال لو ــ الرجل العظيم ــ ومعكوسها
ــ لوگال ــ الملك .

الرموز الاشورية

كل دين كان يمثل الهته واعمالهم بعبارات مادية قد صورهم كـذلك في صفة تصويرية مستقرة ووفقا لذلك اضيفت على الالهة المتنوعين صفات بدنية ومعنوية ثابتة . وبالطبع فان السبب الرئيسي لذلك هو انه عند وصف الاله باصطلاحات مقبولة فان هذا الوصف ملزم بان يتطابق مع نمط فريد . وفي الوقت الذي تصمم فيه تماثيل الالهة لفائدة عموم المؤمنين بها فانها يجب ان تكون ثابتة الشكل لكي يمكن معرفتها . وامتزجت عادة وضع علامـة متميزة مع هذه التماثيل أو بعضا من توابعها بالاضافة الى ان هذه التماثيل نفسها كانت تخلق نوعا من الرموز التي تقرب التمثال وتضعـه في ذهـن الناظر ، حتى ولو كان هذا التمثال قد صور تصويرا غامضا .

كانت هذه عادة سكان ما بين النهرين الذين صنعوا التماثيل بالحجم الطبيعي . وسنبحث المدى الذي بلغته رموزهم في تمثيل الالهة . ولكـن العلاقة الشديدة القائمة بين السماء والارض كانت تعني ان كل جسـم مخلوق لابد ان ينتمي الى احد الالهة ، وان كل اداة وكل جسم وكل عنصر يستخدم عند الاحتفال ، له تفسيره الخاص به . علينا الا نوهن من هـذا اذا ما تذكرنا ان مثل هذه العلاقات لا زالت حية في علم التنجيم الذي مـا زال له العديد من الذين كرسوا انفسهم له .

وهكذا ووفقا لمصطلحات علم التنجيم الحـديث يعتبر المشتري سيارا مذكرا وحارا وفاعل خير ، وهو يبعث فكرة العدل والدين كما انه مسؤول عن الناس طوال القامة وبصورة خاصة ذوي الشعر الاحمر المائل الى السمرة (الاصحر) . واما بالنسبة للمهنة فانه يتمـادل مع القضاة واصحاب الاعمال العامة ورجال الكنيسة . وهو على علاقة بامراض الكبد وخفقان القلب . وبنفس الطريقة فان ــ الكبش ــ علامة اصلية من علامات برج الحمل في

السماء ، وهو مذكر ومرتبط بالنار ، ومسؤول عن الاشخاص الصريحين المستقلين والمنبسطين ، وهم ذوو الشعر الاسمر والقامات المربوعة ، كما انه يتحكم في الرأس والوجه والامراض التي تصيبها • وهو على علاقة خاصة ببلدان انكلترا والمانيا والدانمارك وفلسطين وسوريا ومدن نابولي وفلورنسا (في ايطاليا) ولونه احمر ويومه الثلاثاء واما حجارته فهي نوع من الياقوت الازرق • وهكذا بالنسبة لبقية الكواكب السيارة والعلامات الموجودة في منطقة البروج في السماء •

وآمن سكان العراق القدماء بمثل هذه فلذلك اعتبروها ذات اهمية كبرى بالنسبة لاحتفالاتهم ، وهم يريدون منا الا نعتبرها مجرد شعوذة لا معنى لها ، وعلى النقيض من هذا الظن فان كل امر مفصل كان موضع كثير من التفكير ، وكانت صفاته تحدد تحديدا دقيقا ، تساعد المؤمن بها على ان يستكشف عالما جديدا كاملا اثناء ادائه مراسيم الاحتفال •

تلقي بعض الالواح والتي تعرف باسم ــ التعليقات ــ الاضواء على هذه الرموز ، ونحن لا نريد ان نشغل انفسنا بها جميعا ولكن سنقتصر على بعض الامثلة زيادة في التوضيح •

اننا نعرف ان وعاء الماء المقدس (اغابو) يرمز الى ملكة التعاويذ ، اي شجرة الطرفاء ، و ــ انو ــ ، الى اكليل النخلة و ــ تموز ــ الى القصبة ، وننورتا الى شجرة الارز ، و ــ ادد ــ الى الفضة وهي (القمر) ، والذهب هو الشمس ، والنحاس هو ــ ايا ــ والرصاص هو نينماه ، والمجرة هي الآله ــ أوراس ــ والشعلة هي گيبيل والجبس هي ننورتا • واما العاصفة فترمز الى السلاح ذي الرؤوس السبعة لشجرة الغار ، والشيء بالشيء يذكر فان الخرافات لا تزال تعتبر شجرة الغار ابعد من ان يصيبها البرق •

وعند قراءة التعاويذ فان انواعا عديدة من الاشكال توصف بانها الصور

والصلب وركبة المريض • ولعله من غير المفيد التعمق في هذا الموضـــــوع
ولكن من الممكن ان تتصور انه عند سكب الماء المقدس للحصول على المطر
من آله الخصوبة العظيم ، فان استعمال اناء الشراب ــ اغابو ــ مع وضع
قطعة من شجرة الطرفاء أو جذع النخل في الاناء النحاسي الذي سيسكب
فيه الماء المقدس ، كل هذه الاعمال تتطلب حضور الالهة التي من اجلها
تحدث هذه الاعمال وهكذا تصبح صلاة المؤمن اكثر فعالية وجدوى •

المعرفـة

الكتابة ، تربية وتعليم الكاتب

تقدم الكتابة في العراق القديم ميدانا شيقا للدراسة اذ ان عددا كبيرا غير مألوف من الوثائق المكتوبة ما تزال موجودة ، كما تمس الكتابة الحياة اليومية في جميع نقاطها . اما تعقيد هذه الكتابة وصعوبتها ، والتي هي اكبر بكثير من التعقيدات والصعوبات الموجودة في النقوش الغربية ، فانها تعني ان الكتابة من الاعمال الفكرية المقتصرة على جماعة معينة وبخاصة طبقة الكتبة الذين يتحملون مسؤولية المحافظة على المعرفة ونشرها والذين كانوا يرتبطون من قريب أو بعيد بالكهانة ، حيث يمكن الحصول على الكتاب من كل الطبقات الاجتماعية . ولكن هناك حقيقة تقول انه كان من بينهم ابناء واقارب لحكام المدن والامراء .

والواقع انه لم تتوفر لنا صورة كاملة تظهر لنا ما كان عليه الكتاب العراقيون القدماء ، كتلك التي يرسمها الكاتب المصري نقلا عن زملائه . ومع ذلك فنحن نقول ان المهنة كانت صعبة بلا شك ، وكان من العسير ان تتقن وانها كانت تتطلب دراسات طويلة . والحقيقة ان هناك مثلا يقول ان على الكاتب الذي يريد الكتابة ان ينهض مع الشمس . لقد كان الكاتب المؤهل يلقى الاحترام الشديد . واذا اردنا ان نبحث عن المعنى الخفي في المثل السابق فاننا نقول ان الكاتب الذي له مهارة معترف بها يشرق كالشمس يقول احد سجلات اشور بانيبال منح اذنين عظيمتين (اي ذكاءا شديدا) من قبل ـ نبو ـ وقرينته (تاشميتم) .

ويبدو ان الاشوريين كانوا يساوون الذكاء بالذاكرة ، وقد مكن هذا الذكاء اشور بانيبال من ان يعرف ويتقن علامات الكتابة المسمارية .

(يستعمل الكاتب في تعبيره عن هذه العلامات نفس الكلمة التي يستعملها لوصف الترقيش على جلد النمر) • لقد كان هناك العديد من المتطلعين الى مثل هذه المهنة التي تثير الحسد ، ولم تخل المهنة من كاتبات كن يزاولنها • ولاسباب ستظهر حالا كان الكتاب يتخصصون في احد الفروع المتنوعة كالمعابد والاعمال التجارية والجيش والطب ، والكهانة ، وكان هؤلاء المتخصصون يبدأون دراساتهم في سن مبكرة •

تكاد الحفريات تكشف في الغالب من بين محتوياتها كالمعابد ، عن الواح تضم تمارين كتابية مارسها الاطفال وقد وجدت مثل هذه الالواح في ـ سيبار ـ و ـ ماري ـ (تل الحريري) حيث كشف عن مدرسة حقيقية يدرس فيها الكتاب الصغار • وكانت المدرسة تتألف من غرفة متوسطة الحجم ذات مقاعد طينية ثابتة ، وعدد من الاواني الفخارية الكبيرة والتي سنتعرف عليها فيما بعد[٢٦] • كان على التلاميذ في هذه المدرسة ان يرددوا العبارات التي صيغت لهم من قبل ، كما كان عليهم ان يستنسخوها عن جملة نموذجية مكتوبة في اعلى لوحهم ، في حين يستمرون في الاستظهار التدريجي لتعابير مختلفة ترتبط بالعمل الذي يتخصصون فيه • كانت المعرفة تتألف في القدرة على الانتاج ، ودون تنبيه ، في عبارات معينة ومناسبة لموقف معين وكذلك مع اتقان هذه العبارات اتقانا يجعلهم قادرين على ربط هذه العبارات مع بعضها بشكل مستقيم • وكان لكل حقل ادبي مفرداته الخاصة به • وكان الكاتب يعتبر جيدا اذا ما اتقن معرفته جيدا • وهذا يتطلب منه الذاكرة وليس الفكر الاصيل • وكان الشيء الذي يسأل عنه هو تنظيم المعلومات التي يحملها في دماغه تنظيما صحيحا •

---

(٢٦) للحصول على وصف مفصل معزز بالصور انظر المقالة المعنونة « اقدم مدرسة في العالم » نشرت في الملحق الادبي لجريدة التايمس اللندنية في العدد الصادر في ٣١ تشرين اول سنة ١٩٥٢

قد نجد الامر صعبا عندما نواجه باعمال فنية كالنقوش قليلة البروز . وسبب ذلك هو اننا قد لا نعرف يد اي فنان ساهمت في صنع مثل هـذه الاعمال . ويصدق نفس القول ، بصورة متساوية ، على الوثائق المكتوبة . ومما لا شك فيه انه ما من كاتب يسلم باصالة يمكن ان تعتبر في غير مكانها. ان هذا يوضح لنا لماذا كان على الكتاب ان يتخصصوا . ذلك لانهم وان كانوا سيتفوقون بصورة ممتازة في حقل محدود من المعرفـــة الا انهـم سيكونون قليلي الفائدة اذا ما اصبحوا « ذوي سبع صنايع » .

كانت المدارس التدريبية موجودة دائما في البنايات الملحقة بالمعابد . وفي العهد البابلي الحديث نجد ان الكتاب (والاسم المعتاد لهم هو توبشار Tupshar ومعناه من يكتب على الالواح) كانوا يوصفون في العقـود بكلمة ــ شانگو ــ Shangu ومعناها الكاهن(*) .

لن نكون موغلين في الخطأ اذا ما فكرنا بوجـود صف من الكتـاب يبدو وكأنه مدرسة يداوم فيها الطلاب . ويمثل هؤلاء الطلاب كتبة تحت التمرين وهم يجلسون على مقاعد ويتلقون من استاذهم لوحا دونت عليه جملة يستظهرونها ويستنسخونها في وقت معا . اما التمارين المعطاة لهـم فكانت على العموم منقوشة فوق لوح محدب قليلا . وهذا يفسر لنا سبب وجود احواض الماء الصغيرة القابلة للنقل والموضوعة بين المقاعد . وتحفظ في هذه الاحواض كميات ضرورية من الطين الذي يعجن ويكيف حسب الطلب .

وفي العهد الاشوري الحديث ، كانت وثائق العقود مستطيلة الشكل بصفة عامة وكان عرضها اكبر من عرض الالـواح المستعملة في الرسائـل العادية ، والتي يكون احد وجوه الواحها محدبا قليلا كالوسادة الصغيرة .

(*) هذه الكلمة البابلية مأخوذة عن الكلمة السومرية سانغا وتعني الكاهن أيضا .

اما الالواح التي استعملت في الامور المتعلقة بالمعابد فقد كانت اكبر حجما قليلا من الالواح السالفة . وكانت الطريقة الواقعية التي اتبعها الكاتب تتمثل في ان يأخذ الكاتب اداة الكتابة (وهي عادة وبكل بساطة قطعة من القصب) تكون احدى نهايتيها مقطوعة قطعا مائلا يشبه القطع الموجود على فوهة الناي . ووظيفة هذه الاداة ليس لتتبع العلامات بل لرسمها على الالواح . وعند الكتابة تبسط نهاية الاداة قليلا أو كثيرا على الطين ، وتصاغ الرموز بواسطة سلسلة من الضربات الخفيفة ، ومن نتيجة هذه الضربات تتكون ذيول ذوات اطوال متباينة ، ويتوقف ذلك على الزاوية التي يمسك بها الكاتب الاداة وهذا هو السبب الذي يجعل الرموز تشبه المسامير ، ومن اجله سميت الكتابة بالكتابة المسمارية .

بعد الانتهاء من كتابة اللوح يترك ليجف . وكان مثل هذا اللوح عرضة لان يتهشم ولاجل اطالة عمره بصورة غير محدودة فانه يشوى في تنور فيتحول الى طابوقة صغيرة قادرة على تحمل عوادي الزمن والرطوبة ولا تتحطم الا اذا ضربت ضربا شديدا .

ان كل من يجرب الكتابة بواسطة المرقم(*) على الواح الطين سوف يكتشف ان كتابة اي شخص تشبه كتابة الشخص الاخر ، وان ليس

(*) هو القلم الذي تكون احدى نهايتيه مستدقة .

للبصمات الاسفينية اية خاصية فردية . كانت الوسيلة التي تتبـع انـذاك للاطمئنان على سلامة النصوص المكتوبة ، وحفظها من التلف ، هي في ان توضع الرسالة أو العقد في داخل غلاف طيني دقيق كان يؤدي خدمة تشبه الخدمة التي تؤديها اغلفة أو ظروف الرسائل الحديثة . واما عن الرســالة فان عنوان المرسلة اليه كان يكتب انذاك خارج الرسالة ، اي على الغلاف ويختم بختم المرسل . واما العقود فانها كانت تختم باختام الشهود مـــع وجود نبذة من النص على الغلاف واذا كان الغـلاف غير مكســور فان الرسالة والعقد لا يصيبهما التلف .

اما الوثائق المطولة قليلا والتي تتطلب بضعة الواح فانها كانت ، بعد ان تكمل كتابتها ، توضع فوق رفوف مسننة ، وتنقش الكلمات الاولى من النصوص على حوافي الالواح . وهذه الطريقة تشبه الطريقة الحديثة المتبعة في تنظيم المناشير البابوية حسب كلماتها الافتتاحية .

لم يكن الخط المسماري ، في الحقيقــة ، اكثر من اشكال اسفينيــة وخطوط . وهو ، بلا شك ، من اكثر الخطوط استعمالا في الزمن القديم . فقد استعمل ، على الرغم من بعض التباينات ، في البقاع الممتدة من اواسط آسيا الصغرى حتى بلاد فارس ، اما الكتابة المصرية ، أو على الاقل شكلها الهيروغليفي ، فانها عانت شيئا من التغيير عبر التاريخ ، وكان هذا التغيير يميل دائما باتجاه الخط الاشتقاقي المبسط ، ثم اصبح ، بعد وقت مناسب ، يؤلف نوعين من الخطوط : اولهما الخط الخاص بالكهنة ، وثانيهما الخط الخاص بعامة الشعب او ــ الخط الديموطي .

اما الخط المسماري فانه كان يستعمل في مساحة محددة ، الا انه ما ان يثبت ويستقر حتى تختفي منه التباينات ولو انه كان قبلا عرضة لكثير من التغيرات الواسعة .

تطور الكتابة

حلت الغاز الكتابة الاشورية قبل مائة عام تقريبا وبعد ذلك بعشرين أو ثلاثين سنة ظهر نوع من الشك سببه الرأي القائل ان الخط الاشوري سليل منحط لنوع معين من الخطوط التي تختلف عنه كلية والذي يشبه الى حد معين الخطين المصري والصيني .

وكان هذا الخط نفسه قد عانى هو الآخر تغيرا جذريا عن شكله الصوري . لقد تعزز هذا الرأي عند اكتشاف عدد قليل من الالواح التي اوحت بان بعض العلامات كانت لها اشكال مختلفة تماما ، وذلك في فترة اسبق .

وظلت الامور على هذا الحال الى قبل عشرين سنة(*) حين مكن اكتشاف عدد من الوثائق من اقرار مشكلة اصل هذه الكتابة .

لقد ظلت حضارة بلاد بين النهرين ولعهد طويل امتد الى ما لا يقل عن الف عام ، تجهل الكتابة واستعمال المعادن(٢٧) . ويعرف هذا العصر باسم ـ عصر العبيد ـ وتقع نهايته في عام ٣٤٠٠ ق.م ، وبالرغم من ان فن الكتابة لم يكن معروفا بعد الا ان اسس هذا الفن قد ارسيت في المقاطع الصورية المعبرة عن الافكار . وقد امكن الحصول من مقابر ـ سوسة ـ والتي تعود الى عصر العبيد على فخاريات ذات زخارف سود مرسومة فوق ارضية خضراء مصغرة . ويبدو ان الرسوم ثمرة جهد كبير ، ويوحي تطورها بان

(*) بالنسبة الى الوقت الذي نشر فيه هذا الكتاب باللغة الفرنسية وذلك سنة ١٩٥٤

(٢٧) تشير الدلائل المتوفرة في الوقت الحاضر الى ان استعمال المعدن كان معروفا في ذلك العهد وان لم يكن شائعا .

هناك صلة مع ماض بعيد الغور . اما مواضيع الرسوم فمأخوذة من اوساط الحيوانات ، وقد ادت الجهود التي بذلها الفنان لانتاج هذه الاشكال الى معالجتها على اسس هندسية ، ويمكن اثبات هذا من وجود كل مرحلة متوسطة بين الامثلة الاحتياطية . خذ مثلا افريزا من الطيور المائية فنجد في المرحلة الاولى ان الاقدام غير موجودة ، وان الرقاب مشرأبة بشكل يجعلها تبدو وكأنها نوطات موسيقية . اما في المرحلة الثانية فان الفنان يجرد الجسم ولا يترك شيئا الا مجموعة من الخطوط العمودية (الرقبة) المنتهية بما يشبه المنقار .

اما الوعول فانها ترقق الى درجة تجعلها مجرد مثلثين متلاحقين . ويبدو الرأس والذنب مجرد زوائد غريبة . كما ان القرون قد كبرت بصورة غير متناسبة ، اذ جعلت في شكل دائرة فخمة على رأس الحيوان وغالبا ما كانت هذه الدائرة تحتوي على دائرة اصغر منها ، او على مربع .

ويضم هذان الشكلان بدورهما شكلا مختلف التصاميم . فتارة سلسلة من الخطوط المتموجة ، وتارة اغصان مورقة . ويتوضح معنى هذه الزخرفة من الفخارية موضوعة البحث والتي يراد منها ان تحفظ الطعام والشراب في الحياة الاخرى .

وجدير بالذكر ان المصريين كانوا يرسمون مشاهد من حياة الانسان الميت . وهم قد فعلوا ذلك في القبور من العهود المبكرة وعلى دكاك دفن الموتى ، وكان الهدف من هذه المشاهد هو ان يعيشها الميت وانه قد يتغذى على حصاده . اما سكان ــ سوسة ــ والذين كانت قبورهم تحفر مباشرة في الارض ولا تبقي مجالا للرسم ، فانهم كانوا يرسمون مثل هذه المشاهد ولكن بصورة مختصرة ، على اسطح الزهريات وكانوا يعتقدون انهم بهذه الوسيلة يمكنون الموتى من ان يتغذوا على الطيور المائية التي اصطادوها

واخذوها (ويضمن اسر هذه الطيور بعملية رسمها على فخارياتهم • انظر ما سبق في هذا الفصل •) كما انهم سيتمكنون من اصطياد الوعول والامساك بها من ذقونها (وهذا ما يشير اليه الغصن داخل دائرة القرون) ويكون الصيد في الارض المنبسطة او عند المورد ، (وهذا ما يشير اليه شكل المربعات والخطوط المتموجة والتي هي رمز الماء ، وهذه اقدم طريقة اتبعها المصريون وكذلك العراقيون القدماء في الرمز الى الماء) •

قد لا يمكن اعتبار هذه الرسوم كتابة بل انها تمثل نوعا من المرحلة التمهيدية المبكرة والتي استعمل فيها التصوير للتعبير عن الافكار بواسطة الصور • ويبدو ان هناك تماثلا مع التصوير الادبي الصيني • واذا ما نظرنا الى الامر بمعزل عن غيره فان هذه الطريقة لا تبدو تعبيرية بصورة جيدة على الرغم من وجود جدول مائي وشجرة مزهرة وسحاب وواحد أو اثنين من الطيور المائية • ولكن العادة جرت على اعتبار ان كل صورة من المجموعة لها معنى عميق يقود الناظر الى ابعد مما يرى • فنحن نجد مثلا ان انواع الاشجار تمثل الربيع ، كما ان الطريقة التي رسمت بها السحب تحمل معنى مرور العاصفة ، اما الطيور فتشير الى وقت النهار • وهكذا يبعث عالم كامل من وراء المظهر الشكلي ، ويعاد خلق الكون بواسطة الخيال • ولم يكن عمل الرسام اكثر من ان يلمح اليها •

وزيادة على ذلك فأن هذا المفهوم عن التصوير كتمهيد للكتابة يتناسب تماما مع ما نستطيع ان نتعلمه من النصب التذكارية القديمة والمعاصرة والتي تكشف عن نفس الخصائص التي تكشف عنها الرموز المكتوبة وهكذا فاننا نجد في نصب (اطلق عليه اسم القاعدة الدائرية محفوظ في متحف اللوفر) ان الابهام يظهر طويلا طولا غير متناسب وهو يتجه الى الوراء (وتظهر الالواح الصدفية التي اكتشفت في كيش) القدم مقوسا تقوسا

مبالغاً فيه ، وتتجه الاصابع الى اعلى ، ولا تظهر حظيرة الغنم ، المرسومة عليها ، والمحفورة ، تمس الصورة المظللة التي تشبه الجرس ، وذلك اذا ما نظر اليها من الجانب القصير الذي يضم المدخل ، ويظهر في هذه الحظيرة العمود الاوسط لها والمؤلف من مجموعة من القصب •

اما في العهد اللاحق فنجد ان هناك كتابة في الحضارة المعروفة باسم حضارة ــ الوركاء ــ (حوالي ٣٤٠٠ ــ ٣٢٠٠ ق٠ م) وهي معاصرة لاستعمال الاختام والمعادن ؛ ولم يكن الخط في اول اطواره اكثر من وسيلة حسابية تستخدم بعض العلامات لتظهر العدد المشمول في العملية بجانب الاجسام التي كان رسمها مبسطا • وبكلمة اخرى فاننا نقول ان ذلك الخط كان كتابة صورية حقيقية • واذ كان من السهل التعرف على بعض الاجسام الا ان هناك اجساماً اخرى تخلق مشكلة صعبة جدا ، ويمكننا ان نفهم هذا بسهولة ما دام ان كل جنس يتطلب علامة منعزلة • وبناءا على ذلك فان العديد من السوائل المختلفة تتطلب ادوات مختلفة كانواع الاواني التي يسهل تمييزها ، وقد اكتشفت (٦٢٠) لوحة من هذا العصر وهي تكشف عما مجموعه (٨٩١) علامة مختلفة •

يعرف العهد الذي تلا العهد السابق ذكره باسم ــ عصر جمدة نصر ــ وقد دام حتى عام ٣٠٠٠ ق٠ م • وهو لا يتميز الا بظهور نوع جديد من الفخاريات وما عدا ذلك فانه يمثل تطورا طبيعيا للعصر السابق ليس الا • وتوقفت في هذا العصر عملية ازدياد العلامات ، وقد بلغ عددها ــ ٤٣٧ ــ علامة ، ويعرف العصر الذي جاء بعد العصر المذكور باسم ــ عصر فجر السلالات المبكر ــ وقد شهد هذا العصر عملية الاختبار في العمل ، ومع ان الكتبة لم يقللوا من عدد العلامات حقا ، الا ان البعض منها كان يستعمل بصورة مستمرة • وامكن الوصول بعد ذلك الى درجة اكتفي عندها بثلاثمائة علامة ، واعتبر هذا العدد كافيا لقراءة النص العادي •

يشير هذا العدد بالرغم من ضخامته الى انقاص لا بأس به في عدد علامات عصر الوركاء البالغ عددها تسعمائة علامة .

لا نعرف المبادىء التي كان سكان العراق القدماء يصنفون بموجبها لوائح ابجديتهم . ولكن يبدو انه كان لكل علامة اسمها الخاص بها والذي قد يشكل احيانا احد معانيها ، وبالرغم من ان الاسم كان غالبا ما يشير الى خاصية من خصائص العلامة نفسها . مثال ذلك ان العلامة ـ مو ـ - Mu - تتألف من اسفين افقي متبوعة بمجموعة من اربع خطوط قصيرة ، في حين نجد ان العلامة ـ زر ـ - Zer - متماثلة الا انها تنتهي بثلاثة خطوط قصيرة تعرف باسم ـ موفير المنتهية ـ .

لاقى هذا التبديل عونا كبيرا من التغيير الاساسي في الكتابة • وكما قلنا فان العلامة كانت تمثل في الاصل شيئا واحدا • ولم تكن هناك طريقة للتعبير عن الافعال والصفات والضمائر وتصريفات الاسماء ، كما لم تكن هناك امكانية لانجاز مثل هذه الامور دون وجود نوع من الاتفاق العام بين الكتبة الذين كان بامكانهم اضافة معاني ثانوية الى العلامات • فمثلا اذا ما تصورنا ان الكتابة الحديثة تتألف من صور لاجسام معينة ، وان صورة الحصان كانت تقرأ ـ حصان ـ فان الصورة اياها يمكن ان تعطي معنى ـ السرعة ـ في الحركة أو في السفر أو المسافة التي يشملها السفر • ولا تطرح هذه الافكار نفسها بصورة مباشرة ، كما ان معانيها لا تتوضح مباشرة بصورة الحصان التي سيكون معناها الاولي عاملا للمفهوم البسيط عن الحصان • ويتوقف كل شيء على تقبل المعاني الاخرى التي تحملها العلامات ، وهذا ما يجعل الكتابة بعيدة عن متناول كل انسان ، ويحولها الى امتياز خاص بطبقة واحدة هي طبقة الكتاب • وهذا بحد ذاته لا يفي بالدرجة المطلوبة ، اذ ليست الكتابة بهذا المعنى الا مجرد مفردات لتعابير وافكار لا يمكن استعمالها • وهذه هي النقطة التي تحولت عندها الكتابة من الشكل الصوري الى الشكل المقطعي ، واما بالنسبة لنا فنحن قد الفنا الكلمات التي يمكن أن تفرق الى مقاطع ثم حروف • وتبدو العملية طبيعية • ولكن اكتشاف ذلك لم يكن بالامر اليسير الذي امكن العثور عليه بيسر •

وما ان تم استيعاب المبدأ حتى سارع الكتّاب الى تكوين فكرة عن اعطاء كل علامة قيمة (معنى) المقطع الاول للكلمة التي تمثلها هذه

العلامة . فمثلا نجد ان العلامة الخاصة بالحصان تكون لها قيمة المقطع الاول منها وهو (حصا) . اما علامات الكلمات الاخر التي تبدأ بذات المقطع من امثال (حصاة) أو « حصاد » فان لها ذات القيمة .

وتتيجة لذلك فان علامة أو رمز مفرد يمكن ان يكون له أو لها ، في هذه المرحلة ، عدة معاني ؛ وعلى نقيض هذا نجد ان معنى واحدا يمكن ان يكون له عدد من العلامات . وهكذا اصبحت المجموعة باكملها من اختصاص الخبراء ، وتحولت الى مهارة علمية راقية وشديدة التعقيد ، الى درجة ان الرجل العادي لا يمكن ان يدركها . ولو حللت المقاطع الى الحروف التي تكونها لكان الموقف سليما .

وفي الحقيقة اتخذ المصريون هذه الخطوة ولكن بما انهم لم يشملوا بهذه الخطوة بقية المجموعة في نفس الوقت ، والتي كانت انذاك فائضة ، فقد نجحوا ليس الا في اضافة مزيد من التعقيد الى كتابتهم . اما سكان العراق القدماء فانهم لم يذهبوا ، من جانبهم الى ابعد من عزل حروف العلة . فكانت النتيجة ان مثلت العلامات المتماثلة في الكتابة العراقية القديمة في شكل اجسام وافكار واحيانا مقاطع بل وحتى حروف . وعلى العكس من ذلك فانه يجوز ان يكون لكل علامة عدد من المعاني والقيم ممثلة في الاجسام والمقاطع والحروف ، وغالبا ما كان ذلك يتسبب في مضاعفة قيم العلامات الاخرى .

اما وقد تحدثنا بما فيه الكفاية عما تعنيه العلامات فان علينا ان ندرك انها لم تحافظ على شكلها البدائي . ولقد بحثنا فن الكتابة الحقيقي في الفقرات التي اتت على ذكر مدارس اعداد كتّاب العلامات . لقد بدأ الكاتب يدرك ان اية خطوة لرسم اي جسم على سطح من الطين الطري بواسطة المرقم ستكون غير دقيقة طالما ان أي ضغط لرسم خط منحن

سوف يتعرض لأن يكون مصحوبا بصدوع تشـوه الشكل العـام للخط وذلك اذا كان هذا المنحني اعمق من الخدش الواهي • ويسرع الكاتب الى ان يرى ان الطريق الوحيد للتغلب على هذه الصعوبة هـو في ان يضغط رأس القلم على لوح الطين لطبع العلامة وليس لرسمها ، وهـذا يعني ان المنحنيات تتحول الى خطوط متقطعة • ونتيجة لذلك اصبحت الكتابـة خطية ، واكتسبت بالتدريج الصفة المسمارية • كانت العملية بطيئـة وظلت تتطور في اثناء استمرار الكتابة العراقية القديمة • وآخر ما لدينا من نماذج ترجع في تاريخها الى بداية العصر المسيحي •

كان الخط المسماري يكتب ، اصلا ، من اعلى الى اسفل بشكل اعمدة متوازية ، ومن اليمين الى اليسار • وغالبا ما كانت يد الكاتب تشـوه أو تمسح الاعمدة السابقة • وبناء على ذلك اصبح طبيعيـا ان يدار اللـوح بزاوية قائمة الى اليسار ، وان تكتب العلامات بصورة افقية ؛ ثم صارت الكتابة تقرأ كما تكتب ، اي بشكل اسطر افقية تجري من اعلى الى اسفل اللوح ، وتكمل قراءتها على التوالي من اليسار الى اليمين • وكانت النتيجة ان ظلت اللغتان الاكدية والحبشية هما الوحيدتان بين اللغات الساميـة اللتان تقرءان بنفس الطريقة التي تقرأ بها اللغات الاوربية ، وهـذا يعني بالطبع انه لكي تكتشف الشكل الاصلي للعلامة لابد ان تدير اللوح بزاوية قائمة الى اليمين ، وهكذا تعيد العلامات الى وضعها الاصلي •

وبمرور الزمن عانت الكتابة ، التي صارت الان مسمارية حقا ، مزيدا من التحويرات الهامة ، كما انها كانت تعرف باسم الكتابة الاكدية في اثناء العصر الذي سبق تقسيم بلاد بين النهرين الى مملكتين منفصلتين • وعندما وقع هذا التقسيم نشأت وتطورت بصورة تدريجيـة بعض الفـروق بين الكتابتين الاشورية والبابلية على التوالي • فلقد مالت الكتابة الاشورية الى

اطالة وزيادة العلامات الافقية ، في حين اظهرت الكتابة البابلية ميلا نحو ابقاء علاماتها بشكل اشرطة تشبه الرقم ٧ أو ٨ .

لقد توضحت قوة تأثير حضارة بين النهرين على سكان آسيا الغربية ، من خلال الطريقة التي استعار بها جيران هذه البلاد خطها اذ تبناه الحثيون والميتانيون بسرعة ، في حين تقبل العيلاميون مبادئه ولكنهم اصطفوا لانفسهم الخط الخاص بهم والذي كان يحتوي على بعض الفروق الكبيرة . بعد ذلك استخدم الفينيقيون الشماليون والفرس الاخمينيون خطا قام على اسس مختلفة ، بالرغم من انه كان مسماريا . وتعود هذه الفروق بصورة صميمة الى تاريخ الابجدية .

فك الرموز

كان فك رموز هذا الخط أو هذه الكتابة امرا بالغ الصعوبة • ففي البداية لم يستطع احد ، بعد ان جوبه بلغة غير معروفة مكتوبة بخط غير معروف ، ان يدرك وجود اي حل ما عدا وجود نقوش مكتوبة بلغتين احداهما معروفة والاخرى مجهولة • وحدث مثل هذا عند قراءة الكتابة المصرية بعد الاستعانة بكتابة يونانية موازية ؛ ولم تأت الجهود التي بذلت في اوقات مبكرة بشيء يزيد على كشف معاني بعض العلامات وذلك عندما تم العثور على كتابات منقوشة ليس بلغتين ولكن بثلاث لغات •

لقد تنبه السير هنري رولنصون في احدى حملاته ، الى وجود نقوش ضخمة محفورة على وجه صخرة على الطريق بين كرمنشاه وهمدان وقد تبين ان تلك النقوش تمثل وصف دارا لوقائع اعادة فتح بلاده وانتصاره على رعاياه المتمردين والمطالبين بالعرش • ولم تكن هذه الوقائع معروفة حتى ذلك الوقت • كانت الوقائع في شكل ملحمة طويلة ذات ثلاثة اقسام • وكانت علامات القسمين الاولين معقدة ، وفيها الكثير من التباين ، في حين كان القسم الثالث مبسطا ويكثر فيه التكرار •

انهمك الباحثون في قراءة القسم الثالث وفك اسرار رموزه • ووجد احتمال يقول ان اكتشاف النقوش في بلاد فارس يوحي بان لغة هذه النقوش فارسية كما ظهر شيء من التماثل مع الافيستا والزندة المكتوبين بهذه اللغة[٢٨] •

وزيادة على ذلك فان تشابه بعض العلامات التي تتكرر في البداية توحي باحتمال كون هذه الكتابة المنقوشة مرسوم ملكي • ومن الكلمات المكررة نجد (الملك ، بن •••) ومن المحتمل ان تمثل الكلمات المتداخلة

---

(٢٨) الافيستا ، هي الكتب الفارسية التي تحتوي على الاعمال المنسوبة الى زرادشت ، اما الزنده فانه من اقدم المخطوطات الفارسية •

اسماء اشهر ملوك الاخمينيين . لقد كانت معالجة المشكلة سليمة . وبعد العديد من البدايات الفاشلة تبسطت المهمة بوجود علامة تدلل على وجود الفواصل بين الكلمات فتمت السيطرة على النص وشخص على اساس انه نص فارسي قديم.

وفي عام ١٨٦٢ نشر ـ ف. شبيگل F. Spiegl كتابا يضم قواعد ونصوص وترجمات ومفردات اللغة المكتشفة حديثا . واخيرا حصل الباحثون على ما كانوا يريدون واعني النقوش المكتوبة بلغة معروفة لتكون مفتاحا لنقوش مكتوبة بلغة غير معروفة .

لم يكن بالامكان الحصول على نتيجة من احد النقشين المتبقيين ، والذي كتب باللغة المحلية العيلامية ذات الصفة الاسيوية والتي كان عدد قليل من كلماتها معروفا . اما النقش الثالث فكان بالاكدية وهي لغة بلاد بين النهرين الشائعة والتي تفرعت الى البابلية والاشورية ؛ واذ تشير بساطة وقلة عدد العلامات نسبيا في النقش الاول الى استعمال الابجدية فان النقش الثالث يوحي بالكتابة المقطعية بسبب من كثرة علاماته المعقدة . ولقد ذهل الذين فكوا رموز هذه النقوش حين وجدوا انهم كانوا اثناء اقدامهم على العمل يواجهون من حين لاخر بعلامات لا يمكن ان تربط بالعلامات السابقة لها واللاحقة ، اي ان تلك العلامات كانت صورا تمثل فكرة كاملة لا علاقة لها بالكلمات الاخرى . وبالرغم من كل هذا فقد عرفت اسرار هذه النقوش وفكت رموزها ما عدا بعض النقاط المعينة منها . وقد دهش المترجمون اثناء عملهم من التشابه الموجود بين لغة النقوش وبين اللغتين العربية والعبرية بل وحتى بين اللغات السامية

الاخرى . وزيادةعلىذلك فانالحاجة الى القاموس الذي بحوزتنا الان، جعلت دارسي اللغة الاشورية يحصلون على معرفة بلغات سامية اخرى لكي يكتشفوا في المفردات الاشورية جذرا فعليا يمكنه ان يعطيهم المفتاح الذي كانوا يبحثون عنه ولا زالت هناك بعض المظاهر غير المعروفة في اللغة الاشورية ولكن يمكن استجلاؤها بالرجوع الى سياقها . واذا ما بذلت جهود لتتبع الكلمة غير المعروفة فانها ستظهر عاجلا أو آجلا في احدى الفقرات وسيصبح معناها واضحا .

ان مثل هذا الفك لرموز لغة معينة لا يعني انه لاقى قبولا تاما لا سيما وان العلامات في هذه اللغة لها قيم مختلفة في مناسبات مختلفة ، أو انها تارة تمثل مقطعا منفردا وتارة كلمة باجمعها وبصورة متبادلة .

تقرر اجراء اختبار لشراح هذا العلم الجديد باشراف الجمعية الملكية الاسيوية في لندن ، واعطي للمشتركين نص غير منشور فعمل كل منهم بطريقته الخاصة . وعندما قورنت الترجمات في النهاية وجد انها متشابهة حقا ، ما عدا بعض التفاوت البسيط . وكان هذا الاختبار بداية لسيل متواصل من الترجمات ولم يطل الوقت بالمترجمين حتى اصطدموا بنصوص مكتوبة بلغة اخرى .

لم يكن بالامكان تقدم علم الاشوريات دون وجود النصوص المكتوبة بلغتين . وقد اتضح انذاك انه ليس من الممكن النظر في حضارة بلاد بين النهرين دون التعمق في معرفة اللغة والذين يتكلمونها . وكانت اللغة السومرية هي اللغة غير المعروفة ، وكانت لغة شعب انشأ وطور حضارته الخاصة به في الجزء الجنوبي من بلاد بين النهرين وهذه هي الحضارة التي اقتبسها الساميون فيما بعد .

كانت اللغة السومرية لغة مختلفة كلية وذات صفة اسيوية . وقامت

على نفس مبادئها بعض اللهجات التي تختلف عنها ، ولا يزال بامكاننا ان نجدها في بلاد القفقاس . لقد جمع العراقيون القدماء وباستمرار ، العدد الكبير من فهارس الكلمات ونظموها بشكل اعمدة متوازية ، وذلك بعد ان واجهوا الاختلافات بين الاكدية والسومرية . لقد كوّن هذا الجمع والتأليف اساس المعرفة الحديثة باللغة . واذ كان الاكديون قد اطلعوا على مدى فضل السومريين الكبير عليهم لكنهم لم يظهروا اي نكران لهذا الفضل . وحتى بعد ان استوعبوا السومريين بصورة تدريجية ؛ وبعد ان حولوهم الى اقلية سياسية لا يعتد بها ، نراهم يحافظون بكل عناية على التركة التي تسلموها من السومريين . وقد ضمت هذه التركة الدين والقانون والمبادىء الفنية والخط بل وحتى اللغة التي اصبحت ـ اللغة المقدسة ـ فهي تشبه في هذه الحالة اللغة اللاتينية التي اصبحت مقدسة في الاقطار الكاثوليكية اليوم .

وحالما امكن اتقان اللغة السومرية صارت مفتاحا لحل تعقيدات الكتابتين الاشورية والبابلية . وكان السومريون قد فعلوا نفس الشيء من قبل والذي فعله الاكديون مؤخرا . لقد كانت لعلاماتهم المكتوبة قيمة الكلمات وقيمة المقاطع التي استعاروها من تلك الكلمات . وما دامت اللغتان مختلفتين فقد كانت الكلمات والمقاطع تقرأ قراءة مختلفة . ولايضاح هذه القضية نرجع الى خطنا الصوري الخيالي فنقول اننا اذا رأينا صورة الحصان فاننا نقول انه حصان ولكن الفرنسيين يقولون ـ شفال ـ وتعني ـ حصان ـ ايضا . وليست ثمة حاجة الى الاكثار من الامثلة ، اذ سيتضح ان بعض العلامات سيكون لها العديد من القيم ، اي المعاني ، سواء اكانت سامية ام سومرية . ان كل من يأنس بولوج هذا الميدان سيشعر بالطمأنينة اذا ما تسرعنا وقلنا ان العديد من هذه القيم نادر ، وان المرء غالبا ما يجد ان عدد قيم كل علامة لا يزيد ثلاثة أو أربعة .

فن الكتابة السرية

لقد كانت طريقت الكتابة معقدة بحد ذاتها ، بالاضافة الى كونها مسألة تدعو الى الدهشة . ولكن الكتاب الاكديين اوصلوها الى درجة عالية عندما راحوا يستعملون فن الكتابة السرية . وقد استخدم هذا النوع من الكتابة بمهارة محيرة ومتناقضة ظاهريا ، وبصورة متعمدة لتثبيط همة من يريد قراءتها . كما ان هذا النوع من الكتابة كان يمارس في مصر ، حيث اجرى السيد (ي. درايتن) دراسة خاصة به .

كانت هناك انواع مختلفة من الكتابة السرية التي كانت تستعمل في ظروف مختلفة ولكن واحدا من اشهر هذه الانواع من الكتابة هو ما اصطلحنا على تسميته باسم (الكتابة السرية الخاصة بدفن الموتى) .

لقد شارك المصريون سكان العراق القدماء في الزعم بأن قول الشيء كان يساوي في الحال فعل او خلق الشيء . وقد اعتادوا ان ينقشوا على قبور موتاهم مفردات النذور التي كانوا يرغبون في ان يتسلمها الموتى . وما دام كل فرد كان قادرا على تحويل قائمة المفردات هذه الى حقيقة بمجرد قراءتها ، لذلك كان يطلب من المارة ان يفعلوا هذا . وبهذه الوسيلة يمكن الحصول على النتيجة المرغوب فيها . وما دامت هذه الرغبة قد عبر عنها باصطلاحات متشابهة في كل قائمة من قوائم الكتابة الخاصة بدفن الموتى فانها ، اي القائمة ، اصبحت مجرد عمل شكلي لم يعد يسترعي انتباها خاصا . ولوضع الامور في نصابها الصحيح ، خطرت لدى احدهم فكرة لصياغة كلمات كتابة المقابر باصطلاحات غير مألوفة ، اي استخدام الكتابة السرية مع اعطاء الحروف قيما غير مألوفة لكي يدهش المار حين يتطلع ، ولو عرضا ، الى النصب وغرابة الكتابة ، فيضطر الى قراءتها دون ان

يفهمها ، وقد يكرر ذلك في وقت من الاوقات ومهما يكن فان الكتابة ستقرأ ، وعندئذ يرتاح الميت •

لقد كان هذا احد استعمالات الكتابة السرية • اما ما هو اكثر شيوعا من الاستعمال فقد كان في كتابة شيء لا يقرأه الا العارفون بهذه الكتابة • مثال ذلك كتابة الصيغة الخاصة بصناعة الانواع المختلفة من الزجاج • فوفقا لتلك الحقيقة اصبح كل نوع من العمل سريا الى حد معين ، وكان مثل هذا العمل يتطلب كفاءات معينة ؛ ومعرفة بنوع من الصيغ • كانت الاحتياطات تتخذ لكي لا تصل الصيغة الى ايدي كل من هب ودب • وهكذا فاننا نجد في الحالة الخاصة بصناعة الزجاج ان الكاتب اعطى للعلامات التي استعملها في الصيغة المكتوبة قيمة عفوية بدرجة كبيرة • فمثلا بدلا من ان يكتب (أبا ـ آنْ) (a-ba-an) (الصخرة) فانه كتب (خا ـ بار ـ أنْ) (Ha-bar-an) وتبدو هذه عديمة المعنى لمن ليس عنده مفتاح لهذا اللغز الخاص •

والكتابات الاشورية والبابلية مليئة ليس بهذه الخطوات المضللة عمدا بل بحالات نجد فيها وجود علامة مكان علامة اخرى في كتابة كتبت على استعجال ودون عناية • فمن المألوف مثلا ان نجد في الواح الوصف عدم اتفاق الاعداد الفردية والمجاميع • ولقد حاول علماء الاشوريات في حالات معينة ان يقنعوا انفسهم بالقول انه يجب اضافة العلامة التي تظهر بانها ذات قيمة غير مألوفة الى المعاني المقبولة • ولقد ظهر هذا القول مضللا الى درجة جعل البعض يحمل ابحاثه ابعد من مجالها ، فابتكر قيما جديدة لما كان في الحقيقة مجرد اخطاء ارتكبها الكاتب من جانبه • فنحن مثلا اذا ما رأينا كلمة - Platler - مكتوبة هكذا - Plater - لا نستطيع ان نقول ان هذه الكلمة تكتب في ظروف معينة كما في الشكل الثاني وانما التفسير هو ان الكاتب لم يتمكن من اعطاء الهجاء الصحيح للكلمة • وكمبدأ عام فانه

ما من علامة اشورية لم يعرف عنها الا مثال واحد ، يمكن ان يسلم بامكانية الوثوق بها ، كما ان كل قيمة جديدة تنتج من استعمال علامة متماثلة تماثلا شديدا مع ما هو متوقع ، يجب ان ينظر اليها على اساس انها مشكوك فيها.

مكتبة آشـــور بانيبال

يتضح مما مضى انه توجب على الكتاب ان يكرسوا وقتا كثيرا لاتقان مجموعة كبيرة من العلامات التي تفوق عدد علامات لغـة المتدربين الصينيين والتي اوجبت على كتابها اتقان علاماتها . ويتضح ايضا انـه لم يكن يملك ناصية الكتابة الا القلة ليس الا ، مما جعل من الكاتب عنصـرا حيـويا في الحياة الفكرية أو التجارية للمجتمـع . ولذلك فأننـا عندما نجـد الملك (اشور بانيبال) يفاخر مثلا بمعرفتـه التامـة بالخط المسماري يكون من الانصاف ان يتهم بالمبالغة اذ ليس لديه الوقت الكافي لأتقان هذا الخط . نعم كان عند الملك ذوق ادبي خالص لا تنكره . وهذا هـو الذي جعـل العاهل الاشوري متحمسا للحفاظ على كل المعرفة في زمانه على الرغم ممـا عرف من تورطه في اخطاء المباهاة والفضاضة والفظاعة والتخريب الشنيـع اثناء حملاته العسكرية . ان هذا الذوق الادبي هو الذي جعل (آشـــور بانيبال) يبني مكتبة في قصره حملت اسمه . وأقرارا بالواقع فانه لم يكن الملك الوحيد الذي ادرك فكرة تكوين مجموعة من الألواح التي كان يجب ان تضم كل فروع المعرفة آنذاك . فقد سبقه في أدخـال هـذه الفكـرة الكثيرون ومنهم سرجون الثاني مؤسس السلالة الحاكمـة . ولكن عمـل (اشور بانيبال) هو الذي اتم المهمة بنجاح ووسع مجالها بطريقة لم يسبق لها مثيل .

تؤلف المكتبة ، بعد ان نقلت الى لندن احد الكنوز الرئيسة في المتحف البريطاني . ولا حاجة بنا الى ان نعيد وصفنا للالواح وكيف جرى حساب

ان اروع قطعة ادبية هي طرفة (الخليقة) وهي بالنسبة لنا تحتوي على فائدة لا تقدر لتمثيلها المبدأ الرسمي عند العراقيين القدماء أثناء العهد الاشوري الحديث وهذا لا يعني ان هذا كان المبدأ الوحيد الشائع . ذلك لأنه ، بمضي الوقت ، اقرت العديد من المراكز الدينية مجموعة من المعتقدات ولكن معرفتنا بها متفرقة كما انها اقل تمثيلا للفكر المعاصر من المثال الذي عندنا في مكتبة اشور بانيبال وهو ملحمة الخليقة . وغالبا ما تعرف هذه الملحمة باسم (متى*... في السماء) وقد اقتبس هذا العنوان من الكلمتين الاوليتين الافتتاحيتين والموجودتين في الرقيم الاول من رقمها السبعة .

تخبرنا هذه القصة ، وهي كالقصص الاخرى الضاربة في القدم ، انه لم يكن في البداية الا (كاوس) (محيط الماء) مع (ابسو) (الماء الحلو) و (تيامات) (الماء المالح) وفي هذا الوقت لم يكن للمساء في السماء اي اسم ، كما لم يكن أي اسم لأي مكان تحت ولم يعط كذلك أي اسم ، أي لم تتم تسمية اي من الآلهة(*) .

وشرع بعدئذ بتعريف مبادىء الطبيعة وولد لخمو (Lakhmu) وزوجته لخامو (Lakhamu) من ابوين اصليين . ونحن لا نعرف شيئا عنهما . ويمثل لخمو ولخامو مرحلة واحدة حسب في عملية تنظيم العالم التي ما زالت غير كاملة . وقد ولد لهما أطفال وكان أولهم مومو ثم انشار ثم كيشار الذين يشكلون السموات والارض ، واخيرا الالهة الثلاثة الذين يقفون على قمة مجمع الالهة البابلي وهم ــ آنو ــ آله السموات ، وانليل رب الهواء (والذي سيصبح رب الارض بعد ذلك) ثم ــ ايا ــ آله المياه والهاوية التي تحيط بالعالم وهو من ابناء آنو . ولأسباب وبطرق لا نعرفها تخبرنا الملحمة أن الآلهة الثلاثة وذريتهم يصبحون موضع كراهية مريرة جدا

(*) اي لم تظهر الى حيز الوجود بعد .

عند (آبسو) و (تيامات) (ولعل سبب ذلك انهم يملكون النظـام الذي يماكس الفوضى) ، وقد خطط الآلهان للتخلص من ذريتهما على الرغم من ان المبادرة جاءت من (آبسو) و (مومو) وحين كانت (تيامات) قـد استبعدت من هذا المخطط فأن الآلهة الصغار قد حذروا في الوقت المناسب واتخذوا الاجراءات المضادة واستطاع ـ ايا ـ بفضل قوته السحريـة ان يقهر (آبسو) و (مومو) فيقتل الاول ويسجن الثـاني . واشتد حنـق تيامات وتجاوز حدوده فولدت احـدى عشـر جبارا مرعبـا وهـم الذين ستستخدمهم في اخضاع خصومهـا وكان (كنگو) احـد هؤلاء الجبارين والذي اصبح زوجا لتيامات . ثم قدر له ان يصبح زعيما ، وأثناء هـذه الفترة الطويلة ولد لـ (ايا) ولد وهو (مردوخ) الذي يلعب دورا في الاساطير البابلية ويشبه هذا الدور دور آشور في الاساطير الآشورية ، وقـد ولد مردوخ في قاعة الحكم المعروفة باسم (آبسو) . لقد كان مردوخ اعجوبة منذ ولادته . فهو حكيم الحكمة وأكثر الآلهة ثقافة وقد ولد في وسـط (آبسو) المقدس . وكان هيكله هائلا ، وبريق عينيه ساطعا ، وكان مولده مولدا للرجل القوي . ومنذ اليوم الاول وهو يستطيع ان يلد اطفـالا . وأبعاد جسمه غير مناسبة للفهم الانساني وصعبة القياس .. واربـع كانت عيونه .. واربع كانت آذانه .

عندما كانت « تيامات » في المخاض ، اكتمل نمو جسم مردوخ ولكن بالرغم من ان قوى ـ ايا ـ السرية كانت كافية لقهر (آبسو) فلا هو ولا (آنو) كانا قادرين على مواجهة تيامات . ثم اشترك كل الآلهة ، مـا عـدا تيامات وجيش كنگو ، في تهيئة القوات ضد تيامات وأتباعهـا ؛ ويجتمـع الآلهة لتستبق دفاعهم ، ويشربون من اجل تشجيع انفسهم ، ويبالغـون في الشراب والموسيقى الجميلة . ويقبل مردوخ اقتراحهم الذي يدعوه ان يكون زعيمهم ، ولمـا كان مردوخ لا يقل ذكاء عن أبيه فأنه طرح شروطه الخاصة

والداعية الى وجوب منحه سلطات قوية تفوق سلطات الآلهة ، وألا يعصيه احد فيما يتخذه من قرارات ، وان يكون بيديه تحديد المصائر . ووافق الآلهة على شروطه واعطاه كل منهم السلاح الذي يستمد منه قوته ، واعتبرت هذه المناسبة الوقت الصحيح لأختبار الرداء لاثبات وجود سلطات مردوخ .

وقبل الاشتباك راح المتخاصمون بشتم بعضهم البعض . وهيأ مردوخ اسلحته وكان قسم منها عاديا ، في حين يعتمد القسم الآخر على قوى الطبيعة وهي الرياح الاربع والصواعق والزوبعة . ولم تنتفع ـ تيامات ـ بقواها السحرية فقذف مردوخ بشبكته عليها ، وعندما فتحت فمها لتبصق اللهب ، استغل مردوخ الفرصة ليقذف احد الرياح الاربع في داخل فمها ، ثم راح مردوخ يغني اغنية النصر فوق جثة العدو المقهور ، ثم شق مردوخ جسم تيامات الى نصفين كما تشق الصدفة . وقد صنع السماء من احد النصفين وصنع الارض من النصف الآخر . وفي السماء ثبت العدو الحقيقي للآلهة الثلاثة الكبار . لقد وقع كنگو اسيرا منذ البداية فاسترد مردوخ منه ألواح المصير التي كانت بحوزته .

وبعد ذلك يستمر الحديث في وصف النظام الذي فرضه مردوخ على السماء . اما الرقيم الخامس فأنه ولسوء الحظ محطم جزئيا وهو يحتوي على وصف موجز للمعرفة الفلكية في ذلك العهد .

وبعد هذا الاستطراد تعود القصة من جديد فتذكر ان مردوخ اقترح ان يخلق كائنا اسمه « الانسان » وواجبه هو خدمة الآلهة وهم في راحتهم وتم خلق الانسان ولكن العملية تطلبت الدماء التي تم تجهيزها من قبل كنگو الذي تم قتله . ثم قسم مردوخ الآلهة الى جماعتين ، جماعة السماء وجماعة العالم الاسفل على التوالي .

واعترافا من الآلهة لمردوخ بالجميل منحـوه (ايساگيلا) أو معبـد بابل • وعندما اضفى كل الآلهة لقبا على مردوخ وهب كذلك حقيقة الوجود للمعبد بواسطة تلفظه •

لقد تسلح مردوخ في البداية بالقدرة لينطلق الى المعركة ، امـا الآن وبعد ان انتصر فأنه لا يزال يتحكم بهذه القدرة وبالآلهة وذلك كما وعدوه بعد ان جردوا انفسهم من صلاحياتهم •

هناك تفسيرات اخرى لقصة الخليقة • ولكن النتف المتوفرة لدينـا غير كاملة وغير مترابطة وهي لا تظهر اية اختلافات اساسية عن ملحمـة (انوما أيلش)(*) كما نعرفها • يمكن ان نقول عن الملحمة بأنها التفسير المسموح به للديانة البابلية الجديدة • ذلك لانها تجيب عن كل الاسئلـة التي يمكن ان يسألها الانسان عن اصلها وظرفها الارضي • ونقـول بكل طمأنينة ان الجواب عن كل سؤال يستقـر عنـد مردوخ وقـد كررت تلاوة قصيدة الخليقة في احتفال السنة الجديدة • وقد اختلط هذا الاحتفـال بتقاليد قديمة اخذت من دين طبيعي •

الطوفـــان

قصة الطوفان قصة حية في بلاد ما بين النهـرين وقـد تطلبت الشرح والتفسير مثلها في ذلك مثل اي شيء اخر • ويكفي عجبا القول بأنها تبـدو وكأنها لم تنشر ولم تعاد كتابتها ، كما لا يلعب مردوخ اي دور فيها • وبدلا من ان تكون قصة الطوفان قائمة بذاتها نراها تتداخل مع ملحمة گلگامش بشكل قصة يرويها (أوتانا بشتم) لأحد زائريه ، ليبين له كيف انه وزوجته

(*) ملحمة « انوما الش » Enuma Elish هي ملحمة الخلق لدى البابليين وتصور كيفية خلق العالم • والكلمتان « انوما الش » ليستا عنوان الملحمة بل هما بدايتها ، وتمنيان « عندما في السماء » •

صارا خالدين . والرواية الكاملة لهذه القصة تملأ الرقيم الحادي عشر من ملحمة گلگامش . ولكن هناك قطع اخرى توحي بوجود قصائد كاملة عن دورة الفيضان في فترة معينة .

لقد تقدم الزمن على مدينة (شروباك) الواقعة على نهر الفرات ، وتعرف احيانا بأسم (فاره) ، وذلك عندما اعتزمت الآلهة ان تغمر الارض بالفيضان . كان ـ ايا ـ موجودا في مجلسهم فقرر ان ينذر (اوثانا بشتم) الذي كان تحت حمايته فاقترب من كوخه المبني من الاغصان الجافة والطين وراح ينادي :ـ

« ايها الجدار ، ايها الجدار ، اسمعني »

« يا رجل شروباك ابن سفينة »

« اهجر المال وانقذ حياتك ...

« ضع في السفينة كل بذور الاشياء الحية »

« وستقاس ابعاد هذه السفينة »

ثم ينصحه بأن يجعل الثروات في الداخل ، وهذا امر فيه من الغرابة ما يكفي . وسأل اوثانا بشتم الآله قبل البدء بالعمل عن الجواب الذي يعطيه اذا ما سئل عن العمل الذي يعمله ، فقيل له ان عليه ان يقول ان (انليل) كان معاديا له ، وانه يريد ان يعيش في المكان الذي يحكمه « ايا » ولكي يخفف من شكوك السكان فأن انليل سوف يجعل (كاكو) (وكبتو) يمطران عليهم مطرا غزيرا (وهذه استعارة في غاية السمو لأن (كوكو) تعني صوت الحبوب عند الطحن كما تعني المصيبة . اما كبتو فتعني الحبوب والاسى) ثم يجيء وصف موجز لتقلبات الظروف عند بناء السفينة وتظهر الابعاد المسجلة ان السفينة كانت مثل صندوق مسقف والذي ينقسم من الداخل بصورة افقية وعمودية ويطلى هيكل السفينة بطبقة من القار لكي

لا ينفذ منه الماء وبعد ذلك تقام مأدبة تكريما للعمال ويضع اوثانا بشتم اهله واملاكه في السفينة ويركب هو كذلك ويلغق الباب حال ما تبدأ الامطـــار بالسقوط ، وكان انهمار المطر جارفا كما كانت الرعود تهدر والبرق يومض ، وسببت الغيوم ظلاما شديدا ؛ وتقول القصيدة ان الالهة كانوا يرتجفــون في السماء من مشهد الاعصار فيهربون عائدين الى سماء ـ آنــو ـ ثــم يجثمون كالكلاب خائفين من الحائط (السماء) • وتصرخ الالهة ـ عشتار ـ كالمرأة عند المخاض وتقول :ـ

ليتحول ذلك اليوم السابق الى طين لاني امرت بالشر بين جماعـــة الآلهة !• كيف أستطيع ان اصدر اوامري بتدمير شعوبي ـ أأنا وحدي التي اخرجت شعبي ليملأ البحر كالاسماك الصغيرة ؟ »

وظلت العاصفة والرياح هائجة ستة ايام بلياليها وعندما هدأ كل شيء فتح ـ أوتانا بشتم ـ النافذة فرأى ان السفينة تستقر عند جزيرة ، ولــم تكن هذه الجزيرة في الحقيقة الا جبل « نصير » • وظل هناك ستة أيام دون ان يتحرك ثم ارسل حمامة وبعدها سنونو فرجع الاثنــان الى السفينــة ، واخيرا أرسل غرابا ولم يرجع فاطلق سراح الحيوانات وقدم قربانا على قمة الجبل • وتمضي القصيدة قائلة :ـ

(لقد شمت الآلهة رائحة الطعام الحلو فتجمعت كالذباب على القربان)
وهنا تتدخل عشتار لتقول انه يجب على كل الالهــة ان يشاركــوا في اكل القربان الا ـ انليل ـ الذي اطلق الفيضان من عقاله وبلا تعقل • وهنــا يصل ـ انليل ـ وعندما رأى السفينة قال ان هنــاك أشخاصــا هاربــين ، فأجابته ـ نمورتا ـ باقتراح قالت فيه ان «ايــا» وحده قادر على توجيــه الانذار لمن هرب ، اما ـ ايا ـ الذي سبق ان عرفنا دوره في القصة ، فيجيب قائلا :ـ

« اما بالنسبة لي فاني لم أكشف سر كبار الآلهة الى اوتانا بشتم . لقد جعلته يرى رؤياً وبذلك سمع سر الالهة » . وبعد ذلك اصدر ـ انليل ـ امره القاضي بان يكون اوتانا بشتم وزوجته من الخالدين ، وان يسكنا في منطقة نائية عند مصب النهر .

ان ما يذهل القارىء هو الصورة الحية لشخصيات الآلهة التي تضفي عليها صفات الانسان البدائي كما يذهل القارىء من الصراحة في وصف هياجها وغضبها ، ثم في وصف شروح ـ ايا ـ .

لقد استقرت فكرة ـ الطوفان ـ في ضمير كل العالم القديم وتحتفظ الكثير من البلدان بمختلف القصص عنها . والمعتقد بصفة عامة ان القصص المتداولة في بلاد بين النهرين ترجع في اصولها الى الفيضانات القاسية وغير العادية للنهرين الكبيرين في تلك البلاد (دجلة والفرات) .

يقدم السيد (ج. دي مورغان)(*) ، وهو خبير جيولوجي ، رأيا يقول فيه ان هذه القصص تخلد ذكرى فيضان حدث في آخر عصر جليدي ويرجع تاريخه الى عام (٨٠٠٠ ق. م) وانه كان لهذا الفيضان اثر واسع النطاق الى درجة لا يمكن نسيانها .

هنالك مجموعة من القصائد الوصفية التي تصور المراحل المختلفة لنشوء وتطور الدين عبر فترات زمنية طويلة ، كما تصور تمركزه على نوع خاص من المعابد ومن هذه القصائد قصيدة (انوما ايليش) التي تشرح الدور القيادي الذي لعبه هذا الاله أو ذاك .

(*) جاك دي مورغان J. De Morgan عالم فرنسي وطبيعي ترأس البعثة الاثرية الفرنسية التي بدأت التنقيب في مدينة « سوسة » عاصمة الفرس الاخمينيين سنة ١٩٠٢ وقد عثر على مسلة حمورابي التي تضم شريعته الشهيرة ونقلها الى متحف اللوفر في باريس . وكانت هذه المسلة من بين المنهوبات التي نقلها العيلاميون اثناء استيلائهم على بابل سنة ١١٥٧ قبل الميلاد .

لدينا قصة اخرى عن الخليقة من معبد « نفر » حيث كان يتعبد ــ انليل ــ (بعل القديم) و (ننليل) زوجته وذلك اثناء العهد الذي فقد فيه (آنو) اهميته ، وقبل ان يستسلم فيه انليل لبعل مردوخ . ويساهم في هذه القصة الألهان (انو) و (انليل) والالهة (نينماه) ويقال انهم كانوا مسؤولين عن وجود الكائنات البشرية على الارض ، وتعرف هذه الكائنات باسم ــ الرؤوس السود ــ وهذه كنية لا زال معناها الدقيق غير مقرر ، ولعلها تشير الى لون شعر السومريين أو يحتمل انها تشير الى التقاطيع البرونزية . واذا ما صح احد هذين التفسيرين فانها ستظهر ان السومريين كانوا على اتصال مع شعوب شقر الشعور أو البشرة . واما اذا لم يكن التفسيران صحيحين فان من المحتمل ان يبدو لونهم عاديا تماما وغير مشهور . ويعتقد العديد من الباحثين ان السومريين جاءوا من منطقة كثيرة التلال غير محددة ، ان لم نقل انها منطقة جبلية حقا .

اساطير ـ زو ـ والتنين ـ لابو

تنتمي هاتان الاسطورتان الى مجموعة اساطير نفر وتدور الاولى حول الانسان الطير ، زو(*) ، السارق الطبيعي ، والذي استغل فرصة وجود (انليل) في مرفق الماء حيث كان يغتسل بالماء الصافي تاركا عرشه ونازعا تاجه الذي هو شعار سلطته ، لكي يحصل على رقم المصير التي كان انليل حامي حماها ، ثم يسلب انليل سلطاته .

لم تنجح الخطة لأن الآلهة قررت الاشتراك في عملية مطاردة اللص . ومن الممتع ان نلاحظ الحدود التي وقف عندها مؤلفو هذه الاساطير الذين كلما وجدوا دافعا للكتابة كرروه . نجد في هذه الاسطورة ، كما في اسطورة

(*) يعتبر زو طير الصاعقة في الاساطير العراقية القديمة .

(انومااالش) ، ان الآلهة تفسح المجال امام (زو) فتبتعد عن طريقه وطريق اتباعه وبالرغم من ذلك فأن الذي قرر القاء القبض على زو هو ألهه (لوگال بندا) (الذي يبدو انه ملك وله صفات الالوهية) . وقد قرر هذا الاله ان يلقي القبض على (زو) عن طريق اقامة وليمة يدعو اليها (زو) مع زوجته وابنه . ونجد ان هذا الموقف يتكرر في اسطورة (التعبان العظيم) (اللو يانكاس) وهذه الاسطورة من الاساطير الحثية . نعود فنقول انه بدلا من مخاطرة القيام بهجوم مباشر على (زو) قام الآله المكلف بالانتقام بدعوته الى الوليمة ، فجعله يشرب ويشرب حتى تمكن من السيطرة عليه .

لدينا بعض الاختام الاسطوانية التي يظهر عليها الانسان الطير ، ويحتمل انه (زو) نفسه ، وهو يقاد الى آله جالس على عرش ويصدر احكاما . وهناك ترجمة بابلية لهذه القصة تجعل من مردوخ متغلباً على ـ زو ـ وبالتالي يتلقى الآله لقب ـ محطم جمجمة الطير زو ـ .

أما اسطورة التنين ـ لابو ـ فأنها تروي لنا كيف سيطر الرعب على الالهة حين رسم الآله ـ انليل ـ فيالسماء رسماً علىغرار التنين الذي عاد الى الحياة . ونجد في هذه الاسطورة انه لم يجرأ سوى اله واحد من الآلهة على الاصطدام بالحيوان المولود ومن ثم ذبحه ، وظل الدم يجري لعدة سنوات . ان حبكة القصة ليست مألوفة حسب بل انها تلقي ضوءا على عملية خلق مخلوق حي . فالآله الخالق يحدد الطبيعة التي ستكون عند المخلوق حينما يأخذ شكله النهائي في مخيلته ، ثم حينما يعطيه اسما . انه يرسم شكله الذي يكاد يحصل بواسطته على الحياة الكاملة وتحتوي ملحمة گلگامش على عملية خلق مشابهة فعندما ارادت الآلهة (أرورو) ان تخلق (انكيدو) فأول ما فعلته انها خططت له في عقلها ومن ثم رسمت الخطوط العريضة لشكله العام على الارض عن طريق كتلة من الطين ونفخت الحياة في هذه الكتلة بعد ذلك .

القصيدة المسماة (الهبــوط)

تنتمي الى مجموعة قصص انليل اسطورة اخرى في غاية الغرابة والتي أعتبرها مترجمها الاول ــ س. لونگدون ـ S - Longdon - خطأ بأنها قصة هبوط الانسان . وبالرغم من ان القصيدة تزخــر بالغموض الا انــه من الممكن اعطاء وصف عام عنها . لقد عاشر انليل (نينليــل) وآلهــة أخرى معاشرة جنسية ، ونتج عن هذه المعاشرة العديد من البنين . اما نتائج ذلك على الارض فهي انتاج المطر والفيضان وخصوبة التربة ، واخصاب العائــلات البشرية . والحقيقة أن هذه القصيدة من اكثر الاساطير شيوعا ، كما انهــا تقدم مثالا عجيبا عن اقدم المعتقدات التي يرجع تأريخها الى عهد يوجد فيه دين يعاني من عملية التغير بأقتراب فجر التاريخ .

اسطورة نينورتــا (Ninurta)

تضفى صورة غريبة على أسطورة (نينيورتا) ابن انليل وترتبط هذه الاسطورة بمجموعة اساطير وقصص (نفر) . وتخص هذه القصيدة الكفاح الذي خاضه الآله ضد اعدائه . كما ان فيها ذكرا لبعض انواع الصخــور التي قيل عنها ان البعض منها قد حارب من اجله كما حارب البعض الاخر ضـــده .

لقد كانت هذه الصخور قبل القتال بلا اسماء . اما بعد الانتصــار الذي حققه (نينيورتا) فأنه قد وهبها الاسماء ، (اي انــه ثبت وجودها الفردي) كما اعطاها احسن الصفات المختارة ، واعترافا بجميل الصخــور التي حاربت الى جانبه ، فأنه جعلها ثمينة جدا . فصار منها الرخام ، وحجر اللازورد والحجر البلوري والمرمر . وتستعمل هذه الاحجار في زخرفــة القصور والمعابد . اما الصخور التي حاربت ضده فقد اصبحت من ارخص

مواد البناء أو انها كانت تستعمل في بناء عتبات الابواب وهي بالتالي تدوسها الاقدام فتصبح كئيبة وغير محترمة ولا مشرقة •

تستدعي القصة وجود تعليقين يقول الاول منهما ان القصة لا تقدم أي دليل عن قوة الاحساس عند العراقيين القدماء بالنظام الذي ينطوي عليه الكون ، والذي لا يمكن ان يوجد شيء فيه بلا سبب • اما التعليق الثاني فيقول ان القصة تظهر كيف ان عيون العراقيين القدماء لم ترض عن الحدود التي كانت قائمة بين مختلف انواع الوجود الطبيعي وانهم اعتبروا هذه الحدود سيئة التعيين •

تمجيد عشتار

قد يبدو عصر سيادة (آنو) طويلا وهو يتطابق مع عصور ما قبل التأريخ وكذلك مع العصور التاريخية المبكرة ولهذا فليس لدينا الا الادلة القليلة عن هذا العصر • وقد يكون احد هذه الادلة نتيجة الجهود اليائسة التي بذلها كهان (الوركاء) ، مركز عبادة انو ، لمقاومة النفوذ المتنامي للآلهة الجدد في الوقت الذي كانت فيه عبادة آنو تعاني الانحطاط •

تتناول القصة موضوعة البحث كيف ان (آنو) اشرك الآلهة عشتار في تاجه ، بعد فترة طويلة من حبه لها ، واعترافا منه بجميلها فقد رغب في ان يرفعها الى نفس درجة المساواة معه ، ولقد اشركها في تاجه اطاعة لنصيحة الآلهة • لقد اقترح مجمع العائلة السماوية وبالاجماع ان عليه ان ينظم مكانتها فنفذ ذلك متحصنا بهذا الاجماع ثم امر بأن يكون اسمها بعد الزواج (انتو) وهو صيغة المؤنث لـ ـ أنو ـ وهذا يشبه تماما ـ تنليل ـ صيغة المؤنث لأنليل • وبعد ان مجدت عشتار وبجلت بهذه الطريقة احتلت مكانا مهما في السموات حيث كان آنو يقيم من قبل ثم شخصت بالكوكب السيار (الزهرة) •

دنيـــا العالم السفلي

يأتي ذكر العالم السفلي في صميم الكثير من الاساطير وتقابل مناطق هذا العالم في اهميتها السموات ، كما يشكل ذكر احدى هذه المناطق جـزء من الرقم السماوية التي اكتشفت في تل العمارنة من صعيد مصر • وعنـد مقارنة ترجمات هذه الرقم مع بعض القصائد وعلى الاخص ملحمة گلگامش، تقدم هذه المقارنة برهانا على الشعبية الواسعة للأدب البابلي في كل انحـاء العالم القديم •

تخبرنا القصـة موضوعـة البحث كيف ارتبط (نيرگال) بربوبيـــة الجحيم التي كانت ملكتها (ارشكيگال) وهذه الملكة هي اخت عشتار • وبالرغم من انها كانت ملكة وآلهة لكن يبدو انها كانت ايضا من سجنـاء ـ أراللو ـ (Arallu) وهو الاسم الذي يطلق على العالم السفلي والذي عرف ايضا بأسم ـ الارض الرحيبة ـ أو ـ ارض اللاعودة ـ وهذا مـا ترمي اليه الحقيقة القائلة بانه عندما أرادت الآلهة ان تجتمع على وليمـــة ارسلت رسالة الى (ارشكيگال) تدعوها فيها الى الوليمة قائلة لها انهـا اذا لم تستطع المجيء فلترسل رسولها لكي يأخذ لها حصتها من المأدبـة • وبناء على ذلك ارسلت (نامتار) Namtar (المصير) لينوب عنها وهو في نفس الوقت (عفريت الوباء) وعندما ظهر نامتار بين الآلهة قام الجميع احتراما لسيدته باستثناء الآله (نرگال) وحده • وعندما رجـع نامتار الى الجحيم شكى امر الشكوى من هذه المخالفة ، فأرسلتــه (اريشكيگال) مرة ثانية وهو يحمل امرا بوجوب تسليمه (نبرگال) لكي يقتل • وحينمـا ظهر (نامتار) ثانية بين الآلهة لم يكن (نرگال) هناك وبذلك لم يستطـع (نامتار) ان ينجز مهمته • ولكن الآلهة حذرت نيرگال فبادر بالذهاب الى الجحيم برفقة العفاريت • وبعد ان وضع حراسا عند كل باب من الابواب

التي سيسهل عليه الهروب منها راح يهاجم (اريشكيگال) جارا اياها من شعرها ثم سحبها من فوق عرشها وتظاهر بأنه يريد ان يقتلها . لقد تلاشى كل غرورها في الحال واخذت تتوسل الى قاهرها لكي يبقي على حياتها وعرضت عليه الزواج منه وان تجعله قرينها الملكي وقد حدث هذا بالفعل .
وفي ملحمة گلگامش سوف نرى ان عشتار ، وهي اخت اريشكيكال ، تعرض هي الاخرى مشاركتها في السلطة والمال على البطل الذي ترغب فيه رغبة عاطفية .

هبوط عشتار الى العالم السفلي

كان العالم ألاسفل هو الموحي ايضا باسطورة (عشتار) المشهورة وحبيبها تموز . ويبدو ان هذه الاسطورة حصيلة مزج بين اسطورتين قديمتين متميزتين ، تخص احداهما (دموزي) (تموز) (الـه المحبوب) والذي يموت كل سنة ثم يعود الى الحياة من جديد .

وهناك رواية اخرى تنفي عنه الموت ، وتقول انه كان يقسم حياته بين مرافقة الآلهتين ، فيقضي نصفها في العالم السفلي حيث تمضي الطبيعة الشتاء نائمة ، ويقضي النصف الاخر ، في بداية الربيع ، على الارض ، وقد ازدادت محتويات هذه الاسطورة بعد ان اضيفت اليها اسطورة هبوط عشتار الى العالم السفلي ولا تذكر النسخة الاصلية من الاسطورة اي سبب لهذه الرحلة كما انها لا تعين الهدف المقصود من الاتيان بتموز الى العالم العلوي ويذكر هذا الهدف بصورة غامضة في عهد متأخر وتجري وقائع النسخة التي بأيدينا كالآتي :ـ

قررت عشتار الهبوط الى العالم السفلي دون الرجوع الى تموز . وعند وصولها الى هناك كان عليها ان تتحدث الى حارس الباب . وبالرغم من ان (اريشكيكال) هي اخت عشتار الا انها فرحت كثيرا بهذه الغنيمة ،

وأمرت بأدخالها على الفور . وخلال ابواب الجحيم السبعة التي كان على عشتار ان تجتازها كان حارس الباب يجبر عشتار على ان تنزع جزءا من حلتها فنزعت أولا تاجها ، ثم أقراطها ثم قلائدها ومن ثم حمالة الثديين المصنوعة من المعدن الثمين ، ونطاقها الذي يضم تعاويذ احجار الولادة ثم الاساور التي كانت في معصميها وبعدها الخلاخل واخيرا ملابس الحشمة . وهكذا وقفت عشتار عارية بين يدي ملكة العالم السفلي . وبعد ان غلبها الغضب وبدون اية لحظة للتفكير ، هجمت على اختها التي امرت وزيرها نامتار ان يطلق على عشتار العديد من الامراض مثلما تطلق مجموعة من كلاب الصيد .

واذ تجري هذه الاحداث في العالم السفلي كان كل شيء على الارض يجف ويذبل . فالاشجار لا تخضر ، وتتحول الحيوانات والكائنات البشرية الى كائنات عقيمة ، أما الآلهة فكانت تبحث حائرة عن وسيلة لتخليص الآلهه ويخلق ــ آيا ــ فردا يحكم عليه بأن يكون ضحية فيذهب باحثا عن (أريشكيگال) ويطلب منها ان تعطيه ماء من قربة ماء خاصة . ومما لا شك فيه انهذه القربة لايشربمنها الا الآلهة. وعندما سمعت (اريشكيگل) هذه الكلمات ضربت على فخذها وعضت أصابعها . وأخذت تلعنالرسول وتخبرهبانه لن يتناول من الطعام والشراب الا الفضلات ومياه مجاري المدن . واخيرا وبألحاح من طلبات الرسول تنصاع (اريشكيگال) وتسكب على عشتار الماء الذي يعيد اليها الحياة ، ثم امرت بقيادتها عبر الابواب السبعة (وهذا ما يذكرنا بدوائر الجحيم السبعة في الكوميديا الآلهية للشاعر الايطالي دانتي) . وعندما كانت عشتار تمر خلال هذه الابواب كانت تسترد البستها وجواهرها عند كل باب .

تحتوي القصيدة ، كسائر القصائد الاخرى ، على العبارات القديمة الجافة والتي تتكرر في كل المحتويات المتشابهة . تقول القصيدة ان الآلهة

سيئي الطباع يضربون افخاذهم ويقضمون اصابعهم ويعجزون عن الاجتماع دون ان يشربوا الى حد الافراط . ان اللعنة التي تصب على رسول الآلهة تشبه اللعنة التي تصب على عاهرة المعبد في ملحمة كلكامش . فالصورة العامة التي تحصل من اساطير بلاد بين النهرين يرثى لها اذ نجد العنف عند الآلهة بالاضافة الى شراهتها وجموحها وانعدام الايمان وحقدها . فهي خلاصة الناس السذج الذين نبعت هذه الالهة من تصوراتهم ، وكما اسلفنا القول فأنه يمكن ملاحظة درجة معينة من التطور في اخلاقهم بعد مضي القرون العديدة . ولكن من المفيد ان تتذكر انهم يعطوننا صورة حقيقية عن الانسان المتوسط في حضارة ذلك الزمان .

ملحمة كلكامش

كانت قصة گلگامش تعتبر القصيدة البطولية التي يستطيع قارئها ان يثق من نفسه في السيطرة بواسطتها على سامعيه [اللوح ١٩] . اما بطل القصة فقد كان ملك الوركاء في الماضي البعيد والذي بنى المدينة بقصورها ومعابدها وابوابها واسوارها المحيطة بها ، وهذا الانجاز الذي كان مدعاة فخره وتباهيه ، هو الذي كان يتعزى به عن نهاية مغامراته غير الناجحة .

لقد كان حاكما جيدا ولكن وطأة حكمه اثقلت كاهل الشعب وبخاصة كاهل الزوجات وبناتهن فقد قدمت الصلوات والأدعية بصورة عامة شاملة الى ارورو آلهة الخصب لكي تخلق مخلوقا يكرس گلگامش له نفسه وبذلك يحول انتباهه عن رعاياه . تأملت (ارورو) مخلوقها الذي ستعطيه الحياة ، ثم رمت بكتلة من الطين على الارض ، وشكلتها واعطتها الحياة . وهكذا جاء (انكيدو) المتوحش الى الحياة وهو يجهل الحضارة جهلا تاما ، وكان جسمه متداعيا ، كما كان يأكل العشب كالغزال ويطفىء ظمأه من الثقوب التي فيها ماء . لقد كان حقا حيوانا من جميع الوجوه . احتاج

گلگامش الى القوة التامة للعنصر الآلهي في كيانـه للسيطرة عليـه (كان گلگامش ثلث انسان وثلثي آله لانه ابن الآله(نين سن) .

ولكن يستقر في اعماق انكيدو عنصر لشيء معين أبعد من كونه مجرد حيوان لانه كان ينقذ الوحوش من شباك الصيادين ، الذين كيما يتخلصوا منه جلبوا له عاهرة من معبد عشتار ، وهذه بدورها قـد هيأتـه للتمدن بطريقة واضحة امتدت ستة أيام وسبع ليـال . فقـد قص شعره ، وحلق جسمه وتم دهنه بالزيت ، ولكنه ظل لا يعرف شيئا عن الخبز ولا عن طعام الانسان أو شرابه . وعندما تذوق الطعام والشراب شرب الشراب المخمـر سبع مرات ثم سبع مرات اخرى فسكر نتيجة ذلك وفي النهاية احضـرت عاهرة المعبد انكيدو امام گلگامش الذي كان قد اعلم بما سيقع من خلال الاحلام المضطربة التي فسرتها امه له . وادى اول لقـاء بين انكيـدو وگلگامش الى العنف ، فراحا يتبادلان الضربات في سبيل الآلهة التي تريد ان تشكل اتحادا مع گلگامش وكان النصر حليف الخصم المتمرن ، فأعترف انكيدو بالهزيمة واصبح صديق گلگامش ، وانطلق الاثنان في سلسلة من المغامرات تذكرنا بمغامرات هرقـل اليوناني ولكن عمـر هذه المغامرات قصـير(*) .

كانت اولى الحملات الى ارض الارز لمحاربة العملاق (همبابا) الذي كان عدوا لدودا (لشمس) ، لاسباب لا نعرفها . ومن المحتمل ان تحتوي القصة على صدى المحاولات القديمة جدا ، والتي بذلت في بلاد بين النهرين والتي لا تقل عن نضيرتها في مصر من اجل الحصول على الاخشـاب التي لا تستطيع تربتها ان تمدها بها .

(*) هرقل اليوناني : بطل ورد ذكره في الاساطير الدينية الاغريقية واشتهر بمغامراته الحربية مع الوحوش والالهة .

يكرس قسم كامل من القصيدة لوصف التحضيرات التي استدعتها الحملة وكانت الاسلحة التي اعدها الصديقان لنفسيهما تتشابه في الحجم والوزن وهي مناسبة لقتال العملاق . لقد حاول كبار القوم في الوركاء اقناعهما بالعدول عن تنفيذ الحملة التي تخفي مخاطر لا شك فيها . ولكن گلگامش رفض هذه المحاولات بعبارات تبدو غريبة لنا ، ولكنها كانت مألوفة في بلاد بين النهرين فتقول هـذه العبارات ان گلگامش يرغب في ان يحصل على الشهرة ، وحماسته لهذا الامر لا تقل عن حماسة امه الآلهة (نين سن) تضرعت الى الالهة الشمس لترعى ابنها .

من الجائز ان يتخذ وصف الغابة حجة لكتابة جميلة تغطي بضع صفحات . ولكننا لا نستطيع الا ان نرجم بالغيب فنقول ربما كان الشاعر نفسه موجودا هناك ، أو ان الوصف جاء تعبيرا عن عدم الاحساس بالجمال الطبيعي الذي يتميز به الادب الأكدي . ومهما يكن فأن الغابة نفسها مكان مرعب ، والحراسة شديدة على ممراتها التي يمر بها (خمبابا) ، وهـذا العملاق وحش جبار ينفث اللهب . ويذكرنا هذا الوصف بغابات (طوروس) في تركيا ببركان ارجيوس[٣٨](*) الذي ربما كان ما يزال في ثورانه في ذلك التاريخ .

وبعد ذلك نشب قتال استطاع خلاله گلگامش ان يشل (خمبابا) بواسطة اطلاق عدة اعاصير مدمرة عليه ، وقطع گلگامش رأس (خمبابا) عندما كان عاجزا عن الحركة وسط الاعاصير ، وبالرغم من كثرة توسلاته طالبا الرحمة .

وعند عودة گلگامش من حملته منتصرا قابلته الآلهة عشتار وهو

---

(٣٨) يعرف الان باسم ارجاس داغ .

(*) وهذا البركان يقع في جبل ارجاس داغ في الاناضول .

يغادر قصره وعلى رأسه التاج ، ويرتدي ملابسه الجديدة • وكانت عشتار تعيش انذاك في معبدها الارضي مع بطانتها من العاهرات المقدسات • ووقفت عشتار بجانب گلگامش لكي تغريه ، ثم راحت تخبره بقدرتها على رؤية المستقبل ، وقالت له بأنه سيركب في عربة من الازورد والذهب ، ولهـا عجلات ذهبية كذلك ، ومقعد مرصع بالاحجار الكريمة ، وعندما يصل الى المعبد سيركع الجميع له • ومجمل القول انها كانت تعرض عليه ان يكون آلها • رفض گلگامش هذه العروض بصوت اجش يحمل الاهانة لعشتار ، والحقيقة أن هذه الفقرة متناقضة تناقضا غريبا مع ما نعرفه عن شخصية گلگامش ، وبأنـه يمثـل رعبـا لكل نسـاء المدينـة • بعد ذلك ذكر گلگامش عشتار بعشاقها السابقـين العـديدين ومصيرهم ، ذكرها بتموز وموته وبالطائر الأرقط التي حطمت هي نفسها جناحيه ، وبالاسد والحصان، ثم الراعي والبستاني اللذين حولتهما الى حيوانين • ثـم يضيف مستفهما :ـ وانا ايضا ، فبعد ان وقعت في حبي ستعاملينني كما عاملتيهم •

غضبت عشتار غضبا شديدا ، وصعدت الى السماء لتطلب من ابيهـا ـ آنو ـ انزال الموت بگلگامش ، ولكن اباها ، مثلـه مثل ـ أرورو ـ وبقية الآلهة الدين تصورهم هذه القصائد ، لا يتخذ عملا مباشرا ، بل انه بخلق ثورا سماويا لا يستطيع السيطرة عليه حتى مئات الرجـال • ولكن گلگامش ينجح في قهر ذلك الثور ، اما عشتار التي كانت تراقب الصـراع من شرفة المعبد فانها تلعن گلگامش فيرد عليها ـ انكيدو ـ بتمزيق احـد اطراف الثور ، وقذفـه على رأس عشتار ثم يصيح :ـ « لو امسكت بك للففت احشاءه حول عنقك » •

وبناء على ذلك راحت عشتار ومعها خدمها تندب موت الثـور ، في حين أحضر گلگامش وعاءً ليضع فيه زيت قرني الثور ، لان هذا الزيت يستخدم في عملية التزييت المقدسة •

وفي الليلة التالية يرى ـ انكيدو ـ حلما (وهو يعادل الحقيقة عند العراقيين القدماء) ، فيرى في هذا الحلم اجتماع مجلس الالهة الذي يقرر فيه ـ انليل ـ ادانة ـ انكيدو ـ بالرغم من احتجاجات شمس ، ويحكم على ـ انكيدو ـ بالموت لانه ذبح ثور عشتار ، مع العلم ان ـ گلگامش ـ هو المسؤول الفعلي عن ذلك . وينفذ الحكم في الحال ويصاب انكيدو بالحمى فيندب حياته القصيرة شبه المتوحشة ، ثم يلعن عاهرة المعبد التي اتت به الى الحياة المدنيّة . ويوبخه شمس على نكران الجميل . ولكن ما دامت اللعنة قد لفظت بصيغتها المناسبة فانه يقبل الالتزام القاضي بجعلها سارية المفعول ، فيحول عاهرة المعبد الى شجرة ـ البستول ـ . واخيرا مات انكيدو ، فرثاه گلگامش بهذه الكلمات التي تذكره بمآثرهما :ـ

« قد قبضنا على الثور السماوي وقتلناه »

« نحن ذبحنا ـ خمبابا ـ الذي عاش في غابة الارز »

« اي نوم هذا الذي يمسك بك الآن ؟ »

« لقد اصبحت كئيبا ولم تعد تسمعني . »

وبعد ان ارتعب گلگامش من فكرة مجيء اليوم الذي يموت فيه ، راح يفكر في سلفه البعيد ـ اوتانا بشتم ـ (يوم الحياة) وكيف ان هذا وحده ، من دون البشر ، هرب من الطوفان ، وهو يسكن الان مع عائلته في اطراف الدنيا ، ولذلك فهو يضع خطط الذهاب اليه ليسأله كيف يمكنه ـ نيل الخلود ـ .

يجيء گلگامش اولا الى جبل ـ ماشو ـ وهو الجبل الذي ترتاح عنده الشمس كل ليلة ويحرس هذا الجبل الرجل العقرب الهائل . وبعد ان يقتنع الجميع بان گلگامش اكثر من نصف آله ، يصفون له الطريق الظليل

المؤدي الى الغاية التي يقصدها ، فيمشي في هذا الطريق ، ويصل الى شجرة جميلة المنظر تحمل اثمارا من اللازورد • وهذه الثمار هي العنب الاسود اذ نحن الان مع گلگامش في سوريا • ثم يمضي البطل مواصلا سيره فيصادف امرأة قرب البحر اسمها ــ سيدوري ــ وتوصف بانها صاحبة حانة • والوصف الانسب لها هو انها كانت من منتجي الخمرة لان هذا يشكل اشارة الى تجارة الخمور التي كانت تجري مع الساحل • وعندما علمت سيدوري بمخاوف گلگامش تعمدت تبديد اماله قائلة له :ــ

« انك لن تجد الحياة التي تبحث عنها لانها جزء من الآلهة ، وان الموت نصيب البشر • » ثم نصحته بأن يسلي نفسه حيث هو وان يتمتع بالحياة في الوقت الذي ينتظر فيه يوم موته • وبالرغم من هذه النصيحة فأنها اخبرته بالمكان الذي يجد فيه النوتي التابع لاوتانا بيشتم • اذ انه الان قريب من هدفه • ويعرف هذا النوتي باسم ــ اور ــ شنابي (Ur - Shanabi) (خادم الثلثين او خادم ــ ايا ــ) •

نحن نعرف ان الالهة مصنفة بترتيب عددي يحدد مكانتها ، ويرتكز هذا الترتيب على ــ آنو ــ الذي يعتبر رقمه الوحدة الاساسية للنظام الستيني(*) عند سكان بلاد بين النهرين ، ولذلك فان العدد ــ ٦٠ ــ هو رقمه ، في حين كان العدد ــ ٤٠ ــ رقم ــ ايا ــ ولذلك فهو ثلثا ــ انو ــ • كان النوتي ذكيا وكان على هذا النوتي ان يعبر مياه الموت لكي يوصل المسافر الى سيده ، وان قطرة من تلك المياه تعني خرابا اكيدا ، ولذلك جعل من گلگامش مساعدا له في قطع اعمدة طويلة يدفع بها الزورق كما يدفع المشحوف بالعمود • كان النوتي لا يستعمل العمود الواحد الا

(*) يقصد بالنظام الستيني ان تكون الـ ــ ٦٠ ــ هي الوحدة الاساسية في النظام •

مرة واحدة في دفع الزورق ، ولذلك فانه استعمل ما لا يقل عن مائة وعشرين عموداً لعبور مياه الموت الى ـ اوتانا بيشتم ـ • واخيرا وصل گلگامش الى ـ هدفه ، وهناك اخبر ـ اوتانا بيشتم ـ بالهدف الذى جاء من اجله ، ثم سأله عن الكيفية التي دبر بها هربه من الطوفان •

ان هذا القسم من القصيدة يشكل ملحمة منفصلة وليس لقصة اوتانا بيشتم ـ التي مر وصفها اي ارتباط عضوي بالعمل الرئيس گلگامش• ذلك لان ـ اوتانا بيشتم ـ ساهم، كما فعل الاخرون، في تثبيط همة ـ گلگامش ـ اذ انه تساءل قائلا :ـ كيف يستطيع گلگامش ان يأمل في جعل الآلهة تعقد اجتماعا خاصا من اجل تحقيق هدفه الوحيد الا وهو الخلود او الحياة الابدية ؟ انه مجرد فاني ضعيف • ولكي يثبت هذا ، امره ـ اوتانا بيشتم ـ بان يجلس وان يظل يقظا ستة ايام وسبع ليال ، فلما جلس گلگامش نام وعندما استيقظ اعطاه ـ اوتانا بيشتم ـ التجهيزات اللازمة لرحلته ، كما اعطاه مجموعة من الملابس السحرية التي تبقى جديدة دائما • وفي اللحظة الاخيرة اوضح اوتانا بيشتم ، وبأيعاز من زوجته ، لگلگامش قائلا له ان هناك نباتا شائكا في اعماق الماء قادر على اعادة الشباب • ربط گلگامش الاحجار بقدميه مثلما يفعل غواصو اللؤلؤ ، ثم غطس الى القاع وجرح يده جرحا بليغا لكنه نجح في سحب النبات الشائك واخراجه الى السطح ، فصاح باعلى صوته : يسمى هذا النبات (رجع الشيخ الى صباه) ؛ سأكل منه واستعيد شبابي •

وعند عودته الى وطنه رغب البطل في ان يسبح في ينبوع ماء عذب وبينما هو يسبح سرق ثعبان النباتَ منه ، وكان الثعبان قد شم رائحة النبات فجاء اليه • وتشبه هذه السرقة سرقة الواح المصير من ـ انليل ـ عندما كان يستحم هو الاخر • ونعود الى الثعبان فنقول ان النبات هو السبب الذي يجعل الثعبان يبدل جلده كل عام لكي يبدو صغير السن دائما • بكى گلگامش مر البكاء وعاد الى الوركاء ، مع النوتي حيث وجدا

شيئا من التأسي ، حين اراه نوتي ــ اوتانا بيشتم ــ اسوار المدينة واوضح له كيفية اتمام العمل بها •

لا تزال القصة غير منتهية • ذلك لأن ــ گلگامش ــ يرغب اخيرا في ان يعلم من ــ انكيدو ــ عما يجري في العالم السفلي فيظهر له ــ انكيدو ــ في المنام ، ويمنحه فرصة المجيء اليه والاتصال به ، ولكن ــ گلگامش ــ يفعل تماما عكس ما اقترحه عليه صديقه • ويبدو شيء من التعسف في هذا الامر ، ولا يستطيع ــ گلگامش ــ الا ان يدعو ــ انكيدو ــ الى العودة الى الارض ما دام هو نفسه قد اضاع فرصة نزوله الى عالم الاموات ثم يطلب من ــ انليل ــ ان يسمح ــ لانكيدو ــ بالمجيء الى الارض ولما كان ذلك ليس من اختصاصه فانه عرض الأمر على ــ سين ــ وهذا بدوره عرضه على ــ ايا ــ الذي وضع الطلب بين يدي ــ نيرگال ــ حاكم العالم السفلي والذي اعطى أذنا بعودة روح ــ انكيدو ــ الى الارض لبضعة دقائق ليس الا •

تحذو القصيدة حذو القصص البدائية في اسلوبها المألوف والذي يكرره المؤلف بصورة متناقضة ، فيضع نفس العبارات كلمة فكلمة على اساس كونها خارجة من فم كل آله من الالهة ، وذلك عندما يتوالون في ابداء حججهم •

تكاد القصة تكون مروية فكلكامش يسأل صديقه بالحاح ولكن انكيدو يشمئز من الجواب ، لان الحق يرهقه • ويصنف الموتى الى مجموعات مختلفة • فالذين ماتوا في المعركة يحظون بتأييد اقاربهم ، اما الانسان الذي يترك بلا دفن أو الذي لم يجد من يأتيه بالنذور الخاصة بالموتى ، فانه يتجول بحثا عن الطعام اذ ليس له الا ما يسقط في الشوارع من فتات •

وهكذا تنتهي هذه الملحمة بملاحظة مثيرة في حزنها كتلك الملاحظة التي وردت في نهاية قصة الطوفان ، كما ان هذه الملحمة تتمتع بشعبية كبيرة ، وجدير بالذكر ان شذرات مترجمة عنها قد اكتشفت في البلدان التي تتاخم بلاد بين النهرين •

يأتي الفن في كل ارجاء الشرق الادنى على وصف بعض مآثر گلگامش ولا سيما اخضاعه للكائنات الرهيبة • ويظهر البطل وهو يهاجم من جانبين من قبل أسدين أو ثورين الا انه ينجح في رد الهجوم وجعل الحيوانين تحت رحمته • حيث يمسك كلكامش بالوحوش من رقابها •

لقد كان تجميع الاشكال المأخوذة من أحد مشاهد ملحمة ـ گلگامش ـ يبسط تأثيره احيانا وبصورة ملحوظة على تناول مشهد ـ دانيال ـ وبخاصة حينما يظهر كلكامش وهو يرفع الثور من ذيله ، أو من رجله الخلفية ، ويدوس على رقبته بعقبه وكان ـ دانيال ـ يصور احيانا وعلى جانبيه الاسود وقد نكست رؤوسها بشكل واضح ، في حين تبدو يدا ـ دانيال مبسوطتين ومرفوعتين الى السماء في الوقت الذي تلحس فيه الاسود قدميه •

اساطير ـ ادابا واتانا

تنتمي قصة ـ أدبا ـ بن ـ ايا ـ الى مجموعة القصائد البطولية التي تسمى ، مثل ملحمة كلكامش ، الى تقديم العظة الاخلاقية • كان أدابا ـ سماكا يزود مائدة الالهة في المعبد بالاسماك وحدث ذات مرة وبينما كان يصطاد الاسماك في احد الخلجان ان قلبت هبة قوية من ريح جنوبية زورقه فغضب ـ أدابا ـ جراء ذلك وراح يلعن الريح الجنوبية قائلا :ـ ساحطم اجنحتك ، فما كاد يتم كلماته حتى تكسرت اجنحة الريح • وبعد سبعة ايام لاحظ الآله ـ انو ـ ان الرياح لا تهب • وعندما سأل عن السبب قيل له ان ـ أدابا ـ بن ايا ـ كسر اجنحتها ، فطلب ـ آنو ـ استدعاء ـ أدبا ـ للمثول امام العرش لكي يقاضيه على فعلته وكانت التهمة الموجهة لِ ـ أدابا ـ خطيرة جدا فراح والده ايا ـ يشير عليه في كيفية تخليص نفسه قائلا له انه ما دام انو ـ ، كما يظهر ، سوف يعمد الى سمه فأن على ـ أدابا ـ الا يقبل الطعام منه• وزيادة على ذلك اخبره باسماء الآلهه الذين يحتمل ان يواجهم في طريقه ، ثم نصحه وعلمه كيف يتصرف تجاههم • ويفعل ـ أدابا ـ ما قاله له ـ ايا ـ فيظهر بمظهر الحزن ، ويلتقى عند باب ـ آنو ـ بآلهي الخصوبه ـ وهما ـ تموز ـ و ـ تنگيزدة ـ اللذين سبق ان قابلناهما في نصوص اخرى وهما يسكنان العالم السفلي في اثناء الفترة السنوية للموت • سأل الألهان ـ أدابا ـ عن سبب حداده فأجابهما قائلا :ـ حزين على ـ تموز ونينكزيده اللذين نعدهما ، نحن أهل الارض ، من الاموات • سر الآلهان بهذا الجواب وسمحا له بالدخول ، ونجح في الدفاع عن نفسه امام ـ انو فقرر هذا الآله تقديم طعام الحياة الى ـ أدابا ـ لكن هذا ، وقد تعلم الدرس جيدا ، لم يقبل الا رداءاً وزيتاً لطلاء جسمه • ونتيجة لهذا الرفض خسر نعمة الخلود •

ومع ذلك فان هذا مثال اخر عن التناقضات في شخصية ـ ايا ـ الذي انقلبت نبوءته الى كآبة مدمرة على الرغم من كونه ـ رب المعرفة •

لا يتردد مؤلف القصص من عرض الآلهه وهم يحملون نقاط الضعف الانسانية وهو يتركنا نحمل انطباعا بان هذه هي الطريقة التي كان ينظر بها اليهم فبالرغم من انهم كانوا اقوياء الا ان هناك حدوداً لقوتهم .

تنتمي قصيدة ـ إيتانا ـ Etana الى نفس المجموعة فبطل القصيدة يتحمس لتخفيف آلام المخاض عند زوجته ، ويلتمس من الآله شمس ـ ان يهبه حجر الولادة الذي سبق ان واجهناه موضوعاً في نطاق عشتار عند هبوطها الى الجحيم . وينصح شمس ـ إيتانا ـ بالذهاب الى الجبل حيث سيجد المساعدة التي يطلبها ، فيفعل ـ ايتانا ـ ذلك فيصادف ثعبانا ونسرا اشتركا في البحث عن فريسة ، لكن النسر نكث بالعهد الذي قطعه للثعبان . وبالرغم من تحذيرات صغاره له الا انه لا يعبأ بهم فيأكل صغار الثعبان الذي منحه شمس النصيحة فيلتف هذا الثعبان على جثه ثور ميت . وعندما جاء النسر ليأكل منها قفز عليه الثعبان فجأة فكسر جناحيه ، وحطم مخالبه ، وتركه يموت جوعاً على الرغم من توسلاته ووعوده .

هنا يظهر ـ أيتانا ـ على المسرح فيقدم الطعام للنسر . وعندما يشفى من جراحه يعرض على ـ إيتانا ـ ان يأخذه الى السماء ليأخذ من عشتار طلسم الولادة الذي يرغب في الحصول عليه . ويصعد الاثنان الى السماء ، وتبدأ الارض تصغر وتصغر ، ولكن مسكن عشتار ـ لا زال يبدو بعيداً فوق سماء ـ آنو ـ حيث تحفظ ـ رموز الملكية ـ من قبل الاله . وبعد أن يعجز ـ ايتانا والنسر ـ عن بلوغ مقر عشتار يهبطان الى الارض راجعين اذ ليس من قدرة الانسان ان ينافس الآلهة .

القصص الاخلاقية . المعذب الصالح . الحكمة البابلية :

تعتبر القصيدة المعروفة باسم ـ المعذب الصالح ـ من اشهر القصص الاخلاقية وتبدأ هذه القصيدة بالكلمات :ـ « سوف أغني لأله الحكمة » .

وترتكز هذه القصيدة اساسا على قصيدة قديمة ذات طابع تشاؤمي • لقد اقعد المرض الرجل الصالح ، وقد حيرت اعراض مرضه الكهان واصحاب التعاويذ على حد سواء ، كما غلبت معرفتهم ولم تعد صلواته تجديه نفعا ولذلك فانه يصيح قائلا :ـ « لم يدر الي ربي وجهه ، ولم ترفع الهتي حتى رأسي ولم ينقذني المعزم بشعائره ، من الغضب المقدس • لقد حرصت دائما على الصلاة ولم اتخلف عن تقديم النذر واكرمت يوم موكب الألهة ، ووجدت السرور في عبادة الملك ، وكانت موسيقاه فرحتي الدائمة »(*) •

لقد ابتعد عنه كل الناس لانه اضاع كل ما كان في حوزته ، ولانهم اعتقدوا ان هذا البلاء جاء نتيجة الاثم ، وهنا يجد الرجل الصالح نفسه لا يستحق اللوم فيقول :ـ « لعل ما يظنه الانسان صالحاً فيحترمه يبدو شرا عند الآلهة » •

وتنتهي القصيدة أصلا بهذه الملاحظة الكئيبة ، ولكن الشخصية في هذه القصيدة تتبدل تبدلا جذريا في اثناء الاصلاح الديني العظيم الذي قامت به السلالة الاولى في بابل • فقد وجد الكهان انه من اللائق اضافة فصل ثان يستعيد فيه الرجل الصالح صحته واملاكه واحترام زملائه له • وسبب ذلك ان مردوخ قد اشفق عليه وتختتم القصيدة بالكلمات التي تقول :ـ

« يستطيع مردوخ ان يهب الحياة حتى في القبر وتستطيع زوجته (ساربانيت) ان تنقذ حتى من هاوية الموت » •

وتثير القصيدة مشكلة جديدة، ترى هل ينبغي لنا ان نرى اشارة خفية الى اسرار البداية والاحتفال بها وذلك عندما يقول الرجل الصالح وهو يشير الى ابواب معبد ايساكيلا المختلفة التي استطاع ان يثبت حقيقة كل اسم من اسماء هذه الابواب؟

(*) المعذب الصالح يقصد به النبي « ايوب » الذي ورد ذكره في التوراة وفي القرآن الكريم •

«لقد توقف نحيبي عند ـ باب وقف النحيب ـ واشرقت شاراتـي عند بـاب المعجزات.» وهملجرا قد يبدو هذا اشارة الى الارتباط الكائن بين اسماء الابواب والاسرار كما ان هذا تأكيد لاشك فيه على جدوى واهمية الاسم الحسن للابواب المختلفة وعلينا ان تتذكر ان القابها كانت تعتبر قادرة على خلق السجايا التي تشير اليها هذه الالقاب . وهكذا فانه عندما يمر الرجل الصالح من هذه الابواب يجب عليه ان يرى تغيير طبيعته . وعندما كان مردوخ يسير في موكب خاص بالاحتفال بعيد ـ اكيتو [٣٠] كان يلقى التحية كل مرة باسم جديد وذلك عندما يصل الى مكان جديد ، وهكذا فاننا يجب ان ننظر الى الامور بهذا المعنى لا بالمعنى الشائع المقبول عن الاشارة الى بدء الاحتفالات بالطقوس الدينية .

والى هذه المجموعة من الادب التشاؤمي تنتمي الامثـال التي جمعت ونشرت تحت عنوان ـ الحكم البابلية ـ وقـد جمعهـا ونشـرها السـيد (س . لانگدون) وتأخذ هذه الحكم صيغة المحاورة بين (سيد) واتباعه من العبيد . (والسيد في التفسير البدائي هو الملك دون شك) وتعالج هـذه الامثال مشاكل الحياة اليومية وغالبا ما يتناقض ما تستنتجه مع ما يتوصل اليه الرأي الحـديث .

---

(٣٠) عيد السنة الجديدة .

الشعر الغنائي ، بعض الترانيم

يؤلف هذا النوع من الشعر فصلا متميزا بما فيه الكفاية بين مجموعة الابتهالات التي تقدم الى الآلهه في الاحتفالات الدينية وتشمل هذه الابتهالات ـ الترانيم ـ التي غالبا ما تكون ذات روح وقوة كبيرتين ، ويخاطب بها الاله، وتضفي عليها هذه الروحية والقوة ، بصورة متميزة ، انواع الثناء الممل وغير المتغير والذي كانت ترتكز عليه الابتهالات ٠

ويعيد الثناء على النهر الى الاسماع ذكر القوة الخلاقة للمياه ، والدور الذي تلعبة هذه المياه عند الابتلاء بالمحن ٠ اما الثناء على النار فانه يعيد الى الاسماع ذكر قوتها في تنقية المعادن ٠ اما الترنيمة المقدمة الى ـ شمس ـ فانها تعرضه في دور ـ القاضي الاعظم ـ الذي يتوجه اليه كـل الكـون ، وهو يصدر احكامه الصائبة في السموات والارض على حد سواء ٠

اما الاله ـ سين ـ فتطلق عليه كنى عديدة ، فهو ـ آله القمر ـ كما يوصف بانـه ثور صغير العمـر مكتمل الخلقه في كل عضـو مـن جسمه ، وقيل عن لحيته بانها من (اللازورد) ويشكل هذا الوصف اشارة الى الصبغة الزرقاء المعتمة التي كان يتخضب بها رجال بلاد ما بين النهرين ، اما مدار الاله سين فقد كان ثمرة ضخمة جدا تتكاثر ذاتيا وكانت قرون الآله تعتبر اشارة الى الهلال على الرغم من اعتبارها احيانا الزورق الذى ينزلق فيه بـين ارجاء السموات ٠

وتحتوي الابتهالات التي تقدم لعشتار على مختلف النعوت من بينهـا انها ـ الكوكب ـ الذي يمثل عشتار مساءاً وعشتار صباحاً ٠ وكانت هـذه الابتهالات منظومة بشكل شعر جيد القافية ، وتذكر فيه الصفات المنسوبة الى فشتار ليشكل اللازمة المكررة ، وكان بيت الشعر المكرس للمديح يردف ببيت اخر تذكر فيه احزان المؤمن مثل :ـ

يضرب قلبي

فيصعد كالطير في السماء

انتِ كالحمامة

انا انحب كل يوم ٠

اما الترنيمة فانها تنتهي بمزيد من تكرار صفات الآلهه ، فهي تحقق نبوءات ابيها ـ سين ـ واخيها ـ شمس ـ ثم تنتهي الترنيمه بالعبارة :ـ انا عشتار ٠

ولبعض الترانيم صفة متميزة تماما ٠ ويذكرنا مطلع بعضها بالقصيدة الغنائية للشاعر الاغريقي ـ بيندار Pindar ـ ٠ تقول الترنيمه :ـ

سأسبح بحمد ـ بعل ـ إلِّيل ـ فاصغ اليَّ يا صديقي ٠ ايها المحارب استمع لي فالتسبيح بحمد ـ بعل ـ إليل ـ أفضل من العسل والخمر ٠ انتم افضل من احسن زبدة خالصة ٠

الخرافات

نشأت الحكاية الخرافية والتي يعد بابريوس ثقة فيها[٣١] اصلا في الشرق واستخدمها سكان العراق القدماء • وهذا امر طبيعي تماما • ذلك لان الاساطير تضم آلاف الامثلة عن الحيوانات التي تتحدث وتفكر مثل الكائنات البشرية • فصار منطقيا ان تتحول هذه الحيوانات الى شخصيات معنوية تستعمل في الحكايات الخرافية التي استعملت لتوضيح بعض الدروس الخاصة ، هذا على الرغم من ان مجالها محدود • وزيادة على ذلك فقد استخدم الفن الحكايات الخرافية لتصوير مخلوقات نصف انسانية ونصف حيوانية ، فنتج عن ذلك مشاهد تلعب الحيوانات فيها الدور القيادي •

تبين اقدم الاختام الاسطوانية التي عثر عليها في ـ سوسه ـ الاسود والثيران والابقار في اوضاع انسانية كالمشي وقيادة الزوارق ، ويمكن العثور على مثل هذه الجوقة الحيوانية ـ في ازمنة تساوي في قدمها مقابر ـ أور ـ وتتضمن مثل هذه المشاهد حماراً يعزف على الناي • وقد استخدم كتاب الخرافات المتأخرون مثل هذه المواضيع •

لقد ازدهر في مصر فرع آخر من الفن ، اذا جاز لنا ان نسميه كذلك ، ولم يشخص مثل هذا الفن في العراق لحد الان • ونعني بهذا الفرع القصة القصيرة عن المغامرة • ويجب الا نخلط بينها وبين الحكايات الخرافية على الرغم من فضل الاولى على الثانية • وقد عثر في مصر على أحسن نماذج لهذا الفرع واكثرها تهذيبا ومنها ـ قصة الاخوين ـ و ـ مغامرات سنوحي المصري ـ الذي استقر في ـ سوريا ـ في عهد الامبراطورية الوسطى •

ولسوء الحظ اصيب نص الخرافات الذي بحوزتنا بتلف شديد بمرور

---

(٣١) طبقا لما ذكره لدل وسكوت في القاموس اليوناني ظهر بابر يوس كاتبا للخرافات سنة ٥٠ ق . م .

الزمن ولكن ، وبالرغم من الثغرات فيه فاننا نستطيع ان نرى الحصان والثور يتنازعان على فضائلهما ، كما تتباهى النخلة وشجرة الاثل بسجاياهما في صفة نزاع .

فتدعي كل منهما انها خير من الاخرى واخيرا تنتصر حجج النخلة ذلك لان سعفها وخشبها وعصيرها وثمرها عناصر ثابتة في الاقتصاد . وزيادة على ذلك فان مشاهد كتلك التي تصور حيوانات تحمل على ما يظهر تجهيزات لمأدبة معينة تظهر محفورة على لوح من عاج كان يستعمل لتزيين قيثارة وجدت في المقبرة الملكية في اور . وينتمي هذا المشهد على اكثر احتمال الى هذا النوع من الادب .

تدوين التاريخ

اتخذ اسلوب الكتابة شكله المحدد اثناء حكم السلالة الاشورية المتأخرة والامبراطورية البابلية الجديدة وجاءت بعد الكتابات التي سجلت منذ بداية التاريخ اعمال الملك الجبارة مجموعة مختلفة من الصيغ الروائية التي وضعت لها قواعد في وقتها . وهذا ما ساعدنا على استخلاص بعض الاستنتاجات المؤقته عن الروائيين واسلوبهم في الكتابة ، وعن احساس سكان العراق القدماء بالتاريخ كسجل للحوادث .

تسجل الحوليات الوقائع البارزة حسب التسلسل الزمني التاريخي فتحظى الحملات العسكرية في بلاد آشور بالمكان الافضل في سجل الوقائع . ذلك لان الحروب كانت صناعة آشور الثابتة . اما في بابل فان قوائم البنايات هي التي نالت المكانة الاولى . ونستطيع ان نراقب نمو الامبراطورية الاشورية نتيجة للسجلات العسكرية المتتابعة . وكانت اوامر الآلـه هي التبريرات التي تعطى لدوافع هذه الحروب ، والتي كان يزعم عنها بانها كانت حربا مقدسة . كما كان هناك عذر آخر طالما اتخذ ذريعة لهذه الحملات ، وهذا العذر هو العجز عن تقديم الاحترام الى ملك بلاد آشور . ويتمثل هذا العجز في اهمال نصوص معاهدة ، او في اهمال العلاقات الدبلوماسية . واخيرا فان الاخبار تأتي على وصف الطريق الذي سلكته الحملة ، وقصة الانتصارات المكتسبة ، مع عودة الملك الى عاصمته مثقلا بالغنائم .

هناك نوع ثان من الكتابات اقل شيوعا يعرف باسم ـ (كتابة العرض) يصف المراحل المختلفة التي يمر بها غزو منطقة معينة . اما النوع الثالث فهو نادر جدا ويمثل تقريرا موجزا عن حملة عسكرية . وقد قدم الملك هذا التقرير الى الآله المقيم في احد معابده . ويحرص الملك في هذا النوع على ان يتذكر بانه هو نائب الاله ، وانه يقدم له تقريرا عن اعماله في نفس الوقت الذي يقدم لـه فيه الشكر .

واذ تحفظ هذه الانواع الثلاثة من النص ذكرى الملكه المسؤولة عن كتابتها فانها ، مع ذلك ، لا تهتم بالتاريخ المعاصر لها • اما البابليون فانهم كانوا يكتبون المقالات عن هذه المهمة في السجل التاريخي البابلي ولهذا فقد خلفوا وراءهم سجلا باهم حوادث بابل وآشور ، والتي وقعت في الفترة ٧٤٥-٦٦٨ ق • م •

كان تحت تصرف سكان العراق القدماء سجل تأريخي عن العصور المبكرة عندما ارادوا ان يتهربوا من الوقائع المعاصرة في منتصف الالف الثاني قبل الميلاد • وبالرغم من ان هذه السجلات غير كاملة من عدة وجوه ، فانها كانت مع ذلك تمثل جداول بالسلالات ومع كل ذلك فقد كانت ثمة مخاطر تحيق بكل محاولة لتحميل الابحاث ابعد مما يجب وتنتج هذه المخاطر من عدم امكان الوثوق بمعرفه الكتاب عن الفترات المبكرة جدا •

هناك الكثير من التناقضات في نسخ الجداول التي بحوزتنا • وبغض النظر من هذه التناقضات الموجودة في كل مجموعة فاننا نقول ان هناك نوعان من الروايات التاريخية احداهما بابلية ، والاخرى آشورية ، والواقع ان هذه الجداول تمثل نوعا من المذكرات التي تخص السلالات حسب التسلسل التاريخي ، على الرغم من وجود سلالتين تحكمان في نفس الوقت في مركزين مختلفين ، او ان احداهما قد ظهرت قبل ان تتلاشى الاخرى من المسرح •

لقد ازداد عدد الاكتشافات من هذا النوع زيادة هائلة اثناء الخمسين سنة الماضية • ولقد ساعدتنا الاكتشافات الحديثة على تصحيح النظام السابق الخاص بالتسلل الزمني الذى كان يرتكز على عدد محدود من الوثائق التي كانت تشكل اساسا ثابتا بدرجة معينة ولكنه غير دقيق من التسلسل التاريخي الخاص بهذه البلاد ، والذي كان يفترض السنة (٤٠٠٠ ق•م) بداية للتاريخ، وكان هذا الرقم هو المقبول رسميا •

اما العادة الحديثة التي تعلق اهمية على احدث الوثائق اكتشافا حسب ، فانها تشبه المزاعم القائلة باعادة تنظيم التسلسل التاريخي الخـاص بالشرق الاوسط كل اربع او خمس سنوات ، دون الحاجة الى مزيد من الوقت للتفكير في قابلية الاعتماد على اخر ما تقدمه التنقيبات من نصوص ، وبالطبع فان مثل هذه الميول لا يرضى بهـا .

لنأخذ ، مثلا ، هو اولا التناقضات العجيبة في الارقام التي تشير الى عدد الاسرى الذين اخذهم شلمانصر في معركة ـ قرقار ـ Qarqar وثانيا الموشور المعروف باسم (موشور نبونيدس) المحفوظ جيدا والذي لا خلاف على قراءته ، والذي نجد ان الكاتب قد ارجع فيه قصته الفسنة الى الوراء . وهناك تفسيران مقبولان لمثل هذا الخطأ وهما موجودان في وثيقة رسمية وبنـاءاً عـلى ما في هذين التفسيرين فان هذا الخطأ ناتج اما من عدم مبالاة عامـة ، او من غش متعمد وليس للتاريخ شأن في اي منهما .

الاسلوب التاريخي وصلاحيته

كانت السجلات التاريخية حتى نهاية العصر الذي تتحدث عنه تصاغ الاسلوب الادبي القديم الذي تمثله القصائد الهومرية(*) • ووفقا لهذا الاسلوب كان اسم كل شخص او شعب او بلد يردف بكنية لا تنفصل عنه • ونجد نفس العبارات التي استعملت في وصف حملات ـ سرجون ـ تتكرر دون تغيير وذلك في اخبار آخر اعضاء السلالة الآشورية المتأخرة • وهذا نتيجة لطريقة تربية الكتاب الذين كانوا يكدون ذاكرتهم لكي يحفظوا العبارات المعدة من قبل ، والتي يجب ان يقولوها في ظروف معينة • صحيح ان اوصافا جديدة قليلة العدد قد ظهرت في عهد حكم ـ آشوربانيبال ـ ولكنها تمثل مظاهر نادرة في السجل العام الممل •

وفي نهاية المطاف فانه لايمكن الاعتماد تماما على هذه الوثائق ، لا لانها متهمة بالمبالغة في وصف بعض الانتصارات ولكن لانها مشهورة بعدم ذكرها لاية هزيمة لحقت بالآشوريين ، هل يطارد العاهل الآشوري عدوه المنهزم عبثاً ؟ اما الاخير ، اي العدو ، فانه استطاع ، كالطير ، ان يحصل على مكان لا يمكن الوصول اليه وذلك من خلال تراجعه ، هل تتراجع جيوش الملك في المعركة ؟ انها تعد العدة لانسحاب مخطط الى العاصمة •

واذا ما اردنا مثالا اكثر قدما فاننا نستطيع ان نجد واحدا نأخذه من وصف معركة ـ قادش ـ والتي وقعت بين رمسيس الثاني والحيثيين • اذ يذكر كل كل طرف وصفا للنص الذي يزعم انه قد احرزه • ومع ذلك فانه عندما تأخذ التصحيحات حصتها فان الكمية عينها من المادة التي تحت تصرفنا تمكننا من ان تكون فكرة جيدة وجميلة عن سياسات الدول التي كانت تمثل قوى عالمية في الوقت الذى قلما بدأ فيه الضمير الاوربي يتحرك •

(*) نسبة الى الشاعر الاغريقي القديم ـ هوميروس ـ صاحب الالياذة ـ

المراسلات الخاصة

المراسلات الملكية

كان سكان بلاد بين النهرين من كتاب الرسائل الذين لا يتعبون . ولقد ظل سالما جزء كبير من مراسلاتهم ، أو هكذا قد نظن على الرغم من انه يجب علينا ان تتذكر بانه لم يتلف شيء من مراسلاتهم طالما كانت رسائلهم غير قابلة للتمزيق . وتنصب معظم المراسلات على قضايا الاعمال ، التجارية منها خاصة ، ومن غير المألوف كثيرا ان نعثر على رسالة ودية الى صديق غائب . تتعقد مشكلة ترجمة هذه الرسائل ما دامت تعالج مواضيع متعددة ، وتنتقل فجأة من موضوع الى اخر . ويبدو انها تذكر حقائق مختلفة ليس لدينا معرفة عنها .

كانت هناك تقاليد خاصة باستهلال الرسائل ، وتظهر هذه التقاليد جامدة . وكما رأينا عندما بحثنا في موضوع الخط المسماري الذى لا يترك الا مجالا ضئيلا للمعالجة الفردية ، فانه لم يكن في ذلك الوقت من يستطيع، من تسلمي الرسائل ، ان يحدد اسم المرسل بمجرد النظر الى الرسالة ولذلك كان المرسل يكتب اسمه دائما كما يلي :ـ

(الى (أ) من خادمكم (ب))

ثم يلي ذلك تمنيات بحسن صحة المرسل اليه وغالبا ما نضع مثل هذه العبارات في نهاية رسائلنا . وقد تكون الرسائل احيانا كثيرة اللف والدوران ولكنها في صورتها الموجزة والبسيطة كانت تجري كالآتي :ـ

« ليهبك (هذا او ذاك) الآله الحياة » .

وتأتي بعد ذلك مادة الرسالة التي تنتهي عندما لا يجد الكاتب مايكتبه. ولم تكن هناك صيغة مقررة لإنهاء الرسالة ، وكان الكاتب ، اذا ما اعتقد بان هناك سبب للشكوى ، يحشر توبيخاته او اوامره مع العبارات التي يراد منها ان تهدىء من فكر المرسل اليه ومن امثال ذلك قوله :ـ ألم تعد اخي ؟ الم تعد ابي ؟

ان اهم الرسائل ، من العصر الذي ندرسه الان ، هي تلك التي كتبت من قبل والى مختلف الملوك الآشوريين المتأخرين وتلقي هذه الرسائل ضوءاً على كل وجه من وجوه الحياة سواءاً في البلاط ام الشؤون العامة . وهناك اشارات الى الحرب ، ولقد سبق ان ذكرنا مقتبسات من بعض هذه الرسائل التي تشير الى حملة سرجون على ارمينيا ، وبكل بساطة فان تلك الرسائل لم تكن الا تقارير سرية قدمت الى الملك من قبل وكلائه .

وكان الملك يهتم بالاعمال اليومية مثل النقل بواسطة الزوارق ، واصلاح اضرار الفيضان ، وتوجيه التوبيخ الى المقصرين بواجباتهم . وهكذا فقد جاء في احدى الرسائل :ـ

« يهمل حائكو المعبد اعمالهم او الطلبات القاضية بوجوب حضورهم بين يدي الملك للاستماع اليه » . ولقد جاء في رسالة الملك قوله :ـ « سوف تمنحون في وقت لاحق فرصة المثول بين يدي فاذا كان لديكم شيء تريدون قوله لي فاكتبوه » .

وتمضي الرسالة فتقول :ـ

« كيف يمكنني ان اتحمل رفض طلب المثول ؟ الى من اتوجه في المستقبل ؟

وهناك العديد من تقارير الشرطة عن اشخاص مفقودين فمثلا نجد رسالة تقول :ـ لقد بحثنا عنه في ـ بير حالزا فلم نجده . كما بحثنا

عنه في مدينته ، ولم نعثر عليه ، الا ان اخاه وجد هناك ويكاد يكون وحيدا فأعتقل • وجيء به امامي ، وعندما سألته :ـ اين اخوك ؟ اجاب قائلا :ـ لم أره • انني ارسل الاخ الى الاله » •

اما في الرسالتين التاليتين فاننا نرى الموظفين وهم يؤدون اليمين القانونية ، وتستطيع ان ترى من خلال هذه اليمين التركيب الكهنوتي المتسلسل حسب الدرجات لمجتمع الموظفين • وتشدد الرسالة الثانية على الاهمية التي تفضى على هذا الاحتفال الخاص • تقول الرسالة الاولى :ـ

« الى الملك ربي ، من خادمه (عشتار ـ شن ـ ارش) • الصحة للملك ربي وليباركه ـ نبو ومردوخ • لقد أدى يمين الاخلاص للآلهة في اليوم السادس عشر من نيسان الكتاب والكهان والسحرة والاطباء ومراقبو طيران الطيور ، وموظفو القصر الذين يسكنون في المدينة ، ويمكنهم الان ان يؤدوا يمين الاخلاص للملك » •

اما الرسالة الثانية فتقول :ـ

« الى الملك ، سيدي ، من خادمه ـ كابتيا الصحة للملك سيدي • اما عن مسائل اليمين الخاصة ببابل ، والتي كتب لي عنها الملك فأقول اني لم أكن موجوداً والسبب هو ان رسالة الملك وصلتني بعد ان سافرت واخي الى بلاد ـ أراشي ـ Arashi في جولة تنتيشية ، ولم استطع ان اصل الى بابل في الوقت المناسب لاداء اليمين لقد قابلت في رحلة العودة كبير موظفي البلاط • وعندما يوجهني الى الوركاء التي تحميها آلهتكم • ساكون قادراً على تلقي يمين الولاء لسيدي الملك ، ولكنني لا اثق ثقة تامة في هذه اليمين التي تؤدي بصورة سرية ، والتي فكرت في ان تجعل الجنود وابناءهم وزوجاتهم ، وكذلك آلهتهم يؤدون اليمين اللائقة بالملك ولكنني لن اقبلها الا وفقا للصيغة التي وضعها الملك في رسالته ، وذلك عندما يأتي كبار القوم لاداء يمين الولاء للملك ربي » •

وختاماً ها هي الرسالة التي بعث بها بعض كبار الموظفين والذي لانعرف اسمه وهي مرسلة الى الملك سنحاريب الذي عكس قوانين وراثة العرش ، فجعل ابنه الاصغر ـ اشور بانيبال ـ على عرش بلاد آشور ، وجعل ابنه الاكبر على عرش بلاد بابل .

تقول الرسالة :ـ

« لقد فعل الملك ، ربي ، على الارض فعلة لم يسبق ان فعلها احد حتى في السماء ، وقد جعلنا شهوداً لها . لقد خلعت على احد ابنائك الكسوة الملكية ، وجعلت منه حاكما على بلاد آشور ، وجعلت ابنك الاكبر وريثا لعرش بابل . ان ما فعله الملك ، تجاه ابنه ليس من صالح بلاد آشور ، ويقيننا ايها الملك فان بلاد آشور هي التي منحتك السلطان حتى مشرق الشمس الى مغربها . وحين ينال اطفالك الاعزاء شيئا من هذا السلطان فان قلبك قد يرضى . ومع ذلك فأن الملك ربي نفذ خطة شريرة . ولذلك صرت ضعيفا في هذه البلاد » .

قارن هذه الرسالة بالرسالة التالية المرسلة من قبل مواطن بابلي جاء ليقدم شكواه الى الملك فطرد بسرعة من الحضرة الملكية . تقول الرسالة :ـ

« انا كالرجل الميت » تهاوى بعد رؤية الملك ، سيدي ، وعندما ارى ملامح الملك ، سيدي ، تعود لي الحياة ، وبالرغم من اني لا زلت جائعا فاني اشعر بالانتعاش وعندما نلت شرف سماع الملك لي غلبني الخوف فلم اجد كلمة اقولها » .

والحقيقة ان الرهبة من الملوك هي غير الرهبة من القوانين المقدسة آنذاك . ونحن نشعر بالذهول من البلاط الاشوري وما فيه من عبودية وصراحة تجاه شخص الملك . وكانت هذه الحالة مظاهر بارزة في الشرق القديم .

العلوم ، موضوع الالهام

يحفظ لنا المؤرخ ـ بيروسس[*] في بقايا تاريخه التي حصلنا عليها بعد ان ضاع معظمه ، احاديث قديمة جدا عن بداية الحضارة في بلاد بين النهرين • ووفقا لهذه الاحاديث رأى السكان البدائيون ، وهم في مستوطناتهم الكائنة في المستنقعات الواقعة حول الخليج العربي ، مخلوقا خرافياً عرف باسم ـ اونيس ـ Oannes ـ وكان نصف انسان ونصف سمكة • ويخرج هذا المخلوق من الماء فيمضي النهار بين السكان مرشداً اياهم الى كل فرع من فروع المعرفة ، ثم يرجع كل ليلة الى الاعماق • وقد استمر ظهور مثل هذا المخلوق اربع مرات ، وكان كل مخلوق يكمل العمل الذي بدأه سابقه •

شاع اعتقاد عام يقول انه منذ ذلك الوقت وما بعده لم تسجل اية ملاحظة لظهور مثل هذه المخلوقات •

ونتيجة لهذا المفهوم بالذات عن المعرفة الموحى بها صارت هذه المعرفة ليست محترمة حسب بل ومقدسة ايضا • وقد ظهر التأثير الاول لذلك في انتشارها ، اذ اصبح من غير المناسب نشرها في العالم على نطاق واسع ، بل يجب ان تكون مقصورة على قلة مختارة جديرة بها • وهذا يعني اولا وقبل كل شيء ـ الكهان ـ الذين يعتبرون قيّمين عليها ، وهم بدورهم يهبونها لمن يثبت انه يستحقها ونخص بالذكر منهم المتمرنين •

وكان مفهوم التمرين آنذاك عاملا حاسما في عملية التعليم ، فهو يمنع اولا الاعلان عن المسائل السرية جدا او الحظيرة والتي تستوجب عدم شرحها

(*) بيروسوس Berossus كاهن معبد بابل الذي ترجم الى اليونانية مؤلفات البابليين عن الفلك والتنجيم ، ووضع عن بابل تاريخا مفصلا في ثلاثة اجزاء نشر باليونانية • وقد ضاعت مؤلفاتـه وبقيت منها فصول وشذرات في مؤلفات كل من يوسفس واميانوس

في الكتب • وهكذا فقد تحتم القيام بالتعليم الشفوي وبعد ذلك تعطى المواضيع الممنوعة بصورة تدريجية، والواقع اننا لانملك اي كتاب مدرسي يفسر لنا كل ما ضمه اي فرع من فروع التعليم • لقد حرص الكهان على اعطاء المتعلم حسب ، المقالات التي تكون معانيها العميقة ابعد مما يبدو ظاهراً ، وهم واثقون من ان هذه المعاني لايمكن ان تفهم الا بوجود مفاتيح لها • وغالبا ما تواجهنا العبارة التالية في احد النصوص :ـ (عليك ان تشرح للمتمرنين ••)

لم يطبق هذا الحظر تطبيقا شاملا على قراءة نص معين ، ولكنه طبق على تفسيره • لقد سبق ان رأينا ان سبب ذلك يعود الى اللغة والارقام ، اذ غالبا ما يسعى الفكر البابلي الى اخفاء نفسه عن طريق ـ الرمزية واروع مثال على ذلك هو ما نجده عند شرح اهمية معبد (بعل ـ مردوخ) في بابل ، اذ يضم هذا الشرح سلسلة من الارقام التي تسجل ابعاد ساحة المعبد ودكاكه ، وابنية معبد ـ ايسا گيلا ـ وقد عرف هذا المعبد باسم ـ المعبد الشامخ ـ بسبب زقوراته السامقة •

بعد ذلك ينتقل كاتب اللوح فجأة ومن وسط وصفه الصريح ، الى ادخال الصيغ التحذيرية ، ان من المذهل حقا ان لا تظهر اية دلالة خاصة في قائمة الارقام والابعاد هذه ؛ ومع ذلك فاننا نقول ان السر يكمن في معاني هذه الارقام ، اذ اننا نعرف انه غالبا ما استعملت الارقام لاخفاء القضايا السرية المقدسة ، كما انها تؤلف لغة سرية يسمو معناها على افهامنا • وهنا نستطيع ان نتذكر بناء ـ سرجون لاسوار خرسباد ـ الخارجية ، وجعله طولها مساويا لارقام اسمه ، وهذا شيء يجب اخفاؤه الا عن المتمرنين •

جمعيات العبادة السرية

هناك سؤال يقول :ـ هل كانت جمعيات العبادة السرية موجودة في بابل وآشور كما كانت موجودة في اماكن اخرين بصفة عامة كاليونان مثلا ؟

لقد أحكم كتمان السر ومع ذلك فان هناك اساسا للتفكير والقول بان مثل هذه الجمعيات كانت موجودة • فقد ورد في القصيدة المشهورة والمعروفة باسم ـ المعذب الصالح ـ كيف زكى الاله مردوخ هذا الرجل الذي وصفت القصيدة محنته ، والذى سبق ان نزل الى القبر ، ولكنه عاد الى الحياة في بابل ، وفي اثناء عودته كان يمر عند كل باب بتجربة مباشرة من النعيم الذي يوحي به اسم الباب ، مثل ـ باب الكوثر ، وباب الجن الصالحين ، وباب السلام ، وباب الحياة ـ وباب الشمس ـ وباب الوحي ـ وباب كنس اللعنات وباب البحث عن الغم ، وباب انتهاء الفواج، وباب التطهير • وبعد هذه التجارب سمح له بالمثول في حضرة الاله مردوخ وكانت هناك قرينته ـ ساربانيت ـ والتي يعبدها ، فقدم بين يديهما تضرعه •

هناك ادله تشير الى ان بعض ابواب معبد ـ ايساگيلا ـ كانت تعرف بهذه الاسماء • وبناءاً على ذلك فان السؤال المطروح هو : هل كان النص مجرد سجل لرحلة حج الى مكان مقدس او هل انه وصف لحالة عاش فيها المؤمن درجات من النعيم ، وان مقدار هذا النعيم يتوقف على مقدار تقدمه في مراحل المعرفة ؟ •

يجب علينا ان نتمسك بما سبق ان قلناه اكثر من مرة ، من ان لكل مظهر من النصوص والشعائر الدينية معنى سري ورمزي ولقد سبق ان ذكرنا امثلة عديدة حول هذه المسألة • وكلما ازدادت دراستنا للحضارة البابلية كلما ازداد تأكدنا من احتواء الفكر على عنصر خفي وانه في اصل كل شيء يوجد رمز ، ومع اننا غالبا ما قد نتجنب حتى الشك بعدم وجوده،

الا ان معرفتنا تسمح لنا بأن نستنتجه حتى ولو كان ذلك على حساب التفسيرات التي قد تبدو بعيدة المدى ٠

وهكذا فانه حتى ولو لم يكن هناك اساس ايجابي لايجاد هذا القدر من نقاط الضعف في هذه المسألة ، فانها على الاقل كانت تمثل شيئا معينا كان سكان العراق القدماء متمكنين منه ٠ ونحن نأخذ برهان ذلك من الالواح التي سبق ان اقتبسنا منها ٠

اما سكان العراق القدماء ، الذين مزجوا احترام الدين مع قوة التعليل المنطقي ، فانهم كانوا ملزمين بالحصول على بعض الاستنتاجات من مفهوم الالهام هذا ٠ فهذا المفهوم لم يكن قابلا للتحسين واذا ما صدقنا الاحاديث المنقولة فان الكثير من المحاولات المختلفة التي بذلت من اجل ذلك لم تأت الا بالنفع القليل ٠ والشيء الوحيد الذى يستطيع ان يفعله الانسان للمعرفة التي توحي بها الآلهة هو ان ينسقها وينظمها ٠

تؤكد الديانة البابلية القائمة على عبادة الطبيعة وتعدد الآلهه ، على الايمان العام الشامل بهذا الالهام ٠ اما في الديانة التوحيدية والتي يكون فيها كل شيء من خلق آله واحد ، فأن الايمان يتطلب نوعا معينا من معرفة الذات لكي تشكر الله على كل ما هو خير في هذه الحياة ٠ واما بالنسبة (للبابلي الفرد) فأنه كان يؤمن ايمانا قويا بعدم وجود شيء في هذه الحياة ، سواء كان طبيعياً ام من صنع الانسان بلا آله مناسب له ٠ فالشعير هو الآلهة النفية (نيدابا) اما الكرمة فانها تذكره مباشرة بالآلهة (كيشتين ـ انا)(الكرمة السماوية)٠

ولم يكن لدى سكان مدينة (امّا) سوى الاله (شارا) الذي يتذكرونه بمجرد النظر الى حقولهم وبساتينهم ٠ وكان الرمز الذي يستعمل لكتابة اسمه هو نفس الرمز المستعمل لكتابة كلمة الخضره ٠

ومجمل القول كانت الديانة البابلية تمثل نوعا من الاساطير التي تتخذ

من القاعدة التاريخية مرجعا لها . اما ما يدخل عليها من تحسين فليس نتيجة جهد اجتهاد شخصي بل نتيجة احسان تفضل به احد الالهه على الانسان ، وينتمي هذا الاله الى مجمع الآلهة البابلي الذى لا ينضب معينه .

هذا هو السبب الذى يجعل التقسيم الحديث للفكر والمعرفة الى فنون وعلوم طبيعية وعلوم تطبيقية ، يبدو غريبا على التصور البابلي الذى اعتبر كل فروع العلوم ذات اهمية متساوية ، وبسبب مصدرها تساوت جميعها في دقتها . اننا سنحسن صنعا اذا ما تأكدنا من ان تقسيمنا الحديث للعلوم لم يعد يدعى الدقة وانه قد يتوجب علينا تغيره ذات يوم ذلك لان حقائق الفيزياء والكيمياء والرياضيات تنوء تحت المكتشفات الحديثة . ولما لم يكن هناك شك يطابق البابلين فأنهم لم يستطيعوا ان يروا ، كما نستطيع نحن ، عملية نشوء وتطور المعرفة على الرغم من ان هذه العملية كانت عندهم ابطأ مما هي عندنا .

علينا ، عند تكوين احكامنا عن الشعوب البدائية ان نحرص على عدم توجيه اللوم اليها بسبب ما يبدو فيها من ركود ظاهر . ان الفكر وحده لا يخلق لحد ذاته التقدم فهو بحاجة الى مهارة في العمل ، والى التجربة التي تجعل من كل خطوة الى امام استغلالا ممكنا لآفاق جديدة تمتد امكانياتها الى المستقبل دائما وتعطي نتائج غير منتهية . ان الاكتشاف لايمكن ان يتحقق الا في مناخ مفضل تماما عند المكتشف ويبرهن تاريخ العلوم ان كل جيل يكاد ان يواجه اولئك الذين سبقوه في وطء نفس الارض قبلة . ولولا حاجة المجتمع المعاصر الى المعرفة ولو الحاجة الى المعدات الضرورية لتأخرت عملية الاكتشافات .

وبعد ان تتذكر هذه الظروف سوف نمضي ، لغرض التبسيط ، في تقدير قيمة العلوم بأسمائها المألوفة كالرياضيات وتطبيقاتها والفلك والعلوم الفيزياوية والكيمياء .

الرياضيات

عند وصفنا للرياضيات البابلية سوف نعتمد واثقين على دراسات شاملة لهذا الموضوع قام بها (تورو دانجان) • وقد نشرت نتائج هذه الدراسات في عدة اجزاء •

يركز نظام العد الستيني على العدد (٦٠) او على حاصل ضرب ، او احد كسور الرقم (٦٠) ، وقد استعمل العرب والاغريق هذا النظام على حد سواء ، ولا يزال يستعمل في أوربا الغربية في القياسات الرياضية للاقواس والزوايا ، واجزاء الوقت •

لقد استعمل البابليون هذا النظام بأضطراد كما استعمله السومريون من قبلهم • وهناك سؤال اثير عن فائدة هذا النظام الذى ترك آثاره على نظام العد الحديث ، حيث يكثر حديثنا عن (الدوزينة) او الكروص او عن ـ بضعة دوزينات ـ (*) ونعني بذلك عددا نستخدمه بدلا من كلمة مئات او الالف •

لنفرض ان العدد (٦٠) هو اصغر عدد يحتوي على أكبر عدد من الكسور، وهذا هو السبب في استعمال العدد المذكور في تقسيم السنة الى أيام ، وكذلك في اتخاذه وحدة للتعبير عن عدد الدرجات وفي تقسيم الدائرة الى ستة قطاعات • ومن المحتمل ان يكون استعمال هذا النظام قد اقتصر اول الامر على الاعداد ومن ثم طبق في مراحل متأخرة على القياسات •

نحن نعرف ان السومريين كانوا يحسبون بوحدات من الواحد الى العشرة • وبالطبع فأن هذه عملية طبيعية ما دامت الاصابع تهى لهم الاعداد من واحد الى عشرة وبدلا من ان يستمروا في حسابهم من العشرة الى المائة ،

(*) الدوزينة Dozen تعداد انكليزي مقداره ١٢ اما الكروص Gross فمقداره ٢٤ •

فأنهم توقفوا عند العدد (٦٠) • وابتداءً من هذا الاساس شرعوا يولدون نظاماً يرتكز على الوحدة (٦٠) او كسريها (٦) و (١٢) وصولا الى النظـــام العشري • ويمكننا التعبير عن النظام العشرى والنظام السومري بالعمودين المتوازيين التاليين :ـ

العشرى	السومرى الستينى
١	١
١٠	١٠
١٠ ×١٠	١٠ ×٦
(١٠ × ١٠) × ١٠	(١٠ × ٦) × ١٠
(١٠ × ١٠ × ١٠) × ١٠	(١٠ × ٦ × ١٠) × ٦

اما نظام القياسات الذي استخدمه السومريون فقد كان ستينياً بصورة جزئية • فمثلا كان جدول الاوزان يقوم على اساس المفهوم العرفي المستند الى ما يستطيع الانسان او الحيوان حمله • اما القيم العرفية التي تتبـع النظـام الستيني فقد خضعت للاوزان الصغرى مثل (المينـــا) وهي تساوي سدس (الحمل) المذكور آنفا ، ثم الطالين وهو من مضاعفـــات المينـا ، ويعـــادل (الحمل) واجزاءه •

ان للسومريين فضلا كبيرا علينا في تقسيم اليوم الذي اعتبروه شروق الشمس بداية لــه ، فقسموه الى اثني عشر ضعفا للساعة ، أي أربعة وعشرين ساعة ، ثم قسموا كل (ضعف ساعة) الى ثلاثين جزءا وقد قـدر الفلكـــي الاغريقي (كديناس) ان منتصف الليل يجب ان يعتبر بداية لليوم • ويسبب هذا القياس خطأً أقل من الخطأ الذي يسببه الحساب بشروق الشمس •

لقد طبق على الدائرة نظام تقسيم اليوم الى (٣٦٠) جزءاً ، وقسم (سمت)

الشمس الى قطاعات دائرية تتألف من اثنى عشر (ضعفاً للساعة) ، اي (٢٤) ساعة • وفي النهاية فقد نتجت منطقة البروج من هذا التصور وفي هذه المنطقة تغطي كل علامة $\frac{١}{١٢}$ من الدائرة الكاملة او ثلاثين درجة • وقد وسع هذا التقسيم ، الذي يعود تاريخه الى نهاية عهد الاخمينيين ، مجال علم التنجيم الذي استوعب استيعابا كاملا بعد ان تحققت مضامين الاعتدالات • وعلى الرغم مما في النظام السومري من عيوب بسبب اخذه بالنظام العشرى تاره ، وبالنظام الاثنى عشري تاره اخرى ، فأن مجال هذا النظام يكمن في كون حجم العدد غير مطلق بل نسبي وكان يعبر عنه بالموقع الذى يحتله(*) • وكان العدد يربط سلسلة كسور في قوة شيئية نازلة مع سلسلة اعداد صحيحة في قوة ستينية تصاعدية ، وهكذا صار هذا النظام اداة مرنة تستعمل في الحساب ـ وعندما تبنى اليونانيون هذا النظام بصورة جزئية فقط حرموا انفسهم من هـذه الخبرة ، ويمكن ان يقال نفس الشيء عن الهنود الذين لم يأخذوا الا بالجزء الخاص بالاعداد الصحيحة وعندما ادخل هذا النظام الى أوربا الغربية من قبل العرب كان على العالم ان ينتظر حتى القرن السادس عشر للميلاد ، حتـى يدرك تماما المنافع التي يحصل عليها من سلسلة الاعداد الموجـودة في قـوة تنازليـة •

لدينا الان العديد من المجموعات المهمة من المسائل الرياضية البابلية والتي تظهر انهم كانوا قادرين على حساب الحجم المضبوط للهرم وللمخروط الناقص، وهم لم يحسبوا الزوايا بواسطة المستوى الافقي ولكنهم حسبوها بمقدار الانحراف عن الخط العمودي • كانوا ينظرون الى اشكال ذات بعدين تقف على مستوى عمودي ولكنهم رؤوا هذه الاشكال معكوسة ولذلك وصفوها بالاشـكال التي افترضوها وقالوا عن المثلث بأنه (رأس مسمار) وان متوازي الاضلاع

(*) لم تكن في هذا النظام علامة واضحة أو مرئية للاعداد التي تحت العشرة والتي كانت نستنتج من المحتوى •

(رأس ثور) • وفي الوقت الذي اوفت فيه الهندسة البابلية متطلبات حياتهم اليومية ، نجد ان تطور الجبر يحظى بمساعدة كبيرة متأتية من وسائل الحساب التي اتقنها البابليون ، فتقدم علم الجبر بخطوات عملاقة ، واعتبر نتيجة لذلك من اعظم انجازات ذلك العصر • ونتيجة للاتقان المدهش الذي اظهره البابليون في المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية ، فأن تورودانجان يعتقد اعتقادا جازما ان لهذه المعادلات تأريخا يمتد في أعماق الماضي البعيد ، وانها لابد ان تكون تراثا ورثه البابليون عن السومريين •

مجموعة من الاسئلة

تتخذ المجموعات السالمة من التلف اشكالا مختلفة فهي تارة تذكــر السؤال وتارة اخرى تذكر جوابه كذلك وتاره ثالثة تقرر هذه المجموعــات السؤال والخطوات اللازمة لايجاد الحل ، اما عملية الحساب الحقيقية فتترك للطالب ، وقد نجد احيانا ذكرا للمسألة مع طريقة الحل . والجواب . وتبين الامثلة المعطاة عن النموذجين الاخيرين وبصورة كاملة انـه يجب اسـتعمال الجداول الحسابية ، ولكن لا يوجد شرح نظرى للعمليـات المتتالية التــي تستخدم . وسنقتبس مثالا عن كل مسألة من كل نوع ، زيادة في الايضاح، ولكننا ستستبدل الاصطلاحات البابلية بأصطلاحات مألوفة عندنا .

(أ) المستطيل :ـ

لقد ضربت الطول بالعرض فحصلت على المساحة ، ثم جمعت الطول والعرض فكان حاصل الجمع فكان حاصل الضرب مساويا للمساحة وجمعت الطول والعرض والمساحة فكان الناتج الكلى للثلاثة هو تسـعة ترى ما هي ابعاد المستطيل ؟

(ب) جمعت مساحة اربعة مربعات فكان الناتج دقيقة واحدة وثلاثين ثانية[٣٣] وكان مجموع اضلاع هذه المربعات دقيقتين وعشرين ثانية فمـا هي اطوال اضلاع هذه المربعات ؟

---

(٣٣) استعملت العلامات عن الدقيقة والثانية في هذه المسائل لكي تشير الى اجزاء القوة المتعاقبة للعدد ٦٠ وهكذا فأن الرقم ١ ، ٣٠ يعني دقيقة واحدة وثلاثين ثانية $= \frac{١}{٦٠} + \frac{٣٠}{٦٠ \times ٦٠}$ لتفسير المسالة (٣) انظر المسالة (٣) الملحق (أ) .

الجـــواب :ـ

طول اضلاع هذه المربعات هي على التوالي :ـ

الاول خمسون نينده[٣٣] الثاني (٤٠) نينده الثالث (٣٠) نينده والرابع (٢٠) نينده .

(جـ) حجر مجهول الوزن :ـ

طرحت $\frac{١}{٧}$ وزنه $\frac{١}{٢}$ شاقل و (١٥) حبه ، استعدت $\frac{١}{١١}$ من المقدار المطروح + $\frac{٥}{٦}$ شاقل وهكذا ارجعت الحجر الى وزنه الاصلي فما مقدار ذلك الوزن ؟

الجـواب :ـ

أدوّن :ـ ٧ ، ١١ ، ٢٥ ثانية و ٥٠ ثانية

اطرح (١) من (٧) وأضيف (١) الى (١١) . اضرب الباقي بخمسين ثانية ثم اجمع واطرح من المجموع (٢٥) ثانية . اضرب الباقي في (٧) وهذا يعطيني الوزن الاصلي للحجر .

د ـ حقل : ربعت الفرق بين عرض الحقل وطوله طرحت ثماني دقائق وعشرين ثانية من المساحة فكان طول الضلع الجانبي يزيد على طول الجبهة بعشر وحـــدات .

طريقة الحل : ربع العدد (١٠) : دقيقة واحدة و (٤٠) ثانية + ثمـــاني دقائق وعشرن ثانية = عشر دقائق ، $\frac{١٠}{٢}$ = ٥

$٥^٢$ = ٢٥ (١٠) دقيقة + ٢٥ ثانية = (١٠) دقيقة ، ٢٥ ثانية ، ويمثـــل الناتج الاخير حاصل تربيع (٢٥) اضف خمس ثواني الى (٢٥) ثانية = (٣٠) ثانية = الضلع أطرح خمس ثواني = ٢٠ ثانية وتساوى العرض .

---

(٣٣) قد تكون النده اما قياسا للطول او المربع .

وبالاضافة الى هذه المسائل المطولة جدا ، وتسهيلا لعملية الحساب نظم السومريون العديد من الجداول التي تحتوي الخطوات اللازمة للعمليات الحسابية المختلفة . وكانت هذه الجداول ضرورية لان وحدات القياس والكيل والوزن كانت تشتق من طول الاصبع والذراع ، وهذا يشبه تماما ما اتفق عليه في أوربا الحديثة حول اتخاذ المتر اساسا للقياسات .

وبالرغم من ان هذه الطريقة تعتمد اساسا على التجربة اكثر مما هي نظرية وبالرغم من أن (راي) (Rey) قد تطرق في وصفها قائلا بأنهما طريقة الخطأ والصواب الخالدين ، فأننا لا ننكر بقاء الرياضيات البابلية فريدة من نوعها في العالم القديم كما انها تسمو على كل شيء ورثناه من العهود القديمة .

الجغرافية ـ رسم الخرائط

ليس لدينا اي بيان واضح عن التصور الاشوري للارض • وعلينا ان نستنتج ذلك بأحسن ما يكون معتمدين على الوثائق المختلفة التي تشير الى هذا الموضوع ، لقد كان الاشوريون مقتنعين بعدم كروية الارض • وكانوا يقولون انها قرص دائري توجد في حدود محيطه حوافي الجبال التي تستقر عليها السماء مثلما يستقر الغطاء فوق القدر • واعتقدوا بوجود منفذين في هذه الجبال احدهما للشروق الشمس ، والثاني لغروبهـا • لم يبث بصورة واضحة في مسألة مسار فلك الشمس الذى تتعقبه اثناء ليل • فهـل كانت تجري في مسار دائري يمر في الجزء السميك من حوافي الجبال ، ام انها كانت تمر من جوف الارض ، اي تحت قرص الارض •

كان يعتقد ان الارض تطفو فوق مياه الهاوية ، وهي المياه التي تقابل جدول الماء المر الذي يدور حولها ، على الرغم من ان هذا على ما يظهر ، لم يكن عائقا امام وجود المياه الجوفية العذبة التي كانت تغذي الينابيع والانهار• كما لم يعق وجود عوالم سفلى تحت سطح الارض • والحقيقـة ان فكـرة السومريين والاكديين عن الارض شـديدة الغمـوض ، ولا نستطيع الا ان نستنتج فنقول ان رجال المعرفة ، وهم الكهنة ، لم يلتفتوا الى مشاكل تعريف علـم الكون ، وسبب ذلك ان أولئك الكهنة لم يدخروا وسـعا في تكريس انفسهم لمعرفة انساب الآلهة ، ولتقرير نظام مجمع الآلهة •

يتضح من الوثاق العديدة المتعلقة ببيع الضياع والحقول والبيوت انه كانت عند سكان العراق القدماء درجة مضيه من المعرفة الرياضية لتذليـل مشاكل المسح ، كما انهم عرفوا ايضا كيف يرسمون بدقة متناهية مخططات مدنهـم • ، وتوجد الادلة البارزة عن ذلك بشكل لوح مسماري يظهر المخطط الاساسي العام لمدينة (نفـر) وقد اثبت هذا المخطط انه يتطابق تطابقا عجيبا

وشديدا مع المخططات الذي رسمتها البعثة الامريكية اثناء تنقيبها في المدينة .
لقد لوحظ ان النصب الاشورية والبابلية ، وخلافا لنصب اوربا الغربيــة ،
لا تتجه الى جهات البوصلة الاربع بل الى جهات فرعية ، اي مثلا الى الشمال
الغربي بدل الشمال ، والى الجنوب الشرقي بدل الجنوب . ويعتقد ان هــذا
التوجه يرتبط باتجاه الرياح في بلاد بين النهرين هنالك لوح يعود الى العهـد
الفارسي ويمثل مخططا للارض كما تصورها البابليون . وتقع بابل في مركز
القرص الارضي (وهذا يشبه اعتقاد الصينيين القائل بأن الصين هي مركـــز
العالم) . ولقد اشرت على المخطط بعض المدن والقنوات ، ثم يأتي بعد ذلك
البحر المحيط ، واخيرا يؤشر في جهة ثانية بالمثلثات على المناطق البعيدة جـدا
ومن الجميل ان نرى ان المثلث الشمالي قد كتبت فيــه ملاحظـة تقــول :ـ
(البلاد التي لا ترى فيها الشمس قط) . وعلى ما يظهر فأن من المحتمل ان
يكونوا عرفوا الليل القطبي عن طريق الامثال المنقولة . هناك بعض الالواح
التي تمثل ما يعرف اليوم بأسم (دليل المسافر والسائح) وتعطي هذه الالواح
المسافة بين مدينة واخرى ، والزمن اللازم للرحلة وتقدم هذه الالواح المزيد
من البراهين ، وان كانت ثمة حاجة اليها ، على تطور التجارة ، وعلى تكرار
الاسفار بين مختلف بلدان الامبراطورية والاقاليم الملاصقة لها .

التقويم ، علم الفلك

لقد اعتبر العراقيون القدماء علم الفلك وسيلة وليست غاية وفائدته الرئيسة هي ان يستخدم كدليل لاهداف علم النجوم (التنجيم) والذي سوف نبحثه فيما بعد ، وليمكنهم من تثبيت التقويم •

وفي عام ١١٠٠ ق•م تبنى الاشوريون هذا العلم على الصورة التي وجدناها قيد الاستعمال في العهد الاشوري فكان الاشوريون قد اخذوا التقويم عن البابليين ؛ وكان هذا التقويم القمري ـ الشمسي يتألف من اثنى عشر شهراً ، ويتألف كل شهر من ثلاثين يوما ، وهذه الاشهر هي بحسب بداية السنة البابلية •

١ ـ نيسان (اذار / نيسان) •
٢ ـ ايار (نيسان / ايار) •
٣ ـ صيوان (ايار / حزيران) •
٤ ـ تموز (حزيران / تموز) •
٥ ـ آب (تموز / آب) •
٦ ـ ايلول (آب / ايلول) •
٧ ـ تيسري (ايلول / تشرين اول) •
٨ ـ مارچيسوان (تشرين اول / تشرين ثاني) •
٩ ـ كيسليف (تشرين ثاني / كانون اول) •
١٠ـ تبيت (كانون اول / كانون ثاني) •
١١ـ سباط (كانون ثاني / شباط) •
١٢ـ آدار (شباط / اذار) •

وما دامت دورة الاثنى عشر شهرا تتألف من (٣٦٠) يوما فقد تقرر اضافة شهر كبيس في فترات منتظمة تقع اما في منتصف السنة او في اخرها ، ويسمى هذا الشهر الكبيس باسم الشهر السابق له مثل ايلول ثاني او ادار ثاني ... الخ . ومن ناحية عملية فان هذا التقويم اثبت خلوه من عيوب غير مشكوك فيها . وسبب ذلك ان رداءة الطقس قد تمنع المراقبة الصحيحة لهلال الشهر الجديد الذى يعتمد اعلانه على هذه المراقبة ، ونتيجة لذلك فقد يؤخر الاعلان يوما او يومين كما ان الملك كان هو الذي يعلن هلال الشهر الجديد مستندا الى التقارير التي يرفعها اليه الفلكيون بشكل رسائل تتضمن نتائج ملاحظاتهم . ويشير ذلك الى مظهر بارز من مظاهر المراسلات الرسمية، ادناه نموذج من هذه المراسلات :ـ (قمت بالمراقبة في اليوم التاسع والعشرين).

وعما اذا كانت هناك غيوم ام لا ، فان الرسالة تختتم بالقول :ـ (لقد رأينا القمر أو لم نر القمر) .

وهناك رسالة اكثر تفصيلا تقول :ـ

(لقد رأيت القمر في اليوم الثلاثين ، والذى كان في علو اليوم الثلاثين.. انه في الوقت الحاضر في علو مناسب لليوم الثاني من الشهر) . وهكذا يستطيع الملك ان يثبت اليوم الاول من الشهر) .

والنتيجة المحتملة لهذا التلكؤ في الزمن هي انه قد يكون من الضروري اضافة شهرين كبيسين الى نفس السنة . اما عن بداية السنة بشهر نيسان فان هذا يعني ان هذه البداية تتطابق في الوقت مع الهلال الجديد الذي يلي الاعتدال الربيعي . اما الاهمية الخاصة التي يحتفظ بها شهر (تيسري) في

النصوص الدينية ، فانها تشير الى الذاكرة الماضي البعيد عندما كانت بداية السنة تحل في الخريف •

كانت السماء تعتبر مقسّمة الى مناطق كبيرة • فهي تشبه الارض في هذا التقسيم • وبناء على ذلك اعتبرت المنطقة الوسطى طريقا لـ آنو ـ وتمر هذه المنطقة ، وبشكل منحرف ، عبر محور شمالي ـ جنوبي • ويوجد فوق هذه المنطقة طريق ـ انليل ـ اما تحتها فطريق ـ أيـا ـ•

جداول النجوم الثابتة

لقد سجل الاشوريون والبابليون ، وبقدر ما سمحت به لهم مصادرهم البدائية ، اسماء النجوم المرئية في كل منطقة من مناطق السماء التي كانوا يعرفونها . كان طريق ـ انليل ـ يحتوي على ثلاثة وثلاثين نجما بما في ذلك مجموعتي نجوم ذات الكرسي ، والجبار ، وذي العنان ، والسرطان ، والاسد والاكليل الشمالي ، والدب الاكبر ، والتنين ، والدب الاصغر ، والثعبان والنسر ، والنسر الواقع ، والدولفين ، والمرأة المسلسلة ، والمشتري(*) .

أما طريق ـ آنو ـ فانه يحتوي على ثلاثة وعشرين ، بينهما الحمل ، والحوت ، والثريا ، والديوان ، والشعرى ، والعذراء ، والكلب الاكبر ، والشجاع ، والغراب ، والميزان ، والنقاب .

ويحتوى طريق ـ ايا ـ على خمسة عشر نجما ومن بينها الحوت الجنوبي ، والدلو ، وقنطورس ، والذئب ، والعقرب ، وقلب العقرب ، والراعي .

لقد ميّز سكان العراق القدماء بين الكواكب السيارة وبين النجوم الثابتة . وقد قارنوا الكواكب السيارة بالمعزى الضالة بينما قارنوا النجوم الثابتة بالمعزى الاليفة . وتمكن العراقيون القدماء ، عن طريق الرصد والحساب ، من ان يؤلفوا جداول بالنجوم الثابتة مع سجل للمسافات الفاصلة بينها . وكان يعبر عن هذه المسافات بواسطة وحدات زمنية ترتبط نسبتها الحسابية يوزن الماء الساقط من « الساعة المائية » (وهي اداة عرفها البابليون واستعملوها لهذا الغرض) على الممر الكائن بين نجمين وقت الزوال . وهكذا كان من الممكن ان تقرأ في الجدول :ـ

(*) لزيادة الاطلاع على مواقع هذه النجوم نحيل القارىء الكريم الى كتاب (الطريق الى النجوم) الذي نقله الى العربية الدكتور عمر فروخ .

المسافة من غامتو Gamtu الى برج الجوزاء هي اثنان ونصف مينا (من وزن الماء)[٣٤] .

وكانت هناك طريقة ثانية لقياس الموقع النسبي وهي بشكل صيغة تتضمن تقسيم الخط المتوازي الذي يعتقد ان النجم يقع عليه . ويعبر عن هذا التقسيم بالدرجات . مثال ذلك اننا نقرأ في اللوح :ـ

(خمس درجات على مستوى الارض هي المسافة من برج الجوزاء الى برج نجمة المساء) .

واخيرا فقد كانت هناك قياسات مطلقة او سماوية ويعبر عنها بالرجوع الى دائرة مطلقة ذات (٣٦٠°) ، واتساع مقداره ستة أميال ونصف ، وبناءاً على ذلك فاننا قد نجد اللوح يقول :ـ

(هنالك ثمانية عشر الف دائرة في السماء ، تفصل بين برج نجمة المساء والنجم الوحيد والناسك) .

كانت هذه النتائج هي المعول عليها في بلاد بين النهرين ذلك لان الالات الوحيدة التي استعملت لمراقبة الاجرام السماوية كانت عبارة عن انابيب تعمل عمل ـ المراقب، ومنها الساعة المائية والمزولة الشمسية ، والبولو ـ وهي نصف كرة جوفاء فيها ابرة مثبتة في مركزها وتلقي بظلها على الجدران فتضبط الفترات عن طريق تأشير الظل .

لم يتقيد الفلكيون بانتظار الظهور الفعلي للقمر ليحددوا بداية الشهر الجديد . بل انهم كانوا يحيطون الملك علما بظواهر النجوم والشمس والقمر المتوازية في مواعيد دقيقة تحدد الاعتدالات الفصلية ، واوقات الخسوف والكسوف . وقد يتملكنا شعور بالعجب الشديد من اهتمام الملك بالظواهر

---

(٣٤) انظر الملحق (ب) عن طرق احتساب المسافات بين النجوم .

السماوية . وهذا امر لا شك فيه . فمن المؤكد ان الملك كان يلقى التشجيع من الفلكيين على اهتمامه هذا ، والذى يعتبر وسيلة لغاية نهائيـة الا وهي التنجيم وبناء على ذلك فان تقارير اولئك الفلكيين كانت في شكل اجوبـة لبعض الاسئلة التي يطرحها الملك نفسه .

وبناء على ذلك ووفقا للمارسة التي كانت مألوفة انذاك ، والمتمثلة في محاولة مزج المبادي العلمية المعروفة وقتـذاك بالحكـايات ذوات المسحة الدينية والملحمية فلم يكن يوجد الا تفسير واحد للحمة الخليقة . وقد أريد به ان يضم كل المعرفة الفلكية الشائعة آنذاك ، وذلك عن طريق اسناد صفـة خلق الاجرام السماوية وحركاتها الى ـ مردوخ . ولكن من المؤسف ان يكون الجزء الاكبر من الرقيم الذي يتحدث عن هذا الموضوع ضائعا .

ان آخر ما تمخضت عنه احدث الابحاث في مسألة علـم الفلك البابلي هو الاعتراف ببعض الفضل للاكتشافـات التـي توصـل اليهـا الفلكيون الكلدانيون . ويبدو ان الرواد الحقيقيين في هذا الحقـل كانوا جماعة مـن فلكي القرن الثالث ق.م ، وكان من بينهم الفلكي ـ سودينس ـ - Soudines - من بلاد الكلدان ، والذي كـان يعيش في بلاط (بيرغانم) (Pergamum) عـام ٢٣٩ ق.م ، ثم (نابوريانوس) (Naburianos) والذي لا نعرف عنه شيئا سوى اسمه ، ثم (كدينو Kidinnu) وهـو مـؤلف القـوانين القمرية ، ويعرف باليونانية باسم (كدناس) .

العلوم الطبيعية

علم النبات . علم الحيوان . علم المعادن

كان البابليون من خيرة المراقبين . وكانوا ، منذ عهد بعيد ، على علم بوجود مجموعات واسعة من انواع الكائنات المرئية . وقد جاء هذا الكتاب على ذكر هذه النقطة مرات عديدة .

ان المظهر السلبي في موضوعنا الحاضر هو محاولة البابليين العملية المحضة لحل مشكلة التصنيف لنباتات مختلفة . فمثلا نجد ان حديقة (مردوك بلدان) قد نظمت بشكل الواح رتبت فيها النباتات لا اعتباراً للمبادىء العلمية ولكن على اساس الرجوع الى فوائدها او استعمالاتها الشائعة . ويمكن ان يقال نفس الشيء عن الرقيم الذي وجد في ـ سوسة ، والذي يسجل قوائم باسماء النباتات التي كانت تستعمل في صناعة المراهم. وتحمل هذه القوائم كتابة صورية تعني ـ رائحة ـ .

ان احدى العادات الانسانية العامة والدائمة والمدهشة هي طريقة الفلاحين في تسمية الاشياء وفقا لتماثلها مع بعض الاشياء المألوفة . فنحن نجد، مثلا ، وكما هو الامر عندنا ، انه كان لدى الاشوريين نبات اسمه ـ لسان الكلب ـ ويبدو ان هناك اضطرار الى استعمال مثل هذه الاسماء على الرغم من ان النبات قد يختلف اختلافا كبيرا عن الاسم الذي نعرفه نحن به .

ولا تزال هناك بعض قوائم بأسماء النباتات لا تبدو فيها الاسماء جارية حسب تسلسل منطقي في تكوين بعض القوائم نوعا من القواميس التي تضم اسماء سومرية واكدية بشكل اعمدة متوازية . وقليل من التفكير عن الموضوع يجعلنا نرى أنه على هذه الشاكلة يجب ان يكون الحال .

لقد سبق ان عرفنا ان اسم الشيء يضفي وجوده عليه . وفي نفس الوقت فان معرفة الاسم تضفي القوة على ـ المسمى ـ ذاته . فالحصول على

قائمة الاسماء يضمن الحصول على الاشياء (المسميات) ذاتها ، وبالنسبة للبابليين فان تصنيفها يشكل غاية بذاتها اذا لم يكن الترتيب تحكمياً خالصا •

واما عن التعريفات المعطاة للحيوانات والخضراوات والمعادن فانها ردیئة جدا • ولذلك فاننا نجد تعريفا واحداً لكل من ـ البرد ـ ، والحجارة، وكذلك نواة التمر • اما ما نعتبره نحن ـ عشبا ـ فغالبا ما كان يعتبر (شجيرة) والعكس بالعكس •

لم يكن سكان بابل اقل رغبة في مراقبة الحيوانات وكذلك الاسماك والطيور التي احسنوا تصويرها باشكال تشبه الحيوانات المعاصرة • وهناك قائمة يعود تاريخها الى ما بعد عام ٢٠٠٠ ق•م بقليل • وتعطى هذه القائمة اسماء الاسماك التي بيعت في السوق في مدينة ـ لارسا ـ القريبة من الخليج العربي وكان يجب ان تضم القائمة اسماء الاسماك التي صيدت في البحيرات والقنوات ، وكان عدد انواعها لا يقل عن ثمانية عشر نوعا صالحا للاكل •

تظهر الدلائل التي بين ايدينا ان انواع معينة من الحيوانات ، كالكبش طويل الرأس ذي القرنين المتباعدين والمقوسين ، قد اختفت الان • كما تؤكد هذه الدلائل على ان حيوانات معينة كانت تعيش بصورة سائبة في داخل حدود بلاد بين النهرين ومن بينها حصان السهوب الصغير والذي يشبه رأسه رأس الجمل وله عرف كثيف يابس • اما صورة الثور الاحدب او الهندي والموجودة على مزهرية تعود الى عهد تاريخي مبكر ، فانها تثبت وجود العلاقات التجارية بين بلد وآخر حتى في هذا التاريخ المبكر •

وحتى الاحجار المختلفة قد جرى جردها وتصنيفها في قوائم خاصة وكان من الممكن التعرف على العديد منها • ولقد سبق ان عددنا المعادن الصناعية الرئيسة ، وذلك عندما تحدثنا عن التجارة • لقد اعطيت الاحجار اسماءاً كما اعطيت النباتات ، واستندت طريقة التسمية الى ـ شبيه مفترض ـ موجود بين

اعضاء جسم الحيوان ، ولدينا ، الان ، ملحمة سومرية كان الهدف منها شرح اسماء الاحجار . وتقدم لنا هذه الملحمة مثالا رائعا عن الطريقة التي لخص بواسطتها السومريون الخواص الطبيعية للاجسام ، وهي تعتبر بديلا للنمط الحديث المتمثل في كتابة المقالات الواسعة لهذه الخواص .

لقد كتب السومريون القصائد في تعليقاتهم على اسماء هذه الاجسام . وكنتيجة لظروف غير معروفة لدينا ، واجه الاله العظيم ـ ننورتا ـ تحالفا من قبل اعدائه ، واخذت الاحجار نصيبها من القضية فضلع بعضها مع الآلـه وضلع البعض الاخر مع اعدائه ، ولكن الآله انتصر ، وحلت الهزائم بخصومه. ويبدو إن كل هذا حدث في عهد بعيد من التاريخ . ذلك لان الاحجار قلنا كانت آنذاك تتفاوت بعضها عن بعض ، ونتيجة لهذا الانتصار ، قرر الآلـه ان يبدي اهتمامه المباشر بالاحجار فاعطاها اسماءها، وأقرّ مصيرها. فالاحجار التي وقفت الى جانبه اعطاها اجمل الاسماء واحسن المصير ، اذ جعلها تتخذ مواد للتماثيل والهياكل الخاصة بالآلهه ، في حين تصنع الجواهر من الاحجار الكريمة ، كما استعملت هذه الاحجار لاغراض الزينة في العبادة . اما الاحجار المعادية والمدحورة فقد حكم الاله عليها بان تستعمل ابخس استعمال ، ولتصبح عديمة القيمة . فجعل منها مواد لرصف الطرق ، واعتاب الابواب التي تطؤها الاقدام ، او ان تبقى مجرد حصى مرمى في الطرقات .

لقد عرف سكان العراق القدماء مجموعة واسعة من الاحجار ، وبخاصة الاحجار الجميلة النادرة التي صنعوا منها الاختام الاسطوانية ، والتي كان كل فرد يحملها . ومن امثلة ذلك الصوان الازرق ، واللازورد ، والصخر البلوري ، والعقيق واحجار كثيرة اخرى لا تعد .

الكيميـــاء

تألف القسم الاعظم من علم الكيمياء ، كما مارسه سكان بلاد ما بين النهرين . من تطبيقاته العملية . وقد كان هؤلاء السكان من المهرة المشتغلين بالمعادن ، كما كانوا خبيرين في معالجة المواد المعدنية ، وفي تصفية الفلزات ، وتركيب السبائك غير المألوفة ، والتي حصلوا عليها عن طريق ادخال تغييرات بسيطة في نسب العناصر . فمثلا نجد ان الصيغة التي استعملت لصنع نوع من الزجاج المعروف آنذاك باسم ـ زجاج الزاج الاخضر ، كانت تتألف ـ من ستين جزءاً من الزاج العادي ، وعشرة اجزاء من الرصاص ، وخمسة عشر جزءاً من النحاس ، ونصف جزء من ملح البارود (نترات البوتاسيوم) ، ونصف جزء من الكلس . ولكن اذا ما استعملت نفس العناصر وفق النسب ٦٠ ، ١٥ ، ١٤ ، ١ ، ٢ تكون النتيجة هي الحصـول عـلى ما يعرف باسم « زاج أكـــد) ـ .

كانت تصفية المعادن تجري عادة بطريقة وضع المعادن في بوتقات ، ثم يعاد تسخينها عدة مرات . وهناك نص يعود في تأريخه الى عهد ـ الملـــك نبونيدوس . ويبين هذا النص الاختبارات العديدة التي أجريت على سبيكة وزنها خمس (مينات) اي ما يقارب باونا واحدا وأونسا . وتعـود هـذه السبيكة الى الخزينة الملكية . لقد فقدت السبيكة ، عند بدء التسخين في تنور خاص ، نصف مينا وخمس شواقل من وزنها ، اي ان وزن الذهب المتبقي كان اربع مينات وخمسة عشرة شاقلا ، وبعد عملية التسخين الثانية كان مقدار الفقدان في الوزن نصف مينا وشاقلين ، ونقص وزن الـذهب الخالص الى ٣ ¾ مينا و ٣ شواقل .

وعندما كان الذهب يرسل من عاهل الى عاهل ، كانت هناك شـكوى بسبب الخسارة المفرطة في الوزن اثناء عملية التصفية .

لقد كان ملك مصر احد مجهزي الذهب ، لكنه لم يكن يستعمل هـذا الذهب كهدايـا ابـداً الى من يتراسل معهم ، وانما اسـتعمل بـدلا من ذلك مواد خام في القسم الاعظم من هداياه فكانت هـذه المواد تصنّع ثـم يعـاد ارسالها الى البلاط المصري ٠

لقد شكا الملك البابلي (بورا بورياس ، من القرن الرابع عشر ق ٠ م٠ تقريبا) مرتين لدى الملك المصري ـ امينحوتب السادس من رداءة نوعيـة الذهب الذي تسلمه منه ، وادعى في شكواه بان الذهب قد غش دون علـم الملك ، والدليل على ذلك ان ما كان وزنه عشرين مينا لم يعط عنـد تصفيته الا اقل من خمس مينات من الذهب الخالص ٠

لقد اظهرت التحليلات التي اجريت على انواع مختلفة من ادوات الذهب المكتشفة في مقابر ـ اور ـ الملكية (النصف الاول من الالف الثالث ق٠م) تفاوتا كبيراً في النقاوة ٠ ويتراوح هذا التفاوت بين سبعة قراريط الى اثنين وعشرين قيراطا ، في حين اظهر تحليل السبائك من عهد ـ ثابونيدوس ـ وجود ٩٦٨ ، ٩١٤ ، ٨٧٠ جزء ذهب في كل الف جزء ٠

الاعـــراف الفنية

لقد سبق ان تناولنا بالبحث الصورة التي كونها الاشوريون من العالم. وبحثنا كذلك طرائق رسمهم لمخطط بناية ، او قطعة أرض معينة ، ثم رأينـا ان الصورة التي كونوها تختلف عن صورتنا نحن . اما طرائق رسم مخططات المدن والاراضي فهي نفس طرائقنا التي تستعملها اليوم . وما دمنا لا نستطيع ان نحكم حكما منصفا على انجازهم الفني ، وذلك وفق المقاييس النقديـــة العصرية ، فاننا نتساءل عن كيفية رؤيتهم للعالم المادي الذي من حولهـــم ، وكيف كانوا يحاولون التعبير عما كانوا يرونه .

يؤلف الوجود المجرد لهذه المقاييس ، في الحقيقة ، اغراء قائما يجعلنا نعتبرها من اصلح المقاييس . وهذا اعتبار زائف تماما . ويدفعنا هذا الاغراء الى ان نقول عن وسائل تعبيرنا بانها ارقى الوسائل للتعبير عـن الواقعيـة ؛ والواقع ان ادعاءنا القائل بان مبادئنا النقدية هي وحدها الصالحة ، انما ينبع من إلفتنا الطويلة المدى لهذه المبادىء التي تحكمت باذواق العالم الغربـي منذ عهد سيادة اليونان .

ان علينا ان نتذكر بان امتداد العهد الى حوالي الفي سنة ، هو اقل من المدة التي تمكن خلالها الشرق الاقصى (منذ القدم) والشرق الادنـى من تقبل سلطان تقاليدهما الخاصة . وحتى لو زعمنـا ان حفـر الاشكال ثلاثيـة الابعاد كان يعتمد اعتماداً طفيفا على الاعراف ، فاننا يجب ان نأخذ بنظـــر الاعتبار الحقيقة القائلة بان فن الرسم كان ملزما باستعمال وسائل فنية معينة لكي يحل مشكلة تمثيل الاشكال ثلاثية الابعاد ، باشكال ذات بعدين ، او ان يهمل البعد الثالث اهمالا تاما . ان الخاصية التقليديـــة لهـــذه الوسائل تظهرها الحقيقة القائلة بان العديد من الناس الذين واجهتهم نفس المشكلة كان عندهم حلها الخاص بهم ، وأن تقبلهم لهذا الحل جاء نتيجة لفترة طويلة من

الممارسة والتدرب ، وكذلك نتيجة التشويه المتعمد للملاحظات الحسية قبل امكانية الحصول على هذه النتيجة • ولولا هذا النوع من الممارسة والتدرب، والذى هو في الحقيقة عملية تفتيق الاذهان عن امكانيات تقبل ما يعرض عليها من افكار ، فلن يصبح بامكان غير المتعلم ان يحصل على هذه النتيجة التي ستكون صعبة الفهم بالنسبة له ، وسيبدو امامها كالهمجي الذى يقلب الصورة عدة مرات دون ان يعرف كنهها ، وكذلك استعدادنا لان نلقن الاعراف الفنية الحديثة •

النحـت

نبدأ بالنحت لأنه يعتبر من اقل الفنون التي مارسها الاشوريون حاجـة الى الاعراف الفنية . ولسنا ملزمين بأن نتوقف طويلا عند هذا الموضـوع . وسبب ذلك ان سكان بلاد بين النهرين لم يظهروا الحب الشديد للتصاوير ثلاثية الابعاد لجسم الانسان على قطاع واسع بايـة حالة ، اذا ما اردنـا ان ندخل في حسابنا تماثيل هذا العصر التي بقيت سالمة .

انعلينا ان نتذكر انالتماثيل البشرية ذاتالحجم الطبيعي كانت ـ على حدة من الاهتمام المحدود الذى كان البابليون يبدونه في هذا الشكل فن الفن ـ تتطلب كتلا من الحجارة يصعب الحصول عليها في حين كان من السهل الحصول على الالواح الصخرية التي كانت تستعمل في صنع المنحوتات المحفورة. وزيادة على ماتقدم ، وكما نعرف من الكتابات ، غالبا ما استعملت الاحجار الكريمة لتزيين التماثيـل الخاصة بالآلهة والعظماء من الاشخاص . ولم يكن بالامكان آنذاك سرقـة تلك الاحجار دون كسر التماثيل ؛ ومع كل ذلك فانه من الصواب القول بان الاشوريين لم يكونوا مولعين جديا بالجسم الانساني . وتظهـر التماثيـل التي بحوزتنا انها ألبست الملابس بصورة متفاوتة . فصار من العسير رؤيـة اجزاء الجسم التي غطاها ـ المثال ـ بالملابس السميكة .

هناك حالة واحدة عثر فيها على جذع انساني وقد بدا من الوهلة الاولى انه يمثل عشتار ، ولكن الاسم الذي يحملـه هو اسـم الملك ـ آشـور بعل ـ كالا . ويمثل هذا الجذع المنحوت قطعة فنية رديئة الصيغة .

تظهر نوعية النحت انحطاطا ملحوظا جدا في الفن منذ ان نحتت تماثيـل ـ گوديا ـ وذلك قبل عصر سلالة ـ سرجون ـ بالف وخمسمائة سنة ، وتشبه الفترة المبكرة الفترة اللاحقة في استخدام الاعراف الفنية ولكن ليس الى الحد الذي يقيـد جهـود الفنان العارف تمامـا بجمال نموذجه . ويعتبـر تمثـال

آشوربانيبال الموجود في المتحف البريطاني نموذجا للمنحوتات الاشورية المحفورة . ونجد في هذا التمثال ان البعد الثالث له قد اظهر بصورة ضعيفة وعن عمد ، مما جعل التمثال يبدو وكأنه طفل . ان قلق ـ المثال ـ البادي في خوفه من صنع تمثال كبير ينوب عن الذات العليا ويحل محلها في المثول بين يدى الاله في المعبد ، قد جعله ينتج ما يشبه عمود البناء المربع الشكل . ثم انه استغل الرداء الطويل الذى يرتديه الملوك والآلهة لكي يتجنب نحت الساقين اننا نعرف من المنحوتات المحفورة ان المثّال كان قادراً على ان يفعل هذا من ناحية فنية ، ولكنه رأى ان الساقين كانتا تمثلان اكثر اجزاء التمثال سهولة للتهشم .

ومن جهة اخرى فاننا نستطيع ان نجد السرور والمتعة في مهارة الفنان العراقي القديم ، كما نجد قدرته على تصوير الحيوانات وهنا نجد اننا لاتتناول صناعة تماثيل واسعة النطاق . ذلك لاننا نجد ان تماثيل الحيوانات تتفوق في جودتها ، وبوضوح ، على تماثيل الانسان التي كانت اكثر شيوعا من التماثيل الكبيرة .

المنحوتات المحفورة

اظهرت لنا الاكتشافات الاثرية الحديثة مجموعة من الرسوم الجدارية والتي يمكن ان تتخذ ميدانا لدراسة شاملة تامة . فعندما نترك النحت متجهين الى تفحص المنحوتات المحفورة أو التصوير لن يتملكنا شعور يجعلنا نظن بان الفنان كان يمارس عمله تحت اي نوع من الاحساس بوطأة الاعاقة او تثبيط الهمة ، وسنجد انفسنا امام تقاليد عريقة . لقد حقق الفنان ، وبكل جلاء ، اظهار العناصر غير التصويرية بجدارة وانطلاقة غير مترددة الى درجة تجعلنا نحن المشاهدين نتقبل ما نرى دون ان نحس بالصدود على الرغم من غرابة المشهد .

وعلى سبيل المثال اننا قد نتفحص الاعمال التي انجزت في فترات حكم مختلفة للسلالة الاشورية المتأخرة . لقد كانت المنحوتات الناتئة في عهد الملك سرجون نفسه تتصف ، وعلى نطاق واسع ، بطول يفوق الحجم الطبيعي وكانت تفاصيل الصورة واضحة وحددت المسافات بصفة جيدة . اما المنظر العام الذي يضمها فلم يكن يوحي الا باشياء طارئة وغالبا ما كان يغض النظر عنه كليـة .

هناك القليل من المواضيع الشاملة التي تشغل اللوحة بطولها . ولكن لا يوجد في هذه المواضيع العديد من الاشكال . فنحن نستطيع ان نرى ، اعتمادا على مخلفات الفترة الاخيرة من حكم عظماء ملوك السلالة الاشورية، تبدل الاعراف الفنية تبدلا جذريا يشبه التبدل الذي اصاب الفن الزخرفي في فرنسا والذى ظهر اثره بين التصاميم العظيمة للفواكه والازهار (كتركة من القرن السابق) وذلك اثناء حكم لويس الرابع عشر ولقد تحولت هذه التصاميم الى باقات ورود في عهد لويس الخامس عشر بصورة تدريجية ومهذبة ثم الى أزهار في عهد لويس السادس عشر .

لقد قسست المنحوتات الاشورية المحفورة ، بنفس الطريقة وبصورة دقيقة في عهد اشوربانيبال ، الى اقسام اظهرت فيها الاشكال الانسانية بنطاق اصغر، وزيادة على ذلك فاننا نجد مشاهد لمعارك حقيقية وهي تختلف كلية عن مشاهد اخرى من عهد آشورناصربال والتي نجد فيها ان الاجسام وعربات القتال والخيل والمحاربين قد اختلطوا اختلاطا لا خلاص منه ، بالموتى والجرحى •

وفي الحقيقة فقد وصل الفن آنذاك درجة كان عليه عندها اما ان يرسم خطة جديدة او ان يصاب بالهزال • ذلك لان الصيغ التقليدية اكتملت اكتمالا منطقيا فوصلت الى النتيجة النهائية •

لم يركز الفن الاشوري في عهده المبكر الا اقل ما يمكن من الاهمية على المناظر العامة • ويحتمل ان يكون هذا الفن قليل الاحساس نسبيا بانواع الجمال في الطبيعة • ومن الادلة التي تشير الى هذه الامور اشارة مرضية ، ما تم العثور عليه من اشكال يسهل تشخيصها ، وهي تمثل الاشجار كالنخيل والصنوبر والشجيرات كما ان هناك اشارة الى منطقة الجنوب التي توجد فيها الكثافة النموذجية للقصب العالي والذي يكفي لاخفاء الخيّال، ولغرض الاشارة الى الشمال رسمت شجيرات العنب باغصانها الملتفة والتي تشكل انماطا زخرفية جميلة •

ان احسن رسوم المناظر العامة جاذبية هي بلا شك تلك التي تمثل ركنا من مكان مخصص للصيد ، والذى كانت تحفظ فيه اسود آشوربانيبال • ويبدو في هذا المشهد احد الحيوانات وهو يضطجع ، في حين يقف حيوان اخر في مكان تكلله شجيرات العنب ، وتبرز وردة ضخمة من الارض ، وتؤلف كل اشكال هذا التركيب مشهدا ريفيا اخاذا •

الاشكال المنظورة

يتألف هذا المنظر الخاص مما يمكن ان يوصف بانه قطعة ذات بعدين لمنظر عام • وهو لا يغطينا جوابا لتساؤلنا عن كيفية معالجة الفنان الاشورى لمسائل الاشكال المنظورة • ويبدو ان مبدأه الاساسي يكمن في اتباع ما توحي به نباهته ، عوضا عما تراه العين • كما انه تجاهل ما يبدو من تضاؤل الاشكال البشرية عند ازدياد المسافة • فهو لذلك يرسم هذه الاشكال جميعا بنفس المقاييس ، فتكون النتيجة عدم انطباق الشكل المنظور على الاشكال البشرية ، ولا على معالم المنظر العام • والواقع ان هذه المعالم كانت تهمل كلية ، مما يجعل ملامح المنظر العام متراكبة بعضها فوق بعض ، فتبدو وكأنها معلقة في الهواء • كما انها تكون موزعة توزعا متبادلا بين مختلف المستويات• وهنا يجب على الناظر ان يتابعها من اعلى الى اسفل • وبالعكس ، وذلك وفقا للجهة التي يتمركز فيها عمل الفنان ، ان كان في اعلى المنظر او في اسفله •

وبالرغم من ان الاشوريين والبابليين لم يستخدموا الرسم المنظور بالمعنى الجديث للكلمة ، الا انهم كانوا يتبعون اسلوبا خاصا بهم ، يصورون بواسطته مختلف الشخصيات من آلهة وملوك ، ورجال بلاط ، وناس عاديين • وكانت العناية بالتصوير تزداد تبعا لازدياد المكانة والاهمية • فالمنحوتات المحفورة والكبيرة الحجم ، والموجودة الان في متحف ـ اللوفر ـ في باريس تصور ـ كلكامش ـ بانه الند الاشوري لهرقل اليوناني ، وهو يصارع اسداً والشيء المهم في المجموعة هو البطل نفسه الذي كان بامكانه ان يسحق الحيوان بالجلوس على صدره ودون اية صعوبة •

ولو كان المشهد جدولا او بحيرة اسماك تحف بها الاشجار لكان الفنان يصور اولا الجدول او البحيرة ، ثم يضع الاشكال البسيطة والجانبية للاشجار على شواطيء الجدول او البحيرة،

ويبدو بعمله هذا وكأنه يصور بوحي من وجهة نظر خيالية او يعرض كل مظهر من مظاهر التصميم وكأنه يمثل وجهة نظر المشاهد الذي مشى ـ ووقف عند كل مظهر على التوالي • لم يكن الفنان الاشورى يرسم منظرا ناقصا لبناية معينة فيجعل احدى الواجهات وكأنها تكاد تختفي على الرغم من ان لها نفس ارتفاع بقية الواجهات ، انه يتصور نفسه واقفا مباشرة امام البناية فيرسم الواجهة التي يراها في حين يحتجب عن الجانب الاخر •

تعني هذه المحاولة ان الفنان كان عاجزاً عن رسم صورة جانبية لهجوم على مدينة معينة واحتلالها ، وكذلك للجنودوهم يصعدون السلالم ، ما دام السلم لا يتألف من عمود واحد بل من عمودين قائمين وقضبان جانبية • سوف يحفر النحات المنظر الجانبي للسلم اذن ، وبناءاً على ذلك سيظهر المهاجمون وهم يتسلقون السلم كله وبشكل مواز للارتفاعات (اللوح ٢٠) •

ولما لم يكن يستطيع ـ كما قد يفترض ذلك ـ ان يظهرهم واقفين على الدرجات ، لانه لو فعل ذلك لاخفى جزءاً من السلم حيث انه كان يعرف بان السلم كامل في الحقيقة ، وانه يجب ان يصور بهذه الطريقة • وهذا ما يفسر لنا سبب عدم ظهور جزء من القوس امام وجه احد رماة السهام ، والذي ظهر في الصورة وهو يسحب سهما •

وعندما نأتي الى الاشكال البشرية نجد ان الرأس يرى جانبيا في حين يرى الجزء الاعلى من الجسم تاما او منحرفا بزاوية صغيرة ، وهذا قليل الوقوع • اما الحوض فانه ، كما هو الامر في الرأس والسيقان ، يرى في صورة جانبية ليس الا ، في حين ترى الاقدام واحدا اثر واحد وفي نفس المستوى • ويظهر القدمان كاملين دائما • ولايحاول الفنان على الاطلاق تقصير خطوط الرسم لاظهار الاجزاء المختفية • فالفنان يحاول جاهدا ان يحافظ ، بقدر ما يستطيع ، على مبدأ تصوير الاشياء كما هي حقيقة • وهكذا فان العين الانسانية ، عندما تشاهد كاملة ، يكون لها تعبيرها الخاص ومظهرها ،

ولذلك فان الفنان يحفر العين كاملة في الشكل الجانبي للوجه • وبنفس الطريقة فاننا نقول ان لحية الاشوري مربعة • ولما كانت لا تظهر هكذا في الشكل الجانبي للوجه ، فأن الفنان يظهرها مربعة على الرغم من ان وجه صاحبها لا يظهر منه الا جانب واحد •

لقد درس السيد (ر ـ فلاڤيني) (R. Flavigny) العديد من الصور الصغيرة دراسة تفصيلية فبناء على ذلك فأننا حينما ننظر الى مشهد ديني يتحتم علينا ان ننظر الى كل معالم الهندسة المعمارية ، واللوازم الخاصة بالطقوس الدينية ، وان نرى بعين العقل الاعمدة والنيران المقدسة والتي تظهر مضمومة وراء الآله • واذا ما صورت عربة تسير بأقصى سرعة ، وهـذا غير مألوف ، فأن الخيول الاربعة تمثل ازواجا امام العربة ، وكأنها تريدان تمزقها • كما أن مقدمة العربة واضحة للعيان • وغالباً ما نجد منظراً جانبياً للآله وهو جالس على العرش الذى يستقر فوق اسدين • لقد حفرهما الفنان كل على انفراد ، وكل واحد امام الاخر

واخيرا فأننا قد نجد متعبدا بين الهين متماثلين يواجـــه احدهما من اليمين ، ويواجه الاخر من اليسار • والتفسير المحتمل لهذا التماثل هو وجود نسختين لصورة الآله تتجه كل منهما الى جهة معينة • ويضفي الفنان عـلى هذه الاشكال التغيرات بمهارة فائقة ، واذا ما واجهته مشكلة اظهار الجنود اثناء العمل في معسكر او قلعة ، فأنه لا يتردد عن جرنا الى داخل الخيام ليرينا ما في داخلها ، او انه قد يرسم مخططا اساسيا لجدران القلعة الخارجية التي يبرز البرج في خارجها ، فهو يشبه اشجار بحيرة الاسماك التي سبق وصفها • اما في الفراغ الطليق المتروك داخل القلعة فأنه يظهره بأقسامه التي تضم الرجال وهم منهمكون بالطبخ •

اما استثناءات هذه القواعد فهي نادرة ، وتمثل بعض الاعمال الفردية التي جاءت قبل اوانها ، ويمثل تصوير الاصطبلات الملكيـة احـد هــذه

الاستثناءات ، وهو من عهد آشوربانيبال والذي يظهر ثلاثة ارباع الوجه.

ونرى في هذا المنظر صورة كبيرة لضابط واقف عند مدخل الاصطبل في حين ازال الفنان الجدران من الداخل ما عدا الاعمدة القائمة ، وقصده من ذلك اظهار ما يجرى في الداخل . وبالفعل فأننا نستطيع ان نرى الصور الصغيرة للخيول وهي سائبة .

وتعطينا (خرسباد) مثالا اخر يعتبر استثناء وهذا المثال عبارة عن منحوتة اشورية تمثل جولة اصطياد الطيور . ويظهر في المقدمة صياد بلا لحية في حين يكون الصياد الثاني ملتحيا ، واكبر عمرا فاذا لم يكن الشخص الاكبر الذى يظهر في الوجه اميرا حسبما قلت ذلك قبلا في الفصل الاول فأننا يجب ان نعتبر هذا المشهد التصويري يمثل محاولة لاستعمال الرسم المنظور بالمعنى الحديث للاصطلاح .

الجري السريع في الفن

لرسوم الحيوانات تقاليدها الفردية الخاصة بها وبعض هذه التقاليد لا يمكن تجنبها فهي تشبه التقاليد الضرورية اللازمة لتصوير الخيل وهي تجري • ونود ان نقول هنا انه حتى وقت ظهور السينما لم تحاول اية امة ان تحلل وبكل دقة التتابع المضبوط للحركات التى يصنعها الحصان الجاري • اما في الماضي فأن كل امة اختارت طريقتها التي استعملتها في تصوير هذه الحركات • فمثلا نجد ان اليونانيين صوروها كنوع من الخبب ، في حين كان المصريون والاشوريون يظنون ان الحصان الجاري يقف على ساقيه الخلفيتين وكأنه على وشك الوثوب • والاختلاف البسيط بين التصويرين هو ان المصريين اظهروا الساقين الامامتين منحنيتين في حين يظهرها الاشوريون ممتدتين • واخيرا فأن الفن (الايجي) يظهر الحصان طائرا في الهواء مع اظهار حوافره الاربعة مرتفعة عن الارض •

لقد استعملت آلة التصوير المتحركة في تحليل الحركات فأظهرت ان كل هذه التصويرات القديمة لم تمسك بالحركات الحقيقية ، وان اليونانيين وحدهم قد اقتربوا كثيرا من الحقيقة •

علينا ان نعتبر هيئة المشي بمد الساق مجرد تقليد تصويري اخر استخدمه الاشوريون في تصويرهم حركات الخيل • وعلينا ان لا ندهش من ذلك لعدم امكانية وجود مراقبة دقيقة للحركات •

وهناك مثال اخر عن العرف الخالص هو معالجة صف من الشخوص البشرية ، او عربة تسحبها عدة خيول ، عندما يتصور الناظر اليها وكأنه ينظر مباشرة الى المادة موضوعة البحث فالفنان يشير الى عدد محدد جدا من الاشخاص او الخيول قد يصل الى اربعة ، وذلك بحفر صف واحد او اكثر يتعقب بكل دقة مقطع الشكل الرئيس •

فهذا العرف الخاص لم يكن في الواقع مقتصراً على الفن الاشورى وحده . فقد تم تعقب ذات الاجراء عندما يفترض ان يشاهد حيوان ذي قرون في شكل جانبي بصفة دقيقة بحيث لا يرى منه سوى قرن واحد .

ففي مثل هذه الاحوال لا يصور الفنان سوى قرن واحد حسب وهذا بدون شك هو اصل اسطورة وحيد القرن .

ومما يعادل ذلك تصوير اسد بوضع جانبي اذا كان يهاجم فريسته.حقا ، فان النحات يصوره وقد امتدت قوائمه الاربعة وتقاطع احدها خلف الاخر في وضع غير فني كلية حتى بالنسبة الى صورة دب يوشك ان يلتهم فريسته .

وفي الختام فأننا نستطيع ان نذكر عرفا فنيا كان يتحكم في اشتغال النحات بتماثيل الثيران المجنحة هائلة الحجم ، والتي كانت تحرس ابواب القصر الملكي ، وهي ناشرة اجنحتها على المدخل الذي كان على الزائر ان يمر منه . وهذا امر منطقي تماما اذا كان يفترض في المشاهد ان يكون دائما امام الجسم الذي يتطلع اليه . اما الزائر فأنه سيرى الثيران امامه ، وعلى جانبه في تناوب . وبناء على ذلك فأننا نجد ان جناحي الثور يبدوان بارزين في المنحوتة ، في حين جعل الرأس والجزء الامامي ثلاثي الابعاد . وتتيجة لذلك وضع الفنان للحيوان اقدامه الاربعة ، ولكي يحدث انسجاما مع اجزاء الجسم الامامية ثلاثية الابعاد ، كرر الفنان القدم الامامي لكي يظهر الحيوان وكأن له خمسة اقدام حقيقية . واجمالا للوصف فأن الحيلة تبدو تهويلا اخرق ، وقلما يهز مشاعر المشاهد . وفي الحقيقة فأن الكثيرين ممن شاهدوا هذه الاعمال لم يدهشوا منها . والفضل في ذلك يعود الى مهارة النحات وسيطرته على تقاليد صنعته العريقة التي جعلت هؤلاء المشاهدين يحسون وكأنهم يرون التماثيل الاشورية الهجينة كالانسان ذي الرأس الحيواني ، والحيوانات ذات الرأس البشري . وسبب ذلك هو

ما لدى الفنان من صفات عجيبة وهدوء وثقة ، مكنته من ان يفرض وحـدة الموضوع عـلى العالم المنفصلة . وختاما فاننـا نؤكـد عـلى المهـارة السامية التي تعلـم الاشوريون بواسطتها تصوير الحيوانات كالاسـد المحتضر ، والدم الفوار يخرج من فمه ، او اللبوة التي شك السهم جزءهـا الخلفي ومع ذلك فهي تجر نفسها متحدية الصياد ، ثم صورة الاسد وهـو يغادر القفص فكل هذه الصور قطع فنية خالصة وجديرة بالملاحظة .

لم تلون النحوت الناتئة جميعها . وهي بذلك تشبه النحوتالتي تلتها فيما بعد ، والتي لم يلون منها الا بعض المعالم البارزة كاللحيـة السـوداء ، مـع وجود لمسات حمراء او زرقاء على الملابس ، او ادوات الزينة التي جعلتهـا الالوان تبدو مرتفعة . ويبدو ان هذا التمييز في استعمال الالوان كـان ممارسة مقبولة في هذا التاريخ في الشرق الادنى ، وقد استعمل في تلـوين وتميز التوابيت الفينيقية المصنوعة من المرمر ، والتي تعرف باسـم التوابيت البشرية وتشبه هذه التوابيت ما كان عند المصريين . فنحن نجـد في هـذه التوابيت ان نموذج الرأس يصنع منخفضا ، ويكـاد التلوين يبرز الشـعر والعين ، في حين يترك الباقي دون تلوين .

الفصل الرابع
الحياة الدينية
الشواهد الوثائقية

نستطيع القول ، وبقدر ما يتعلق الامر بممارسة العبادات ، ان لدينا امكانية الوصول الى مصادر الاخبار المباشرة عن الحياة الدينية التي نشأت وتطورت على نطاق واسع في بابل ذلك ان الاوصاف العديدة للشعائر الدينية والتي ظلت محفوظة ، ذات قيمة خاصة ليس بسبب الضوء الذي تلقيه على كل تفاصيل المراسيم التي تراعى في الاعياد ، ولكن لانها تمكننا ايضا من استنتاج الممارسات المختلفة في المناسبات الاخرى .

هنالك تقرير يقول ان للاعياد ممارسات خاصة بها ، ويظهر هذا التقرير ان الممارسات الاخرى هي من مسائل العمل اليومي . وفي الحقيقة ، ومع وجود بعض الثغرات فأنه سيكون من الممكن اعادة تركيب التقويم الديني لسنة كاملة . ان من الصحيح القول باننا لا نملك المدونات الاخلاقية بذاتها والتي تبحث في موضوع الخير والشر . ولكن المعرفة الضرورية موجودة في قوائم الآثام ، وفي التحذيرات واللعنات التي ترفض بواسطتها اعمال معينة بأعتبارها مكروهه عند الآلهة . وما علينا الا ان نلجأ الى التحليل المثابر لكي نستلخص من هذه النصوص الفكرة البابلية عن الخير والشر . ولكن اذ يعتبر الفكر الحديث هذه المفاهيم مشتملة على نوع من الوجود المطلق، فأن الفكر الديني العراقي القديم قد اعتبرها من نتائج ارادة الآلهة . فالخير هو ما ترضى عنه الآلهة والشر هو ما لا ترضىعنه االآلهة . ولم تنتجالتصورات

المجردة عن الحق (كيتو) والعدل (ميشادو) مظاهر مقبولـــة في مجمع الآلهة البابلي الا في اثناء عهد سلالة بابل الاولى .

اننا نستطيع ان نسمع صدى النمط الفكرى المبكر يتردد في قطـع شجية من الادب البابلي ، وهي متوفرة لدينا فيقصيدة (آلام الرجل الصالح). فبعد ان تستولي المصائب على البطل يقوم بتعداد اعماله الماضية فلا يجـد فيها الا الفضيلة فيصيبه التشاؤم ، ثم يتساءل عما اذا كان ما يعتقده المرء صالحا يكون في اعين الآله شـراً ؟ .

وبنفس الطريقة نقول اننا لا نمتلك اي وصف صريح عن الفردية ، واخلاق كل آله على حدة . ويتوجب علينا مرة ثانية ان نعتمد على التحليل المقارن لما نعرفه عن ابوتهم ، وعلاقات عائلاتهم ، والخصال التي يتمتع بها كل منهم ، والاسباب الموجبة لعبادتهم . وفي الحقيقة يجب ان نعرف كل الدراسة المتعلقة بطبيعتهم الحقيقية .

لقد اشبع البابلي رغبته التي تدعوه الى ان يكون سجلا دائمـا عـن الحقائق الدينية الاساسية ، وذلكعن طريقتأليفالقصائد ذات الصيغة الملحمية كقصيدة الحلق ، وقصيدة هبوط عشتار الى العالم السفلي .وعندما ندرس كل هذا الادب ، فأن دراستنا هذه ستترك عندنا شعورا بالكآبة . وهـذا امر لا شك فيه. ونستخلص من هذا ان الدين الذى يكشف عنه هذا السجل يعجز عن مماشاة ذكرى احدى حضارات الماضي العظيمة والتي دامت لمـا يزيد على ثلاثة آلاف سنة ولعلنا بحاجة الى ان نذكر انفسنا بالحقيقة القائلة بان اية عقيدة يجب ان تحمل طابع العصر الذى صاغها او تقبلها ، وان اي عنصر سامي قد يكون فيها ، يصبح ملوما عندما يتقادم عليه الزمن ويصبح بالامكان معرفة الغث من السمين .

ان كل عهد زمنى لاحق لا يشكل الا حلقة واحدة في سلسلة الزمن ،

ولا مفر له من الاعتماد على سابقه . اما في دنيـــا الفكر فيجب ان تمضي قرون ، وان تتكون مفردات ذهنية جديدة قبل ان يكون بالامكان التثبت من صحة شيء معين ، وقيل ان يتضح الطريق للمرور الى عوالم ابعد من الاعراف المقبولة . وهذا يشبه تماما ما يحدث في دنيـــا العلوم الطبيعية . حيث تمكننا المهارات الفنية المحسنة من الاهتداء الى تجربة جديدة تمهـــد لنا الطريق الى اكتشاف جديد .

ان فشل الفكر البابلي في بناء نظام ديني متجانس لم يكن بسبب ضعف اساسي ملازم له ، ولكن بسبب ان مستوى انجازه كان قـد تقرر مسـبقا بحدوثه الزمني .

التقلبات والتناقضات

تعتبر التناقضات وعدم التماسك من اغرب المظاهر التي تبرز في ايـة دراسة عامة للديانة البابلية • ولقد كانت العقيدة البابلية تتميز بتعدد الآلهة• كما امتاز مجمع الآلهة للبابلي الذي ضم هذه العقيدة بأنـه ، ولاسباب عديدة ، كان مليئا بالعبادات المتناقضة ، وتكـرار الصفـات التـي نسبها الى الآلهه • قد لا تكون الالوهية نفسها نتيجة لايحاء مباشر ، ولكنها كانت من أهم أنواع المعرفة التطبيقية • وكان من المقبول بأن تحظي بما وهبته الآلهة انما هو مجرد أمر طاريء • لقد كان هذا هو السبب الرئيسي ، وهو غامض ان لم نقل واضح ، الذي جعل ادخال التحويرات امرا مستحيلا الى حد كبير •

وبالاضافة الى ذلك فأن ديانة العراقيين القدماء نبعت من انواع مختلفـة من الجذور ، واتبعت نمط نمو القطر نفسه ، وواحدة بعد واحـدة راحت اقدم المدن السومرية تبتلع جاراتها فكانت كل واحدة من هذه المدن تتمتع بالاستقلال الذاتي في سنواتها المبكرة ، كما كان لها كهاتنها الخاصة بهـا ، وتقاليدها الرفيعة • ان علينا ان ندرك انه كان لهذه التقاليد مظهر مزدوج ، اذ كانت ملزمة بأن تساير نظرة العصر السائدة اثناء تكونها ، وهذا ما أضفى عليها نوعا من الوحدة • هذا من جهة ، ومن جهة اخرى كان عليها ان تنسجم مع التنظيم ومع الاتجاهات الخاصة ، ومع حاجات كل مدينة منفردة • وهذا ما أدى الى بروز اختلافات عظيمة في التفاصيل •

لقد تقبل الفكر الديني نظاما معينا من الابوة والقربى خاصا بالآلهـة ، وهو يشبه ما عند البشر ، وفي داخل هذا الاطار راحت كل سلطة كهنوتيـة تضـع مجموعـة معتقداتهـا المنفردة بمـا في ذلك اختيار الآله الخـاص بالمدينة الذي كان ، وبصورة عامة ، يختلف عن آله المدن المجاورة • وعندما راحت المدن تكون وحدات اكبر بصورة تدريجية انـدمجت اولا مجاميع

الالهة المختلفة ثم جعل الآلهه السومريون على تماس مع آلهة الغزو السامي، مع وجود عملية لا مناص منها من الاخذ والعطاء .

لقد جاء الساميون بأفكارهم الدينية معهم ورعوها اسوةً بالافكار التي اخذوها من سومر وهضموها . فهم قد حافظوا على مجمع الالهة السومري، ولكنهم أعادوا تسميته بأسم «سامي» وهكذا ضاعفوا العدد الذي يمثل مجموع الآلهة التي شاعت عبادتها . ووفقا لمبادىء الجماعات المختلفة من الكهان فأن النتيجة الطبيعية لكل هذا كانت اعتبار أي إله مفروض وفي مختلف المناسبات ابناً لابوين مختلفين . ولعل اكثر امثلة عدم الثبات دهشة هو المثل الذى يمكن ايجاده في الطريقة التي كانت فيها اسماء الازواج المختلفة من الآلهة مترابطة . لقد كانت عشتار اكثر الآلهات احتراماً وتبجيلا ولكنها غالبا ما أعتبرت زوجة لآلهة رفيعة للمذن العظمى وعندما أدمج المجمعان كان بامكان كل آله من الالهة العديدين ان يدعى بأنه زوجها .

اصلاحات سلالة بابل الاولى

كان يحتمل ان تقع عدة تعديلات صغيرة نسبيا ، وذلك بمضي الوقت. ولكننا لا نعرف شيئا عن هذه التعديلات ، سوى ان اكبر الاصلاحات حدثت في عهد سلالة بابل الاولى . كانت طريقة محاولة حل المشكلة غير مباشرة . ومن المحتمل ان يكون البيت الحاكم قد حسب ان تبنيه الرسمي اسمين من آلهة المدن القديمة ، قد يثير غضب بقية المدن الاخرى ، ويدخل في حسبانها ان المدينة التي اتخذ منها الآله الاسمي تبجل اكثر من غيرها . ولذلك قرر هذا البيت ان يوجد نظاما جديدا بين جمهرة الآلهة التي تنتمي الى نفس المجمع . وبقدر ما نعلم لحد الان ، كان الاله ــ مردوخ ــ حتى هذا الوقت ذا مكانة بسيطة نسبياً لكنه اختير ليكون الاله الرئيس ليس للدولة الجديدة حسب ، بل للمدينة وبلاد بابل ايضا . وبفضل هذه المكانة وضع مردوخ على رأس آلهة المجمع . وبقدرة قادر ارتأى الكهان عدم الحاق الضرر بعدد او اهمية الآلهة القدماء . وان كل ما حدث هو ، بكل بساطة ، اختيار آله تكون له السيادة دون الاستغناء عن الآلهة الموجودة من قبل . لقد نفذت نفس العملية في بلاد آشور بالنسبة الى الآلهة القومي ، آشور ، والذي كانت عشتار زوجته. تقدم ملحمة ــ الخلق ــ الدعم المناسب لهذه العملية الثورية والتي اعتبرتها الكهانة البابلية ذات اهمية كبيرة . وكما نعرف من قبل فان الملحمة وصفت هذه الآلهه بالعنف وبأن الرعب قد تملكها ازاء تهديدات ــ تيامات ــ وكاوس ــ وانها طلبت المساعدة من مردوخ الذي منحته كل سلطاتها طوعا لكي تمكنه من النجاح . واعتبر مردوخ عند بعض مدارس الفكر الديني خالقا للعالم. وعلى الرغم من هذه التغييرات الجذرية فانه لم يكن هناك اي انقطاع عن التقاليد الخاصة بعبادة الالهة الاخرى او في قراءة ترانيم جديدة لتمجيدها .

كما لم تكن هناك اية علامة تخرج من عدم التناسب بين الترانيم والمبادىء الدينية الجديدة •

ومما لا شك فيه ان سبب ذلك راجع اما الى الغموض الـذي يؤلف المظهر العادي في الفكر الشرقي او الى خاصية تعدد الالهه الموجودة اساسا في الدين البابلي •

ديانة الطبيعة البدائية وتطورها

قبل ان نبدأ بدراسة الدين في عهد السلالة السرجونية علينا ان نصف بايجاز الاشكال المبكرة التي كان عليها هذا الدين • ذلك لان هذه الاشكال تركت وراءها اثاراً مهمة • وحتى هذا العهد ، وبقدر ما نستطيع ان نصدر من احكام ، فان دين بلاد بين النهرين قام على عبادة القوى الحيوية في اطواره المبكرة جدا ، والتي انتهت قبل حلول تاريخ السجلات المدونة المبكرة ، والتي ما زالت باقية •

وكما تقول العبادة المشهورة :ـ ان الانسان مقياس كل الاشياء ، فان الفكر العراقي القديم قد عبر عن هذه القوى بقوله ان هناك ارواحا للولادة والتكاثر تتمثل في وحدة الذكر والانثى كما في العائلة البشرية • وكانت مجموعة هذه القوى تضم دائما شخصا ثالثا هو الآله الشاب الذكر (وهو الابن) • وكان هذا الابن يشكل دائما مصدر ازعاج طفيف لرجال الدين البابليين ، لانه كان يمتلك سلطات وخصائص ابيه ، وكان يعتبر اما ابنا او محبوبا للألهة ، ، وذلك وفق ما كانت الظروف تتطلبه وغالبا ما كان يكتسب الصفتين في وقت معا •

لقد خفف هذا الدين من هذه القوى الحيوية عن طريق خلق عدد من الآلهه الذين كانت لهم وظائف معينة ومحدودة • فمثلا خلق آلهة للحبوب، والغابات ، والكروم والجداول ، بالاضافة الى وجود ارواح برتبة ادنى ، او وجود العفاريت • وكل هذا ليمثل محاولة تجعل هذه الالهة مسؤولة عن قوى الشر الخبيثة •

لقد كان هذا الدين اسيويا في خاصيته ، وهو يشبه ، من بعض الوجوه، الديانات الهندو ـ اوربية البدائية •

جاءت المرحلة الثانية عندما اختلط هذا الدين السومري بمظاهر اخرى مختلفة لا تتوضح الا بعد تماسها مع الدين السامي ، هذا مع العلم انه حافظ على عنصر عبادة الطبيعة الخاص به •

يرجع تاريخ هذا التماس الى العصر التاريخي • ومن المحتمل انه يرجع حتى الى ما قبل عصور ما قبل التاريخ • فلم تكن المدنية السامية في هذا الوقت متقدمة تقدما ماديا ، ولكنها في الوقت الذى كانت تتقبل فيه الحضارة السومرية تقبلا كليا تقريبا ، كانت تمتلك افكارها الخاصة بها لكي تغير وتوسع طابعها من مصادرها الخاصة بها •

كان الاله ـ آنو ـ فيهذا العصر هو الشخصية المهيمنةعلى مجمع الالهة• لقد كان آنو او ان يقيم في السماء (ورمزه هو نفس الرمز المشير الى كلمة ـ نجم ـ) كما كان يمتلك سلطات لا حصر لها بما في ذلك السلطات لتي كانت تنسب الى ارواح ـ الولادة والتكاثر • اما اقرب الاقرباء الى ـ آنو ـ فهم ـ انليل (آله الريح) و ـ انكي آله العالم السفلي ، والذى اصبح فيما بعد آله مياه الهاوية التي لا قرار لها والتي رست عليها الارض • وتأتي بعد ذلك آلهة الاجرام السماوية مثل ـ ازو ـ اله القمر ورب المعرفة ، و ـأوتوـ ـ اله الشمس ، و نرگال ـ حاكم العالم السفلي او مملكة الاموات الذين كان مسؤولا عنهم، وكانلكل واحد عنهذه الالهه زوجته ، وكانت (عشتار) من اهمهن جميعا ، وينظوي تحت اسمها نطاق واسع من الهويات الشخصية •

ان علينا الا نتصور ان عنصر عبادة الطبيعة قد تلاشى باجمعه • بل علىالعكس منذلك اننا لانزال نجد آلهة تمثل هذا العنصر مثل (دمورزي) (تموز) و (نينكزيده) و (شارا) و (نتكرسو) وهي ، على التوالي ، الهة الحصاد وحطب الحياة والخضار والفيضان • اما زوجاتهم فهي (بـا بـا) إلهـة الصحة ، و (نتتود) إلهة الولادة و (گاتمدگ) مانحة الحليب الرحيمة،

و (گيشتين ـ أنتا) الكرمة السماوية ، و (شالا) ربة سنابل القمح . وليست لاحد من هؤلاء ـ المعبودين ـ اهمية من الدرجة الاولى كما للآلهه التي سبق ذكرها ، ولكنهم مع ذلك يدللون على عصر مضى :

ومما لا شك فيه ان سبب هذه الحقيقة ناجم عن تأثير ونفوذ الساميين الذين ادخلوا عبادة النجوم .

واخير جاء العصر الثالث الذى سبق ان جئنا علىذكره بايجاز . ويحتمل ان يكون هذا العصر قد شهد ادخال معبودين كبيرين الى مجمع الالهــة . وقد قدر لهذين المعبودين ان يصبحا فيما بعد الالهين الوطنين لبابل وآشور، ونقصد بذلك مردوخ وآشور .

وباستثناء ما ادخله الكشيون من عــدد قليــل نسبيا من الآلهــة اثنــاء سيادتهم على العراق ، والتي استمرت عدة قرون في الالف الثاني ق.م ، فان الدين قد استعاد الشكل الذي نستطيع ان ندرسه فيه ، وذلــك في ظـــل السلالة السرجونية والامبراطورية البابلية الجديدة .

تركيب الهيكل أو مجمع الالهة

اذا ما مضينا نحسب الآلهة الرئيسين في الهيكل البابلي ينبغي لنا ان نفهم ان ذلك يحتاج الى كتاب لكي يضم قائمة كاملة بهم ، هذا مع العلم ان الوثائق الجديدة التي تم اكتشافها ما تزال تعمل باستمرار على زيادة معرفتنا بالعديد من الآلهة الجدد الذين كانوا على الرغم من ضآلة اهميتهم يصورون لنا الزيادة المدهشة للآلهة التي كانت تحدث في بلاد ما بين النهرين •

ومما لاشك فيه ان الكهانه حاولت ، وعلى الاقل ، ان تحقق نوعا من التضييق ، وان كبار الآلهة قد جمعوا في مجموعات تألفت كل واحدة منها من ثلاثة الهة واول هذه المجموعات هو الثالوث الذي يضم الآلهـه (آنـو) و (انليل) و (ايا) باعتبارهم الحكام الوحيدين للكون • وقد فعلت الكهانة ذلك بسبب الضغوط المتصاعدة والناتجة عن تعقد تركيب مجمع الآلهة ، هذا بالاضافة الى الخوف من عملية الاقصاء الضرورية •

كان ـ آنو ـ من اكثر الالهة اهمية في العصر السومري • وكان مقامه في السماء ولقد مكث هناك بالرغم من وجود آلهة آخرون يعادلونه في القوة من ناحية عملية • لقد تمركزت الطقوس الدينية الخاصة بـ (آنو) في (دير)(*) في بلاد اكد ، وفي (الوركاء) في بلاد سومر وقد عبد هناك مع ابنته عشتار في المعبد الذى كان يعرف باسم أنـّـا ـ وهو صرح (آنو) او صرح السماء ويلاحظ ان ـ النجمة ـ هي العلامة التي استعملت لتقوم مقام اسمه ومقامه •

كان لِـ (آنو) معبد محترم جدا يقع في (الحي المقدس) الذي عـرف

(*) دير : موقع على مقربة من نهر اليوسيفية جنوبي بغداد . تدل كل الشواهد على انه موقع مدينة اكـد عاصمة الاكديين عثر فيه مؤخرا على مكتبة عامرة تضم الالوف من الرقم الطينية .

باسم (گرسو) من مدينة (لگش) وفي هذا المكان عبدت عشتار كذلك وكان اسمها بالسومرية (نينّـي) واعتبرت ابنة (آنو) ، وفاقت عبادتها عبادة والدها في الاهمية ، وظل (آنو) معترفا به على انه اعظم الآلهه شأنا حتى حلول العصر السومري الجديد وقيام سلالة بابل ، بادخال ديانة مردوخ •

كان شعار الملكية موضوعا بين يدي ــ آنو ــ ويتألف هذا الشعار من الصولجان والتاج ، ويشكل هذا الثنائي اشارة واضحة الى مملكتي سومر واكد التوآمين اللتين كانتا تشبهان مملكتي الصعيد والدلتا (مصر العليا ومصر السفلى) وعند باب مقام (آنو) السماوي ، اي مستوى منطقة البروج اوسمت الشمس ، سكن الهان شديدا التشابه ، وكانا مسؤولين عن دورة الطبيعة ، اي تكوين الفصول ، وهما تموز وكيزده • وحتى ولو كانت العبادة والالقاب تعود الى (آنو) فان ذلك لم يكن عائقا لعبادة آلهة اخرين • ذلك لان الشعائر الخاصة بآله معين لم تكن تستبعد طقوس آله آخر اللهم الا اذا اراد المتعبد نفسه ان يجعلها كذلك •

نستطيع ان نعثر على الدلائل التي تشير الى علو شأن ــ آ نو ــ وتفوقه، من الطريقة التي يستضيف بها الالهة الاخرين • وتعتبر سماء ــ آنو ــ المكان المفضل لاجتماع الآلهة في الافراح والاتراح • وكانت هذه السماء هي مكانهم عندما هددهم الدعاء الذي انقذهم منه مردوخ ، وكذلك في وقت الطوفان الذي دمر معابدهم عندما كانوا يقيمون على الارض • كان ــ انليل ــ ثاني آله عظيم في اول ثالوث ويعرف عند الساميين باسم (بعل) ومعناها (الرب) • وكان يحكم الارض • اما في بلاد سومر فقد تمركزت عبادته في ــ نفر ــ وقد خاطبه احد ملوك لگش في اوائل العصر السومري بعبارة (ملك الالهة) • ومما لا شك فيه ان السيادة التي غالبا ما كان يتمتع بها ، تمثل انعكاسا لتقاليد كهنوتية • اذ بالرغم من انه كان يحمل

القاب الحكيم والعاقل فانه (وتحديا لرغبات عشتار وايا) كان مسؤولا عن امر بداية الفيضان • واننا نستطيع ان نحكم على مقدار تلاشي سلطته من الحقيقة القائلة بانه عندما ظهر مردوخ على المسرح اتخذ بدوره اسم (بعل — مردوخ) في حين اصبح اسم انليل ، وهو صاحب الاسم ، بعل القديم • اما زوجة (انليل) فكانت تسمى (بعليت) (السيده) وبالطبع فان هذا تأنيث لاسم الزوج (بعل) •

اما ثالث هؤلاء الآلهه الثلاثة فهو — ايا — ويعرف بالسومرية باسم (انكي) • وكان يطلق عليه (رب الارض السفلى) والتي يقول عنها البابليون انها (هاوية المياه) التي يطفو فوقها العالم الارضي ولا يطفو فوقها العالم السفلى الذي يحكمه الاله — نيرگال • ويعني اسم — ايا — (بيت الماء) وهو بحد ذاته وصف لمملكته • وكان البابليون يعتقدون ان الحكمة والمعرفة تقيمان في هذه الهاوية ، والتي كانوا يعرفونها باسم —أبسو— وتمثل هذه الكلمة الصيغة السامية للكلمة السومرية — أبزو — ومعناها — مقر المعرفة — •

كانت (دامكينا) زوجة — لأيا — ولم تكن مشهورة على الاطلاق في حين كان — ايا — نفسه حامي السلالة البشرية وهناك بعض الروايات الدينية التي تجعل منه خالقا للانسان • ووفقا لما في هذه الروايات فانه خلق الانسان من الطين ، ثم نفخ فيه الحياة • وكان — ايا — يعرف كذلك باسم — الفخار الالهي — وبسبب من تحذيره المسبق بالفيضان ، فانه كان مسؤولا عن ضمان نجاة زوج من الكائنات البشرية ، وبما انه كان يحكم المكان الذي كان مقر المعرفة فأنه صار حاميا لكل نوع من المعرفة المتقدمة كالكهانة والسحر والطب وكان الآله يوصف بانه الآله الذى كانت عيناه تشعان فهما وكان الماء المقدس الذي استعمل في المراسيم الدينية يؤخذ من الآبار والتي تعود لمملكته ، والتي كانت نفسها ترتبط بالبحيرة الباطنية ، او بمصبي النهرين

العظيمين دجلة والفرات اللذين كانا يعتبران آلهين أيضا .

وقصارى القول فأن هذا الثالوث الاول من الالهة قد اقتسموا فيما بينهم السيادة على ثلاثة عناصر من العناصر الاربعة ، والعناصر الثلاثة هي الهـواء ، والارض ، والماء ، هذا على الرغم من ان سيادة(آنو) على الهواء غير منازع فيها . اما السماء فكانت هي الاخرى مقسمة بين نفس الآلهه الثلاثة . وكان طريق (آنو) ينضوى تحت سموات (انليل) و (آيـا) .

الثالوث الثاني
سن ، شمس ، عشتار

بالرغم من ان امكانية اعتبار الثالوث الاول ، بأي معنى من المعـــانى وحدة منطقية قائمة بذاتها فقد كان هناك آلهه لا يمكن ان يدركوا دون ذكر . ويقودنا هذا القول الى (الثالوث الثاني) المؤلف من سن ، الالــه القمر ، وطفليه ، شمس (الشمس) وعشتار (كوكب الزهرة) .

الاسم (سِن) هو الصيغة السامية للاســم السومرى (ان زو) والذى يعني آلـه المعرفة . وتشير هــذه الحقيقة الى مفهومين متضـــادين ووفقا لما جاء في احد هذين المفهومين فأن المعرفة تقيم في السماء ، في حــين يقول المفهوم الاخر انها تقيم في المياه التي تحت الارض . وكان الذين قد جعلوا من القمر (الها) وليس آلهة جماعة صغيرة من سكان العراق القدماء والتي نسبت اهمية كبرى الى القمر ، وانه هو الذى يتحكم في مرور الاشهر. فهو ينمو من هلال الى بدر ، ثم يأفل . كما ان السنة تتألف من اثنى عشر شهراً قمرياً ، ويجب اجراء تبديل في هذا العدد من وقت لاخر ، وذلك لكي يحدث انسجام مع مرور سنة حقيقية . ونتيجة لذلك اصبح عدد ايام الدورة القمرية الكاملة ، وهو العدد (٣٠) ، مرادفا للاله (سن) . وقد كتب بالعلامة التي تتضمن معنى اليوم .

لقد اعطت الدورة القمرية الثانية للاله (سن) ارتباطا خاصا بالنظــام والحكمة ، وقد تصوره العراقيون القدماء بشكل انسان في ربيع حياته ، له لحية طويلة من اللازورد . وعندما يكون هلالا كانوا يقولون انهــم يشاهدون الزورق الذى يبحر به عبر السموات ، وجدير بالذكر ان الهلال يرتفع في عروض بلاد ما بين النهرين في خط مواز للافق ، وتتجه نهايتاه الى اعــلى .

الاله الثاني في هذا الثالوث هـو شمس (الشمـس) (اتو السومـري) قد تدهش اذا علمنا انه الابن الوحيد للاله القمر ، وانه ليس لـه حق خاص به يجعله سيدا ، ذلك اننا تعتبر الشمس اهم بكثير من الاثنين وهما القمر والزهرة اما في الشرق فأن الآية تنعكس اذ بينما يرحب الناس بشمس الصباح الباكر والتي تدفىء الارض وتطارد الظلال التي تكمن فيها الارواح الشريرة مثيرة الرعب ، نجد الشمس تفتقد هـذا الترحيب الذي حظيت به اول النهار وذلك حين يبدأ هذا النهار بالانتهاء • وتسير الشمس في طريقها الى الغروب ، وعندما تبلغ السمت لا تعتبر صانعة الخير للانسان ، ولكنها تصبح قاتلة تلهب جلود كل الاشياء النامية ، فتحول السـهول الى صحارى وتسبب ضربة الشمس التي تأتي بالمـوت والآلم • وزيادة عـلى ذلك فأن الشمس تفتقد عند هذه الدرجة صفتها التى تجعل منها (شمش) وتصبح (نركال) آله العالم السفلي والذى يسكن في دنياه ضحايا الآلم والاوجاع التي سلطها بنفسه على البشرية •

ان الحقيقة القائلة ان (شمس) كان يعتبر آله العدل يؤلف ضوءاً جانبياً جميلا في طريقة التفكير البدائي الذى كون هذا التصور عن الشمس التي تدفىء كل شيء والتي تغمد العالم بضوئها وتبدد ظلمات الليل التي تخفـي الآثمين • وهذه الصفات لا تليق الا بأله العدل ، والذي برعايته وحمايته استطاع الملوك الشرعيون العظام قبل حمورابي ، ان يضعوا قوانينهم • وفي متحف اللوفـر بباريس توجد مجموعة قوانين هذا العاهل الشهير والتي تصوره وهو واقف بخشوع امام شمس •

وفيما يجب ان يكون مرحلة متأخرة نسبيا في تطور طقوس عبـادة (شمش) اعتبر هذا الاله ابـاً للطفلين (كيتو) و (ميشادو) (الحـق والعدل) وكلاهما يمثل تصورا دينيا مجردا ابعد من مدى الذكاء في الفكر البدائي وكانت (آيا) (Aia) زوجة شمس تكمل هذا الثالوث الثاني بالآلهة

عشتار التي يمكن وصفها بانها خلاصة (ننخور ساك) او (نني) او (إننا) او العديد من الالهات السومريات الاخريات واللواتي جسدن جميعهن مبادىء الخصوبة او التناسل •

ان وجود عشتار كعدد مساوٍ مع الآلهة الاخرين الكيان في مثل هذا الثالوث لهو دليل مدهش على شدة عبادة قوى الطبيعة والتي تأصلت جذورها في المجتمعات البدائية ، ذلك لان المجتمع السامي كان اقل استعدادا من المجتمع السومرى لاعطاء المرأة اية مسؤولية حقيقية في حياة البلاد ، على الرغم من احتمال ان قوانين حمورابي قد اعطت المرأة في بلاد بابل حقوقا لم تحصل عليها المرأة الفرنسية مثلا الا في بداية القرن العشرين • ومن امثلة تلك الحقوق الحضور لاداء الشهادة في المحاكم القانونية • لقد كانت قرينة الملك في المجتمع الاسيوى عضوا في مجلس الدولة وكانت توقع على مراسيم الدولة ولها حق التملك • كما كان لها عيالها الخاصون بها والذين أوكلت ادارة شؤونهم الى حاجبها الشخصي •

ولم يكن هذا الامر مقصورا على الشعوب الاسيوية وحدها ، بل تعداه الى اليونان البدائية حيث كانت المرأة تصرف امر عيالها • ويتضح هذا من قصة (نوسيكا) المذكورة في (الأوذِسا) ، والتي جاء فيها انه عندما كانت الاخيرة تخبر (اولسن) عن السبيل الذي يسلكه لكي يحصل على المساعدة من ابيها الملك • وقد طلبت منه ان يدخل القصر حيث سيجد آباها جالسا في احدى الغرف وهو يشرب مع الآلهة ، ثم قالت له بأن عليه الا يتوانى او يتأخر عند ابيها ، بل يمضي في طريقه ، ويرمى بنفسه عند اقدام امها التي لها القول الفصل •

ان القول بان عشتار تمثل تخيلا للعديد من الآلهات المختلفات ، يجعل من نسبها غامضا • وتأتي مختلف النصوص على ذكر عشتار في مواضع مختلفة ، وهي تذكر ابنة لكل من (سن) و (آنو) واخت لكل من (شمش)

و (إشكيگال) . اما قائمة ازواجها وعشاقها فانها تملا كتابا كاملا ، وهي تصبح بهذا الاسم او ذاك زوجة للاله العظيم الذى يكاد ان يكون الها لكل مدينة . فهي تمثل مزيج شخصتين مختلفتين في شخص احدى الالهات مثل (سيدة الحب) و (سيدة المعارك . ولا حاجة بنا لكي نرى في هذا التصور الثنائي شروحا فلسفية او شعرية قدمت في اوقات مختلفة كالقول بان الحب شقيق الموت ، او ان الموت يعادل الحب .

يجتمع في عشتار مبدأ الخصوبة الطاغي ، وهو يمتزج مع شخصية سيدة العادات . ومع ذلك فقد عبدت عشتار تحت اسمين مختلفين يعبران عن مظاهرها المختلفة فهي قد ألهت في ـ الوركاء ـ باعتبارها (عشتار عبادة الطبيعة) ، في حين كانت عشتار (حلب) و (أربيل) هي سيدة المعارك وحدها . وقد تطلب هذان المظهران شخصيتين مختلفتين وكذلك صفات ورموزا مختلفة . اما في الانظمة الدينية المتأخرة فان المظهر المزدوج لقوى الطبيعة كان واضحا ، اذ كانت (فينوس) (الزهرة) آلهة للحب واللذة ، اما اذا كان اسمها (سايبل) Cybele فيعني انها تمثل النماء البشري والحيواني .

علينا ان ندرك بوضوح ان الثالوث الاول (آنو ، انليل ، ايـا) كان بحذ ذاته كافيا من ناحية عملية لتوضيح معالم الكون • اما العنصر المفقود فهو عنصر ـ النار ـ والذي يمثله (شمش) ، من الثالوث الثاني • ومع ذلك فقد احتوى مجمع الالهة على العديد من الالهة الاخـرين الذين يعتبرون ثانويين بالنسبة للاعضاء الرئيسيين ، وبالنسبة لوظائفهـم • وكانت الكهانـة عاجزة عن تصنيفهم •

كان من بين هؤلاء الآلهة ـ تنورتا ـ او ـ إينورتا ـ والذي اصبح في العصر الاشوري الحديث آله المعارك ، واما في بدايته فكان آله الطبيعة• وكان في العصر السومرى المبكر الهاً للخصوبة ، كما كان في هذا العصـر « رب گرسو » (تنگرسو) اي الحي المقدس في (لگش) • وعندما صار ـ تنورتا ـ الـه الخصوبة كان يتحكم في الفيضان السنوي للانهار والذي بدونه لا يمكن ان يكون هناك شيء اخضر • كان المحراث رمزه في السابق• وعندما حل العصر الآشوري ابدل المحراث بالسلاح • انه يمثل اندمـاج آلهـة اخرى بما في ذلك (نشوشيناك) آله سوسه و (زبابا) اله كيش• ويعبر تعدد زوجاته الواضح عن تنوع اسلافه • وتظهر النصوص المختلفة انه كان زوجاً لـِ (بابا) و (نينگارك) و (گولا) • وتجسد هذه الآلهات الثلاث تنوع الصفات ، وهن لا يكتفين بمراقبة صحة الانسان وشفاء سقمه، بل انهن قادرات ، في مناسبات اخرى ، على أنزال الموت بالانسان • وتقول الاساطير اليونانية ان الكلب رفيق گولا يصبح رفيقا كذلك لـِ (ايسكولاييوس)

بجسد الآله المعروفة بالسومرية (گبيل) (Gibil) عنصر النار ويعرفه عند الساميين بأسم (نوزكو) وهو اله اللهب • ويمتدح عباده فائدته ومنافعه حين يقدمون له الشكر اذ لا يمكن تقديم للقرابين المحروقة دون مساعدته •

لقد كان الماء الجاري هو الاخر إلهـا فكان مهتما اهتماما خاصا بادارة العدل ، اذ كانت له القدرة على تمييز البريء من المجرم وكان هذا في الحقيقة تجسيدا لما اسمته العصور الوسطى بقضاء الله ، حين كان المتهم يقذف في الماء ويترك امر اثبات براءته او اجرامه الى الآله • فأن غرق فهو مجرم وان طفا فأنه بريء وقد قدست شريعة حمورابي هذه الطريقة فاتبعتها في احقاق الحق •

اما (نرگال) اله العالم السفلي فقد كان مغرورا وكما رأينا فأنه كـان في الاصل اله الشمس ، وكان مدمراً للحياة ، وهو الذي خرج باحثا عن مملكة، فشق طريقه وسط ارض اللا عودة ، والتي عرفت بأسم (أراللّو) ، والتي كانت تحكمها (أرشكيگال) شقيقة شمش وعشتار • وقد أظهر نيرگال شيئا من العنف مع الملكة التي عرضت عليه الاقتران به حالا •

اما (آدد) ، وهو الثاني في هذه الجماعة فقد كان عضواً مهما في المجمع• وكان اله العواصف بما في ذلك الزوابع والبروق والمطر الرحيم الذى يرحب به الناس • لم يكن اصل آدد سومريا ولا ساميا فقد عرفنا ذلك من الاساطير الفينقية التي اكتشفت في (راس شمرا)(*) ونقرأ فيها انه عندما قدم كل اله مع معبده الى المجمع كان (آدد) الآله الوحيد الذى لم يجهز بشيء • ومن هنا نستطيع ان نستنتج ان (آدد) لم يكن عضوا فيالجماعة الاصلية للآلهـــة • والواقع انه كان الاله الاعظم في العالم الاسيوى • وكان يعتقد انه يقيم عـلى ذروات الجبال وسلاحه الرعود والبروق • أما صفته الحيوانية فهي الثور الذى كان خواره يشبه هدير الرعـد •

كان آدد يمثل المبدأ السامي للتكاثر ، والذي ينجسد بآله الاشــجار والينابيع وامثالها •

(*) راس شمرا هي مدينة (اوغاريت) من اعظم المدن الفينيقية خلال الالف الثاني قبل الميلاد تقع الى الشمال من ميناء اللاذقية السوري . نقب فيها « شافير » ابتداء من ١٩٢٩ واستمر التنقيب حتى سنة ١٩٦٠ .

كانت (شالا) هي زوجة أدد . وأما كنيتها فهي (سيدة الفيلة والقمر) ونوضح هذه الكنية شخصية (شالا) توضيحا كافيا ، وما دمنا نبحث في موضوع آلهة الخصب الذين بقوا حتى العصر الاشورى ، فأننا نذكر (نيدابا اونيسابا) آلهة الخضار ، ويختلط ذكرها بالقصب الذي كان ينمو نمواً كثيفا في الاهوار والقنوات . وبسبب من استعمال القصب كأدوات للكتابة على الطين ، اصبحت (نيدابا) آلهة للاعداد والنبوءات التي كانت تعتمد على الاعداد . وبالاضافة الى ذلك كانت نيدابا آلهة لمنتوج كثير الفائدة، واعني به النبات المعروف بأسم ذيل الحصان وهو من السرخسيات ، والذي يحتوي رماده على الصودا ، التي تستعمل عوضا عن الصابون عند خلطها مع الرمل والدهن .

وآخر هذه المجموعة هو تموز الذى كان غالبا ما يعطى اسمه الى احد اشهر السنة . وعلى الرغم من تناقص اهمية عبادته بمضي الوقت الا ان الحفاوة به استمرت ، ولم تمت الاساطير التي تتحدث عنه ، وفي الحقيقة عادت الاساطير الخاصة به اليه اخيرا وذلك في المناطق المحيطة بشواطي البحر المتوسط، حيث عبد في العهد الاغريقي الروماني تحت اسم (ادونيس) . وهذا الاسم بكل بساطة هو تقبل للاسم السامي (آدون) والذى يعني الرب او السيد .

ولقد عبد الابطال ايضا ، والذين هم من نسل اب ألهي وام بشرية .

ولقد سبق ان تعرفنا على كلكامش الذى كان الند الاشورى لهرقل اليوناني ، وهو مثله قوي ، وقد حقق المآثر الاسطورية ولكنه ، وفي الفترة الاخيرة ، لم يبجل بدرجة شديدة تشبه درجة تبجيله في الالف الثالث قبل الميلاد . ومع ذلك فأن ذكرى اعماله الجبارة ظلت حية في الاذهان .

العفاريت

لقد تأثر كل من الدين البابلي والدين الاشوري تأثرا عميقا بالاعتقاد القائل بوجود الجن والارواح الشريرة والخيرة التي تحيط بالانسان احاطة دائرية • ولا يوجد اي حديث ثابت يفسر حقيقة هذه الكائنات • الا ان الاشرار من الجن والارواح ، كانوا يعتبرون ابناء للآلهة الاشرار القدماء ، والذين اوقع بهم مردوخ هزيمة لكي يحرر زملاءه الآلهة من تأثيرهم ونفوذهم ، أما الاختيار من الارواح والجن فقد قيل عنهم انهم ينحدرون من بعض كبار الالهة الذين كانوا ما يزالون يعبدون •

لقد قسمت الغالبية التي يتحدر كل عفاريتها من اصل آلهي ، قسمة غير متساوية بين الجن الاخيار والاشرار • ولقد تم تصوير الجن الاخيار في حالتهم الظاهرة في شكل لثيران مجنحة تؤلف زخارف ابواب القصر الملكي ، او انهم كانوا ، في هذه الحالة المنظورة من بين الحرس الخاص لعشتار ، وقد كونوا جزءا من سلسلة اعدادها • ونحن نعرف ان الآلهة قد تم تصنيفها بشكل هرمي كيما يمكن استخدام مجموعة الاعداد في التعبير عنها بشكل جماعي • ولقد كان اسم هؤلاء الجن الاخيار يتألف في شكله المكتوب من علامة الآلهة عشتار الموجودة داخل العلامة والتي تحمل معنى ثلث او ثلثي عشتار ، وما دام العدد الذي يمثل عشتار هو (١٥) فأن العدد الخاص بالجن الاخيار هو (٥) او عشرة •

يتفوق الاشرار من الجن على عدد الاخيار منهم تفوقا هائلا • واعتبر الجن ابناء للآلهه الذين يحتمل ان يكونوا اما اصدقاء واما اعداء للانسان • كما وصفوا في احيان اخرى بأنهم ابناء (بعل) ،وفي احيان غيرها ابناء (آنو)•

وفي مثل هذه الحالات كان يظن بأن امهم هي احدى إلهات العالم السفلي •
وهناك وصف اخر ينسبهم حتى الى الآله (ايـا) وزوجتـه (دامكينـا) ،
هذا على الرغم من ان هذين المعبودين كانا محبين للانسان • أما العفاريت
الذين صوروا بشكل كائنات رهيبة مرعبة فقد قسموا الى مجموعات كثيرة •
وأول هذه المجموعات واكثرها شيوعا هي المجموعة التي تعرف بأسم (أوتكّو ـ
Utukku كما تعرف باسم السبعة ايضا ، على الرغم من احتمال تغير عدد
افرادها في بعض المناسبات •

يحيط الغموض الشديد بالمراجع التي تشير الى هذه العفاريت ، في حين
نجد النصوص متناقضة ، وهي تؤكد ان هذه الكائنات غير معروفة في السماء ،
ولا يوجد هناك منها الا سبعة ليس الا • كما تشير مراجع كثيرة الى انهم كانوا
يعرفون بوجودهم على شكل عشائر منفصلة ، وبشكل تجمع لانواع مختلفة
من العشائر • وكان من أشهرها (ستيمـو) أو (الاشباح) ثـم (نامتـارو) وهو
عفريت الوبـاء •

وعندما نسأل عما كانوا يفعلون نجد ، وفي كثير من الاحيان ، ان نباحهم
اسوأ من عظتهم • ذلك لأنهم قد يجعلون المسافرين يتنبهون الى وجودهم
فيتعقبون خطواتهم • وهم لا يستطيعون دخول البيت أو الصفير ، أو التمتمه ،
او قلب الاشياء رأسا على عقب ليس الا ، بل انهم كانوا يستطيعون ان يشقوا
طريقهم الى الاصطبلات وهناك يؤذون الحيوانات ويقتلونها ويجعلونها تفر
الى مختلف الجهات ، وهذا هو مبدأ سيطرة الارواح الشريرة وبالمعنى الذي
كان مفهوما في العصور الوسطى •

ومهما كانت القوة التي يغلق بها الباب ، ومهما وضعت من حواجـز ،
فأن بأمكان هذه الارواح ، ولوج البيت والآتيان بالافعال الشريرة ، وجعل
العوائل تختصم مع بعضها البعض • والواقع ان هذه الارواح تتحمل مسؤولية

اي ظرف سيء يحيط بالانسان كبر هذا الظرف ام صغر وواقع الامر ان الكآبة الشريرة كانت طابع احساس الانسان بأنه محاط من كل جانب بأنواع من اعداء غير منظورين • والذين تفرعت عن خياتهم كل مصيبة كانت تنزل بالسكان البابليين في حياتهم اليومية ، كسوء الحظ ، والمشاكسة والعصبية فهذه الارواح تحيط بالانسان ليل نهار •

لقد أغضب أحد البابليين إلهه بعصيانه قوانينه فقدر عليه العقاب • وبالرغم من احتمال هروبه من بيته فقد يصل الى الشارع وهو غير قادر على توفير الحماية له وتقول الاسطورة :ــ

(ان من يمشي بلا اله في الشارع سيكون العفريت دثاره) •

لقد كان هناك اخرون من جماعة السبعة الذين كانوا يعذبون سكان العراق القديم وهؤلاء هم الكوابيس وشيطانات الاحلام اللواتي يجامعن الرجال اثناء نومهم ولا يمكن ان يفلت اي انسان منهن مهما كافح • وتمنع الشيطانة (او عفريته الاحلام ابنة آنو) ولادة الاطفال في الوقت المناسب ، كما تقتل الطفل الوليد • واخيرا فهي العين الشريرة التي لايمكن ان يوفق أحد اذا ما وقع تحت نفوذها الذي يمتد بقوته فيحبس المطر في السماء ، ويعيق القصب عن النمو ، ويسلط العقم على المواشي في الاصطبلات والعائلة في البيت • اما الجماعة الرئيسة الثانية المنحدرة عن الجن الاشرار فيمكن ان نقول عنها بأنها تضم العفاريت الذين لا يظهرون الا في فترات متقطعة • فهم يمثلون الاشباح (ستيمو) • وهم ارواح من كانت حياتهم شقية والذين خدعوا بآمال معينة ، او ماتوا ميتة عنيفة ، او من لم يتمتعوا بالسعادة التي اضنوا انفسهم في سبيل الحصول عليها • وليس مدهشا ان نرى عددهم كبيراً :

من ترك جثمانه على الارض السهلة •

من لم يدفن •

من تمــوت عذراء

من تموت عند الولادة

من مات رضيعـا

من يسقط من اعلى النخلة

من اغرق نفسه

وأخيرا غيرهم ممن لا يحصى عددهم كالذين لم يشيع جثمانهم تشييعا كريماً لاي سبب من الاسباب ، ومن لم يكن عندهم صديق يهــيء لهـــم نذور الجنازة • فكل هؤلا يتعلقون بأدعاءات غير مرضية ، وجميعهم يلتحقون بصحبة (أوتكو) لغرض تعذيب الاحياء •

من المؤكد انه لم يكن لدى الآشوريين او البابليين في العهد السرجوني ، اي تصور عن الآلهة يمكن ان يخلع عليهم صفات بشرية • ومن الممكن الان ان نأخذ الامر مأخذ التأكيد ، فنقول ان الآلهة كانوا منذ البداية ، ما عدا في بعض الحالات النادرة ، يصورون بهذه الهيئة البشرية مع عدم وجود علامات خاصة تميزهم عن البشر ، ولم تضف عليهم العلامـات الخاصة كالتـاج او الشعارات الاخرى الا في عهد متأخر • وفي الحقيقة فأن ما حدث في بلاد بين النهرين تكرر حدوثه في اوربا الغربية •

كيف يمكن مساعدة جماهير شعب جاهل في التعرف على العشرات المختلفة من اعضاء مجمع الآلهة ؟ الواقع انه لم يكن بأمكان اي فنان على سطح الارض أن يعطي للاله العلامات الفارقة التي تسـاعد جماهير الشـعب على التعرف بصورة كاملة على الآله المذكور • وهكذا فقد اضطـر الفنـان البابلـي الى الانسـياق في نفس مساق فناني أوربـا الغربية الذين أعطـوا القديسـيين والرسل الموجودين في واجهات الكنائس ، علامات فارقـة تجعـل امر التعرف عليهم سـهلا •

وبالنظـر لذلـك اعطى الفنـان البابلـي للالهـــة خصائص يمكـــن بواسطتها تمييزهم لكي يمكن البابليين من التعرف عليهم وبهذه الطريقة ولد التصوير البابلي المبكر ان رسما كان وان نحتا • ومنذ ذلك الوقت راحت كل حضارة تستخدم هذا التصوير • وكانت الخطوة الاولى لنشـوء هـذا الفن تمثل في وضع التيجان على رؤوس الآلهة ، ثم تلى ذلـك تصـوير الآلهـــة بملابسهم عندما يمكن تصوير اشباههم • وهذا يفسر لنا الحقيقة القائلة ان الآلهه كانوا يصورون احيانا واثناء العصر الاشوري ، وهم يرتدون بدلـة تشبه البدلة التي كان يرتديها الملوك الاشوريون او الملوك في العهد الكيشي، هذا بالاضافة الى وجود التاج القديم الذي كان اسطواني الشكل في اعـلاه

صف من الريش ، او انه كان ينضوي الشكل حوله عدة ازواج من قـرون الثيران • وقد اضيفت هذه القرون الى التاج لتكون من علامـات التقـديس في العصر المبكر جدا • وبالرغم من ان هذا كان كافيا لخلق نوع عام من التقديس الخاص بالآلهة ، الا انه غير كاف بحد ذاته لجعـل الآلهـة متميزين بصورة فردية ، وقد وجد الحل في اضافة علامة معينة مفردة وغير غريبة الى كل اله ، ومن العلامات التي استعملت لهذا الغرض ، السلاح والآلات والحيوانـات الى غير ذلك من العلامات التي كان الهدف منها ان تكون علامـة شـخصية فارقـــة •

كان لكل اله اسطورة تضاف الى اسمه • وتزخر مثل هـــذه الاساطير بالحروب العجيبة ضد الآلهة الخصوم او الوحوش المخيفة • فنحـن نجـــد الحيوان الضحية مصورا بجانب الآله او تحت اقدامه • وهذا الموضوع مفضل عند الفنان ، ويحمل الآلة بيده السلاح الذي استعمله في الحرب ، أو انه يحمل آلة شخصية او خاصة • وقد تندمج صفات آلهية مختلفة في شخص الآله الفرد ، والذى تتجمع فيه عدة مظاهر مقدسة • وهكذا فأننا نجد ان عشتار ، وهي الآلهة التي تجعل الحب ينمو ، تتخذ الثعبان مرافقا لها • ولكي تؤكد عـلى شخصيتها كالهة على الارض ، اي عشتار على الارض وسيدة المعارك ، نراها تتخذ الاسد رفيقا لها وتحمل السلاح ، اما عشتار السموات وآلهـــة الحب فتتخذ لها سرباً من الحمام •

شعارات ورموز الالهة

لعل من الجميل ان نأتي ببعض الامثلة عن الشعارات المختلفة التي كان يراها البابلي مرافقة لآلهته ، او انها كانت تحملها في مواكبها او في اثناء دخول البابلي الى معابدها .

كانت شعارات (انوا) و (انليل) ، اللذين كانا من بين أقدم الآلهة ، تتمثل في التيجان التي على شكل بيضة اما ـ أيا ـ فقد صور رمزا بشكل غول خرافي له جسم سمكة ، ويشبه الجزء الامامي من جسمه مقدم جسم المعزة ، ويحمل هذا الغول صولجانا ينتهي برأس كبش .

اما الحيوان الذي يعود الى شمس فهو الاسد ، ويكون له احيانا جناحان ، اما شعاره فهو قرص الشمس وغالبا ما كان يصور الآله والسنة اللهب تندلع من كتفيه .

اما حيوان (سِن) فكان تنينا خرافيا وشعاره قرص القمر .

اما عشتار فبالاضافة الى الحيوان الذي سبق ان ذكرناه ، كان بوسعها، كسيدة للمعارك ، ان تحمل القوس والكنانة ، وكانت حزم الاسلحة تبرز من كتفيها .

واذ تحمل الهة الحرب السلاح فان الهة الخصوبة كانت تحمل الاغصان والمسحاة . ومن امثلة الهة الخصوبة مردوخ، ثم ابنه ، نابو ، اما شالا Shala

ربة سنبلة القمح ، فقد رمز لها بسنبلة الشعير ، وكان شعار (نسكو) هو المصباح الغريب الشكل ، والذي يشبه حدوة الفرس .

ولقد صور (ادد) واقفا فوق ثور ويحمل بيده الفأس والبرق ، ويشبه فأسه الرمح المثلث الرأس والاسنان المقوسة ، في حين نجد ان آشور كان

يصور احيانا بنصف طوله الاصلي وهو يطلق سهما ليصيب به صميم قرص الشمس المحاط بالاجنحة .

لقد تبسط امر التعرف على بعض الآلهة عن طريق خصائصهم المميزة لهم. فلقد كان (نابو) في مدينة (يورسيبا) القريبة من بابل ، يغتصب مكانة ابيه مردوخ بصورة تدريجية . ولقد سبق ان عرفنا هذا من قبل وهذا يشبه تماما ما فعله مردوخ في وقت مبكر عندما طرد اباه « ايـا » . وكآله للكتابةوالمصير كان « نبو » يحمل الواح الكتابة والقصبة الخاصة بها او اداة الكتابة ولكن، وتخليدا لذكرى الاله العظيم الذي هو والده ، اتخذ (نابو) نفس الشعار الذي كان لوالده وهو (التنين الخرافي) وذلك تماما كمـا فعـل مردوخ . لدىالحثيين المجاور ين نقش محفور لموكبمعبد (يازلي) قايا (Yazili Kayà) الكائن في العراء ، يعيد الى الاذهان الزواج المقدس الذي تم بين الآله والالهة اللذين يمثلان مبادىء التكاثر والنسل ، ويشترك الاله الاصغر ، وهو ابن الاله الاكبر ، في الموكب مرتديا ملابس الاله الاكبر ، اي والـده ، ويركب الابن والالهه الكبيرة ، اي والدته ، على نفس الحيوان وهـو نمـر ارقط . وهذا يذكرنا ، وبشكل مدهش ، بالرابطة بين الاثنين .

وعندما تنقل هذه الفكرة الى مرحلة ابعد ، فاننا نقول انه اذا ما اريـد تصوير مختلف آلهة المجمتع في مجال محدود فليس هناك حاجة الى اعـادة انتاج اشكالهم ما دامت شعاراتهم ورموزهم تغني عن ذلك .

الارقام ونجوم الالهة

استعمل سكان بلاد ما بين النهرين الطريقة الغريبة في الاشارة الى آلهتهم ، وذلك عن طريق الارقام • ولقد استطاعوا بامكانيات الحساب الموجودة في الارقام من ان يشملوا بهذه الطريقة حتى مجمع الالهة نفسه • وهكذا تمكنوا من ان يكتشفوا علاقات مختلفة بين الارقام• ولم يكن بالامكان ادراك هذه العلاقات لو نظر في امر الالهة بمعزل عن الارقام •

تظهر الطريقة التي وزعت بها الارقام انطواءً على نظامي العدد الستيني والعشري اللذين كانا شائعين في بلاد بين النهرين • كان العدد (٦٠) هو رقم الاله (آنو) • ويعتبر هذا العدد اساس النظام الستيني • وكان رقم ـ نينكرسو ـ هو (٥٠) ورقم ـ ايا ـ هو ـ ٤٠ ـ او ثلثا رقم ـ آنو ـ اي (شنبي ومعناها ثلثان) اما (سِن) فكان رقمه (٣٠) ، وهو عدد الايام في الشهر القمرى • وكان رقم عشتار هو (١٥) ، ورقم الجن الصالحين التابعين لها فهو (١٠ ، ٥) •

تبدو معظم الارقام وقد اختيرت اختيارا تعسفيا فما عدا الرقم الخاص بالاله (سن) فاننا لا نعرف سبب هذا الاختيار ، ولا نملك الا ان نقول بان هذه الارقام قد اختيرت لارتباطها بدرجات القربى ، والتي يعتقد بانها كانت موجودة بين الالهة • ونجد احيانا ان العلاقات العددية اياها تكون مسؤولة عن مثل هذه القربى • واذا ما فهمنا هذه النقطة فاننا نستطيع ان نقول بان ابعاد معبد ـ ايساگيلا ـ كانت تخفي معنى غامضا ، وليس من الضروري في الارقام نفسها ولكن في مضامينها التي تجعل القياسات منطوية على عالم كامل من المعاني الخفية ، والتي تحرك بدورها القوى السماوية التي لايدركها الا المتمرنون على هذا النوع من اللغة الرياضية التي تمجد الامور الخفية

المقدسة كما يقول المتضلعون في هذه القضايا ما بالنسبة لغير المتمرنين فانها تبقى مجرد مجموعة أبعـــاد •

لقد كان كل من الشمس والقمر الهين قائمين بذاتهما، في حين كان يتم تشخيص بقية الآلهه عن طريق ارتباطهم بالنجوم او الكواكب السيارة فمثلا ترتبط عشتار مع الزهرة ، مردوخ مع المشتري ، وايا مع الحـوت الجنوبي والدلو والشراع والسفينة وعندما دعت الحاجة الى ايجاد القاب احتفاليـــة لمردوخ في سلالة بابل الاولى عبرت ملحمة الخليفة في احد اجزاءها عن ذلك قائلة ان مردوخ ، وبعد خلق الارض ، قام بفرض النظام في السموات وقرر مسارات النجوم •

ان الفصـل الذي يحتـــوي هذا القســـم يكاد يضيـــع بكليتـــــه • لقد جعل مروخ منقذا للآلهة وفيه تنتهي المعرفة الفلكية • ثم يؤكد على تفوق مردوخ على بقية الآلهه • ولما كانت كل نجمه الهـاً وبطلا ، او فردا من الجـن فان مردوخ هو الذي وضع قوانين هذه النجوم التي يجب ان تتمسك بهـا • كان المشتري هو الاختيار المناسب بصورة خاصة لمردوخ ، ذلك لان مدار المشتري يختلف عن مدارات كل الكواكب السيارة الاخرى ، اذ انه يظهر اقل ما يمكن من الانحراف عن سمت الشمس ، كما انه من اكثرها ، استقراراً ، فهو يناسب الحكم •

تقع كل النجوم ضمن دنيا (آنو) • وعندما تكون سلطته في الحضيض فان هذه لنجوم تشكل ـ جيش آنو ـ • وهذا ليس بالشرف الرفيع اذ انها تمثل آنذاك كل جماعة الآلهة ، بما في ذلك الآلهة الذين تـم اخضاعهـــم في الصراع الذي دار بين مردوخ و (كاوس) •

تماثيل الالهة

لدينا العدد الكبير من صور الآلهة من عهد السلالة السرجونية ، وذلك اذا ما ادخلنا في حسابنا كل الاختام الاسطوانية التي يظهر عليها هؤلاء الآلهه . اما عدد التماثيل فانه صغير نسبيا مع ندرة التماثيل كبيرة الحجم . والتفسير المحتمل لذلك هو ما نقرأه في كتابات المؤلفين القدامى من ان التماثيل كانت تصنع من مواد ثمينة ، فاذا ما اخذنا هذه الحقيقة بنظر الاعتبار ، بالاضافة الى حجوم التماثيل، نجد ان قادة الحملات العسكرية الظافرة قد ابدوا اهتماما خاصا بهذه التماثيل . وبناءاً على ذلك فانهم قضوا بتدميرها . هناك تمثالان جديران بالذكر . يمثل الاول جذعا نموذجيا لانثى وهو من الصخر ، ويوجد عليه ما يشير الى الملك ـ آشور بعل كالا(*) ، فهو لذلك ، اكثر قدما من عهد السلالة السرجونية ، ولعله يمثل (عشتار الوركاء) ويكاد يكون التمثال بلا شكل ، بالاضافة الى كونه ثقيلا وهذا ما يظهر قلة احساس الاشوريين في تصوير الجسم الانساني .

اما التمثال الثاني (او بالاحرى الفرد الثاني من الزوج) فانه اقل صيانة ، وهو موجود في المتحف البريطاني ويعتقد انه يمثل الاله ـ نبو ـ . ولزيادة التأكيد على قابلية تحمله لعوادي الزمن فان النحات صنعه اقتداءا بالتمثال البرونزي الذي يمثل الملكه (نابير ـ اسو) ملكة (سوسه) والموجود الان في متحف اللوفر في باريس . وقد صنع هذا التمثال في زمن يسبق زمن التمثال الثاني بخمسة قرون وصانعوه هم صناع البرونز العيلاميون .

(*) اشور بعل كالا من ملوك بلاد اشور دام حكمه ثماني عشرة سنة في الفترة ١٠٧١ ــ ١٠٥٤ قبل الميلاد .

نعود الى الحديث عن التمثال الثاني فنقول ان النحات يلبس هذا التمثال ـ الصداري التي تناسبه جيدا مع التنورة الطويلة التي تشبه الجرس، والتي تتسع عند القدمين لتسمح بقدر من الاستقرار والصلابة للتركيب كلـــه • يقف الاله رافعا ذراعيه امامه وله لحية ويضع على رأسه تاجا ذا قرنين متعارضين. وتشير الكتابة الموجودة في مقدمة رداء الاله الى (سامو ـ دامات) وهـي نائبة الملك في زمن (ادد نيراري الثالث) (مصدر اسطورة سميراميس)(*) ويرجع تاريخ التمثال الى عام ٨٠٠ ق.م. فهو يشير الى عصر سابق لعصـر سرجون • تنتهي الكتابة بالفة الذكر بموعظة رزينة تقول :ـ (ايها الانسان القادم بعدنا ، لا تثق باي اله آخر سوى (نابو • وهذه صيغة غـير مألوفـــة لكنها معقولة ، وهي مجرد امتداد منطقي للكتابات التي تشير الى عدد الالهه وكان تدعو كلا منهم باسم ـ ملك ـ الآلهه ـ او ـ رب الاربـاب

لم تحظ النظريـــة التي تقـــول بـان التمثـال يمثل الالـه ـ نبـو ـ بالقبول الشامل ، اذ تعاكسها الحقيقة القائلة بان التمثال فرد من زوج ليـس الا • وهذا يوحي بان كلا من التمثالين كانا موضوعين في مدخل احد المحارب، كما كانت العادة جارية بالنسبة للالهة التي هي اقل شأنا (وجدت تماثيـــل مشابهة في أرسلان طاش وفي ساحة المعبد في خرسباد) •

وزيادة على ذلك فان لباس التمثال الموجود في المتحف البريطاني الان بسيط ، ولا تزينه الا القليل من المجوهرات ، وهذا ما يجعله موازيا للتماثيل التي كانت موجودة في (ارسلان طاش وخرسباد) كما يجعله متناقضـــا مع ما نعرفه عن تماثيل كبار الالهة • اما القول بان التاج غير مزين فنرد عليـــه قائلين بان وضع التمثال ووجود يديه في حالة ارتفاع مع ملامسة الخصر ، وكون الكفين مفتوحين وكأنهما تصفقان ، نقول ان كـل هـذا يشـــخصه بآلـه قليل الشأن ، أو بأحد الجـن وليس بأي من الالهـة الكبار • وتبـدو

(*) حور اسم سمراميس في الاصل من اسم سامر رامات. وكانت الاساطير وكتب المؤرخين القدمى تعتبر سمراميس الهة لاشور وليست نائبة للملك .

الحجه سليمة اذا ما طبقت على النحوت المحفورة ولكن عندما يتعلق الامر بالنحت تكون الاهداف الكبرى للنحات هي الثبات والقوة . لقد كان تحطيم اي تمثال لاي آله يعتبر مدعاة لحدوث كارثة ذلك لان هذا التحطيم لايجعل التمثال عديم الفائدة حسب ، بل انه يثير غضب الاله نفسه .

ان الحاجة المطلقة هي التي تفرض ارادتها . وختاما نقول انه من المحتمل ان تستحسن الحجج المقدمة سابقا ، ووجهة النظر القائلة بان من المحتمل ان يمثل التمثالان الهين صغيرين . ذلك لان الكتابة المدونة عليهما والتي تمتدح (نابو) لا تقول انها تمثله .

تتسم الكتابات غير المألوفة المدونة على التمثال المحفوظ في المتحف البريطاني ، والذي سبق ذكره ، مع جهود بعض الكهان الهادفة الى التقليل من عدم التوافق القائم بين الادعاء القائل انه ليس هناك الا ملك آلهة واحد او رب ارباب وبين العبادة المكرسة لعدد من الآلهة الاعضاء في مجمع الالهة.

لقد ذكرنا من قبل اعتقاد الكهان القائل بان عدد الالهة اصغر مما يظهر، وان سبب ذلك هي الطريقة التي تضاعفت بها الاسماء . فلقد كانوا غالبا ما يشددون على اهمية تماثيل مختلف الالهه ، ويزعمون مؤكدين على ان العديد من الالهه المنفصلين ظاهرا ، كانوا في الحقيقة يمثلون مظاهر مختلفة لنفس الاله .

ونستطيع ان نرى تطبيق هذه العملية في نصوص دينية معينه مثل :ـ

إرا هو ـ نيرگال ـ مدينة كوتا

مسلمتاي هو ـ نيرگال ـ مدينة بابل

لتخش هو نيرگال ـ مدينة كيش

ونقرأ بعد ذلك في مكان اخر :ـ

نيرگال هو مردوخ المعارك

زبابا هي مردوخ النحر

انليل هو مردوخ السيادة والشـورى

شمش هو مردوخ العـدل

وهكذا نستطيع ان نرى ان التماثيل تضمن ترتيب الالهة في جماعـات مختلفة والحقيقة ان هناك نصاً يتطرف فيساوي كل مجمع الآلهة مع (نينورتا)، ويجعل بقية الالهه مجرد اجزاء منه • يقول النص :ـ

انليـل وتنليـل هما عينـــاه

ســن بـؤبـؤ عينيـــه

الكائنات الالهيه السبعة اسـنانه

اذناه ـ ايـا ـ و دامكينا ـ

ثدياه تابو •

وغالبا ما يعبد نفس الاله في مختلف المدن تحت مظاهر واضحة التحديد ومتميزة ولذلك تقرأ :ـ

ادد من بيت كركارة هو اله المطر

ادد من معبد (ي ـ نامبه) هو اله الفيضان

ادد من حلب هو اله الريح ••

ان الانطباع الذي نحصل عليه من هذه النصوص وامثالها يظهر لنا وجود هيكل تجري فيه عملية صهر الالهه بصوورة تدريجية حتى يصبح الاعضـاء المختلفون مجرد مظاهر مختلفة لاله يضم الجميع •

تبدو الصلات والعلاقات بين الآلهه والبشر ، بانها كـانت علاقـات وروابط بين سادة وعبيد على الاغلب الاعم وهي تشبه العلاقات العائلية بين الاباء والابناء مع انعدام وجود أي تصور للعطف او الحب • وكانت هـــذه موجودة في عهد سلالة بابل الاولى • كما ان الاله كان سريع الغضب ، شديد العقاب • ويمكن التخفيف من غضب الالهه عن طريق الصلاة ، وفوق كـل شيء ، عن طريق النذور • كان الهدف الرئيس من حياة الانسان على الارض

هو عبادة الآلهه • وتعد قصص الخلق تعبيراً واضحا عن وجهة النظر هذه فهي تقول :ـ (لقد خلق مردوخ الانسان ليقيم المعابد التي تدخل السرور الى قلوب الآلهــه) •

ليس في ديانة بلاد بين النهرين اية علامة تشير اصلا وفي كل الاحوال، الى مفهوم لأله الحب او المــودة ، ولم يكن يوجد قبل عهــد ســلالة بابــل الاولى اي اثر لاية نظرة صوفية • ولكن معظم الترانيم الصوفية قد صيغت في تعابير تدل على التوبة والتضرع ، بدلا من الاعتراف بالجميل •

أما في مصر فانها تظهر تناقضا حادا • ذلك لان المصري في الامبراطورية الجديدة ، كان يتطلع فرحا الى المهام اليومية للحياة في العالم الاخر ، في حين نجد المواطن في بلاد بين النهرين لم يكن يتصور ما قد يتوقعه في العالــم الثاني ، ولم تكن عنده رغبة لهجر حياته ما لم يكــن وجوده قد أصــبح لا يحتمــل •

الانسان ــ ابن الالهة ــ

مما لا شك فيه ان الامبراطورية البابلية تشير الى العصور التاريخية في تاريخ الحضارة . واننا الان قادرون على القول ، وبكل ثقه ، باننا نستطيع ان نرى بدايات لمفهوم جديد وثوري . لقد كان الايمان متمركزا حتى الان حول هذا الاله او ذاك من الهة المجمع في حين ، وكما نعرف ، كان الملوك يتباهون مفاخرين بكونهم ابناء الآله ، ولكن هذا الايمان بدا يتغلغل الان في المجتمع، وبين كل مستوياته ، فصار كل انسان ابنا لالهه الذى يشفع له كذلك عند الآلهه الاخرين وهذا امتياز كان يقال عنه آنذاك بانه حق مقصور على الملوك وحدهم ، الملوك الذين يصنعون لانفسهم تماثيل تقف بالنيابة عنهم ، امام الاله العظيم الذي يتحكم في مصيرهم ، والذي يأخذ بايديهم الى هذا المكان، والذى يعيشون في ظل رعايته .

لقد كان اله الانسان الشخصي مستعدا دائما لان يأتي بمريده و ابنه الى حضرة العظيم حيث يشفع له هناك . وكان الاله الشخصي يتولى حراسة الانسان وحمايته من التأثيرات الشريرة ، وكذلك من العفاريت الموجودة في كل مكان ، او من الاشباح التي تبحث عن الضحايا . ولكن اذا لم يعد المؤمن يظل ابنا للاله ، بسبب الاثم ، فان هذا الاله سيشيح عن ابنه وسيتركه وحيداً، وسيدخل احد العفاريت المكان الذي اصبح خلوا . ذلك لان هذه العفاريت تتسكع دائماً باحثة من مثل هذه الفرص .

تعكس الاسماء الشخصية الظهور الطارىء لفكرة الاله حامي الانسان. وتجعل هذه الفكرة الانسان الذى كرس نفسه لالهه الشخصي يسرع الى أن ينفذ الاسماء التي كانت ترمز الى الحماية التي يوفرها احد الآلهه الكبار . وهو يفعل ذلك تفضيلا لآلهه الخاص به . انه قد يختار الهاً اخرا وذلك حسبما تقرره حاجته . كما انه قد يختار اسما مثل : (الهي ملاذي) او (إلهي اصنع

الي") او (الهي هو ابي) او (الانسان لآلهه) وزيادة على ذلك فان الالـــه استعاد في هذا العهد خصائص الرحمة والخير ، والتي لم تكن معروفة ، وهذا الاله هو الذي كان يطلب منه ، ان يمنح الانسان العمر المديد والغنى جزاء لايفاء الانسان بواجبه نحوه • كان خيره قادرا على أن يقدم ماكان يعتمد في نواله على مؤهلات العابد فقط وهذا يمثل تقصا مكن العابدين من مخاطبـة آلهتهم ، فيما بعد ، باعتبارهم آلهة الرحمة •

بدايات التصوف

لقد كان هذا هو العصر الذى شهد بداية الحماس الديني الذي استطاع بمفرده ان يمد الدين بالماء والخصوبة ليزيد من نمائه • لقد كان على المؤمن في الماضي ان يخشى الآله • وهذا جزء من واجبه • لكن معنى هذه العبارة قد اتسع حتى صار تمجيدا ساميا لا يدرك • وعندما قورنت العبادة بالخـوف من الآله ، صار من الممكن تحويل هذا الخوف الى غاية للحب • فنحن نجد في قصيدة (آلام الرجل الصالح) ان البطل يقضي حياته بالتأمـــل الذاتي والحسرات ، ثم يقول :ـ

(ومع ذلك فان سروري هو في الخوف من الآله أو الملك) ففي عصرنا الذى نتحدث عنه كان نبوخذنصر يحب الخوف من الاله من كل قلبه وروحه وايا كانت الشكوك التي قد يشعر بها القارىء حول التقدم الروحي الـذي تمثل في هذا الخوف ، سوف تتبدد اذا ما نظر هذا القارىء في الطمأنينـــه الضئيلة التي كان من الممكن وجودها في الديانات البدائية لهذا الماضي الغابر•

لنأخذ احد الامثلة عن هذا الحال من مصر فنقول انه عندما يمـوت (الفرعون) وهو نفسه ابن اله ، فانه يتحول الى (اوزريس) ويستطيع وحده ان يضمن بان رسائل احسانه هي التي يجب ان تشترك في هـــذه المكانـة الخاصة بالآلهه • لقد كانت النخبة المختارة التي تدفن على مقربة من الفرعون تضم النبلاء وكبار افراد الشعب • اما العوام فلم يكن لهم اي امل في الحصول على النعيم بعد الموت •

ان هذا يفسر لنا سبب اكتشاف توابيت حجرية صغيرة جدا لا يتجاوز طولها بضع بوصات وقد دفنت هناك من قبل الاتقياء املا في ان تأتي ببعض بركات الملك الميت لآبائهم الاموات • لقد بلغت هذه الحاجة الى الامل درجة انه عندما استقرت الامور ثانية بعد اول ثورة كبيرة في التأريخ المدون والتي

اوصلت الامبراطورية القديمة الى نهايتها ؛ ولو ان اوضاعها المادية لم تتغير ، في هذه المرحلة لم تكن الجماهير اقل رضا ، لانها قد اشبعت حاجتها الملحة التي كانت تشعر بها ، ونعني بها الحقوق الدينية والحرية الدينية لقد صار بامكان اي انسان ، منذ ذلك الوقت وما بعده ، ان يصبح « اوزريساً » بعد موته شريطة ان يكون لائقا لذلك معنويا .

القيمة الانسانية للالهة

اعطى الدين في بلاد بين النهرين ، وفي صورته القديمة جدا ، مفهوما فظا وساذجا عن الآلهة . وقد تبين هذا المفهوم في عبارات الانسان المعاصر لهذا الدين . وفي الوقت الذى تطور فيه الدين السومري القديم بكل تفاصيله يكون عهد عبادة الطبيعه قد انقضى . وقد تميز هذا العهد بقدرته الخلاقة الكامنة في آلهته الفانين الذين يموتون ويعودون الى الحياة حسب تتابع الفصول الاربعة وبعد انقضاء هذا العهد لم يعد الموت يحل بالآلهه. ولكن حتى وان كانالامر كذلك فان وجود هؤلاء الآلهه على الارض كان يتبع نفس نمط الحياة البشرية . كان (گلگامش) ملك (الوركاء) يخرج من قصره ومعه خدمه ومرافقوه فيمشي مخترقا المدينة ليقابل عشتار ، وهي خارجة من المعبد يرافقها موكب خاص بها يضم الكهان والكاهنات فيتقابل الاثنان على قدم المساواة . وعندما كانت عشتار تقع في حب (گلگامش) فانه ، وهو الفاني ، يوبخها كآلهة ، وكان يستعمل في توبيخها سلسلة فظة من عبارات القسم التي قد تتوقع تبادلها بين اثنين من الابطال الهومريين(*) . وحبا في الانتقام تشق عشتار طريقها الى سماء ـ آنو ـ وهناك تطلب من ابيها ان يخلق شيئا يستطيع ان يخلصها من (گلگامش) . وما هذا الصعود الى السماء وخلق الثور السماوي الذي لا مثيل لقوته ، الا احد مظاهر القصة التي تظهر الآلهة ذات قوى خارقة للطبيعة .

واثناء الحرب ، وبعد العودة الى (الوركاء) اقامت عشتار مع اتباعها على شرفات المعبد لكي تنفذ انتقامها حتى النهاية . ولكن گلگامش يبدد آمالها ، ويظهر منتصرا في حين يقوم رفيقه (انكيدو) بتقطيع اطراف الثور ، ثم يرمي

(*) يراد بذلك الابطال المذكورون في الياذة الشاعر اليوناني (هوميروس) .

بجزء منها في وجه عشتار مهدداً اياها بان يخنقها بقلادة يصنعهـا من امعـاء الثـور .

لدينا رأي يقول ان هذه الفقرة تمثل حشوا متأخرا يعبر عن رد الفعل ازاء الممارسات التي اشتملت عليها طقوس عبادة عشتار ، ومنهـا (البغـاء المقدس) ولكـن هذا امر مشكوك فيه . وسبب ذلك ان الفقرة ظلت جزءا من الملحمة في الوقت الذي كان فيه البغاء المقدس ما زال يمارس في بلاد بين النهرين ، وفي الوقت الذى كان فيه المؤرخ الاغريقي (هيرودوتس) يجوبها ..

هناك فقرات اخرى في ملحمة (الخلق) . ومنها القصة الطويلة التي تصف الطوفان . وتعزو هذه القصة كل نوع من الفشل الى الآلهة بالرغم من استعمال الكنى التي توحي بالعكس من ذلك. فالالهة تفضح بعضها البعض كزوجات السمك ، وعندما استطاع احد الرجـال الصالحين الهـروب من الطوفان ، وعرض تقديم الضحية للالهة سـال لعابهـا لذكرهـا فتجمعت كالذباب حول هذا الرجل صاحب الضحية ، لقد حاولت عشتار ان تمنـع (انليل) من المشاركة في الضحية فابدت عجبها قائلة :ـ

لينقلب هذا اليوم الى طين !! هل جئت بقومي لاملأ بهم البحر مثل صغار السـمك ؟

كان انليل هو الذي امر بالطوفان . ورغم انه كان من كبار الآلهه الا ان مصادر اخباره لا تزيد على ما عند الانسان العادي . فهو لم يكن يعرف بقصة هروب أحد من البشر ، وكيف تم ذلك . فهو يتساءل قائلا :ـ

من فعل ذلك ؟

ثم يقع شـكه عـلى (ايا) الذي كان بطبيعته محسنا الى البشر . ولقد كان هذا الشك في محله . ولكن تحذير (ايـا) جاء محرفا بعض التحريف ، لانه عندما اقترب من الكوخ الذي كان يقيم فيه الرجل الصـالح ، همس

بالرسالة التحذيرية من خلال الحائط المبني من الحصران والطين ، ونجد الاله العظيم (ايـا) رب (ابسو Apsu) موقع كل المعرفـــة ، محدداً وهو يرتجف كالطفل الذي اكتشف امره ثم يقول :ـ

(انا لم اقل شيئا بل القصب) . لم يكن (ايا) ليقدم نصيحة حسنة على الرغم من كل حكمته . ولكنه يحذر (أدابا) لكي يحرص على عدم قبول فتات الطعام ، لانه ان فعل ذلك فلسوف يموت . وكان (أدابا) تحت حماية (ايـا) ، وقد استدعي الى السماء لينال العقاب . والحقيقة ان الطعام الذي قدمه (آنو) الى (أدابا) كان طعام الحياة ، والذي بامكانه ان يضفي الخلود على الانسان . وهكذا فـان هذه الفقرة المقصودة هي التي اثقلت كاهـــل الانسانية بعبء الموت .

اننا نحتاج الى وقت طويل لكي نعدد خصائص الانسان البدائي ، والتي نستطيع ان نتبصرها في سلوك الآلهة الذين اصابهـم الذعـر الشـديد عندما هاجمهم (كاوس) فهربوا الى سماء (آنو) ، حيث انحنوا عـــلى الجدران وراحوا ينبحون كالكلاب . ان هذا هو مشهد ندائهم لمردوخ ، وعندمـــا استعادوا شجاعتهم ، التأموا في وليمة وسكروا .

لقد حفظت كل هذه العناصر والتي يتوقع المرء ان يجدها في العهـــد البدائي ، اما مجمع الآلهة فانه قلما اصابه التغيير ، وحتى في نهاية العهدين البابلي والاشوري . فقد بدأ زعماء الكهانة ، وبصورة تدريجية تم تكوين المفهوم الذي ينال احترام المتعبدين ، وذلك عن طريق اضفـاء العديد مـن المؤهلات المحترمة الى الآلهه القدامى ولكن لم يكن هناك تبدل اساسي عمـا كان مطبقا في الحقبة التاريخية البعيدة والتي نضجت فيها الافكار الاصلية.

السلطات الالهية ، المصير

يعتبر سلطان الآلهه غير المحدود على الانسان ، من اول واخطر انـــواع السلطات التي كان يعتقد انها بحوزة الآلهة ، وينضوي تحت هذا الســلطان الملك والفلاح على حد سواء • كانت هذه السلطات مصدر الملكية التي تظهر صورتها المادية في اوسمتها ، والتي كان يقال عنها ، كما نعرف ، بانها ترجـع الى السماء لتوضع امام عرس ـ آنو ـ في حالة خلو كرسي العرش لسبب من الاسباب ، اما عندما يبدأ عهد جديد فان الملكية تهبط من جديد راجعة من السماء •

وفي زمن السلالة السرجونية بدأ الآلهه يسترجعون صفاتهـــم بصورة تدريجية • وكما عرفنا فان هذه الصفات كانت غير موجودة عندما كان الالهه ما يزالون في حالتهم البدائية ، وكانوا آنذاك يوصفون بانهم كانوا عادلين ، وغير متميزين ، وخيرين ، وكارهين للشر الذي كان مكروها ايضا عند كبار الآلهــه •

وبالرغم من هذا فمن المحتمل ان يكون المواطن البابلي قـد شــعر بالاطمئنان على مكانته عندهم • ولما كان هذا المواطن يواجه يوميا انتصار الشر على الخير ، وعلى الايمان والصبر ، فانه كان يشعر بالحاجة الى (ديـن خلاص) لم تكن شروطه متوفرة في الدين الذي كان موجودا آنذاك في بلاد بين النهرين • ونتيجة لهذا صار لزاما على الانسان البابلي ان يعيش في خوف دائم من هاجس آلهي جائر •

اما عن السبب الذي دعا (انليل) الى ان يأمر بالطوفان فلم يقـدم اي تفسير لــه •

كان الآلهة يتمتعون بسلطان اكبر بكثير من هذا ، واعني به قدرتهـم

على تحديد المصائر • وكان الآلهة يجتمعون في مجلسهم الخاص لتحديد وتثبيت المصائر الخاصة بالسنة القادمة • فكان ـ نابو ـ هو الذي يكتب هذه المصائر على الواح من طين • اما موعد هذا الاجتماع فهو عيد مردوخ الكبير ، الذى كان يقام في بابل في بداية كل سنة ، وذلك بعد مسيرة الموكب الى المعبد الذي يعرف باسم (اكيتو Akitu) والذى يقع خارج المدينة. لقد كتب (نبو) الواح الطين ، لان كتابتها كانت من اختصاصه باعتباره كاتب الالهة ومنذ ذلك الوقت صار يحكم الانسان •

ولقد كانت سلطات الالهه موضع حسد وقد حدث ذات مرة وقبل الخليقة، ان سرقت هذه السلطات من قبل الطير (زو Zu) • وعندما اراد (كاوس) ان يهاجم احفاده من الآلهه ، كانت الواح المصير في معسكره ولم يكن بمقدور مردوخ ان ينتصر لو لم يخطب في اجتماع الالهة الذين عهدوا اليه بالثأر لهم • لقد قال مردوخ في خطابه :ـ

(اذا كنت ساثار لكم ، وأذبح (تيامات) ، وامنحكم الحياة ، فان عليكم ان تعظموا وتعلوا منزلتي • اجلسوا كأصدقاء في مكان الاجتماع ، ودعوني اقرر المصائر عن طريق فتح فمي ، وحتى ولو كان الامر كما تفعلون. لا تغيروا اي شيء افعله ولا تبطلوا او تفشلوا اثر ما اتفوه به) •

واجتمع الالهه على مأدبة ضمتهم جميعا ، فشربوا هناك وسكروا ، وغلبهم شعور بالسعادة ، فراحوا يصرخون صراخا عاليا ، كما اخذت قلوبهم تدق بشدة ، وحددوا المصائر لمردوخ الذي سيثأر لهم •

اننا نجد في نص اخر ملكا يوصف بانه احد الذين حدد لهم الالهه مصيرا جيدا • وهذا تعبير بديل للقول بان اسمه كان جيدا • ان الاسم الجيد والمصير الجيد يشكلان ضمانة لحياة ناجحة • ولكن عندما يترك السابق

غامضا فان اللاحق يكون ، او على الاقل ينبغي ان يكون ، محددا تحديدا اكثر دقـة .

لقد كان الاله ، عند قيامهم بعملية تثبيت سنوي لمصير بابل يرقبـون عن كثب حوادث الساعة ، كما كانوا يرقبون بصورة خاصة القضايا السياسية الجارية . ومع ذلك فان المصائر تمثل مزيدا من التأكيد على الوجود الالهي في كل مكان وعلى سيادة النظام المقرر . وكما قال (مردوخ) نفسه ، كانت مصائر بابل تلزم مجمع الآلهة بان يعتبر ما يتعهد به غير قابل للتغير ، وان ما تنطق به شفتاه ثابت لا يتبدل . ان ما يقوله يشكل في نفس الوقت ضمانة للنظام ازاء الفوضى ، وهو برهان على الوجود في كل مكان ، كما انه تحـديد للارادة الفردية الحرة ، بل انه قد يمثل حتى ضمانة تقدمها الكهانـــة ازاء هواجس الاوتوقراطية الملكية .

ليس هناك شيء غير محتمل حول الدور الذي يلعـبه المصير في مجتمع صحيح التنظيم كالمجتمع العراقي القديم الذي لم يترك فيه اي شيء للصدفة، ولم يفسح مجالاً لآمال غير واع لها .

ان علينا ان نفكر جيدا بمبدأ سلطان الاسم لكي ندرك مقدار ، قـوة التعزيز الذي ناله وجهة نظر العراقيين القدماء عن المصائر التي ما ان تثبت وينطق بها حتى تكتسب وجودها المتميز الخاص بها ، وتصبح واجبة التحقيق. ذلك لان نطقها وحتى مجرد التفكير فيها ، يجعل منها وشيكة التحقيق . لقد لعبت المصائر دورا يعتد به في توجيه الشؤن الدنيويه .

قد يتسبب الاثم الانساني احيانا في جزع الالهة فينفرون من الانسان. ولقد سبق ان بحثنا الاعتقاد الواسع الانتشار حول وجود الجن الاشرار،

والذين يبحثون عـن اي مكـان يستقرون فيـه ، حيث يتحينـون الفرص للانقضاض ٠ ان أحد التفاسير التي يمكن ان نعطيها عن العـدد المفـرط من المظاهر الخيرة المكتوبة على النصب الدينية ليس الرغبة في زيادة التأثير والنفوذ لهذه النصب ، بل الحماية أيضا بقصد عدم افساح المجال لدخول وتعشيش اي تأثير شرير في الاماكن الخالية ٠

الخطيئة والاعتراف

كانت الفكرة البابلية عن الخطيئه ، في نواحي معينة ، مألوفة في كل دين. ولكن في العديد من الحالات قد تتدرج الاختلافات الاساسية بـين الدين البابلي والدين الجديد. والمحقق في عصرنا الحاضر ان يشعر المرء بنوع من الحيرة والذهول . ان معرفتنا عن الموضوع لم تأت عن قوائم الخطيئات الشاملة بل من كتب الاعترافـات التي عدّدت فيهـا الخطايا . ويأخـذ الاعتراف اشكالا مختلفـة بين الشـعوب المختلفـة . فهو في الاقطار الكاثوليكية يتألف من قراءة الذنوب التي يعلم المذنب انه ارتكبها . ويرافق هذه القراءة تأكيد من المذنب نفسه على كراهيتها ثم اصرار بالتوبه الخالصة .

اما في مصر وحيث كان الاعتراف مطلوبا في الحساب الاعظم بعد الموت، فان المؤمن يسلم بدور مضاعف ، فيطلب من نفسه الا تغرقه بالذنوب امـام الاله . والواقع ان المصري كان يقدم اعترافه باستعمال صيغـة النفـي. فهو يقـــول :ـ

(لم افعل هذا او ذاك) .

(لم افعل شيئاً يكرهه الاله) .

(لم احاب اي انسان ضد سيده ولم اترك اي انسان جائعا . لم اقض على حياة .... لم ارتكب ، فاحشة في المكان المقدس لاله مدينتي قط . لم انقص كيل الحبوب قط . لم انقص قياس اي شيء اعطيته قط . لم اسـد مجرى الماء الجاري قط . لم أعق الاله من تسلم حقوقه) .

اما في بلاد بين النهرين فنجد الامر على العكس ، حيث كان الاعتراف امـراً شاقا . فلم يكن على المذنب ان يعترف بكل الخطايا التـي يعلم انـــه ارتكبها حسب بل ان عليه ان يتلو بعض الخطايا الاضافية التي يمكنه ان يفكر فيها خشية ان يكون بعضها من خطاياه الخاصة التي كـــان ارتكبهـا

عرضا او دون وعي . كان الاعتراف يتـم عـادة عن طريق وكالـة الكاهن بسبب عدم قدرة التائب على اعطاء نفسه الغفران .

ان العديد من الامثلة التي عندنا والتي تقدم بعض المظاهر الجديدة ، بالرغم من الكثير من التكرار ، تمكنا من ان نعيد تركيب قائمة تمثل قائمـة الخطايا بدرجة معينة . كان الكاهن يسأل التائب ، بعد ان يسمع اعترافه ، ان كان قد اساء الى اله او الى آلهه معينين ، او انه مارس الكذب ، او عانـد سيده ، او اثار العداوة بين العوائل والاصدقاء ، تسلم ما ليس من استحقاقه ، او زيّف علامات الحدود ، او استعمل الموازين غير الدقيقة او احتفظ بمـا وجب عطاؤه ، او سرق ودفع الاخـرين الى السـرقة ، او تسـلل الى بيوت الاخرين ، او جامع زوجة جاره ، او ظلم احداً ، او رفض اطلاق سراح اسير .

ان كل هذا يمثل قائمة مختارة للذنوب المقصـودة ، ونجـد فيهـا ان كاتبيها يكررون نفس الذنوب عـدة مرات في القـوائم الاخـرى التـي استنسخوها من النسخ الاصية .

وبالاضافة الى هذه الخطايا المقصودة والموجهه ضد الالـه والانسان ، فان هناك مجموعة اخرى يحتمل انها ارتكبت سهواً ، ولكن كان بامكانها ان تثير حنق الاله . ولذلك فاننا نجد الكاهن يسأل التائب ان كان رافـق أحد المسحورين ، او نام في سريره ، او جلس على مقعده ، او اكل من صحنه ، او شرب من قدحه . كما كان يسأله عما فعل اثناء مشيه في الشارع ، وهـل تخطى فوق الماء المقدس المسكوب ، او دأس ماءاً قذرا ، او نظر مرتابا الى الماء المستعمل لغسل الايدي، او لامس امرأة بيدين غير نظيفتين ، او نظر مرتابا الى امرأة ويداه غير مغسولتين او لامس احدا غير نظيف .

تشير كل هذه الاسئلة الى عدم الطهارة في تأدية الشعائر الدينية ، والتي يحتمل ان يكون التائب غير منتبه اليها ، وعلاوة على ذلك فان المسحور يصيب

الناس بالعدوى • ومن الواضح انه اذا كان كل عمل من اعمال هذا الانسان يعتبر خطيئة فان من النادر جدا ان يكون باستطاعة اي مواطن من بابـل ان يأمل في التهرب من الانتقام الالهي • وبنفس الطريقة نقول ان النهـر كـان آلهـاً • ولذلك فان البصق او التبول فيه خطيئة كبرى • ومن الطريف ان نقول هنا انهذه المجموعة منالخطايا هي بالنسبة لنا منمسائل الصحة العامة، وهي قضايا تنظر ايها بعبوس في ايامنا هذه •

علينا ان ندرك ان مجرد ادراج خطيئة خاصة من الخطايا موضوعة البحث فيقائمة منهذه الشاكلة ، كان هو المطلوب ذلك لان (مبدأ الاسم) يؤكد على ان النطق بالخطيئة يجعلها مكشوفة ، وبالتالي يقضي عليها • ومع ذلـــك فاننا نجد في عهد السلالة السرجونية ان الشعائر المستخدمة في عملية المصالحة بين التائب والاله ، تعبر عن الاسف على ارتكاب الخطايا ، وعن كرهها ، ولكن بكلمات قليلة • وبالرغم من كل عدم المرونة ، وعـدم الكمال الموجودين في الدين البدائي ، فان هناك درجة معينة من التقدم الذي يعكس بدوره تقدما فكريا ، ويكشف عن الاختلافات بين الصياغة الاولى لهذه الشعائـر ، وبين الشكل الذى استقرت عليه في العصر الذى تتناوله في هذا الكتاب •

الشــك

لقد قام عالم الاشوريات البريطاني المرحوم (س • لانكدون) بجمع ونشر العديد من النصوص التي تظهر ما كانت عليــه ردود فعــل الناس ازاء ظروف الحياة • وقد نشرت هذه النصوص تحت عنوان ـ الحكمة البابلية ـ• لقد سبق ان تعرفنا على الشك الذي كان يعذب روح انســان بابــل ، ازاء المصيبة التي لا يستحقها ، والواردة في القصيدة التــي كــانت تعرف باسم ـ الام الرجل الصالح ـ وأنه كان من الافضل ان تعطى هذه القصيدة عنوان (اريد ان امدح اله الحكمة) • وهذه العبارة هي فاتحة النص •

اننا نستطيع ان نكتشف اشارة التشاؤم ، او عدم المبالاة ، في المحاورة بين السيد وعبده ، والتي جاء فيها :ــ (اسمع ايها العبد ، اريد ان افعــل شيئاً) • اما العبد فيجيب قائلا :ــ

(فلم سيدي • افعله الان) •

ثم يمضي العبد ليؤكد الاسباب الممتازة لقرار سيده ، واذ ذاك يعلن السيد انه لايريد ان يفعل (الشيء) وبناء على ذلك يغير العبــد موقفــه ، ويجد بنفس الطريقة الاسباب المناسبة لذلك • وبعد سلسلة من الاحــداث المتعاقبة يرغب السيد في الذهاب الى القصر لكي يتناول طعام العشــاء ، ثم يتورط في ثورة ، ويرغب في ان يأخذ امرأة وفي كل مناسبة كان العبد يوافق على اختيار سيده ، وعلى تبديله لهذا الاختيار •

لدينا مجموعات من الامثال والتي ينحو بعضها منحى خلقيا • وهذه نماذج من تلك الامثال :

(لا تدوم الصداقة الا يوما واحدا اما الذرية فتدوم الى الابد • من هو اليوم حي يموت قبل غد) وهناك امثلة اخرى تهكمية مثل : هدية للملك تضمن نبوءه مبشره بالخير •

هل يقبض المستنقع ثمن قصبه ؟ وهل يقبض

الحقل ثمن محاصيله ؟ (معناه انك لن تحصل على ما تستحق)

واخيرا فهذه نصيحة عملية يمكن ان يقدمها الاب المعاصر الى ابنائه ٠

(لا تتزوج المرأة التي كان لها عشاق كثيرون لانها ستتخلى عنك اذا ما ساءت احوالك ، واذا ما تخاصمت معها فانها ستهزأ بك ٠ انها تأتي بالكارثة الى اي بيت تحل فيه وتحطم اي رجل يتزوجها) ٠

المعابد

لقد كان هناك أصلا عدد من الانواع المختلفة من اماكن العبادة . وبعد حلول الالف الاول قبل الميلاد . اصبحت الخطوط الفاصلة غير واضحة ، مما ادى الى نشوء شكل المعبد الذي كان شائعا في ذلك التاريخ .

تقع معابد آسيا الغربية في ثلاث مجموعات واسعة ، ويمكن ان نجد مثلا عن النوع الاول في معبد عشتار في آشور والذي يعود تاريخه الى العصر السومري .

يتألف هذا المعبد بكل بساطة من قاعة مستطيلة الشكل تضم احدى نهاياتها قاعدة كان يستقر عليها تمثال الآلـه .

اما النوع الثاني ، والذي هو سومري كما يتضح بكل جلاء ، فانه يتألف من باحة تكون اما خالية او محيطة بمعبد لا يختلف عن النوع الاول الا في وجود باب في وسط احد الجوانب القصيرة ، مع وجود الاله في الجانب الاخر في حين يقوم المذبح المقدس في العراء مقابل الباب ، ومن الممكن التعرف على المعابد البابلية من الالف الاول قبل الميلاد باعتبارها مشتقة من هذين المعبدين .

لنتفحص مبدأ غير مهم نسبيا ولكنه يعد نموذجا صحيحا للمعابد التي كشفت عنها التنقيبات في بابل .

عرف هذا المعبد باسم (ي ـ ماخ E - Mah (المعبد الرفيع) وكان مكرسا لعبادة (نين ـ ما) (السيدة الرفيعة) وهي احد مظاهر عشتار . كانت ابعاد هذا المعبد تتألف من ١٦٠×١١٠ أقدام اما الجدران فكانت تشبه جدران معظم الصروح الدينية . كما انها تشبه ما هو موجود في معظم ابنية بلاد بين النهرين من حيث اتخاذها اتجاها على محور جنوبي غربي شمالي شرقي .

وكان المدخل يقوم في احد الجوانب القصيرة، وهو بشكل، شأنه العديد من ابواب الابنية الاشورية، حجرة صغيرة تؤدي من جهة اليسار الى غرفة البواب الصغيرة ، وينفتح الباب على فناء واسع غير متناسق قليلا من جهة اليمين ، وبذلك لا يتوفر مجال للنظر المباشر من الشارع حتى النهاية القصوى من الحرم . ويؤدي الفناء الى غرفة الانتظار ، كما يحتوي على بئر ماء التطهير . وتؤدي غرفة الانتظار الى الحرم نفسه والذي يضم قاعدة تمثال الاله نفسه وهي مربعة الشكل .

وكانت توجد في أسفل الجانب الايسن من الفناء سلسلة من الغرف الطويلة الضيقة ، والتي كانت تستعمل لسكنى عدد معين من الكهان ، كما استعملت كمخازن لبعض المواد الخاصة بالشعائر الدينية . ووجدت نفس التنظيمات على الجانب الايسر بالاضافة الى قاعة طويلة قريبة جدا من الحائط وهي تمثل في الاصل ممرا يمتد خلف جدار الحرم الذي تستند عليه قاعدة التمثال . ويمكن ان نقول ان هذا الممر كان اما وسيلة لحماية الطريق المؤدي الى قدس الاقداس ، ذلك لان الجدران الطينية بحد ذاتها لا يمكن ان تكون عائقا هاما امام اللصوص ومن التسلل الى الداخل ، وبالتالي فان هؤلاء المعتدين لابد ان يمروا عبر ممر الحراسة . هذا من جهة ومن جهة اخرى فمن المحتمل انه كان وسيلة اتصال مع المقام الالهي وتمثال الآله . وهكذا يتمكن الكهان من الحصول على اجوبة الآله .

لقد كشفت الحملة التي نقبت في (ماري) الواقعة على نهر الفرات ، عن تمثال للآلهة عشتار ، وتوجد على صدرها مزهرية جوفاء تتصل بانبوب داخل التمثال وهذا . الاتصال يمكن من هو خارج الحرم أن يجعل الماء ينبثق من المزهرية اشارة الى الخصوبة والرضا الالهي . اما المنبع المقدس فلم يكن في المعبد على الاطلاق بل كان يقوم على مسافة ما أمام الباب .

معبد مردوخ في بابل

كان معبد مردوخ من اكبر المعابد البابلية • ويبلغ طوله حوالي (٤٧٠)قدما[٣٥] ، ولم يكتشف الا جزء منه • تشغل مجموعة الابنية كلها قطعة ارض مستطيلة الشكل تزيد مساحتها على الستين فدانا • يحد المعبد من الغرب نهر الفرات ، ومن الشرق طريق الموكب الذي يوجد باب عشتار في نهايته • وعلى الرغم من كثرة التنقيبات التي اجريت في الماضي ، الا ان البعثة الالمانية هي التي تمكنت بصورة جزئية ، من الكشف عنه • وحتى عملها هذا تطلب ازالة ما يقارب الاربعين الف ياردة مكعبة من الانقاض •

يمتد تاريخ المعبد الى سلالة بابل الاولى • وقد نهب من قبل الحيثيين عندما اغاروا على المدينة ونهبوا تمثال مردوخ وسربانيت ، ثم استعادهما مؤخرا الملك (الكيشي) (آغوم كاك) الذي اعاد تزيينهما بالاحجار الكريمة، فوضع على رأس الاله تاجا من الذهب واللازورد ، وزين ابواب المحراب باوراق الارز المنقوشة على الواح نحاسية تحمل صورا عديدة لحيوان التنين الخرافي واسماك ماعز البحر ، والكلب ، وكلها كانت شعارات لمردوخ وابيه (آيا) •

لقد عانى المعبد في تاريخه الكثير من اعمال الترميم الهادفة الى اصلاح الاضرار الناتجة من الحروب بين بابل واشور • فبعد ان ضمن ملكا آشور، اسرحدون وآشوربانيبال السلطة في البلاد ، حاولا ان يصلحا ما افسده سلفهما سنحاريب (٦٨٩ ق•م) • ولكن المعبد لم يستطع ان يستعيد مجده المنقطع النظير الا على يد السلالة البابلية •

ووفقا لما نقوله القصة العجيبة عن الجهود التي بذلها (اسرحدون) في

---

(٣٥) يبلغ طول كتدرائية القديس باول خمسمائة وعشرين قدما على اكثر تقدير .

اعادة بناء المعبد ، فان مردوخ املى على الكهان ، وهو في حدة غضبه على المدينة ، نص اللوح الذي يمنع فيه عملية اعادة البناء الا بعد انقضاء فترة سبعين عاما • وفي اللحظة التي كان فيها اسرحدون متحمساً للمباشرة بالعمل اعلن الكهان ان مردوخ امر بعكس ترتيب الارقام التي دون العشرة (وهذا يعني تغيير ترقيمها ، كالارقام العربية ، وذلك حسب النظام الذى تأخذه الارقام في الحالة الجديدة) وكان من نتيجة ذلك، ان تناقصت السبعين سنة حتى صارت احدى عشر سنة ، وبذلك صار اسرحدون طليقا لكي يباشر العمل •

لقد جاءت الاضرار التي لحقت بالمعبد من الثورة التي قامت بوجه (خشرخيش) عام ٤٧٩ ق•م• وهو من السلالة الاخمينية • لقد كانت هذه الاضرار من الشدة والجسامة بحيث اجبرت الاسكندر على ان يتخلى عن نواياه الرامية الى اعادة بناء الابنية على الرغم من رغبته الشديدة في أن يترك اثرا خاصا يبيّن فضله على بابل ، وذلك عن طريق جعلها العاصمة اكثر اهمية من بين عواصمه •

لقد كان عند الاسكندر عشرة الاف عامل تفرغوا للعمل مدة شهرين ومع ذلك فانهم لم يستطيعوا ان يزيلوا الا جزءا من الركام وانقاض الحجارة •

تعتبر القاعة الامامية الكبرى اول مظهر من مظاهر معبد (ايساگيلا) (اي معبد الرأس الشامخ) التي تدهش الناظر اليها الذي يقترب منها قادما من بوابة عشتار وقد كانت هذه القاعة تحتوي على برج المعبد ، وكانت بنايات المعبد الخارجية تقوم في احدى النهايات • وكان المعبد الرئيس يقوم في القاعة المجاورة لها ، وكانت هناك وسائل اتصال بين القاعتين •

امـا الفـراغ المفتوح الكائـن في مقدمـة المعبـد فتبلغ ابعـاده (١١٠×٥٠ ياردة) • في حين نجد ان ابعاد مثيله من الفراغات المكشوفة في معبدي (بعليت) و (زبابا) هي (١٠٥×٤٥ ياردة) •

اما الحرم الذي كان يعرف باسم (اي كور E - Kur) ومعنـاه (جبل المعبد) فقد بني على دكاك من الآجر الاسفلتي • وهناك نظرية تقول ان هذه الدكاك تمثل ذكرى موغلة في القدم ، عن تلول الاراضي التي يحتمل ان يكون السومريون قد سكنوها قبل ان يستقروا في بلاد بين النهرين • قد يكون هذا صحيحا الا ان هناك امراً آخرا ، هو فيضان دجلة والفرات• فبالرغم من عدم احتمال وصول المياه الناتجة عن الفيضانات الى المستوى الذي كانت عليه التماثيل الا ان شدة الرطوبة الناتجة من الفيضان الشتوي قد تؤدي الى وجود خطر يحيق بالبنايات الطينية الجافة والتي تمتص المـاء بيسـر •

ان كل معلوماتنا عن الزخرفة العراقية لمقـام (ي ـ كور) وغيره مـن الاماكن الاخرى الموجودة في معبد (ايساگيلا) ، والتي بنيت عـلى نفس المخطط الارضي الذي بنيت عليه اماكن العبادة البابلية ، انمـا جاءتنـا استنتاجا اما من الكتابات التي خلفها الملوك الذين كانوا يتعبدون هناك ، واما من الوصف الذي قدمه (هيرودوتس) الذي يقـول انـه رأى هنـاك تمثالا عظيما للاله ، وعرشا ومنصة ، ومنضدة هدايا ، وكلها من الذهب وهي تزن في مجموعها الثمانمائة طالين (أربع وعشرين طنا تقريبا)(*) •

ويبدو ان هذه الارقام قد بولغ فيها الى حد كبير • والحقيقة انه تم العثور على كميات مذهلة من الذهب في مقابر ـ اور ـ الملكية وتؤلف هذه الكميات هدايا من الصحون الذهبية والاثاث الخاص بالمقابر الملكية • ولكـن عـلى

(*) ترجم سليم طه التكريتي ما كتبه المؤرخ هيرودونس عن العراق في مقال خص به مجلة « المورد » العدد الثالث لسنة ١٩٧٦ •

الرغم من ان بعض القطع الصغيرة هي من الذهب الخالص الصلد ، فــان البقية كانت تتألف من الواح رقيقة من اعمال الذهب البارزة ، بــل وحتى من اوراق ذهبية مشكلة فوق اجسام خشــبية او برونزيــة مستخدمــة في الزخرفــة .

تحتوي قاعة المعبد في (خرسباد) سلسلة من الاعمـــدة الخشــبية غطي كل منها بصفائح برونزية تعطى العمود شكلا يشبه جـذع النخلـة ، ويغطى سطح البرونز المحفور بدوره بورقة رقيقة مناسبة من الذهب ، والتي تجعل العمود يبدو وكأنه عمود ذهبي ضخم . وعلى العموم فان النتائج التي اظهرتها التنقيبات حتى الان تثبت بان الذهب الاصم لا يزيد على كونه قطعا مصاغــة .

لدينا العديد من اوصاف الابنية والسقوف المغطاة بالـذهب والتـي تتألق في الشمس . وغالبا ما اظهرت التنقيبات التي اجريت في مثـل هـــذه الابنية قطعا من الفيسفاء ، او الطابوق المطلي بطلاء اصفر لمــاع . وهــذا العمل من الاختصاصات البابلية المعروفة . ومن المحتم ان يكون مثل هذا الطلاء لماعاً في شمس الشرق الساطعة .

وينطبق نفس الشيء على الاحجار الكريمة المزعومة لبلاد بين النهرين اذ لم تكن مثل هذه الاحجار التي ذكر وصفها ، قبل العصر الهيليني ، الا ما نسميه باشباه الاحجار الكريمة ، كاللازورد والعقيق واشباه ذلك . وعلاوة على ما تقدم فقد توفرت للسكان وصفات صنع الزجاج الملون . ومما لاشك فيه ان انتاج هذه الوصفات يبدو وكأنه من الاحجار الكريمة على الرغم من عدم وجود المعرفة الفنية آنذاك ، والتي تيسر عملية تمييز الفروق .

نستطيع ان نكون بعض التصورات عن زخرفة معبد (إيساگيلا) ، وذلك عن طريق نتائج التنقيبات . وبناءاً على ذلك فاننا نجد ان الزخرفــة الخارجية تعكس نمط التقاليد الشرقية التي لا تزال موجودة في جامــع

(أيا صوفيا) في اسطنبول مثلا ، حيث يكون القسم الاعظم من الزخرفة بسيطا • اما الزخرفة من الداخل فهي ليست كذلك • فما ان نمر من الابواب حتى نرى اشكال الاوراق النباتية المزخرفة باشرطة من البرونز المرصع والذهب، كما نجد نفس الزخرفة على الابواب التي عثر عليها في (بلاوات) و (سوسه) والمحفوظة الان في المتحف البريطاني ومتحف اللوفر •

يجد الزائر ان الجدران مغطاة بالواح من المرمر ، وتوجد فوق هذه الالواح رسوم ذات الوان زاهية وصافية ، وهي تشمل الازرق والاحمر والاسود • وتتباين هذه الالوان عن ارضيتها البيضاء • ويمكن رؤية نماذج مماثلة في معبد (ماري) وقصور تل برسيب وخرسباد • ومن المحتمل انه كانت توجد الواح وطنوف من الطابوق المزجج كما نجد في باب عشتار في بابل مثل ذلك ، هذا على الرغم من ان كل هذه كانت تشكل نوعا من الزخرفة التي تحتاج الى ضوء لماع لكي ترى باحسن صورة • ويبدو ان مثل هذه الزخرفة قد اقتصرت على السطوح الخارجية جيدة الاضاءة • فنحن نعرف ان احدى غرف الاستقبال الكبيرة في القصر الملكي في بابل ، قد زينت باشرطة عمودية من الطابوق المصقول اللماع وتنتهي الزخرفة من الاعلى ومن الاسفل بنخيلات كبيرة الحجم • لقد كانت ملابس تماثيل الالهة القائمة فوق قواعدها غنية بالتطريز المذهب ، في حين كانت الستائر ومظلات العرش والموائد واواني النذور تصنع من المعادن الثمينة أو أنها كانت تغلف بالذهب ، فلا عجب اذن اذا ما ذاعت شهرة المعبد شرقا وغربا •

الزقورات ابراج المعبد

كانت الزقورات التي قامت قرب المعبد تسمى (ايتامننكي) ويعني هذا الاسم (اساس معبد السماء والارض) وتستعمل حكمة تمِن Temen للتعبير عن حجر الاساس في البناية ، وهذه الكلمة هي التي استعار منها اليونانيون كلمة (تمنوس Temenos) لتدل على معنى (مركز مجموعة من المعابد) . ولما كانت الارض والسماء تعتمدان على بعضهما البعض فان هذا يعني ان زقورات بابل اصبحت حجر الزاوية لكل البناء . لقد وصفت زقورات المعبد الاخرى بانها صلة الوصل بين الارض والسماء . وانا اعتقد ان الزعم القائل بان اساس الزقورات في الارض وان رأسها يكاد يضيع بين السحب ، يخفي وراءه تصورا اكثر عمقا حول الامور غير المادية التي تربط بين عنصري الكون المنظمين .

لقد كانت الزقورات مظهرا نظاميا لكل معبد مهم . فهي تقوم منفصلة عن بقية البناء . وهي تشبه في هذا الحال برج الاجراس في الكنيسة الايطالية .

وقد اظهرت التنقيبات التي أجريت في بلاد بين النهرين نوعين مختلفين تماما من الزقورات ويسود احدهما في شمال البلاد ، ويتألف هذا النوع بغض النظر عن الاساس من عدد من الدكاك المستطيلة الشكل المتراكبة ، والمتناقصة الحجم . ويوجد طريق ينحدر تدريجيا وقد بني على الجدران الخارجية ، ويؤدي الى القمة التي يعلوها معبد صغير . وبصفة عامة كانت هناك سبع دكاك او طوابق . وكان كل طابق يحمل لونا يختلف عن لون الطابق الذي يليه من الاسفل او من اعلى . وجدير بالذكر ان في خرسباد زقورة لا تزال تنتصب مرتفعة حتى الطابق الرابع . ويبين الطابق المتعدد الالوان والمتناثر ركامه فوقها ، بان الوان الطوابق ، اعتبارا من الاسفل ،

كانت على التعاقب : بيضاء ، سوداء ، حمراء ، بيضاء ، برتقالية مائلة الى الحمرة ، فضية ، واخيرا ذهبية . وكان قياس كل جانب من القاعدة حوالي اربعين قدما . وكان ارتفاع كل طابق تسعة عشر قدما . وبذلك يبلغ مجموع الارتفاع ١٣٣ قدما .

يوجد نوع مختلف آخر من الزقورات في الجنوب ، وبخاصة في ـ اور ـ ويتخذ هذا النوع نموذجا لدراستنا هذه[٣٥] . تبدو البناية ، كما نعرفها ، بانها قد بنيت اصلا من قبل الملك (أور نمو) قبل عام (٢٠٠٠ ق.م) بقليل . وقد عانت هذه البناية العديد من عمليات الترميم ، واعادة البناء ، وبخاصة في عهد (نبونيدوس) آخر ملوك بابل . كانت هذه البناية تقوم في مركز « اور » مع العديد من المعابد الاخرى ، والتماثيل الدينية . ثم الحقت بعد ذلك بمعبد (سن) الذي كان على هيئة شكل رباعي (١٩٠×١٥٠ قدما) وتتجه زواياه الى الجهات الاربع الاصلية . كان يوجد على احد جوانب هذه البناية الطويلة سلم عمودي تقريبا تتجه زواياه القائمة نحو السياج الاعلى ، في حين يوجد سلّمان اخران يلتقيان في مكان واحد ، ويبتدى كل منهما من الطرف البعيد لنفس الجانب ، ويلتقي هذان السلّمان في قمة الطابق الاول .

لقد كان هذا البناء يرتفع الى علو خمسين قدما ، وكان محاطا ببنائين مربعي الشكل مشابهين له ، ولكنهما اصغر منه . وكان مجموع ارتفاع البناء سبعين قدما . وكانت جدران كل واجه من واجهات ارصفته تنحدر انحدرا خفيفا الى الداخل ، كما كانت مزخرفة بالواح بارزة للزينة ليس الا . وكل البناء مبني ثاللبن الذي قوّي بالطابوق والزفت .

---

(٣٥) لغرض الاطلاع على اعادة تركيب شكل زقورة اور ، انظر كتاب السرليوناردولي « تنقيبات اور » المجلد الخامس سنة ١٩٣٩ .

وفي الحقيقة ان زقورة (أور) لم تكن مؤلفة من سلسلة من الدكاك المربعة والمستقيمة الاضلاع تقريبا ، كالتي كانت في (خرسباد) • بل ان هذه الزقورة تتخذ شكل ثلاثة متوازيات السطوح بعضها فوق بعض وعلى القمة محراب صغير مرصوف سطحه بالطابوق الصقيل ذي اللون الازرق الغامق الجميل ، ويمتد تأريخها الى زمن اعادة بنائها من قبل (نبونيدوس)• وكان الطابق الاسفل هو الاسود ولون الذي يليه هو الاحمر •

يوحي الوصف الوارد في الادب القديم ، بان زقورة بابل كانت تشبه زقورة خرسباد • ووفقا لما يقوله هيرودوتس فأن مسافة كل اتجاه من عند القاعدة يؤلف (ستاداً واحداً)[٣٦] • وكان يوجد فوق هذه القاعدة سبع طوابق متراكبة ، في حين يلتف طريق على الجدار الخارجي صاعدا من طابق الى طابق • وجدير بالذكر انه اثناء زيارة هيرودوتس لبابل كانت الزقورة مدمرة تدميراً شديداً بناء على اوامر « اردشير » (٤٧٩ ق•م) ولذلك يعتبر وصفه من الدرجة الثانية •

لقد كشفت التنقيبات أن الطوابق السفلى تظهر عليها اعادة للبناء حسب خطة اور ، ولكن على قاعدة مربعة • وقد سجلت الابعاد على لوح يعرف باسم لوح (ايساگيلا) • ويشير هذا اللوح الى ان طول القاعدة كان اكثر من (٢٩٥ قدما) بقليل ، في حين تؤكد التنقيبات بانه كان (٣٠٠ قدما) • ووفقا لهذا اللوح فقد تساوى كل من الارتفاع والعرض والطول • ولكن هذا القول لا يشمل ابعاد الطوابق المنفردة السبعة ، والتي اعتبرها هيرودوتس ثمانية حين ادخل المنصة في حسابه • واذا ما صدقنا اللوح فيجب أن يكون مجموع الارتفاع « ٣٠٠ قدما » تقريبا ••

لقد بذل الكثير من الاثاريين محاولات عديدة لاعادة بناء الزقورة ،

---

(٣٦) اي حوالي مائتى يارد •

معتمدين على القياسات التي كشفت عنها التنقيبات ، وعلى معلومات اللوح • ووصف هيرودوتس •

ويعتقد (ي• اونگر)(*) ان الزقورة المعروفة باسم إتمنانـي • كانت تضم المظاهر العامة للانواع الشمالية والجنوبية • فالطابقان السفليان ينتميان الى الانواع الجنوبية ، في حين تنتمي الطوابق العليا الاربعة الى النوع الشمالي ، ويحاط الصرح كله بمحراب ، وكما قيل لهيرودوتس ، فأنه كان يضم سريرا جميلا ، وبجانبه منضدة من الذهب ، ولم يكن فيه اي تمثال ، وان الشخص الوحيد الذي كان ينام هناك هو امرأة اختيرت من قبل الاله نفسه ، واذا ما صحت هذه الرواية فأنها تعني انه كان هناك ما يشبه

الحرم الصغير الذي يكرس لزواج الاله المقدس • نحن نعرف ايضا انه كان هناك العديد من المقامات المقدسة في كل جانب من البناية وبمستوى الطابق الاول • ويجب أن تتذكر هذه الامور اثناء أي بحث من هذا النوع عن الزقورات •

لقد احيطت شهرة هذا البرج بهالة من التقديس في الاحاديث الانجيلية، لانه هو الاصل الذى نشأ عنه برج بابل وظل الامر كذلك حتى تحول البرج الى اكمة لا مظهر لها ، ودون ان يكون من اليسير رؤية طوابقها • وعندما جرت محاولة لاعتبار برج بابل مطابقاً في النوع لزقورة مدينة (بورسيبا) المجاورة ، والتي تبعد عشرة اميال عن بابل ، لم يفحص برج بورسيبا فحصا مناسبا ، وكان هذا البرج قد نجا من محاولة نسف مفزعة ارادت القيام بها بعثة (فريسنل) • عام ١٩٥٢ م(**) فبعد ان بدت بعض السطوح العليا

(*) اونكر Eunger من الاثاريين الالمان الذين نقبوا في بابل وغيرها قبل الحرب العالمية الاولى •

(**) فرسنل Fresnel (فولجانس) (١٧٩٥-١٨٥٥) دبلوماسي عمل قنصلا في بغداد واشرف على التنقيبات التي اجريت في بابل سنة ١٨٥٢ •

متلونة اتفق كل من (فريسنل) والكولونيل (رولينصون) على تفجير لغم يوفر لهما المال والوقت ، ويشطر البناء الى شطرين وبذلك ينكشف قلبه . ولحسن الحظ منعت بعض الشواغل (فريسنل) من هذه المحاولة .

ونعود الى القول بان برج بورسيبا اقيم على شرف الاله (نابو) بن مردوخ ، ويحتمل ان تكون المساحة التي يشغلها مختلفة كثيراً عن برج بابل وبالاضافة الى المعابد الكبيرة التي طبعت بابل بطابع العاصمة الدينية ، علينا ان لا تنسى الكثرة الكاثره من المعابد الصغيرة والمذابح التي كانت تبنى في الشوارع ، اما بامتداد عمارة معينة او عند مفترق الشارع ، فهي تشبه اضرحة السلاطين في اسطنبول . وجدير بنا ان نقتبس بعض ما جاء في الكتابات المدونة الخاصة بهذه المعابد .

يوجد في بابل كلها ثلاثة وخمسون معبدا لكبار الآلهة ، وخمسة وخمسون معبداً صغيرا مكرساً لمردوخ ، وثلاثمائة معبد صغير اخر لآلهة الارض ، وستمائة معبد صغير للآلهة السماء ومائة وثمانون مذبحا مقدسا للآلهة عشتار ، ومثل هذا العدد للالهين نيرگال و (ادد) ، واثنى عشر مذبحا مقدسا لمختلف الالهة . ولما كانت هذه الاعداد قلما تصدق فأن اللوح يؤكد وجودها بالفعل داخل المدينة .

الكهانة . الملك او الكاهن الاعلى :

كان الملك ، كما قد تتوقع ، على رأس الكهانة ، وهو ممثل الاله على الارض . وقد تضمنت الالقاب الملكية القاباً مثل (كاهن عشتار) و (ممون معابد ايساگيلا) و (أزيدو) . ولم تكن هذه الالقاب مجرد القاب فخرية . ذلك لان الملك كان ، وبصفته الشخصية ، يقدم النذور ، كما كان يبت في اجراء بعض الاحتفالات ، ولا شك انه كان يتلقى المشورة لاداء هذه المهام من الكهانة الاعتيادية ولكنه كان يتمتع بحرية العمل الذي

كان جزءاً من اعمال مكتبه الكهنوتي الرفيع . وهذه التقاليد ضاربة في القدم . ذلك لان الحسد كان يدفع بالملوك واحدا اثر واحد ، الى ادعاء الالقاب . وما دام الملك غير قادر على اداء كل المهام التي تقع على عاتق الكاهن الاعلى ، فانه يعين بديلا عنه ليمثله ، او يقوم مقامه في اداء هذه المهام . وغالبا ما يكون هذا البديل احد ابناء الملك نفسه ، او احد كبار مجلس الكهان . وبالرغم من ان هذا البديل يستمد سلطاته من (الانعام الالهي) والذي يتجلى في حسن الطالع ، الا ان الملك نفسه هو الذي يتولى أمر تعيينه ، وهو الذي يتولى تحليفه قسم الاخلاص . وسيرا على نفس المبدأ ، كان كل معبد تحت سلطة كاهن كبير .

لم يكن الملك يتولى تنصيب مثل هؤلاء الكهان حسب ، بل انه يتولى تعيين من يشغل منصباً اقل خطورة. لقد ادى نظام التعيين هذا الى نشوء المنافسات . وكان على الملك ان يختار من يريد من بين المتسابقين على المناصب. انظر مثلا هذه الرسالة . المرفوعة الى الملك من قبل احد وزرائه .

(فيما يخص خليفة كبير المعبد قلت لسيدي الملك ان المنصب يليق بابنه وبابن اخته . ان ابنه وابن اخته وابن (تابو بعليت) ، وهو بن عم مساعد رئيس الكهان ، سوف يمثلون امام الملك ، وسوف يعين سيدي من يجده منهم الانسب للمنصب) .

يأتي الكهان العاديون ، من ناحية الترتيب ، بعد كاهن الملك الاعلى وكبار اعضاء الكهانة الذين عهد اليهم الملك بالسلطات . لقد كان يطلق على الكهان العاديين اسم (سبانغو Sbangu.) (الكُهّان) ويشمل هذا الاسم الكهان الذين يديرون المعبد ، وكذلك الذين يشتغلون فيه كموظفين. يمكن حصر المظاهر العديدة لوظيفه الكاهن اساسا في نوعين . ويتمثل الاول في معرفة ارادة الآلهة ، وتفسيرها . اما الثاني فيتمثل في جعل المؤمن يعيش بسلام مع الاله اذا كان ذلك ضروريا .

العرافون والمنشدون

يتولى العرافّون انجاز أول هذه المهام ، اي معرفة ارادة الآلهه وتفسيرها، اما المهمة الثانية فيتولى المنشدون انجاز قسم منها اذ يقومون بتلطيف قلوب الآلهة باناشيدهم وموسيقاهم • اما السحرة فانهم ينجزون ما يتبقى من المهام ، ووظيفتهم هي أن يمتدحوا القرابين المقدسة المقدمة من قبل الكهان المتخصصين في استرضاء الآلهة ، وفي الحصول على بركتها ، والذين ينقذون المؤمن من سلطات العفاريت التي تضطهده • ولاجل تحقيق ذلك يؤدي هؤلاء الكهنة بعض الصلوات والشعائر الدينية •

لقد عَبدَ العرّافون (واسمهم بارو Baru) كل الآلهة الذين ينتمون الى مجمع الآلهة البابلي • ولكنهم يزعمون بانهم تحت رعاية آلهة التنبؤ بالغيب ، وانهم يمثلون تقاليد مرعية جدا ، وان الشعائر التي كانوا يمارسونها قد انحدرت اليهم ، كما كان يعتقد ، من (انميدورانكبي Enmeduranki) ملك (سيبار) قبل الطوفان ، والذي استمر حكمه ، كما تقول الجداول المختلفة من (واحد وعشرين الف سنة الى اثنين وسبعين الف سنة ٢١٠٠٠ـ٧٢٠٠٠) وما دام قد انعم على هذا الملك بمزايا الكمال البدني فان الدين يحلفونه يجب ان يكونوا مثله • والحقيقة ان النصوص تقول انه لن يستطيع احد ان يكون قيماً على مراسيم شمش وادد (وهما الها الكهانه) من كان ابوه غير طاهر ، وكان نفسه غير كامل الاطراف، او الملامح ، وغير سليم العينين او الاسنان ، او الاصابع او من كان يبدو عليه المرض ، او به دمامل •

لقد كان على العرّاف ، اي البارو ، الطموح ان يخضع لدراسة طويلة ، وان يمر في تجربة تدريبية ، بالاضافة الى وجوب حلاقة

شعره كله ، او ان يحلق أم رأسه على الاقل ، لكي يكون موهلا لعمله ، او كما تقول الصيغة الخاصة بذلك (لقد ادى الحلاق عمله اليدوى عليه) •

وما دام المرء لا يستطيع ان يعيش حياته اليوميـــة دون مساعـــدة العرافين ، وما دام من الممكن الاستعانة بخدماتهم عند اية اشارة لذلـك ، فقد خصص البعض منهم لاداء الواجبات المطلوبة في القصر ، او في المعبد المجاور لـه •

لقد كانت الرسائل التي كتبها هؤلاء العرافون تكرر القول باستمرار :ـ
(لقد جعلني الملك ابحث عن هذا او ذاك ••••) •

ولقد توجب على العرافين الملحقين بالقصر ان يكونوا في حالة استعداد لتفسير اي شيء يطلب منهم تفسيره • كما كان عليهم ان يؤدوا يمين الولاء باعتبارهم عن الموظفين •

فنحن نجد احد الموظفين يذكر الملك باليوم المحدد لاداء القسم الذي يتضمنه امر حضور الكتاب والعرافين والمعزمين والاطباء ومراقبي الطيـور وموظفي القصر ، لقد اعتبر هذا القسم شيئا عاديا ، او انه شبكة تحتوي من يؤدي القسم • اما المعنى الحرفي للصيغة التي تقال عند القسم فهي :ـ
(سوف يشق طريقه في وسط القسم)

اما الجماعة الاخرى فانها تتألف من المنشدين او (الكالوا Kalu وهم الذين يرتلون الصلوات وينشدونها مع المتعبدين وفي وقت واحـــد ، وترافـق الموسيقى المناسبة هذا الانشاد ، وتتألف هذه الموسيقى من القرع الايقاعي لطبول كبيرة تشبه الصناديق ، بالاضافة الى القيثارة وآله موسيقية اخرى تشبهها وقد تم العثور على نماذج من هذه الآلات سليمة في مقابـــر (اور الملكية) ، هذا بالاضافة الى ما وجد من اشكالها منحوتا على التماثيل• وتكاد تكون جميع القيثارات تحمل صورة ثور صغير ، او رأس ثور • ومن

المحتمل ان تكون انغامها عالية جدا ذلك لان صوتها كان يقارن غالبا بخوار الثورة. ولقد وصفت بعض انواع الصلوات بانها بحاجة الى مرافقة صوت الناي، ولقد رافقت اغاني المنشدين العدد الكبير من الاحتفالات الدينية ، بما في ذلك الطويلة جدا مثل الاحتفال الخاص باعادة بناء معبد متهدم .

لدينا جدول خاص بالترانيم ، وتمثل جميعها انواعا مختلفة من النواح. وقد ادخلت في الادوار الموسيقية والغنائية الخاصة بكل منشد . ويوجد بين هذه الترانيم سبعة وخمسون ترنيمة كانت تتطلب مرافقة الطبل الكبير ، ثم اربعون ترنيمة كانت تتطلب وجود الناي ، وسبعة واربعون تتطلب رفع الايدي بالدعاء عند قراءتها .

المعزمــون :

كان المنشدون اجمالا من المنشدين للتعاويذ . ذلك لان هدف وموضوع ترانيمهم ونواحهم ، هو التطهير والحماية . يعتبر (الاشيبو Ashipu) هو المساهم اكثر فعالية ونشاطاً في هذه المناسبات وتقابل حكمة (أشيبو في الاكدية كلمة مشمش Mashmash)والصيغة السامية للكلمة الاخيرة هي (مسماشو Masmashu) . وهناك اساس للظن باحتمال وجود شيء من الاختلافات بين هذه الكلمات . ولكننا لا نعرف سببا لهـا . كـــان واجب (الأشيبو) ينحصر في ان ينطق بالتعاويذ ، وهو يشبه العرّاف في استطاعته الادعاء بانه يمثل تقاليد عريقة جدا . وتقول احدى التعاويذ التي كان يستعملها.

(انا ، الاشيبو ، الذي خلق في أريدو ، نعم ، الأشيبو الذي ولد فـي اريدو في سوبارو Subaru) .

انهذا يدل على ان (اريدو) كانت تعتبر المدينة الاقدم بين المدن السومرية في حين كانت (سوبارو) أول اسم عرف عن (آشور) المتأخرة . وهكذا فان

الأشيبو يدعي ان اصوله تضرب في اعماق بدايات حضارة بلاد بين النهرين •

اننا نسمع بوجود نوع اخر من الكهانة ويعرف باسم (إربِي بيــتي Eribi biti) • ولهذا النوع حق دخول الحرم • ولن ننظر الى هؤلاء باعتبارهم طبقة منفصلة • وذلك لان الاسم يشير بكل بساطة الى ذلك النوع من الكهان الذين لهم ، كما يدل اسمهم ، حـق دخـول الحرم ، وكـانوا يعتبرون من بين الكهان الذين سبق ذكرهم •

صغار الكهان وموظفو المعبد

يقـوم موظفو المعبـد باعـداد رجال المؤخرة ، بمـا في ذلـك البوابون والحراس والموظفون الذين يؤدون مهام تقديم القربان وكانوا يعرفون باسم (حاملي السكاكين) ، ثم حاملو العرش • ومما لاشك فيه ان واجبهم هو ان يحملو على اكتافهم النقالات التي يحمل عليها الآلهة في المواكب • ويبدو ان عددهم كبير ، وهذا ما يشير اليه تجمع العدد الكبير من تماثيل الالهة في احد الاحتفـالات •

لقد كانت تجري في المعبد مجموعة متنوعة من الفعاليات ومن بينهـا فعاليات صانعي الشراب ، وصانعي الحلويات والكعك الذين يصنعون الكعك المقدس الضروري في بعض الاحتفالات • لقد كانت قاعة المعبـد الاماميـة المكرسة لعشتار في الفترة المتأخرة تعج باسراب الحمام الذي كان يمثل طيور الألهة الشخصية وكانت هذه الطيور تعشعش في قمة المعبد ، اما العناية بهـا فكانت تعتبر من الامور الدينية وكذلك اطعامها • وكان المتعبدون هم الذين يقومون بذلك ، فيقدمون لها الكعك المصنوع في المعبد خصيصا لهذا الغرض•

السرقات والشغب في حرمات المعبد

كان بين موظفي المعبد رجال يقومون باعمال الحراسة وكـان واجب هؤلاء هو منع ، او على الاقل اخماد الشغب ومنع السرقات التي كانت كثيرة الشيوع ، وذلك بسبب وجود دواعي الاغراء القوية المتمثلة في ملابس الآلهة وحليها والكنوز المتراكمة التي تشكل لوازم خاصة بالشعائر الدينية .

ومن امثلة التقارير التي كانت ترفع عن السرقـات ، تقـرير يقـول :ـ المنضدة الذهبية التي فقدت من معبد (آشور) شوهدت في حوزة النحات س .... نوصي بان يتخذ الملك الخطوات لاستدعائه واستجوابه .

والذى لا شك فيه هو ان الملك سيقول :ـ

لماذا لم يرفع احد تقريرا إليّ بهذا الشأن ؟ لقد قلع الكاهن التابـع لـ (شمس) السماء الذهبية من (ايساكيلا) وذلك عندما غادر بابل .

ثم يمضي التقرير ليقول :ـ

لقد لَفت قائد خرسباد نفسه الانظار اليه بتعمده فتح الظروف المختومة. انه الآن يفتح غرفة المخزن التي تعود لأله الملك ، وحالما جـاء قائـد وحاكم نينوى واربيل بالفضة الى المعبد قام باخذها منهما) .

لقد كانت الاحتياطات اللازمة لحفظ المواد الثمينة تزاد باستمرار يقول احـد الصاغة :ـ

(لقد صنعت تاج آنو) ... لقد تسلمت اثنا عشر مينـاً من الذهب كهدية لبعل ، واستعملته في صنع المجوهرات للالهه (سربانيت) . لقد اودع كل شيء في خزينة معبد آشور ولن يستطيع احد ان يفتح الخزينة الا بحضور الكاهن س ... حبذا لو تفضل الملك وارسل شخصا يخوله فتح الخزينة لكي اتمكن من اتمام العمل وارساله الى الملك) .

قد تقع احيانا محاولات إغتيال في المعبد كما نرى في التقرير التالي :ـ

(عند باب ـ اي ـ أنّا) الكبير أستل (س بن ي) خنجره معتزماً طعن (ز) الذي عينه الملك رئيسا لموظفي (إي ـ أنّا) وعندما أحضر (س) امام المحكمة قررت حجز الخنجر ، كُتب في ـ الوركاء ـ لليوم الحادي والعشرين من شهر كسليف من السنة السادسة عشرة لحكم (نابونيدوس ملك بابل) •

الصلوات :

كان الوضع المتخذ اثناء الصلاة يتمثل في رفع اليدين نحو الاله مع القراءة العلنية بصورة خاصة ، وقد أشتملت الصلوات على عدد كبير من الترانيم والادعية والتي يشارك فيها الجميع ويحدث توقف بين الحين والحين، واثناء هذا التوقف ينطق الجميع بنوع من التفجع او النواح العام • ولم تكن المواكب تقام داخل المعبد حسب بل حتى في ارجاء المدينة كذلك • كما كان بين المشاركين العديد من الكهان وتماثيل الآلهة ، والممثلون الرسميون ، ويصادف احيانا وجود الملك والمتعبدين •

يعتبر تقديم الضحية اهم مظاهر العبادة • وكان الجدي هو مادة الضحية بصورة عامة • وفي مثل هذه الحالة يحرق قسم من الحيوان ، في حين يأخذ الكهان الباقي • وقد يأخذ تقديم الضحية شكل سكب الحليب والخمر والعسل وتحتاج مهام شعائر التضحية بالحيوانات والتي تتراوح بين الطيور والثيران ، الى جيش لجب من صغار الموظفين كما تتطلب الصلاة الاداء الحرفي للفروض التقليدية ، وان اي فشل في ذلك سوف يفسد دلالة الاحتفالات والتي كان اهمها تلك الاحتفالات التي يرعاها الملك ممثلا في شخص كبير الكهان • لقد كان الاحتفال الديني مرافقا لكل عمل كبناء المعبد مثلا • كما ان الركن الاساسي في كل صلاة هو التطهر بصورة تامة ، ذلك لان البابليين

كانوا يعتقدون ان عدم الطهارة امر يثير الرعب لانه يفسح المجال لدخـول العفاريت •

لقد كانت احتفالات الاستطاف وتقديم القضحية في سبيل الاسترضاء ، مهمة ايضا لغرض مكافحة الآثار السيئة التي خلفتها أيام أو اشهر معينـة ، والتي قد تشمل فرض الحظر حتى على اكثر الاعمال شيوعا في الحياة اليومية•

الاعياد الدينية

كان لكل اله اعياده الدينية المعينة • وكان اهمها عيد رأس السنة الجديدة • يحل هذا العيد في الربيع في شهر نيسان • وبمرور الوقت اكتسب صفة ثنائية • وقد نشأ هذا العيد اصلا كعيد من اعياد الطبيعة وهو يتميز بنوعين من المظاهر فيعبر المظهر الاول عن حزن الطبيعة على موت كل الاشياء النامية ويعبر المظهر الثاني عن فرحة الطبيعة بعودة الحياة الى هذه الاشياء • واضيف الى هذا العيد تمجيد مردوخ فيحتفل بالمآثر التي دفعته الى مقامه الجليل بين الالهة • ويستمر عيد السنة الجديدة في بابل اثني عشر يوما • وفي معبد (ايساگيلا) يستقبل مردوخ آلهة المدن الاخرى في شخص تماثيلهم واول من يقدم له الولاء ابنه (نابو) الذي كان يعبد في مدينة (بورسيبا) المجاورة •

ان من الصعب التأكد من الدلالات المختلفة للعيد ولكنه كان يضم احتفالا بعودة مردوخ الى الحياة ، فيتحول الحزن الى فرح ، ثم يسير مجموع الالهة برفقة الموكب الكبير الى المعبد خارج المدينة ، والذي يعرف باسم (اكيتو) وهو الاسم الذي يطلق على المعبد ايضا وفي اثناء هذه الفترة يمثل نوع خاص من المسرحيات التي تصور حوادث ملحمة (كلكامش) ، ومنها نداء الآلهه الى مردوخ لكي يكون بطلهم في مقاومة (تيامات) أو (كاوس) كما تصور النصر الذي احرزه وتنصيبه رئيسا لمجمع الالهة واداء اهم الواجبات الرئيسة ، وبخاصة تثبيت مصائد مدينة بابل • وتشمل مراحل العيد اداء بعض العبادات الطبيعية والتي تتألف من تنفيذ عملية الزواج المقدس التي تتم في المعبد لزوجين من الالهة مختلفين اما بتمثال آلهين ، او بكاهن كبير وكاهنة كبيرة • وهنا يختتم العيد ثم تعاد التماثيل الى معابدها القريبة والبعيدة • لقد كان لكل مدينة كبيرة طريقتها الخاصة بها للقيام بمثل هذه الاحتفالات • وكان اي خطأ او تقصير في تنفيذ مراسيم الاحتفالات يعني نذيرا بكارثة •

الكهانة ومبرراتها

تعتبر الكهانة ، والسحر والطب ، الميادين الثلاثة المتداخلة والتي تقوم مقام نقاط التماس العميقة جدا بين الحياة والمبادى الدينية عند سكان بلاد بين النهرين . يستطيع العالم الحديث بمساعدة العلم ان يتنبأ بالكثير من الظواهر الطبيعية ، كحالة البحر ، او سير الوباء ، وبالتالي فانه سرعان ما يعرف ماذا حدث في اي مكان عن المعمورة .

لم يكن البابليون ، بالطبع على هذه الشاكلة ، لانهم افتقدوا مثل هذه المزايا والمنافع . ولذلك راحوا يبحثون عند الآلهه عن المعرفة لكي تنقذهم من كبرى الحوادث وصغارها على حد سواء . لقد اعتقدوا بان الآلهة يكشفون عن ارادتهم واهدافهم في المستقبل ، بالف دلالة يمكن ان تفسر تفسيرا جيدا ومناسبا ، بفضل كشفها اسرار التكهن بالغيب لانميدورانكي وهو واحد من الملوك الاسطوريين قبل الطوفان . ولقد ارتفعت قيمة هذا الكشف الاصلي عن الغيب بما رافقه ما كان يتم الحصول عليه يوميا ، فصار بمستوى العلم وبذلك امكنه ان ينال القبول على اساس انه مصدر للمعلومات الرسمية .

كان الملك يستشير كهنة القصر باستمرار قبل ان يتخذ اي قرار خطير . وكان البابلي العادي يفعل نفس الشي لكي يعرف شيئا عن الحوادث التي تقع في حياته اليومية . كان التأكد من ارادة الالهه امرأ ضروريا دائما في بلاد بين النهرين وقبل القيام باي عمل .

الهة التكهن بالغيب ، الكهان

كان هناك الهان يعتبران الهي التكهن بالغيب وهذان الالهان هما (شمس) و (أدد) فاما الاول اي شمش ، فانه لم يكن يرى كل شيء حسب ، بل كان يعرف المستقبل ايضا • وكانت هذه احدى صفات (ادد) كذلـك ، والذي لم يكن ينتمي الى مجمع الالهة العراقي القديم ، ولكنه كان يعتبر ، بلا شك مالكا لنفس الخصائص في بلاد الغرب التي جاء منها لقد كان هو اله الطقس وقد لعب دوراً بارزا في السحر البابلي •

ولما كان التكهن بالغيب إلهيا أصلا ، فمن الطبيعي ان يمارسه الكهان ، اما التطير فقد كان من اختصاص من عرفوا باسم (بارو Baru,) ومعنى هذه الكلمة هو الرجل الذي كان يرى او يفتش ، والذي يواصل عمل تقاليـــد (إنميدورانكي) ولذلك يجب ان يكون كسابقـه كامـل الخلقـة ، ويتطلب تدريبه فترة طويلة من الدراسـة ينقطـع بعدهـا الى عمله • فهو يبقي رأسه حليقـا دائما ويصبح عضوا في مجلس الكهان الملحق بالمعبد •

يجد التكهن له مجالا في كل مادة ذلك لان كل شيء يمكن ان يكـون نذير خير او شر وكانت هناك قواعد محددة تحديدا دقيقا ووثيقا لتنظيم الطرق المختلفة المستعملة في تفسير الفأل ، كما ان العراف لايمكن ان يكون في حيرة من امره ، وذلك بفضل المجموعة الكبيرة من الالواح التي غالبـــا ما تستنسخ وتضاف الى المجموعة السابقة المتراكمة عبر القرون • وبالاضافة الى ذلك كان العراف يحتفظ بسجل خاص لمظاهر مألوفة كان قد واجههـــا اثناء تقدم الضحايا ويحتوي هذا السجل عـلى الكثير من الحلـول التي اذا ما درست في الوقت المناسب فانها تمكن من التعرف على اية علامة جديدة •

لقد لعبت قراءة الطالع دوراً بارزاً فيما كانت تواجهه عبقرية الكاتب من طلبات غالبا ما كانت هامة • فاذا ما لوحظ مثلا وجود الطائر عن يمين السائل،

فان هذا يعني الشر للبلد المعادي . واذا ما كان الطائر على اليسار فأن الاية تنعكس . وهكذا يمكن ان نستسنج من هذه المظاهر اربعة انواع من الطالع هي الخير ، والشر ، والنصر ، والهزيمة ؛ وقصارى القول كان الكاتب يتفحص كل ما يفهمه عن اسباب التغيير الذي يطرأ على ما يواجهه من بشائر ونذر وذلك لكي يستخلص انواعا جديدة مختلفة من البشائر والنذر ، ولكن يشترط ان يكون مستواها منسجما مع الظاهرة الاصلية . وجدير بالذكر ان التورية التي ذكرنا اهميتها سابقا ، تلعب دورها في هذه العملية . فاذا ما رأى الباحث طيراً فان تفسير ذلك يكون بتكرار كلمة يتم التلفظ بها مثل صيغة فعل له معنى (أن يَنْقَذَ او أن يُنْقذَ) وتتوقف شروط الجواب على الصيغة الاصلية للسؤال .

اعتقد سكان بابل بان العرّافين يأخذون تفسير اتهم عن طريق الوحي ، ولذلك فانهم ابعد من ان يكونوا موضع شك عند احد . بل ان هناك المزيد من الادلة التي تدعم قابلية تصديقهم . وكان الناس يذكرون جيدا الطوالع التي ساعدت بعض الملوك الاقدمين في التغلب على ازمات ايامهم . فاذا ما كرر ذكر احد هذه الطوالع سارع الناس الى اقتباسه باطمئنان .

انواع مختلفة من التكهن ـ الاحلام

يعتبر اعطاء الجواب الالهي من ابسط انواع التكهن الموجودة في النظام المقارن للتكهن ، والذي نعرف بواسطته اهمية كل نوع . اما من ينطق بهذا الجواب فهوالاله نفسه،أو واحدمن يقومون على عبادته كالكاهنة مثلاوالتي تتمتع بسجايا التنبؤ . واذا ما كان الجواب الالهي غامضا فان العراف يتولى تفسيره . وغالبا ما كانت الاحلام اكثر حاجة الى التفسير . كانت الاحــلام في كثير من الاحيان الواسطة التي عن طريقها تنقل التحذيرات وقـد جمعت الكثير من هذه الاحلام . وجدير بنا ان نتذكر ان المواطن البابلي كان يعتبر الحلم مساويا للحقيقة ، وبناءاً على ذلك كانت رؤية الأله في الحلم تعنى نفس رؤيته في الحياة الحقيقية ، اذ ليس من المهم ان يكون الانسان نائما او ماشيا، ومن جهة اخرى فانه لم تكن ثمة حدود لتنوع المادة الموضوعية للحلم ، او لاستحالتها بالنسبة للانسان ؛ فاذا ما رأى الباحث الحديث اعمالا مستحيلة تنسب الى كائنات انسانية فان عليه ان يسلم جدلا بان السبب هو تفاسـير الاحلام .

على من يدرس مجموعة الطوالع التي جاءت بها الاحلام ألا يدهش اذا ما وجد تكرارا لها في النصوص الاغريقية أو اللاتينية ، بل وحتى في كتب عصرنا الحاضر التي تستهدف تفسير الاحلام . ذلك لان هـذا النـوع من التكهن قد استطاع ان يعيش عبر العصور دون ان يتبدل تبدلا فعليا .

التنبؤ عن طريق الكبد Hepatoscopy.

لقد كان هذا احد انواع التنبؤ المهمة . ولكن المصادر اللازمة للقيام به جعلته مقصورا على الملك وكبار الموظفين ليس الا . كان البابليون يعتقدون انه حينما يضحى بجدي او نعجة فان الاله يكشف عن ارادته بالتغييرات التي تحدث في شكل الاجزاء المختلفة لكبد الضحية . وقد انبثقت طريقة تفسيرهم هذه من تقاليد قديمة احتوتها مجاميع متعددة نملكها نحن رغم اننا نجهل معرفة الاجزاء والتغييرات المشار اليها .

لقد طبقت هذه الطريقة من التنبؤ على نطاق واسع من قبل الحيثيين و (الاتروسكانيين)(*) . فبعد ذبح الحيوان وفتح بطنه يقوم مقدم الضحية باخذ استنتاجات تمهيدية ، وبعد ذلك يخرج الكبد ويعرضه لفحص دقيق ؛ ولكي يتمكن العرّافون من ممارسة هذه الصنعة فانهم كانوا يستعملون نماذج من الطين للكبد . وتصور هذه النماذج انواع التغيرات والتكوينات الشاذة .

التنجيم :

كان هناك الكثيرون من المشتغلين بالتنجيم . ولم يكن هذا التنجيم مثل التنجيم الذي ألفه وعرفه الاغريق وعالم العصور الوسطى ، وكما هو ممارس اليوم . لقد احتاج المنجمون في سبيل معرفته الطالع عند الولادة ، الى نوعين من المعرفة ويتمثل الاول في دائرة البروج ، في حين يتمثل الثاني في استقبال الاعتدالين الربيعي والخريفي . ولم يكن النوع الاول من المعرفة معروفا في بلاد بين النهرين قبل نهاية العصر الموغل في القدم ، اما الثاني فلم

(*) كان الاتروسكانيون يسكنون شمال نهر التيبر في ايطاليا واصلهم غير معروف بالضبط ولكن يظن انهم من سكان بحر ايجه وقد هاجموا اللاتينيين واحتلوا روما في القرن الثامن ق . م .

يعرف الا في نهاية تأريخه (الذى ارتبط بالكون البابلي) • لقد اتخذ التنجيم البابلي من الانواء الجوية قاعدة له ، ذلك لانه كان يقوم على أساس مراقبة الرياح ، والوان النجوم والكواكب السيارة ، والخسوف والكسوف • اما النصيحة التي كان يقدمها فانه من الممكن تفسيرها بعدة وجوه لانها لم تكن تشير الى مسائل السياسية ذات المستوى العالي بل الى الحياة اليومية للانسان العادي كالزراعة • لقد كان التنجيم في الحقيقة معادلا من قريب او بعيد ، للتنبؤات الجوية الحديثة •

معرفة الطالع عن طريق الولادات واللقاءات العرضية

كان يوجد نوع آخر من معرفة الطالع الذي يستحصل من ولادة الكائن البشري والحيواني ، او من الظروف الشاذة التي تحيط بهذه الولادة . وقد اعتبرت مثل هذه الظروف مناقضة للطبيعة كما انها اعطيت (علامة) تدل على كائن رهيب او (غول) . وكان تفسير مثل هذه العلامات شائعا عند عامة السكان .

لقد كان هناك العديد من أنواع معرفة الطالع . وقد دُعيت هذه الانواع باسم (التكهن التابع) وقد سمي بهذا الاسم لانه يعتمد على دراسة ومراقبة طيران الطيور . وكانت مثل هذه الطريقة متبعة عند الحيثيين والاتروسكانيين. كما اعتمد هذا التكهن على ملاحظة الاشكال التي يكونها الزيت المنثور فوق الماء. كما انه كان يعتمد على تحليل كل مظهر من مظاهر البيئة البشرية. ولدينا الواح عديدة فيها نصوص عن معرفة الطالع الذي اريد الكشف عنه بطرائق عديدة وكثيرة مثل معرفة ما يمثله الماء المسكوب على الطريق ، او مصادفة حيوان ، او نبات معين . ويبدأ احسن الالواح بالقول :ـ

(اذا كانت المدينة تقوم على تـل ....) .

ولعل احسن فكرة عن الدلالة التي ترتبط باللقاءات العرضية هي تلك التي نحصل عليها من عنوان مجموعة عن اصول معرفة الطالع وتعرف هذه المجموعة من كلماتها الاستهلالية مثل :ـ (عندما يكون المعِزّم في طريقه الى بيت احد المقعدين .....) وتكملة هذه الجملة هي :ـ

(ان كل شيء يقابله المعِزّم سوف يؤثر على حياة المريض .) قد يكون التكهن بهذه الطريقة وبهذا الاسلوب مدعاة لفرح المستفهم او نكبته . وهذا يتوقف على الحيوان الذي يحصل عليه ؛ ولكن المظهر المحزن يجب ان يكون

في خضوع الفرد الدائم لكل مظهر من مظاهر العالم المادي والذي يملي على هذا الفرد نمط سلوكه .

لقد كان الانسان البابلي ، كما رأينا سابقا ، هدفا لهجمات العفاريت . ونجده الان يجري التعديل على طريقة حياته اطاعة منه للطوالع الموجودة في كل مكان ، واذا ما اعتقد ان هذه الطاعة تكسبه وقتا يستطيع فيه الحصول على تأجيل احكام الطوالع ، واذا ما اعتقد ان الطوالع تفضل نوعا معينا من العمل ، فانه سيقع ضحية لاوهام ضالة تصور له ان الاخطار الشديدة تحيط به وان عليه ان يتذكر ان معرفة يوم الخير ويوم الشر قبل ان يقدم على اي عمل يمثل امراً هاما . فاذا ما كان هذا العمل غير صالح بحد ذاته ، فلربما ستتبدل صفة اليوم الذي يريد ان يعمل فيه ، طبيعة العمل من اساسها .

السحر :

ارتبطت ممارسات السحر في بابل بشعائر التعزيم المضاد للعفاريت، ولم يكن السحر معترفا به رسميا حسب بل كان اداة لمخاطبة الآلهة ، كما كان يمارس من قبل الكهان في المعبد بالاضافة الى كونه جزء مكمل في الديانة البابلية . وكانت دراسته تدخل ضمن دائرة الدراسات الاثارية الخاصة بالشرق الادنى ..

لدينا الكثير من تفاصيل الشعائر التي استخدمها الكهان البابليون في هذا المجال وعندما تقرؤها ندرك ان هدفها كان في جوهره خيريا ، وأنها كانت تهدف الى ضمان الخلاص من العفاريت . لقد كان السحرة غير الشرعيين ينتفعون بهذه الشعائر ، ويعتبرونها من وسائل الدفاع ضد العفاريت . ولما

كان هذا الصنف من السحرة خصما للكهنة فاننا لا نعرف بالتفصيل الوسائل التي كانوا يتبعونها لمهاجمة الضحية • ولكن الممارسات التي كانت تستعمل لرد هذا الهجوم ، تعطينا فكرة لطيفة جدا عن طبيعة هذا السحر غير الشرعي• وفي الحقيقة فان الممارسات التي كان يستخدمها الساحر غير الشرعي لتعبـأة قوى الشر ، هي نفس الممارسات التي استخدمها الكهنة للحصـول عـلى مساعدة القوة المتفوقة والتي لايمكن ان تخيب في تحقيق النصر •

الهة السحر ، الكهان واساليبهم الفنية ، الرقية

كان الآلهة ، وبخاصة (مردوخ وايا) يمثلون القوى المتفوقة بالاضافة الى خدمهم من الجن الصالحين . وفي زمن الاصلاحات المدنية التي جرت في عهد السلالة البابلية سلّم (ايا) كل صلاحياته الفعالة تقريبا الى ابنه (مردوخ) على الرغم من انه ظل المرجع الذي يلاذ به في وقت الشدة وغالبا ما كان ابنه يستغيث به طالبا العون منه ، ومعلوم ان (يا) كان اله كل المعرفة ، وصانع الخير للانسان .

اننا نعرف الآن ما يحصل عليه الانسان او الشيء من قوة ، بتأثير سلطان الاسم ، وذلك عن طريق معرفة هذا الاسم او النطق به بنغمة معينة ، او حتى عن طريق كتابته او تصويره تصويرا ماديا .

لقد اكتسب السحر طبيعته الجوهرية من تطبيق هذه المبادىء من قبل الكاهن المعزم والذي كان يطلق عليه اسم (ماسماشو Masmasnu او أشيبو Ashibu) ويعنى هذا الاسم (الكهان الذين يقرأون التعاويذ) ولم تكن للكاهن المعزم اية فضيلة موروثة بالفطرة . وهو يستمد سلطاته من تعبده ، ومن كونه ممثلا لآلهة السحر الذين يعتمد عليهم في ممارسته لعمله المقدس . كان الكاهن المعزم يصيح اثناء ممارسته لعمله قائلا :ـ (الأشيبو الذي خلق في أريدو ، مدينة ايا المقدسة ، انا هو .) . ثم ينطق بالكلمات الخاصة بالشعائر اللازمة لطرد العفاريت ويكون المعزم في هذه الحالة لابسا الرداء الاحمر لان اللون الاحمر هو اللون الواقي من الارواح الشريرة ، كما قد يلبس جلدا يشبه السمكة ليؤكد صلته بـ (ايا) اله المياه والهاوية . اما الكلمات التي ينطق بها فلا يقولها إرتجالاً بل انها وحي الآلهة وتبقى كذلك دون ان يصيبها اي تغيير . كان الكائن ينادي خصمه بالنيابة من آلهة السماء والارض وهذا النداء يجرده من قوته ، ثم

يناشد المعزم الخصم لكي يتوقف عن تعذيب المؤمن وان يرحل ، ثم يدعو المعزم كل الالهة لمساعدة المعذب ويقرأ بعد ذلك التعويذة الخاصة بطرد العفريت وتعزز هذه الشعائر بعدد من الاعمال الرمزية كحرق مواد يظن فيها انها تشبه الارواح الشريرة ، وحل العقد التي يعتقد فيها ان الساحر الشرير قد ربط بواسطتها ضحيته ، وأخيرا تلقى تعويذة تبطل تأثير تعويذة الساحر الشرير التي رمى بها ضحيته .

وكانت هذه التعويذة مشابهة في الاصل للتعاويذ التي كانت مستعمله في أوربا في العصور الوسطى ، وهي تتألف من صنع تماثيل تعرض للعذاب والتدمير ، وبكلمة اخرى فانها تعني ممارسة (سحر الاستعطاف) . ذكان (لأشيبو) يرسم ، اثناء هذه المراسيم ، دوائر حول نفسه بالعصا السحرية وكذلك يرسم هذه الدوائر حول من يريد ان يجيره ، ناطقا بالكلمات التالية :ـ

(بيدي احمل دائرة سحر ـ ايا ـ ، بيدي احمل عصا الصنوبر ، سلاح ايا المقدس ، بيدي احمل غصن شجرة الشعائر العظيمة) ولم تكن هذه هي حدوده صلاحيات الساحر انه هو الذي يحيط تماثيل الآلهه وادوات عبادتهم بهالة من التقديس ، وهكذا يعيدهم الى الحياة بغسل وفتح افواههم. وتتألف هذه العملية من لمسهم باداة مناسبة ، وكذلك من تلاوة بعض الصيغ. وبهذه الوسيلة تعود التماثيل الى الحياة ومعها تعود كذلك المواد التي تستعمل في الطقوس الدينية الخاصة بها كالادوات الموسيقية ومنها الطبلة المقدسة والتي تعرف باسم (ليلّسو L'lissu) والتي تستعمل في العزف الموسيقى.

كان (الأشيبو) يقدّم احيانا المساعدة الى الآلهه فعندما كانت العفاريت تهاجم اله القمر (سِن) وتضطهده ويؤدي ذلك الى الخسوف ، يشارك (الاشيبو) بقية الآلهة في انقاذ اله القمر ، وذلك بتعاويذه وصلاته .

تؤدى كل هذه المراسيم بمصاحبة الترانيم التي تتألف من كلمات تزداد

قوة بطريقة النطق بها ، كما ان لعدد المشاركين في هذه المراسيم اثره الفعال ، وبالاضافة الى هذه الترانيم هنالك عدد من الرقصات التي تحاكي في هيأتها الاعمال التي ينوي (الاشيبو) القيام بها لكي تشارك هي الاخرى في المراسيم المذكورة . وهذا هو التفسير لاناشيد الحرب والحب والرقصات الحربية، والتي يراد بها جعل الطريدة لا حول لها ولا قوة .

هناك سبب يدعو للظن بانه اذا ما ادى (الاشيبو) مجموعة الشعائر كاملة فانه سيجعل حتى الآلهه يتضجرون من الاحراج . ذلك لان عمليات سحر الاستعطاف لها رد فعل في السماء بسبب الصلات والروابط الموجودة بينهما ، ومن امثلة سحر الاستعطاف سقي النباتات لاستدرار المطر وتزويج الهين ممثلين بتمثالين او كاهن وكاهنة لتشجيع الخصوبة على وجه الارض . هناك مثال آخر نستطيع ان نجده في اللغة التي يمكن ان تتحقق اذا كانت كلماتها اكثر من مجرد نفخة فارغة وهناك حالة واحدة نجدها في (ملحمة كلكامش) وقد حقق فيها الاله اللعنة على الرغم منه . فعندما لعن (انكيدو) عاهرة المعبد تجلى الاله (شمش لأنكيدو وعتقه على موقفه من انسان أحسن اليه كثيرا ، ومع ذلك فأنه بالرغم من تعنيفه لانكيدو بسبب تلك اللعنة ، اضطر « شمس » الى ان يحول عاهرة المعبد الى كلبة .

الاحتمالات الكامنة في السحر البابلي

يظهر التفحص السريع للمارسات البابلية للسحر ، ان هذه الممارسات كانت عبادة في نواياها ، وان هدفها كان اخلاقيا خالصا وانها قد تماشى كل الغايات المادية التي ادعت الانظمة المتأخرة انها بلغتها •

لم يقدم السحر البابلي احسن السبل واقصرها للحصول على المال والشرف ، ولا الوعود بالشباب الدائم • وعلى الانسان البابلي الذي يريد هذه الاشياء ان يستعين بالساحر غير الشرعي ، لا بالاشيبو الذي لم يكن عنده شيء من هذا القبيل •

ان ما عندنا من تمائم يعزز هذا المفهوم وتمثل بعض هذه التمائم رموز الالهه التي اريد منها احلال الصلح والوفاق بين الانسان والاله ، وذلك لجعل الانسان تحت الحماية الألهية • كما تمثل بعض هذه التمائم ارواحا شريرة يمكن ان تكون عديمة الاذى اذا ما نظر اليها بوضوح ، او اذا ما ظهرت كما هي • ومرة ثانية نقول ان هناك نوع آخر من التمائم التي تحمل مشاهد صيد وبالاخص مشاهد قطعان من الحيوان (وهـذا منظر مـألوف في الاختـام الاسطوانية) ويبدو ان هذه المشاهد قد صممت لتضمن نجاح اعمال مالكي التمائم ومن الواضح ان السحر البابلي ، كالكهانة البابلية ، كان يتحدى قوانين التغيير فظل ثابتا لعدة قرون •

الطب البابلي • المرحلة الكهنوتية

يشبه الطب البابلي السحر من حيث اعتماده على الاضطراب لاكتشافه اسباب الشر • وقد اشتمل على اساليب السحر الفنية ممزوجة بالتكهن بالغيب • وكانت ممارسته في اطواره الاولى من ضمن اختصاص الكهنة • كان (المقعد) انسانا ممسوسا ، اي مصابا بروح شريرة ، او مبتلى بعفريت، واعتبر ذلك سببا لمرضه • ولما كان هناك تعريف يقول ان كل مقعد آثم ، ولما كانت هذه الحالة يستعصي تشخيصها وبالتالي يمتنع على المعالج التعرف على العفريت المسبب لها ، لذلك صار من الضروري اكتشاف الاثم • وما ان يتحقق هذا الاكتشاف حتى يكون معادلا لازاحة الستار عن العفريت المسبب• وبعد ان يتذكر (الاشيبو) هذا الامر يأخذ في قراءة جداول الآثام فلعل المريض قد اقترف بعضا منها ان عمدا وان سهوا • وما أن يشخص الذنب موضوع البحث حتى يتمكن (الاشيبو) من قهر العفريت الذي استغل الذنب لكي يحل في جسم المريض • اما اذا كانت اعراض الحالة معروفة جيدا من قبل، فان العفريت يعرف انه سيشخص بسرعة • وتستعمل مثل هذه الحالة طريقة علاج تلقى القبول بصورة تدريجية ، وتوازي هذه الطريقة التعويذات وباستطاعتها ضد هجمات العفاريت ، كما انها تكون مصممة لتجبرها على أن تترك المريض •

لقد ادت هذه الطريقة في الماضي الى استعمال الدواء الذي كان يركب من المخاط والمواد العفنة بل وحتى من البراز • وغالبا ما كان هناك تتبع لاتجاه المرض في المستقبل ويقع هذا التتبع على بعض الاعراض التي كانت تعتبر طوالع لتطورات متأخرة ؛ وعندما يتم فهم هذه الاعراض بصورة افضل فانها تصبح عناصر في تكوين معرفة سير المرض واتجاهاته •

يعني العلاج الذي يثبت فشله وفق هذه الاسس، وجوب التخفيف من حدة تهديدات المعزمين، وذلك من طريق اعطاء الوعود التي تغري العفاريت بالرحيل من

جسم المريض ومن بين الاساليب التي كانت متبعة بهذا الشأن ما يفعله الكاهن. اذ يأخذ خنزيرا رضيعا ، وبعد اجراء مقارنة بين رأس وجسم واطراف الخنزير وبين ما يقابلها من اعضاء المريض ، يستدرج العفريت ليتخذ مسكنا له في جسم الخنزير • ان هذه الطريقة تمثل بكل بساطة محاولة لاغراء العفريت لكي يقوم بعملية مبادلة •

هناك حالات اخرى تستعمل فيها قصبة حقيقية بدلا من الخنزير وهنا نستطيع ان نرى سعيا غير متطور وغير واع لمعرفة ما يسمى الان باسم (نقل قابلية الاحساس) • وهناك طريقة بديلة تتمثل في القراءة بصوت عال لقائمة هدايا سوف يتسلمها العفريت حال خروجه من جسم المريض ، وبالطبع فان الهدف هنا هو اعطاء هدايا غير مادية ، وهذا تطبيق لنفس مبدأ قوائم النذور الموجودة على الاضرحة المصرية القديمة والتي يلتمس من المارة قراءتها • وهكذا فاننا نجد ان العفريته (لاماشتو Lamachtu التي كانت تقتل النساء الحوامل والاطفال ، قد قبلت رشوة تضمنت تقديم ما يلزمها من مؤونة في رحلتها الى العالم السفلي واعطيت هذه العفريته حلي وحمارا تقطع به الصحراء وزورقا لعبور المياه الموجودة تحت الارض • [اللوح ٢٤] •

يظهر لوح برونزي من مجموعة الواح (المسيو د كليرك De Clerq منظرا تاما لعملية التعزيم • ويرى المريض ممددا على السرير يحيط به المعزمون ، وهم يرتدون ملابسهم الخاصة ، ومعهم الجن الصالحون ، وقد انهمكوا في ابطال مفعول هجمات الشياطين السبعة سيىء الصيت ، في حين تراجع العفريتة (لاماشتو) مثقلة بحمل الهدايا التي وعدت بها •

الظهور المفاجيء للروح الانتقادية

لقد بدأت سرعة التصديق تتراجع تدريجيا امام الروح الانتقادية وبدأ فن العلاج يستخدم مواد اثبتت قيمتها العلاجية ، او انها ارتبطت ، ان شكلا وان لونا ، بحالة المريض . لقد كان العصر عصر المرأة الحكيمة التي توحي بان يعالج اليرقان ، مثلا بجرعات من دواء اصفر تماما . كما كان النـــاس يفعلون ذلك في اوربا خلال القرون الوسطى عندما كانوا يؤمنون باستعمال قرون الايل الذكر ، او قشور الروبيان المسحونة لانها تحتوي على فوسفات الكالسيوم . انه الوقت الذي بدأت فيه وصفات السحرة تؤكد على اهمية جمع النباتات ذات القيمة الطبية في لحظات تعين تعيينا دقيقا . ولا يـــزال الممارسون العصريون للتداوي بالاعشاب يراعون هذه الشعائر ، ذلك لانهم يعلمون جيدا ان القوة النسبية لعناصر دوائهم المختلفة تتباين من شهر لشهر ومن ساعة لساعة .

الطب قبل ابقراط :

شهد الالف الاول من السنين قبل الميلاد تغيرا اساسيا ، وبدأ التعزيم يتضاءل حتى صار ذا اهمية ثانوية . وباستثناء بعض الاماكن البدائية جدا ، فان وسائل فنية مختلفة بدأت تطبق تبعا لكل شكوى ، في حين بدأ تشخيص المرض يدخل في حسابه مفهوم الايام الحرجة لمدرسة ابقراط .

لقد كان ممكنا في عهد السلالة السرجونية معالجة المريض بالطريقـــة الطبية التي كانت سائدة قبل (ابقراط) والتي كان الآسو يستعملها وهذه

الكلمة من الكلمة السومرية (آزو Azu) وهي تعني الشـــخص الذي يكتشف المعرفة من الماء . لقد كان (الآسو) او الاطباء يؤلفون طائفة، وكان اطباء الملك يؤخذون من بين اعضاء هذه الطائفة . وتظهر المراسلات التي جرت بين هؤلاء وعائلة الملك انهم ظلوا صابرين على ما يلاقونه من سوء معاملة من مرضى العائلة المالكة .

الموت · النبلاء · والعوام والجنائز · الاخرة

لم يكن قبر الانسان العادي في بابل وآشور محاطا بشيء يدعو للدهشه في حوالي منتصف الالف الاول ق.م · فبالاضافة الى القبر الحجري البسيط دخلت التوابيت الصخرية الرقيقة حيز الاستعمال · وكانت توجد على السطح الاعلى لهذه التوابيت فتحة بيضوية الشكل تدخل منها الجثة ثم يغلق الغطاء · وعلى ما يظهر فان التوابيت من هذا النوع قد تبناها الجميع وتوجد مقابر كاملة لها ، ويرجع تاريخها الى العهد الفرثي وكما كان الحال في عهد أسبق ، فلم يكن لاماكن دفن الفقراء مظاهر متميزة ·

كان موت الملك يمثل حادثا جللا يشمل بتأثيره كل انسان دون استثناء · ذلك لانه نذير شؤم في غاية الخطورة بالنسبة لمستقبل البلاد · فهو بوفاته يجتاز الثغرة بين الارض والسماء · ولذلك صار من الطبيعي أن تربك وفاته النظام المقرر للاشياء ، في حين نجد ان الطوالع السيئة تقرن وفاة الملك مع ذبول الخضراوات ، وهبوط مناسيب الانهار بالاضافة الى تأجيل عمل اي شيء يجعل الارض مثمرة وذات فائدة ·

وعلى النقيض من ذلك نجد ان التتويج يزيد من سرعة تفتح الحياة ، ومن زيادة المحاصيل زيادة شديدة ، وحلول طقس ملائم لنمو النباتات ·

لقد تكلم كل من حمورابي في مقدمة شريعته ، وآشور بانيبال في حولياته ، عن سنوات افتتاح عهديهما بقولهما ، ان هذين العهدين يمثلان عصرا ذهبيا ، وذلك بفضل الثقة التي أولاهما اياها الآلهة ، وتتيجة لذلك فانه عندما يموت الملك يعلن الحداد في جميع ارجاء البلاد ·

وتقول رسالة من آشور ما يلي :

(في اليوم الذي نسمع فيه بموت الملك ، يبكي شعب بلاد آشور) ·

لدينا نص عن آشوربانيبال وهو يظهر في هذا النص مودعا جنازة احد رجال بلاطه ، ويحاول ، بالطريقة التي كانت مألوفة في العالم القديم ، ان يحمي قبره عن طريق انزال اللعنات المألوفة على من ارادوا انتهاك حرمة قبر معين . يقول النص :ـ

(في اليوم الذي يشهد فيه قصري لقاء القائد (نابوشار أو شور) لمصيره وشرفه غير مثلوم ، فسيدفن في المكان الذي يرغب فيه لكي يرتاح في المكان المفضل عنده ، وانه لن ينقل منه . ليكف كل انسان عن مديده بسوء الى المكان . لقد كان انسانا صالحاً وشجاعا . واذا ما ازعجه اي انسان وهو في قبره ، فان الملك ، سيده سيستاء من ذلك ، ولن يرحم من يسبب هذا الازعاج) .

لم يكن هذا كله تعبيرا عفويا عن الحزن على فقد صديق عزيز ، بل انه يمثل بداية عصر الحداد الرسمي . ويشكل هذا تعبيرا عن الاسف الرسمي لحدوث مصيبة عامة .

نستطيع الان ان نقرر قيمة العلاقة المزعومة بين موت الملك وذبول الخضراوات . وذلك من الطريقة التي يساوى فيها الملك بـ (تموز الميت) . فالتعابير التي كانت تستعمل في اظهار الاسى على موته ، تشبه كثيرا ما كان يستعمل عند موت الآله ، ومن المحتمل ان تكون هذه الفكرة هي السبب في ظهور المراسيم الخاصة بالجنازة الملكية . لقد سجي جثمان تموز يومين او ثلاثة ايام لكي يراه من كان يعبده . ولدينا رسالة موجهة من (اسرحدون) الى الملك وهي تطمئنه على اطاعة اوامره كما تخبره بوجوب تسجية جثمان سلفه الملكي ثلاثة ايام ثم ليوم اخر زيادة ، وذلك في مدينة اربيل . ويجري عرض الجثمان اما داخل القصر او خارج احد ابواب المدينة الكبيرة مباشرة

ولدينا رسالة تبين ان باب المدينة الكبيرة قد فتح ، وسمح للناس بالمرور منه

ليظهروا حزنهم امام الملك الميت . وغالبا ما كانت فترة الحداد طويلة . فمثلا عندما تموت ام الملك يدخل الامير والجيش فترة ثلاثة ايام من الحداد وذلك في بداية شهر نيسان (وهو الشهر الاول من السنة) ويبتدأ الحداد الرسمي في الشهر الثالث من السنة اي (سيوان) ويبدأ الحداد بخروج الاشوريين من باب المدينة ، ويستعرض القائد ضباطه امام حاكم المدينـة الذي يرتدي الملابس الحمر والاسورة الذهبية . ويتقدم الباكي هؤلاء الناس(*) يرافقه ابناؤه (وهم جوقة من اتباعه) ويبكي هؤلاء في مقدمة المستعرضين وهـذا دليل على مشاركة الباكين الرسميين تحت قيادة قائد .

مراسيم الجنازة :

ننتقل الان الى الجنازة . فبعـد ان يضمخ الجثمـــان بانـواع الروائح العطرية الطيارة ، ويدهن بالزيت الخالص ، ويلبس الملابس الملكية يوضع في تابوته الصخري الذي يمثل خزانة صخرية مستطيلة الشكل لها غطاء وحلقات عظيمة تستعمل لتحريك التابوت وذلك بوضع الحبال والقضبان في هـــذه الحلقات . يعرض الجثمان لضوء الشمس لآخر مرة ثم يحكم تثبيت الغطاء في مكانه بانطقة برونزية ، ثم تثبت رقعة مكتوبة فوق التابوت تستنزل اللعنات على كل من يحاول فتحه ، ثم يجري الدفن بعد ذلك داخل القصر عادة وبعد ذلك تقدم النذور نيابة عن العاهل الميت .

ولقد كشفت التنقيبات التي أجريت في مدينة (آشـور) عن العـديد من ملوك الآشوريين الذين دفنوا في منطقة واحدة . وكان الكنز الذي دفـن مع الملك يمثل تهديدا دائما للضريح الملكي (بسبب من احتمال سرقته) . ولم يتم اكتشاف أي من هذه الاضرحة كاملا مع محتوياته . كـــان تابوت

(*) يطلق على الباكي في البابلية والاشورية كلمة كنسا Kinsa

(شمشي ادد) الموجود حاليا في متحف برلين ، يمثل خزانة مستطيلة واتساعها عند الرأس اكثر من اتساعها عند النهاية بقليل ، وهي ترتفع عن الارض بواسطة حافتين صخريتين وبالاضافة الى اللسان الذي يشبه الحلقة يحمل الغطاء في كل نهاية منه قبضة تشير الى عبارة تقول :ـ

(سأختم فتحة التابوت بالبرونز الصلب) .

ومما لا شك فيه ان الاختام كانت تثبت اصلا حول القبضات وحول التابوت كلـه .

البديل الملكي :

كنا نظرنا ، عند بحثنا موضوع الطب والتداوي ، في بعض اوجـه ـ البديل ـ . اننا نجد مثالا اخر في (البديلين الملكيين) الذين لم تكن وظائفهم مجرد اداء وظائف الملك ، بل كانت تشمل ايضا معاناتهم ، بالنيابة عنه ، المصائب التي تختزنها الآلهة للملك ، وابسط مثال على ذلك هو (العباءة الملكية) التي كانت تعتبر رمزاً لسلطة الملك ، وكانت قادرة على ان تحل محله في احتفالات معينة . ولم يجد المحتفلون فيها اكثر من كونها علامة للسلطة الملكيـة .

ومن جهة اخرى نميل الى النظر اليها على انها تجسيد غـير محسوس ولا يخطي للملك . فقد يحل احيانا احد التماثيل محل الملك ، وتخلع على هذا التمثال في مثل هذه الحالة الكسوة الملكية . وعندما تكون الطوالع غـير حسنة ، يجري انتخاب بديل انساني وهو اما من صغار موظفي الملك او من بين حاشية الملك وهذا هو اكثر شيوعا .

وعلى الرغم من ان البديل (بولو Pulu,) كان يعيش في القصر ، فان الملك يواصل الحكم من وراء الستار . اما لماذا ينتخب البديل فاننـا

تقول ان مثل هذا يحدث اذا كان هناك طالع ينبي بكارثة او اي شيء مما قد يحدث مستقبلا ، ويتخذ تأريخا(*) . فمثلا تقول احدى الرسائل :ـ

(اذا امكن رؤية المشتري اثناء الخسوف ، فان هذا يعني سلامة الملك. ولكنه يعني كذلك موت بديل عنه وقد يكون شريفا او نحيفا) .

ان سلامة الملك تتوقف شرطا على سلامة الجزء الثاني من الطالع . فاذا لم يتحقق فانه سيرتد اليه ، واذا لم تقع اية وفاة بين كبار رجال القصر او صغاره . فان البديل سيركب المخاطر بالنيابة عن الملك ويدحض بها . ولن يعود الى مكانته السابقة الا بعد حدوث الموت المتوقع اللائق .

واذا ما استمر الطالع في تهديد الملك ولم ترض الآلهه إلا بموته . فان الكهنه سيأمرون (البديل) بان يلقى مصيره ، اي ان يقتل . وقد حدث هذا بالفعل في حكم اسرحدون وكان (دامكي) بن وكيل الدولة في اكد هو (البديل) وقد قدم نفسه ليكون كذلك وقد اختارته احدى العرافات قائله له: (انك ستسترجع الملوكية) فما كان منه الا ان وهب نفسه مع الاسلحة الملكية في وسط حشد كبير من الناس . ومنذ تلك اللحظة صار (دامكي) الحاكم الظاهري لبلاد (آشور وبابل) ولكن الطوالع راحت تتردى وتتردى . وانقاذاً لحياة الملك (أميت دامكي ودفن) مع اوسمة الشرف الملكية وقد شيّد ضريح له ولوصيفته التي كانت من البلاط الملكي ايضا ، والتي تحتم عليها ان تموت مع زوجها ، وعرض جثمانهما امام الناس وبصورة لائقة ثم اعلن الحداد عليهما كما قدمت الذبيحة المحروقة لعائلتيهما لكي تكون بمثابة التعزيم اللائق بالطوالع الشريره . وبعد ان تقدم الرسالة وصفا تاما لما جرى تختتم بالكلمات التالية .

(لقد أكملت مراسيم تقديم الكفارة وسيرتاح فؤاد سيدي الملك) .

(*) هذه اشارة الى اتخاذ الحوادث الهامة اساسا للتاريخ وهو امر كان شائعا انذاك ولازال مألوفا في مجتمعاتنا كالقول (ولد يوم حدوث ..)

يدخل كل انسان ، ملكا كان او من عامة الشعب ، بعد الموت الى (لاَللّو Arallu.) او العالم السفلى • وبسبب من اسوار وابواب هذا العالم السبعة ، والتي تحيط به ، وتحرسه حراسة جيدة ، فانه استحق اسم (ارض اللاعودة) ولقد عرفنا الثمن الذى دفعته (عشتار) لدخول هذا العالم • يوجد الكثير من الروايات التي تتحدث عن حالة الموتى اثناء اقامتهم المؤقتة هناك ، وتنقسم هذه الروايات الى مجموعتين • فالمجموعة الاولى ، وهي الغالبة، تصور الموتى وكأنهم طيور مجنحة • وهذا ما يذكرنا بالنظرة المصرية الى الميت باعتباره يشبه الطير ذا الرأس الانساني • اما الرواية الثانية فانها مأخوذه من حلم (انكيدو) الوارد في (ملحمة كلكامش) فعندما نزل الى العالم السفلى سهل عليه التعرف على الملوك وكبار الكهان واولئك الذين شغلوا مناصب كبيرة • وقد سجل احد النصوص زيارة احد ملوك (آشور) للعالم السفلى في الحلم • وتعتبر هذه الزيارة مساوية من وجهة النظر الاشورية للزيارة الحقيقية • وقد رأى هذا الملك هناك كل سكنة العالم السفلى ، وقد أضيفت عليهم الصفات التي كانت منسوبة اليهم على الارض • وهناك رواية ثالثة لعلها تستحق الذكر ، وهي تقول انه بعد موت (انكيدو) استطاع الحصول من (نيرگال) على إذن بالصعود ثانية الى الارض ، وهناك تحدث مع صديقه (كلكامش) • تقول الرواية :

(لقد فتح الاله الارض كما يفتح الباب المسحور ، ومر من خلاله روح (انكيدو) ذاهبا الى صديقه كما يمر السحاب او البخار) • وفي هذا العالم الذي لا ينيره اي شعاع من نور ، والذي يلفه الغبار لفاً تاما ، والذي ينعدم فيه الهواء وينقصه الطعام والشراب ، لا تجد ارواح الموتى ما تعيش عليه الا ما يقدم للموتى من نذور وقرابين • فاذا لم يتذكرهم احد فانهم سوف يردون الى الارض ليملأوها اوبئة ، وآنذاك سيعيشون على ما يجدون من

فضلات في المجاري • اما ارواح الموتى الذين حققوا مجسدا في الحرب فلهـا امتياز خاص بها . ويتمثل في ان تصبح عوائلهم قريبة منهم كما انهم يعيشون في رغد ويشربون الماء العذب •

لقد كانت هذه الفكرة قديمة جدا ونجدها في اقدم نصوص ملحمـــة كلكامش في (قلق البطل من اجل الحصول على شهرة له) •

ليس هناك اية اشارة واضحة الى فكرة الحساب بعد الموت على الرغم من ان بعض النصوص توحي بوجود واحدة من هذه الاشارات ، ومع ذلك يبدو انه على الرغم من قدرة آلهة العالم السفلي عـلى الحسـاب الا ان هذا لا يشمل الا الاحياء ، اي انه كان بامكان الآلهه ان يجعلوا ايام الاحياء على الارض قصيرة ، وان يصيبوهم بالمرض ، وكون هذا المبدأ غير مؤكد ناتج من تقاليد آنية وكانت سائدة في الاوساط الدينية في بلاد ما بين النهرين •

لقد اكملنا الان تتبع الخاتمة النهائية لحياة سـاكن ذلـك البلـــد في حوالي عام (٦٠٠ ق•م) •

الخاتمة :

قد يكون الانطباع الذي نستلخصه من هذا المسح الطويل ، وعلى الاقل بالنسبة الى المستوى المادي ، هو ان حياة سكان بلاد بابل في حدود سنة ٦٠٠ قبل الميلاد ، لابد وان كانت تشبه بصفة وثيقة حياة اي من سكان الشرق حتى الى ما قبل زهاء خمسين سنة خلت ، قبل ان ادى ظهور الماكنة ذات الاحتراق الداخلي الى تمزيق المجرى اليسير والمطرد لوجوده .

ففى الاحياء المأهولة بشكل كثيف من بغداد نستطيع ان نرى ، دون شك ، المظهر المجسد لشوارع بغداد ، باسواقها المكشوفة في الهواء الطلق ، وهي تعرض ذات السلع ، والادوات الصغيرة للحرفيين ، وطراز بناء بيوتها حسب ذات المخطط الذي كشفت عنه التنقيبات في اور ، والتي يعود تأريخها الى حوالى سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد في زمن ابراهيم(*) .

ولابد ان شهد حكم نبوخذنصر ذات النوعية من الشواهد التي يمكن رؤيتها اليوم ، وذات الرقصات التي تتألف من صفين من الراقصين الذين يتقدمون ويتراجعون لمصاحبة النسوة اللواتى كن يولولن ويصفقن بايديهن طبقا لرتابة الرقص ، واللواتي لابد وان كن يسمعن نغمات ذات الادوات الموسيقية .

لابد وان تهدمت المعابد، ولكن وجود جامع ايا صوفيا فياسطنبول(**) يشير الى شدة صرامة مظاهره الخارجية التي غطتها الزخرفة السطحية .

وكذلك مضت الزقورات ايضا ونستطيع ان نشاهد اليوم صنوها في البرج المدور في سامراء(***) ومظهر سلمه الحلزوني .

(*) يقصد بذلك النبي ابراهيم الخليل عليه السلام الذي ولد في اور ونشأ فيها ودعا القوم الى نبذ عبادة الاصنام ثم غادرها بعد ان انجاه الله من عملية الحرق المبسوطة في القرآن الكريم .

(**) اقيم جامع ايا صوفيا في اسطنبول على انقاض كنيسة ذكرها المؤلف باسم القديسة صوفيا .

(***) يقصد بذلك مأذنة الجامع العباسي الكبير المعروفة باسم الملوية .

واذا ما راقبنا تصرف الحشود أثناء التمثيليات الدرامية التي يحتفل فيها الشيعة بالمنحدرين من نسل « علي » (رض) نستطيع ان نتصور مهرجان الآله مردوخ في مدينة بابل ، وان ارتفاع اصوات النائحين وهبوطها في هذه الايام ، لابد وان يردد صدى المناحات التي كانت نسمع اثناء دفن الجنائز في العصر الاشورى الحديث •

غير ان في الحياة الروحية فجوة عميقة لايمكن سدها هي ان تلك الحياة، وان كانت تحيا تحت سماء مشعة لابد وان يظن المرء بانها قد ادت الى وجود متعة ، والتي استطاعت بالحفاظ على الدين الطبيعي ان تضفى روحا ومجدا جديدين للقوى الحيوية ، كانت مع ذلك ورغم كل هذا ، تعاني الضغط من جراء عقيدة كانت بحق من اشد الاديان صرامة التي مارسها الانسان •

لقد كان الالهة العنيفون المسارعون الى الغضب لا يكفون عن المطالب التي يبتزونها من البشرية ، والتي كانت تلف كل عمل من اعمال الحياة الدينية في شبكة من التزامات خالية من الرحمة ، من امثال تصور العالم وهو مأهول بالعفاريت والاتنة التي تطارد فرائسها ، والطبيعة المعادية وكل نقطة فيها ملىء بالعفاريت والاتنة التي تطارد فرائسها ، والطبيعة المعادية وكل نقطة فيها مليئة الاهمال او الالتزام وحياة في الآخرة اكثر شقاء من الحياة الارضية حيث ينبغي ان ينفصل كل ناتج عن ضوء الارض ، وان يدفن في غبار الشرق، ذلك الفزع الذى لابد من تجربته قبل ان يتم الايمان به ، وهذا هو الانطباع عن الشقاء المستور الذي كان يخلفه الدين الذي لايرحم والذى كان سكان بابل من أسراره •

لقد كانوا اسرى حقا لان الملك لم يكن اقل من فلاح • وبغض النظر عن الكيفية التي كان فيها عامة الشعب يحسدون ملكهم ، فانه لم يكن اقل

مما كانوا هم انفسهم ضحية تحت رحمة كهنته ، وعبدا لتعقيدات شعائر مدمرة .

واذ كانت حياة البابلي شاقة مثل حياة المصري فانها لم تستطع ان تحطم بشاشته الطبيعية الصالحة وبهجته ومرحه اثناء عمله اليومي .
غير ان انسان بلاد الرافدين كان غريبا عن الضحك ويبدو بانه لم يكن قد تعلم كيف يلهو .

لقد خلقت جهوده مدنية مشرقة ليست اقل قوة من مدنية مصر ومن المدنية الكبرى التي ولدت مجددا في اوربا الغربية ، والتي كانت تكمن عميقا في استداداتها بصفة اكثر ، من الحضارة التي ازدهرت على ضفاف نهر النيل . غير ان المدينتين كانتا من الناحية الروحية قطبين كل على حدة . ذلك ان الشهرة العالمية لمدينة بابل كانت تتوج العالم القديم وهي تستحق ذلك تماما . ولكن كيف تستطيع اقلية من بيننا ان تختارها كموطن لنا .

الملحق (١)

تفسير القضية الحسابية رقم (٣)

هذا عرض اورده توريو دانجان في كتابه « نصوص رياضية بابلية » .
[ملاحظة استعملت الاشارات عن الدقيقة والثانية هنا لكي تشير الى اجزاء القوى المتعاقبة للعدد] وعلى هذا الاساس تكون دقيقة واحدة وثلاثون.
وعلى هذا الاساس تكون دقيقة واحدة وثلاثون ثانية تساوي

$$\frac{١}{٦٠} \times \frac{٣٠}{٦٠\times٦٠}$$

$$\frac{\text{س}}{٧} \times {}^{\circ}٢٥ = \frac{١}{١١}\left(\frac{\text{س}}{٧} \times {}^{\circ}٢٥\right) + {}^{\circ}٥٠$$

او $$\frac{\text{س}}{٧} - \frac{\text{س}}{٧\times١١} = \frac{{}^{\circ}٢٥}{١١} \times {}^{\circ}٥٠ - {}^{\circ}٢٥$$

او $$(١١ - ١)\ \text{س} = (١١\times١) \times {}^{\circ}٢٥$$

أو $$\frac{١٠\ \text{س}}{٧} + {}^{\circ}٥$$

$$\text{س} = \frac{٧\times{}^{\circ}٥}{١٠} = \text{٣د ، ٣٠ث من المينا}$$

$$= ٣\,\frac{١}{١٠}\ \text{شاكل}$$

ان هذا المثال العملي هو الحالة التي تكون فيها العملية ذاتها غير صحيحة . فالنتيجة تكون صحيحة لكن الجواب كان على اكثر احتمال معروفا قبل الخطوات التي اتخذت لتركيبه .

الملحق ب

طرق احتساب ابعاد النجوم

من مقالة لشوريو دايخان في مجلة « الاشوريات والاثار الشرقية المجلد ٢٧ (سنة ١٩٣٠) العدد ٢

يعبر عن المسافة بين النجوم التي تكون مواقعها [بالنظر للنص موضوع البحث] في ذات التوازن [برج السرطان] ، بثلاثة انظمة للقياسات حسب النسبة التالية :

١ ـ الطالين او ٦٠ مينا = ١٢ دانا Dana [اي بيرو اكدي] ، او ٣٦٠ كش Ges على الارض (اينا ككوري) = ٦٤٨٠٠٠ دانو في السماء [اينا شامي] .

ففي النظام الاول تكون المقاسات بمقدار الوقت : ذلك ان وزن الماء الذي يسقط من ساعة مائية يقيس الوقت بين مرور نجمين عند الاوج (طالين واحد من الماء = يوما نجميا واحدا) .

اما في النظام الثاني فتكون المقاسات بمقدار حجم القوس .

وفي النظام الثالث تكون المقاسات بمقدار الطول . ذلك ان « الدانا » والكش ايناككوري تعادل على التوالي $\frac{1}{12}$ و $\frac{1}{360}$ من دائرة تخيلية يفترض فيها انها تقع على الارض فالدانا والكش شامي مقاسات للمسافة التي يقصد التعبير بها عند مسافات حقيقية في السماء .

فبرج السرطان يمكن ان يقيس ٤٨٠٠٠ دانا أو ٦/٩٢٨/٤١٦/٠٠٠ مترا (حوالي اربعة ملايين وثلثمائة الف ميل) .

واذا ما افترضنا ان طول خط الاستواء يكون بنسبة ١٠ : ٩ بالنسبة الى خط استواء برج السرطان فان قياسه سيكون في حدود

$$\frac{10 \times 648000}{9}$$ دانا ؛ او حوالي ٧٢٠٠٠٠ دانا

في النظام الثاني تستخلص قياسات القوس اصلا من قياسات الوقت ، فالمسافة بين نجمين يقعان على ذات المستوى ، يمكن ان يعبر عنها قطعا بالاجزاء الثلثما والستين من اليوم النجمي او الاجزاء الثلثمائة والسنين من الدائرة .

ويبدو ان البابليين لم يكونوا يميزون الكش لوقت طويل ، .

كقياس للقوس ($\frac{1}{360}$ من الدائرة) ، والكش

كمقياس للوقت ($\frac{1}{360}$ من اليوم)

ويمكن رؤية الدليل على هذا الامر في حقيقة ان البابليين كانوا ، كما يظهر ، يقسمون سمت الشمس مثل المتوازيات الى ٣٦٠ ثانية في تأريخ متأخر ليس الا .

المحتـــويات

الصفحة

الفصل الثاني

الملك والدولة

الفصل الثالث

الفكر في بلاد ما بين النهرين

الصفحة

الصفحة

الصفحة

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

هذا الكتاب

جورج كونتينو - مؤلف هذا الكتاب من مشاهير الاثاريين الفرنسيين والباحثين في تأريخ الشرق القديم والعراق بصفة خاصة ولاسيما النواحي النفسية منها.. وكتابه هذا يتميز بالشمولية، ويصف الحياة اليومية التي كانت سائدة في بلاد الرافدين وصفاً دقيقاً ويعطي صورة واضحة المعالم لكل ماكان سكان الرافدين يمارسونه من اعمال ويبتدعونه من افكار.

دار الشؤون الثقافية العامة
وزارة الثقافة والإعلام

السعر ثلاثة دنانير ونصف